



خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ

بقلم
صَادِقِ اِبْرَاهِيمِ عَرْجُون

هل قامت النساء عن مثل خالد
[عمر بن الخطاب]

عجزت النساء أن يلبثن مثل خالد
[أبو بكر الصديق]

الطبعة الثانية

[١٣٧٨ هـ — ١٩٦٧]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

التأشير
مكتبة الكليات الأزهرية
للساحبة
حنين محمد أمينة المنياوي
٩ شارع الصحافة ميدان الزعفر

مقدمة

اللهم إني أستهلمك محامد تبلغ من شكرك ذرى نعمتك ، وأستمنحك توفيقاً مستظلل به في ذرى رحمتك ، وأستهديك بلج الحق ، وأستعينك على السداد ، وأعوذ بكنفك من مساقط الهوى ، وميل اليراعة عن جواد الرشاد .

وأسألك أن تصلى على محمد عبدك ورسولك وخاصتك من خلقك ، صلاة ترضيك ، وترضيه ، وتبلغ بها من رضوانك ما أنت أهله من الطول والإحسان .

أما بعد . فهذا كتاب « خالد بن الوليد » أرفعه إلى قراء العربية طرزاً في دراسة « الشخصيات » ذات النواحي المتعددة في مياسم العظمة ، ومعالم العبقرية ، قائماً على تصوير بعض تلك المياسم وتوضيح هاتيك المعالم .

لا أزعم له كمالاً في التصوير ، ولا أدعى له فسوقاً في التعبير ، ولكنه لون من البحث يبرز مآثر التربية الإسلامية في سيرة رجالات الإسلام ، وهو فن لا تستغنى عنه حياة المسلمين في هذا العصر ، بل ربما كانت أشد تطلباً له الآن ، لحاجتها إلى الحوافز الدافعة بها إلى طريق التبصرة والإدكار .

والأمة إذا بصرت اعتبرت ، وإذا اعتبرت تطلعت إلى منافذ الهداية في حاضرها ، إن كان لها من وسائل النهوض رصيد ، وإلا اشترأبت إلى الماضي تستوحيه إن كان لها في سجل الحياة تاريخ .

وهن عجائب التوفيق أن رصيد الأمة الإسلامية من وسائل نهوضها في حاضرها مستمد من منابع ماضيها في التاريخ . وكل مافي يدها اليوم من هذا الرصيد يقظة مبصرة ، ولكنها مبددة الأهداف ، حائرة التفكير ، يخذعها سراب الحياة الصاخبة من أفق الغرب « المتحلل » واشرق « الملحد » في آيات الله الكونية ، فعمشى إليهما بمجدة معظمة مشاكهة حتى إذا أدركها ظلامهما المادى الكشيف بأشباحه البشعة الخفية ، وأفكاره السوداء المدمرة ، ارتدت إلى أفقها الشرق متطلعة إلى شمس الهداية في ماضيها المشرق الزخار بآيات المجد والسؤدد ، الغنى بمثل الإصلاح ونماذج العبقرية .

فإذا أبصرت ظلال ذلك الماضي وقفت حيرى بين كابوس الغرب الماجر المغرور ،
والشرق الجاحد الكفور ، وبين مجد ماضيها المسطور في صحائف التاريخ .

وما غناء الماضي في بعث أمة طال عليها الأمد في مراقد الزمن مسلوقة الإرادة
والثقبير إلا من طريق الإيحاء والتلقين ، لو لم يسور لها هذا الماضي في نماذج حية
تعيش معها في سيرتها ؟

وما غناء الفكرة لو لم تبرز إلى واقع الوجود في نموذج حي يتألمها أصدق التلميل ؟
وما قيمة الشرائع في حياة الناس إن لم يكونوا بأعمالهم في هذه الحياة معنى
لألفاظها ، وقالبا لحقيقتها ، ومثلاً « مكنية » في تطبيق نصوصها ؟

والنماذج الحية في تاريخ الأمة الإسلامية هي المنبع الفياض بعظمة الإسلام ، وهي
الآية الكبرى على أن الإسلام في حقيقته العليا عمل مؤتلف من عمل الضمير ،
والفكر ، والجوارح ، وهي شواهد ناطقة على عمل التربية الإسلامية في الأفراد والجماعات .
وعلى أثرها في تكوين الأمة عندما تتخذها تلك الأمة مصدر الإصلاح في نهجها .
ومن ثم كان عرض هذه النماذج بتسوير حياتها الواقعية ساجبة من ساجبات العالم
الإسلامي في حاضره ليجد الأسوة في ماضيه الواقعي مثلاً من مشاهد الحياة .

وبطل الإسلام « خالد بن الوليد » نموذج من أخصب النماذج الحية في الإسلام ،
الملئ بالخصائص الإنسانية النفوية ، وشخصيته تمثل جانباً من جوانب الحياة الإسلامية
في صدرها الأول ، نجلت فيه آثار التربية الإسلامية ، فسكان في سيرته عنواناً على
واقعيتها كاملة كما نزلت من السماء .

وهذا النوع من النماذج في تاريخ الإسلام حجة دامغة على من زعم أن الإسلام
دين مثالي الأهداف والمقاصد ، بعيد عن الواقعية . وهؤلاء يقيسون الإسلام بمعايير
المسلمين ، ويحاكمونه إلى أحوالهم ومظاهرهم ، ويقدرونه بأقدارهم ، ويزنونه بأوزانهم ،
وهذا غلط أو مغالطة ، وإلا فأين شهادة التاريخ الواقعي في حساب الفياض والتقدير ،
يوم أن كان الإسلام كله مدرسة لتخريج العبقريات الإنسانية ؟ ويوم أن كانت تعالجه
مثلة في أشخاص حاملي ألوته ورافعي راياته الخفاقة في العالمين ؟

كان خالد بن الوليد نموذجاً فريداً في العبقرية العسكرية والبطولة الحربية ، فسكانت

-خصيصة « الجندي » أظهر خصائصه حتى لا يستطيع من يردد النظر في سيرته باحثاً عن ' مجال العظمة ، إلا أن يرى تلك الخصيصة عنواناً لكل فصل من فصول حياته .
ولسنا في هذا البحث نقصد إلى الحديث عن هاته الخصيصة في خالد من وجهها الفني ، فذلك حديث له أفلامه الفنية ورجاله من فني الحرب ، والأبطال العسكريين ، وإنما نقصد إلى تصوير الإسلام في توجيه النبوغ وإعطائه مجاله في الحياة بأوسع ما تتسع له حياة الأفراد ، وإلى تصوير أثر التربية الإسلامية في إبراز كوامن العبقريات في حياة الأمم والجماعات .

فصورة التي يراها القارئ في هذا البحث لبطل الاسلام « خالد بن الوليد » هي صورة من صنع الإسلام للنماذج الإنسانية في ميادين الجهاد والتفكير الحازم في الخروج من مأزق الحياة .

وقد سلكنا في عرض الملامح المقومة لشخصية خالد الإسلامية طريقنا في تتبع الروايات التاريخية ونقدناها على ضوء الخطوط الأولى للشخصية المصورة ، وناقشنا حوادث وأحداثاً اضطربت فيها الروايات ، وانحرف بها التاريخ أو حملت عليه حملاً ، فكانت مزلفة لبعض كبار الباحثين من جانبهم التوفيق في دراستها ، واتهمنا بها إلى مكانها من الحق في سجل التاريخ على قدر ما وسعته الطاقة ، واتسع له مدى البحث .

والناظر في هذا البحث لا يجد فيه شيئاً غريباً على معارفه التاريخية إذا كان ممن أجال النظر في معارج التاريخ الإسلامي بشيء من التأمل الناقد ، والفكر المخلص . ومن هنا لم تسكن بنا حاجة إلى إثبات من المراجع والمصادر نكث به على القارئ ، فهي ماثلة في غصونه وثناياه ، أو معروفة مشهورة لا تحتاج من أولى العلم إلى كبير معاناة .

وحسب الذين لم يعنوا بدراسة التاريخ الإسلامي أن يشعروا عند قراءة هذا البحث بدفع الصدق وبرد اليقين ، وأن تنبعث فيهم رغبة الدراسة والتفقه في حوادث وأحداث ذلك التاريخ ، وفهم سير رجالاته ، وتعرف العوامل الأصيلة في تربيته جعلت منهم نماذج لروح الإسلام ، وحيويته على مدى الأزمان ، وما بقليل في باب الجزء أن نظفر بهذا الثواب م

المؤلف

صادق إبراهيم عرمون

«خصيصة» الجنديّة» أظهر خصائصه حتى لا يستطيع من يردد النظر في سيرته باحثاً عن مجالى العظمة ، إلا أن يرى تلك الخصيصة عنوانا لكل فصل من فصول حياته .
واسنا في هذا البحث نقصد إلى الحديث عن هاته الخصيصة في خالد من وجهها
اللقى ، فذلك حديث له أقلامه الفنية ورجاله من فني الحرب ، والأبطال العسكريين ،
وإنما نقصد إلى تصوير الإسلام في توجيه النبوغ وإعطائه مجاله في الحياة بأوسع ما
تتسع له حياة الأفراد ، وإلى تصوير أثر التربية الإسلامية في إبراز كوامن العبقريات
في حياة الأمم والجماعات .

فصورة التي يراها الفارسي في هذا البحث لبطل الاسلام « خالد بن الوليد »
هي صورة من صنع الإسلام للنماذج الإنسانية في ميادين الجهاد والتفكير الحازم
في الخروج من مأزق الحياة .

و قد سألنا في عرض الملامح المقومة لشخصية خالد الإسلامية طريقنا في تتبع
الروايات التاريخية ونقدها على ضوء الخطوط الأولى للشخصية المصورة ، وناقشنا
حوادث وأحداثاً اضطربت فيها الروايات ، وانحرف بها التاريخ أو حملت عليه حملا ،
فكانت مزلة لبعض كبار الباحثين من جانبهم التوفيق في دراستها ، وانتهينا بها إلى مكانها
من الحق في سجل التاريخ على قدر ما وسعته الطاقة ، واتسع له مدى البحث .

والناظر في هذا البحث لا يجد فيه شيئا غريباً على معارفه التاريخية إذا كان ممن
أجال النظر في معارج التاريخ الإسلامي بشيء من التأمل الناقد ، والفكر الممحص .
ومن هنا لم تكن بنا حاجة إلى ثبت من المراجع والمصادر نكث به على الفارسي ،
فهو مـؤثـة في غـضـونه وثـنايـاه ، أو معروفة مشهورة لا تحتاج من أولى العلم إلى كبير
معاينة .

وحسب الذين لم يعنوا بدراسة التاريخ الإسلامي أن يشعروا عند قراءة هذا
البحث بدفع الصدق وبرد اليقين ، وأن تنبعث فيهم رغبة الدراسة والتفقه في حوادث
وأحداث ذلك التاريخ ، وفهم سير رجالاته ، وتعرف العوامل الأصيلة في تربيتهم تربية
جاءت منهم نماذج لروح الإسلام ، وحيويته على مدى الأزمان ، وما بقليل في باب
الجزاء أن نطهر بهذا الثواب مـ

المؤلف

صادق إبراهيم عرمونه

تمهيد

من بحوث التاريخ ما يكتب لتسجيل الماضي ، يصوره حسبها انتفت ألوانه ورسومه في إطار الزمن ، وهذا الطرز من البحث لا يقصد به إلى الحقائق التاريخية التي شهدت حتما وجه الحياة ، وإنما يقصد به في الأعم الأغلب تصوير الحياة السالفة لأمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد الذين كان لهم بروز على أقرانهم في اتجاه من أنحاء الحياة ، أو عمل من أعمالها ، وخاصة هذا المسلك من البحث الاستقصاء في التدوين ، وتتبع الروايات المتلقاة من أفواه المتحدثين ، دون تحقيق لصحة الوقائع والأحداث والأشخاص .

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للحاضر ، شحذاً لهمة راكدة أو طبيعة فائرة ، أو تنبيها لجماعة غافلة . وهذا اللون من البحث لا يقصد فيه إلى الاستقصاء في الرواية ، ولا يلزم الباحث فيه نفسه بتحقيق الحوادث التاريخية ، وإنما تلتقط صوره من الألوان البراقة التي تكون أقرب إلى تحقيق المقصود منه ، ومن ثم كان هذا اللون مصدراً خصيباً لنوع من الأدب الخيالي تصور فيه البطولات في صورة قصص تجسم فيها الحوادث لتكون أعون على التأثير ، وأبلغ في تأدية المطلوب .

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للمستقبل كوسيلة من وسائل التربية والتوجيه للجماعات والأفراد ، وهذا النوع من البحث يعتمد :

أولاً : على تحقيق صحة الحوادث بالقدر الذي تسمح به الشئون التي احتفت بتلك الحوادث حين وقوعها ، أو الشئون التي تحيط بالكاتب حين يكتب ما يريد . ويعتمد :
ثانياً : على استقصاء الوقائع لربط بعضها ببعض ، وموازنة المتشابهات منها ، وقرن المتصلات ، ووصلها بطبيعة الحوادث والأحوال التي وقعت فيها ، فالاستقصاء في هذا النوع استقصاء نظر وإطلاع ، وليس استقصاء تدوين وتسجيل . ويعتمد :

ثالثاً : على الاستنباط ، وإظهار العبرة الخافزة في صورة مشعة وضاءة ، وألوان مشرقة براقة ، لتكون أدفع على العمل وأدعى إلى التأسي ، وهو جماع ما يبغيه الباحث من نقل صور الحوادث والأشخاص من الماضي إلى المستقبل .

وبهذا التمايز بين فنون البحث يتميز الباحثون في التاريخ ، فصاحب الرواية المتكثر من القصص والأحداث ، الحاكي لكل ما يبلغه ، الناقل لكل ما يسمعه ، يجد سبيله معبدة في منابع التاريخ ومصادره ، الناقلة لأحداثه ، المبتدعة لأفانيته ، المصورة لأشخاصه .

وصاحب الفن يجد في أخيلة الماضين ، وأسلوب القصصيين مرتعا لفنه ، ومعرضاً لخياله ، ومعرضاً حافلاً لما يشاء من الصور والألوان . .

وصاحب التحقيق بين العلماء - الذين لا يطمئنون إلا إذا آمنوا ، ولا يؤمنون إلا إذا تيقنوا - يجد لعقله المحقق مجالا وسيعاً لموازنة بين الأحداث والروايات ، وتطبيقها على سنن الوجود ، لاستنباط العبرة من أطوائها ، حتى يالحق الآخر بالأول ، ويربط الحادث بالقديم ، والحاضر بالماضي ، ليكون جديد الحياة من التفكير والأعمال قائماً على أساس من قديم الوقائع والأحداث ، والماضي أبداً مصدر إلهام صادق لتفسير العلماء وأعمال النابهين .

والتاريخ الإسلامي : مثل غيره من تواريخ الأمم والجماعات ، والملل ، والمذاهب ، والأفكار ، والأشخاص ، ملء بما يرضى رغبات الباحثين في شق مناحيهم ، ففيه الحقائق الواقعة حافلة بالعبر والآسي ، وفيه القصص البارة التي تدخل الخيال في نسج خيوطها ، دائرة حول الأشخاص والأحداث .

بيد أن هذا التاريخ انصب في مدوناته ومصادره الأولى خليطاً من هذا وذاك ، فلم تتميز فيه واقعة صادقة من حادثة مصنوعة ، ولم تتبين فيه معالم الشخصيات وألوانها خالصة من شوائب الإغراق في طرفي الاستزادة والتنقيص ، اتقياداً لعوامل موضوعية يتأثر بها التاريخ .

فالذي يقصد إلى هذا التاريخ باحثاً في أحداثه وشخصياته قد يجد عنتاً فادحاً إذا أراد تحقيقاً علمياً يصفى الحقائق ويصور الشخصيات الفارعة بألوانها الأصلية ، ولكنه يجد عنتاً ثائرة إذا أراد مادة لعمل أدبي يقصد إلى الفن الذي لا يرى الصدق لازماً في تدوين وسائله ومراميه .

قد يكون جانب دراسة الشخصيات وبحوث التراجم أقل جوانب التاريخ الإسلامي حظاً من العناية في التدوين ، ولا سيما الدراسات التحليلية التي تعنى برد الحوادث إلى

مناشئها النفسية من الشخصيات ، أو إلى بواعثها المستسرة من البيئات التي لها أثر في تكوين تلك الشخصيات .

ومن هنا كانت بحوث التراجم ودراسة الشخصيات الإسلامية دراسة لا تقف عند حد الرواية من أشق البحوث ، وأحوجها إلى الأناة والرفق . وهذه البحوث أحفل ضرعاً بالعوامل التربوية التي يريد إليها الباحث لتسكون طريقاً من طرائق تبصير الناشئة في مستقبل الأمة ، لأن موضوعاتها مثل حية من النماذج الإنسانية التي أفرغت فيها الحياة أفضل ما تملك من قوى حسية ومعنوية ؛ ولكل نموذج منها خصيصة في منحى من مناحي الوجود ، تملأ أرفع مباحي الحياة في منزعتها من العصر الذي كان مجالاً لتلك الشخصية تغدو في جوانبه وتروح .

فإذا اتفق لعصر من الأعصر أن يضم بين جنباته مجموعة من تلك النماذج العالية ، وتربطها وشائج جنسية ، أو فكرية ، أو عقيدية ، أو لغوية ، كان ذلك العصر من التاريخ في مكان البؤرة المشعة من جرم الشمس ، وعلى قدر ما في تلك النماذج من خصائص موزعة على مناحي الحياة يكون التفاوت في مقومات الأمم ؛ والجماعات والأفراد .

وتاريخ الإسلام من أوفر التواريخ حظاً في هذه النماذج الإنسانية ، ونماذجه من أوفر النماذج السامية حظاً في خصائص المثل العليا ، التي تتمثل فيها مجموعات من الفضائل المخصصة .

وقد ضمت أوائل صحائفه سجلاً حافلاً للشخصيات اللامعة ، والحوادث الوافعة ، التي وثقت عرونها وحدة الزمن ، والجنس ، والبواعث ؛ فلما اختلفت الوشائج بين المسلمين في ظل وحدة العنوان ، وصار الزمن أزمنة ، والجنس أجناساً ، والباعث بواعث ، تتابعت النماذج حاملة خصائص جديدة تختلف قليلاً أو كثيراً مع خصائص النماذج الأولى ؛ ولكنها على كل حال ظلت حيناً من الدهر عنواناً على سلامته التكويني في هذا العالم الإسلامي الذي نشر أحد جناحيه على السور الأعظم في بلاد الصين ، ومد جناحه الآخر على قمة البرنات من رأس أوربة الأشمط .

غير أن كثرة العناصر والأجناس التي انضوت تحت لواء الإسلام في هذا المنع من الكرة الأرضية ، والتي أصبحت تاريخها جزءاً من التاريخ الإسلامي ، ولم تكن كلها بمن يحمل لقاح الإخصاب في صنع النماذج الإنسانية الماضلة ؛ وليتها كانت عقبا ؛ إذن لكان أمرها أهون ، وشأنها أضعف ؛ ولكنها كانت تنتج نماذج كره الإسلام تبنيها ،

وأى عليها أن تتخذ حاضناً لها ، وكانت معه كالمعود الذى لا يطيق دسم الغذاء ، فكلما أرضعها من تعاليمه وآدابه شجراً تقاياًته دماً ، ورجعت إلى موروثها من العقائد والنعاليم والآداب فتعطلته ، فكانت فى العد والحساب مسلمة ، وكانت فى التكيف الواقعى مختلجة مضطربة .

وهكذا زاحمت هذه النماذج الشاردة عن طبيعة الإسلام ، نماذجها الفاضلة فى غمرة هذا الخضم من البشرية المسلمة فى حسابان « الجغرافيين » حتى فقدت خصائصها ، وعادت كشيء من أشياء الناس ، لا تحمل من المزايا التى تطلب للتأسى إلا كما يحمل السراب نيمر الماء .

ومنذ فقد التاريخ الإسلامى هذا اللون من النماذج الإنسانية أصيب فى حيويته بما يشبه العقم ، فلم يشهد فى فترات من الزمن مهاد العبقرية تهتز بالمثل الواحية بالتوثب إلى أمجاد الحياة .

فما عسى أن يصنع الباحث فى التاريخ الإسلامى - وهو يشهد الأهم الإسلامية مضطربة السير فى الحياة ، لا تجد لها منها فى حاضرها نماذج حية تأخذ بها فى جواد تنهى بها إلى غاية من السؤدد وقف على سفوحها أسلافها الأولون - أفضل من أن يستوحى الماضى فيبرز ما فيه من صور العبقرية الرابضة فى النماذج البشرية الحية ، التى حفل بها مهد التاريخ الإسلامى ، فيعرضها عرضاً تحليلياً يمثل الحوادث تمثيلاً صادقاً ، بالقدر الذى تسمح به أوضاع التاريخ ورواياته وطرائق تدوينه فى كتب الأقدمين .

وفى الحق إن هذا المسلك يحثف بالأسف والأمل ، وليس فى الأسف غنية من شيء ولكنه شعور يردد صدى الطبيعة المصادمة بالألم ، وفى الأمل روح للنفس يستط لها وجه الحياة فتراه من جانبه اليناع المشر ، وهو الذى يدفع إلى العمل . وكأنما جعله الله تعالى أول طلائع الجزاء على احتمال المشاق .

بهذه الصورة الممهدة التى انزعتهما من نفى انبجحت إلى معالجة البحث فى سير رجالات الإسلام من النماذج الحية للإنسانية الفاضلة ، الذين حفلت شخصياتهم بالخصائص السامية فكانوا ولا يزالون مثلاً علياً للأسوة الكاملة ، وقد حجب إلى أن أبدأ بالذين فى تاريخهم لمع من الشبه ، أو حوادث عميت حقائقها فى ضنون الروايات المتنازعة ، لأحاول بقدر مستطاعى إزاحة هذه الشبه ، وتحقيق الروايات بميزان الشخصيات أنفسهم ، وهى فى

طبيعتها الأولى وقدرتها الأصلية على الصورة التي أخرجها الإسلام بآدابه وشرائعه ،
وتطويعه شخصيات رجالاته ونماذجه للتكيف العملي في تطبيق تعاليمه وتحقيق
مقاصده وأهدافه .

* * *

مهدت البحث فيما قصدت إليه من سيرة «عثمان بن عفان»^(١) رضى الله عنه ،
وأظهرته للناس كتاباً مبيناً ، وقع من قراء البحوث الإسلامية موقعاً كريماً . فقال لى
بعض قراء تلك البحوث من المثقفين : فى أية شخصية سيكون بحثك بعد «عثمان»
من رجالات الإسلام ؟ قلت : فى بطل الإسلام «خالد» فقال وعلى وجهه علامة غير
معبرة : ألا ترى أن «خالداً» قد كتب عنه كثير من الباحثين ؛ فما عسالك تقول فيه ؟
قلت : أجل ؛ وما من شخصية من شخصيات رجالات الإسلام الذين لهم فى الحياة
أثر مشهود إلا وقد كتب الباحثون عنها فأطنبوا أو أوجزوا ؛ ولكن هذه الشخصيات
مثلها مثل الأرض السوداء المخصبة يزورها الغيث فتزداد على كثرة التقلب إثماراً ،
وكما حركتها آتتك ثمراً أخصب وأشمى ، أو هى كالشمس تطلع على الناس فى إشراقها
كل يوم ، وهم لا يزالون منها فى جديد مطلوب ، وأثر مرغوب .

على أن كثرة الكتابة فى التاريخ ، ولا سيما الكتابة فى حياة الأفراد المتنازين
لا يلزمها أن تحيط بمقومات الشخصية إحاطة تكشف عن عوامل النبوغ كلها ، إذ منها
عوامل خفية لا يلموها إلا الزمن فيستطيع الباحث البعدى أن يلتقطها وقد فانت الباحث
القبلى ، ويستطيع أيضاً أن يصبها فى قالب ينتزعه من مصانع الزمن الذى كسبه عنها ،
ولكل عصر أسلوبه فى التعبير ، ولكل مفكر طريقته فى التفكير ، ونعنى بالأسلوب
الفكرة المدركة من الحوادث التى تقعها الرواية التاريخية ؛ والعبرة قائمة بين أيدينا
فيما كتب ولا يزال يكتب عن أفذاذ الشخصيات الإسلامية ؛ وحسبنا ما كتب ويكتب
فى سيرة سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت ولا تزال سيرته منبعاً فياضاً
لأفلام نبغاء الكتّاب فى الشرق والغرب وفى كل يوم لهم منها جديد ، وسيرة عباقره
أصحابه من سيرته نفحة الإمداد الروحى الذى يكسبها الخلود .

(١) كتابنا «عثمان بن عفان» كتبناه قبل كتابنا خالد بن الوليد ووضعنا فيه منهجنا فى البحث
وقد طبع مرتين وستظهر طبعته الثالثة قريباً بعد ظهور «خالد بن الوليد» ان شاء الله تعالى .

على هذا الوضع فهمت ما كتبه الكتّابون ، من القدامى والمحدثين ، وعلى هذا
الوضع سأكتب مستقيماً من كتاباتهم محاولاً كعادتي أن أضيف إلى ما سجلوا فكرة
مستخرجة من ثنايا الحوادث ؛ أو أدفع شبهة تشبث بها جاهل أو متجاهل ، أو أحقق
حادثة تجاذبتها الروايات واختلفت فيها الأفاضل .

ولست أنسى هنا تأثير الجو الذي يسود العصر الذي نكتب فيه هذه البحوث ،
ولاسيما هذا الشرق الإسلامي الفوار بالحيوية الوثابة ، فالجرب حديثها يكتشف الناس
من كل جانب ، ومن الحروب ولدت بطولة « خالد » ، وفي ظلالها نهدت عبقرية
وعلى ذروتها تسنمت عظمته ، فلتكن هي الواحي القريب بالحديث عن بطل من أعظم
أبطال الحروب في القديم والحديث .

الفصل الأول خالد قبل إسلامه

مطالع الحديث عن الشخصيات — البيئة العامة وأثرها في حياة الأفراد —
موطن خالد وبلده — قبيلة خالد — بيته وأسرته — مكانة أبيه في قريش وموقفه
من دعوة الإسلام — إخوة خالد ومن أسلم منهم — مكانة خالد في الجاهلية —
موقفه من الإسلام — في غزوتي أحد والحندق .

أول ما يرتقب قارئ مثل هذه البحوث ، الحديث عن أولية الشخصية المحدث عنها
والأطوار التي مرت فيها حتى عقد لها لواء العبقريّة ، ونحن إذا كنا وكان الكتّابون
الذين سبقونا في جهالة غامضة من أولية « خالد » كغيره من عظماء رجالات الإسلام
السابقين ، فإن هذا الغموض السكّيف في حياة ذلك الجيل الذي كان مهداً لحياة « خالد »
وأمثاله ، لا تتأثر به الأسباب الحقيقية التي لها تأثير في تكوين الشخصية ، فالبيئة العامة
طبيعية أو اجتماعية ، والبيئة الخاصة في الأسرة والأتراب ، وهما من أهم العوامل في ذلك
التكوين ، لا يستطيع غموض الحياة الجاهلية أن يمحو معالمها في شخصية أصبح لها
في الحياة ذكر مشهور .

والحديث عن البيئة العامة التي نهد « خالد » بين أحضانها يقتضى استعراض أحوال
الأمة العربية ، وأحلافها وعاداتها في سلمها وحربها ، وأحوال منازلها من جزيرتها التي
عاشت فيها أحقاباً متطاولة ، والتي ألفت على أبنائها ظلاً من طبيعتها الخاصة في جوها
ومناظرها ، وخصبها وجدها ، ويسرها وعسرها ، وهذا أمر أشبعته بحثا كتب التاريخ
العامة ، ومباحث الأدب المستحدثة فهو على طرف الثمام^(١) من كل مثقف أراد علم
شئ منه .

ولست أدري أي الأمرين أرجح ميزاناً في نظر علماء الاجتماع ؟ هل حياة الأفراد
أصدق تمثيلاً لحياة الأمة وتصوير خصائصها العامة ، أو حياة الأمة أصدق في تمثيل حياة
أفرادها ؟ وتوضيح هذا أنك إذا قرأت سيرة رجل من رجالات الأمة ، فهل أنت
مستطيع أن ترسم من ألوان تلك السيرة صورة مقاربة لمقومات الأمة واستخراج
خواصها الطبيعية والعقلية والاجتماعية ؟ وإذا قرأت تاريخ أمة فهل أنت مستطيع أن
نضع لأفرادها خطوطاً أصيلة لا تختلف في ألوانها وإن اختلفت زواياها واتجاهاتها ؟
ومعناه بعبارة أوجز : هل الفرد صورة للأمة أو الأمة صورة لأفرادها ؟ ومنزى ذلك
أن نتعرف هل الأفضل أن نعى بدراسة حياة الأفراد ، وبحوث الترجات ؟ أو الأفضل
أن نوجه عنايتنا لدراسة حياة الأمة ؟ وقد يتفرع عليه أن يتساءل منسائل : هل الأجدى
على الإنسانية أن تعنى بتربية الأفراد ثم تتركهم ليحددوا علاقاتهم في المجتمع ؟ أو الأجدى

(١) الثمام بضم التاء المثناة : ثبت معروف في البادية ، قال ابن منظور في اللسان : والعرب
تقول للشئ لا يمس تناوله هو على طرف الثمام ، وذلك أن الثمام ثبت لا يطول فيبقى تناوله .

أن تعنى برسم الروابط وتحديد العلاقات حتى لا يكون للفرد اختيار إلا أنه ذرة في جسم يجب أن تأخذ مكانها منه حسب تقضييه صلاحية تلك الروابط ؛ لاحسباً يرى الفرد بقواه الفكرية والجسمية ؟

ولعل دارسى القرآن الكريم - وهو دستور الإسلام - واجدون فيه حديثاً عجياً عن نظرية « الفرد والجماعة » لا يذهب فيه إلى جانب واحد ، ولكيه يرى للفرد استقلالاً إرادياً هو منشأ الجزء الشخصى ، ويرى للجماعة وجوداً خاصاً يندمج فيه الفرد باستقلاله فيأخذ منها ويعطيها ويحمل عنها وتعمل عنه ، فهو منها ، ولكنه جزء عامل لا تستغنى الجماعة عن عمله ولا تقوم بغيره .

ومهما يكن من اقتناع الناس بأثر الفرد في الجماعة، أو أثر الجماعة في الفرد ، فإن سيرة الشخصيات الإسلامية التي عاصرت جاهلية العرب، ثم نقاها الإسلام إلى أحضانه ، أقرب تمثيلاً لحياة الأمة العربية ، وتصوير خصائصها العامة في نطاق تهذيبات الإسلام وادابه ، وسيرة « خالد » رضى الله عنه أصدق مثل على تحقيق ذلك .

موطن خالد وإذا زوينا النظر إلى دائرة أضيق رأينا « خالداً » ينهد بين أكناف « مكة » بلب الله المحرم ، وموطن بينه المعظم ، إليها تشد رحال القبائل من أقطار الجزيرة العربية ليعظموا الكعبة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل برغبة ابنه اسماعيل عليهما السلام ، وقد كان للعرب في مكة إلى جانب هذا العرض الروحى غرض مادى بارى ، فقد كانت متسوقهم ، وملتقى تجاراتهم الرائحة والغادية ، فهي ميناء برى للجزيرة العربية ، ربطها بما صارتها من الأنطار كالخبشة ودارس والشام ، بل كانت نرد إليها سابع البلاد المائية كالهند فتجد فيها رواجاً ، إلى ما كان يرد لها من أقاصى جنوب الجزيرة وسواحلها من اليمن وحضر وموت وعدن وبلاد الخليج الفارسى . وكانت مكة مجتمع القرائل العربية يفدون إلى أسواقها ومحافلها للمضاربة والمراحمه ، وإقامة المحاسنات الأدبية والفلس فى الحصوات السعصية ، وكان يأمن فيها الخائف ، ويطعم الجائع ، وينصف المظلوم ، وترد المظالم ، ويناث الملهوف .

وفي هذا البلد المعظم تقطن قريش سادنة البيت الحرام الى ألفت إليها العرب قاطبة قبيلة خالد زمام طاعتها ومنعتها احترامها فعزت وسادت ، حتى أصبحت بين العرب رمز الفداسة وصاحبة السلطان ، تشرع للعرب ما يتواضعون عليه من الأحكام والعادات ، وتضع نفسها

فوق هذه الأحكام والقوانين التي تسرى على الناس ولا تسرى على قريش واضعة القانون، فيرضى لها العرب ويسلمون ، وتقر لها القبائل ، فلا يخلف عليها أحد .

ذكر ابن الأثير في كامله أنه « لما كان من أمر أصحاب الفيل عظمت قريش عند العرب ، فقالوا لهم : أهل الله وقطنه ، يحامى عنهم ، فاجتمعت بيدها ، وقالوا : نحن بنو إبراهيم « عليه السلام » وأهل الحرم وولاية البيت وقاطنو مكة ، فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا ، ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لنا ، فهموا فلتتفق على ائتلاف أننا لنعظم شيئاً من الحل كما يعظم الحرم . فإتلفنا إذا فعلنا ذلك استخفت العرب بنا وبحرمنا ، وقالوا : قد عظمت قريش من الحل مثل ما عظمت من الحرم . فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والهج ودين إبراهيم ، ويرى سائر العرب أن يتفوا عليها ويفيضوا منها ، وقالوا : نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره ، ونحن الحس - وأصل الحماة الشدة ، إنهم تشددوا في دينهم وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب سائى الحل مثل ما لهم بولادتهم ، ودخل معهم في ذلك كنانة وخرافة وعامر لولادة لهم ، ثم ابتدعوا فقالوا : لا ينبغي للحمس أن يعملوا الأفضة ، ولا يسلوا السمن ، وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً ، وقالوا : ولا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاء به معهم من الحل في الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت طوافهم إذا قدموا إلا في ثياب الحس ، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة ، فإن أنف أحد من عظامهم أن يطوف عرباناً إذا لم يجد ثياب الحس فطاف في ثيابه ألقاها ، وكانوا يسمونها اللقي ، فدانت العرب لهم بذلك فسكانوا يطوفون كما شرعوا لهم »

وقال الطبري : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر^(١) منصرفاً من حجة الوداع فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو فأنزل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوى في الموت ثم سار عمرو حتى قدم المدينة فأطافت به قريش وسألوه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دى^(٢) إلى حيث انتهت إليكم فتفرقوا وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسلية على عمرو فمر بمائة وهم في شيء من الذي سمعوا من عمرو ، وفي تلك الليلة عثمان وعلي وطاحنة الزبير وعبد الرحمن

(١) قال في القاموس : - جيفر بن الجندى ملك عمان واسمه هو وأخوه عبد الله على يد عمرو ابن العاص لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما وهما على عمان .

(٢) دى ، كمل : سوق للعرب معروفة .

(م ٢ - خالد ابن الوليد)

وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال : ففيم أتم ؟ فلم يجيبوه ، فقال : ما أعلمني بالذي خلوتم عليه ، فغضب طلحة وقال : تالله يا ابن الخطاب لتخبرنا بالغيب ، قال : لا أعلم الغيب إلا الله ، ولكن أظن : قلتم : ما أخوفنا على قريش من العرب ، وأحلفهم أن يقرؤا بهذا الأمر ، قالوا صدقت ؛ قال : فلا تخافوا هذه الميزة أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معانير قريش جحراً لسلطته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم .

وقد تألف من عطاء قريش « حلف الفضول » وهو حلف تعاهدوا فيه على الفيا ، بنصر الضعيف ، وإنصاف المظلوم والأخذ على يد الظالم ، ورد الحقوق على أصحابها وإغاثا الملهوف ، ورغد العاجز . وقد حضره النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، فقال فيه بعد البعثة « شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما يسرني به حمر الدم ، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » وهذه مكانة لم تتم لقبيلة في العرب غيرها .

وفي الدؤابة من قريش تسنمت الدوحة الخزومية التي يعزى إلى أرومها وينسب إلى أعز بيوتها وأسمى فروعها « خالد بن الوليد » - مكانها بين الأغصان القرشية ، وإذا كان التاريخ قد جعل بنى هاشم ذروة قريش فهو لم يقعد بأخوتهم بنى مخزوم عن مسامحتهم في صنائع الشرف وشارات الكرام ، ومن ثم فقد توثقت بين البنين وشائج المصاهرة ، وزاحمت بنو مخزوم بنى هاشم في المناهبة والفضائل ، حتى جاء الله ابنى هاشم بواحدة جدعت لها أنف الكبرياء من بنى مخزوم فاختار الله خاتم البين هاشمياً فصمت بريقها بنو مخزوم ، فحملوا لواء مناهضة الدعوة المحمدية ، وكانوا ألد خصومها وأقوى أعدائها ، وأعداء معانديها ، لاجماسة لعقيدة فاسدة أو صحيحة ، ولا لراهة للدين الجديد بعد نظر فيه وتفقه في آدابه ، ولكن ذلك كان منهم حمية جاهلية وعصبية قبلية موروثة .

بيت خالد
وأسرته

روى أن أبا جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ابن عم خالد بن الوليد - وكان من غطارفة مخزوم - قال لنبي هاشم لما اصطفى الله رسوله محمداً منهم : فلما أطلعنا الطعام وأطعمتم ، وازدحمت الركب ، واستقبلنا المجد كفرسى رهان قلتم منا نبي ؟ ! ! « . وقد تمل شرف بنى مخزوم في بيت خالد ، وانهقدت لهذا البيت ألوية رعاهم حتى أرخت العرب بموت بعضهم .

أما أسرة «خالد» فلم يفتها شرف من شرف الجاهلية إلا وقد أخذت بحظها منه. فقامه من أعرق بيوتات العرب ، وهي لبابة الصنرى بنت الحارث الملالية ، وهي أخت اميمونة أم المؤمنين، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه السيد الأماجد . فخالد وبنو العباس أبناء خالات .

وأبوه الوليد بن المغيرة ، الذي احتج^(١) ببناء الكعبة بعد وفاة عبد المطلب سيد قريش طلباً للرياسة بعده فلم يغير عليه أحد . وكانت تتحاكم إليه قريش ، وتدعوه ريمانتها وعدلها لأنه كان يعدل قريشاً كلها وحده في كسوة الكعبة ، فيكسوها من ماله الخاصة سنة ، وتكسوها قريش بمجموعة سنة ، وكان ينهى أن توقد نار للإطعام في منى غير تماره إلا ينازع ، وكان الوليد ممن حرم على نفسه الخمر قبل الإسلام ، وهو الذي جمع قريشاً فقال لهم : إن الناس يأنونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه . فيقول هذا : ساحر . ويقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول : هذا مجنون . وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر : لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته^(٢) .

مسكنة
أبيه
في قريش
وموقفه
من دعوة
الإسلام

وفي الوليد نزلت على رأى جمهرة المفسرين هذه الآيات الكريمة من القرآن الحكيم ، قال تعالى في سورة المدثر «ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلته مالا يمدوداً ، يوبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وفذر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ؟ ثم انظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر » .

وهذه كما يرى القارئ آيات تصف عنجهيته وخطيئته واستكباره وطغيانه وعتوه وعناده وشوره بماله وبنيه ، وتقوله على القرآن الكريم أنه سحر ماثور ، وذلك حينما استمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرتل بعض آية فأخذته بلاغته ، فقال فيه قولاً خلطه قريش ميلاً إلى الإيمان فاضطربت جوانبها ، وقال قائلهم : صبأ والله الوليد ! لتصبأن قريش كلها « فأرسلوا إليه من أغراهم ذكر المفسرون وأصحاب السير واللفظ للقرطبي :

(١) أصل الاحتباء أن يضم الرجل رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليهما ، ومنه الحديث : الاحتباء حيطان العرب ، وكان عبد المطلب وهو سيد قريش يحتج ببناء الكعبة فلما مات جالس الوليد بن المغيرة جلسته فلم تنسك عليه قريش .

(٢) ابن الأثير في الكامل ج ٢ ص ٢٨ .

« لما نزل (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) سمع الوليد النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاماً مشرقاً، وإن أسفله لمندق، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه. وما يقول هذا بشراً. فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبون قريش كلها. وكان يقال للوليد ربيع قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزينا، فقال له: مالي أراك حزينا. فقال له: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك. ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة^(١) وابن أبي قحافة لتتال ما فضل طعامهما؟ فغضب الوليد وتكبر وقال: أنا احتاج إلى كسر محمد وصاحبه؟ فأما تعرفون قدر مالي، واللات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه قط يخفق؟ قالوا: لا والله. قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم على كذباً قط؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كاهن؟ فهل رأيتموه تسكنهن قط؟ ولا رأيتموه للسكنة أسجاعاً وتخالجاً، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش لالويد: ما هو بفقير في نفسه، ثم نظر، ثم عبس فقَالَ: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرمح وأهله وولده ومواليه؟ فذلك قوله تعالى (إنه فسكر وقدر) إلى آخر الآيات من سورة المدثر.

وذكر المفسرون أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فمرأى له الفرات
فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك ما
فيعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتصيب مما عنده، قال : لقد علمت قريش أني من أثر هامال
قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنت كاره له . فز . وما إذا أقول :
فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ولا بتحميده ، ولا بأشعار الجبل
والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا : ووالله إن لقوله الذي يقوله لخاله ، وإن علم
لخاله . وإنه لخير أعلاه ، منفق أسفله ، وإنه ليعا ولا يعلى : وإنه ليعظم ما عنده !

(١) قال في القاموس : وكان المشركون يقولون للذي صلى الله عليه وسلم : ابن أبي كبشة ههنا
بأبي كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأصنام . أو هي كنية وهب بن عبد مناف جد
صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، أو كنية زوج حليمة السعدية .

قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال :
هو إلا سحر يؤثر ، فعجبوا بذلك » .

ويقول بعض المفسرين : إنه هو المعنى بقول الله تعالى في سورة « ن » « ولا تطع كل
حلاف مهين ، هازم شاء بنميم ، منع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم . (١) أن كان
ذاملاً وبنين ؛ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » وذكروا أنه أحد عظمى القريتين
المعنى بقوله تعالى « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .
ومهما يكن من شأنه فإنه كان من أشد الناس عداوة للدعوة المحمدية وأقسامهم
في متناوئها .

ومشى بنوه في شوطه ، فكانوا قادة قريش وحاملي لوائها في الصد عن سبيل الله ،
حتى أراد الله المبدئية لثلاثة منهم . فكان أسبقهم إلى الإسلام « الوليد بن الوليد »
وكانت له يد مذكورة في إسلام أخيه بطل الإسلام « خالد بن الوليد » وثالثهم « هشام
ابن الوليد » .

إخوة خالد
ومن أسلم
منهم

وفي إخوة « خالد » رضى الله عنه « عمارة بن الوليد » كانت تراه قريش أعزفتي
فبها وأجمله وأشعره ، مشيت به إلى أبي طالب ليأخذه ويحلى بينهم وبين رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فسخر منهم أبو طالب ، ورد عليهم أبلغ رد !!
قل ابن الأثير في الساجد : « فلما علمت قريش أن أبا طالب لا يخذل رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأنه يجمع لعداوتهم ، مشوا بعمارة بن الوليد . فقالوا : يا أبا طالب :
هذا عمارة بن الوليد أنهد في قريش ، وأشعره وأجمله ، نخذه فملك عقله ونصرته ،
فأخذه ولداً ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا ، وخالف دينك ودين آبائك
وفرق جماعة قومك ، نقتله ، فإنما رجل برجل ، فقال أبو طالب : لبس مانسومونى .
أنعطونى ابنكم أغدوه لكم ، وأعطيك ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً » .

مكانة خالد في
الجاهلية
وموقفه من
الإسلام

في هذا الجلو وهذه البيئة العامة والخاصة نهى « خالد » رضى الله عنه ،
وقد نجحوا بتخصائصها مع سبجايها ، فأخذ منها وأخذت منه ، وأعدته ليكون على

(١) من معانيه : اللثيم الفاجر .

زعامتها ، وحامل لوأثها ، فكان من فتيان قريش وذوى بيوتاتها الذين يرون في الـ
الجديدة هدماً لما أثرهم الجاهلية ، وتقويضاً لعنجهيتها القبلية . فكان من أشدخص
وَأَلَد أعدائها الذين يترصون بها الدوائر ، ويضعون أمامها العراقيل ، ويصدون الـ
عن سبيلها .

وقد وجد « خالد » في أبيه وعمومته وإخوته وأبناء عمومته قوة تدفعه إلى هذه العدا
البيئية . فليس بعجيب أن يقف من الإسلام موقف المناوئ ، الخاصم ، وقد نشأ في بيئة جـ
الادعوة الإسلامية لهدم دعائهم وتطهير الحياة من رذائلها ، وإرغام كبريائهم . وكان « خـ
قد جمع في هذه البيئة بين طرفي الشرف : شرف البيت وشرف الشخصية . فقد أسـ
قومه في جاهليتهم أهم مناصب الحرب : القبة والأعنة . قال عز الدين بن الأثير في « أ
الغابة » : وكان خالد أحد أشرف قريش في الجاهلية وكان إليه القبة وأعنة الحرب
الجاهلية ، أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجوزون به الجيش ، وأما الأعـ
فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش في الحرب « وهى عبارة ابن عبد البر في الامتعة ،
وتقلها ابن حجر بتصرف في الإصابة ، وتقريب هذا في عرف العصر الحاضر ، وانه
« خالد بن الوليد » كان يجمع في الجاهلية زمن الحرب بين منصب رئيس الإمـ ادا
ورئيس هيئة أركان حرب الجيش لأن الحيل كانت لها المثلثة الأولى في سرورب نـ
الأعصر ، فقادها هو القائد الأعلى للحرب .

في غزوة اضطلع « خالد » بععب القيادة الحربية لقومه في حربهم لجند الإسلام ، فسكان أول
أحدوا الخندق موقف برز فيه غزوة أحد ومنه كانت نكبة المسلمين في تلك الغزوة لأن خالد أكل
من أولئك الرجال الذين يملكون أعصابهم عند تفاقم الخطوب وزحف الأعداء ، فلم
يطر عقله شعاعاً بالهزيمة الشكراء التي أصابت المشركين في أول جولة من الحرب ، وانكمـ
ظل قوياً جليداً يقطر رقيب ثغرة ينفذ منها إلى قلب الجيش الظافر

كان خالد على ميمنة قريش وجيشها المهزم ، فأسمعته قوة بنيانه وبات جأشه بأعجب
نظرات القائد المحيط بدخائل الميدان الذي يهارب وبه ، وعرف كيف تنفذ الحيلة
وتنتجح المكيدة ، والحرب خدعة .

رمى « خالد » بنظره في مؤخرة جيش المسلمين بدار إلى الرمذ الذين جعلهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم حماة لظهرهم ، وأوصاهم ألا يفارقوا مكانهم : فقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ؛ فإن رأيتمونا قد انتصرونا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا . وكان هؤلاء الرماة على جبل يقال له (عينين) عن يسار أحد لمستقبل المدينة ، فلما رأوا هزيمة المشركين ، والمسلمون يلاحقونهم ، ويضعون السلاح فيهم حيث شاءوا ، تأول بعضهم وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره لهم بالثبات في مصافهم ، وانطلقوا يتبعون جنود الإسلام في ملاحقة المهزمين طمعاً في الغنيمة وثبت أميرهم في نفر قليل أطاعوه .

لم تفرع خلافاً الهزيمة على نكزتها ، ولم يصبه ما أصاب أقرانه من الاضطراب والبلبلة ، ولم يقف في مكانه وقفة الجري المتهور ، ولكنه - وهو في الحرب ، وأبو عذرتهما الناشئ - بين أحضانها - كان عبقرى الشجاعة والتدبير ؛ لم يخنه عقله العظيم في ساعة زايلت فيها تقول النطرفة ، وتزلزلت أقدامهم ، ولم يرم به اليأس في مضال الفرار لينجوا بنفسه لو أراد عيشة الجبناء الرعايد .

وفي الحق إن « خالدا » كان في هذه الواقعة جندياً بأوسع وأعمق ما تحمل الجندية من معنى كريم ؛ والجندية الصادقة هي التي تنسب شخصها في مواقف الوئس ، ولا تعرف إلا واجبتها نحو جيشها الذي يلب به عزها وشرفها . وخالد رأى جيش قومه تعرّد الهزيمة عنركا ، وهو أحد فرسانه فاحتال في دورة عسكرية بارعة ورمى بنظره إلى مخان الرماة في مؤخرة جيش المسلمين ، فرأى كتبتينهم قد زايات أماكنها ، ولم يبق على الجبل منها إلا نفر قليل ، فحمل عليهم بخيله حتى أبادهم ، وركب أكتاف المسلمين فأدهشهم ، وأوقع الاضطراب والحلل في صفوفهم ، فتبدل الموقف ، وأصيب المسلمون إصابة بالغة ، وورمت آناف المشركين وانتفضت أوداجهم بأوا واختاراً حتى صاح قائدهم أبو سفيان بن حرب : « يوم بيوم بدر » قال ابن سعد في الطبقات : « ونظر خالد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فسكّر بالخيال ، وتبعه شرمة بن أبي جهل ، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلواهم . وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير رحمه الله تعالى ، وانتفضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم » .

ولو كان لوقع الشرك أيام في التاريخ اسمى المشركون يوم أحد بيوم « خالد ابن الوليد » ولكن الله الذي اصطفى « خالداً » سيفاً من سيوفه لم يرض أن يجعل اسمه

عنوانا إلا على أشرف صفحات الإيمان في تاريخ الخالدين .

وقد عتب الله على المؤمنين ما صنعوا في آيات من القرآن الكريم كانت أبلغ أدب
أدبهم به ، وانتهى بهم فيها إلى العفو الجميل ، قال تعالى « ولقد صدقكم الله وعده إذ
تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ،
منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم
والله ذو فضل على المؤمنين » ثم قال « إن الذين تولوا منكم يوم النقي الجمعان إنما استزلهم
الشیطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم . »

لم يكن « خالداً » في هذه الواقعة من ذوى أسنان قريش ومشيعتها ، بل كان من فتیانها وشبابها ،
فقدموه على أقرانه وسودوه على فرسانهم وأسندوا إليه قيادة أغلظ كتائبهم وأعظمها في أهم
الوقائع بعد « أحد » وأوسعها وأكثرها عدداً ، وأجمعها للقبائل والأحزاب ، وإذا كان الله
تعالى قد جعل من غزوة بدر الكبرى فتحاً مبدئاً للإسلام فكانت في نظر المسلمين أهم
وقائع الإسلام في نشأته الأولى ، فإن قريشاً وأحزاب الشرك وإخوان العذر من اليهود
قد أرادوا أن يجعلوا من واقعة الأحزاب المعروفة في كتب السيرة بغزوة الخندق ،
أكبر معركة يستعجلون بها نهاية ما بين الحق والباطل من تجاذب واحتدام .

بعدما أجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النصير من ديارهم جزءاً غدرهم ونكبتهم
ما كان بينه وبينهم من عهود ، قام نفر من رؤسهم من أضراب سلام (١) بن أبي
الحقيق ، وحسي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، فخرجوا الأحزاب على حرب رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجوا إلى قريش يقولون لها : إنا سنكون معكم على محمد
حتى نستأصله ، ثم أتوا غطفان فخرضوهم ، ومنوهم الأمانى وأخبروهم بما كان بينهم وبين
قريش فخرجت قريش ، ومن تابعها من الأحابيش وكنانة وأهل نهامة في عشرة آلاف
يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان يطؤونها ومن تابعها من أهل نجد في
مثل عدد قريش يقودهم (عيينة بن حصن الفزاري (٢) والحارث (٣) بن عوف المري ،

(١) سلام بن أبي الحقيق بوزن زبير أحد زعماء اليهود وعبرائهم ، وكان منهمواً إلى شمره
فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن متيك فقتله ، وأما حسي بن أخطب فهو أبو صفية بنت حبي أم
المؤمنين وكان أشد يهود في عداوته للنبي صلى الله عليه وسلم فقتله في غزوة بني قريظة ؛ وأما كنانة
ابن الربيع فهو ابن أخى سلام بن أبي الحقيق وثلاثتهم من بني النصير .

(٢) كان سيداً محققاً وهو أحد زعماء غطفان وقبائلهم من المشركين وكان من المؤامرة ؛ أعزاء إلى صلى
الله عليه وسلم يوم حنين مائة من الإبل .

(٣) كان الحارث يساعى عيينة في رئاسة قومه ، وكان قائدهم في غزوة الخندق .

ومسعود ابن رخیلة الأشجعی^(١) فلما بلغ خبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تجهز للقائهم ، وأشار عليه سلمان الفارسی بحفر الخندق فقسمه بين أصحابه وعمل فيه بنفسه تشجيعاً واحتراساً ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين ، وجعل الخندق بينه وبين أحزاب المشركين ، وكان بنو قريظة من اليهود يساكنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بلده وكانت بينه وبينهم عهود على المودعة وعدم الاعتداء ، وقد أصبحوا -- ورسول الله في وجه قريش وأحزابها -- خائف ظهر المسلمين يأمنون شرهم للمعاهدات التي عقدوها معهم ، ولكن اليهود قوم غدر لا يعرفون الصدق والوفاء ، فخرج حيي بن أخطب النضري إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يحرضه كما حرض قريشا ، وعطفان فأغلق كعب دونه باب حصنه وقال له : ويحك يا حيي !! إنك رجل مشغوم ، إنني قد عاهدت محمدًا ولست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً . ولم يزل حيي يقتل من كعب في الدرة والغارب حتى فتح له فقال ويحك يا كعب جئت بك بعز الدهر ، ويبحر طام ، جئت بك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة^(٢) ؛ وبطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقي^(٣) إلى جانب أحد قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا شعثاً ومن معه . فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر بجهم^(٤) ، قد هراق ماءه يردد ويرق ليس فيه شيء ، ويحك !! فدعني وشعثاً وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقاً وفاء فلم يزل حيي يكعب يمسح ضرعه ويمر به حتى استنزله عند رأيه فدخلت قريظة مع الأحزاب ونبتت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عهده ، وعظم البلاء على المسلمين ونجم النفاق ، واشتد بالناس الخوف وزلزلوا زلزالاً شديداً حتى أنزل الله على المؤمنين نصره وخذل بين الأحزاب فالشمر^(٥) كل فريق منهم راجعاً إلى مقره بعد اختلافهم واقتراق كلمتهم وردهم الله بنفيظهم لم ينالوا من المسلمين سوداء ولا أيضاً .

(١) كان مسعود هذا يقود قومه أشجع وهم أربعمائة خرجوا مع قريش لحرب المسلمين في غزوة الخندق .

(٢) قال ابن سيد الناس في عبون الأثر : دومة بضم الدال وفتحها وهي دومة الجندل بينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة .

(٣) ذنب نقي كحلي : واد من أودية المدينة قريب من أحد .

(٤) الجهم : السحاب لا ماء فيه أو هو الذي قد هراق ماءه .

(٥) الشمر : سر جاداً مسرعاً .

وروى أبو جعفر الطبري عن محمد بن كعب القرظي : قال : قال فقي من أهل الكوفة :
 الحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله رأيت رسول الله وصحبه معه ؟ قال : نعم يا ابن أخي ، قال :
 فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، فقال النقي : والله لو أدركناه ما
 تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا ، فقال حذيفة : يا ابن أخي والله لقد
 رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى هوياً من الليل ، ثم التفت
 إلينا ، فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ يشرط لرسول الله ، أنه يرجع ،
 أدخله الله الجنة ، فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً من الليل . ثم
 التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً
 من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ يشرط
 له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة ، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة ، فما قام رجل .
 من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يبق أحد دعاني رسول
 الله صلى الله عليه وسلم . فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ، فقال يا حذيفة اذهب
 فادخل في القوم ، فانظر ما يفعلون ، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا قال : فذهبت ،
 فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقدر لهم قدراً ولا نارا ولا
 بناء ، فقال أبو سفيان بن حرب فقال : يا معشر قريش لينظر أمرؤ جليسه : قال :
 فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان ،
 ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك السكراع
 والحلف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نسكره ، ولينا من هذا الرشح ما نرون ،
 والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ؟ ولا يستمسك لنا بناء ، فاربعوا فإني
 مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معتول بجلوس عليه ، ثم ضربه فؤوب به على ثلاث ،
 فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي أني لأحدث
 شيئاً حتى آتيه ، ثم شئت لقتلته بسهم ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
 قائم يعلى في مرط^(١) لبعض نسائه مرسل^(٢) ، فلما رأني أدخلني بين رجليه ، وطرح

(١) المرط بكسر اللام : كساء من صوف أو خز .

(٢) المرسل كعظم : برد فيه تصاوير رجل وهو مركب البعير .

على طرف المرط ، ثم ركب وسجد فأزلقته (١) ، فلما سلم أخبرته الخبر .

في هذه الأعاصير العاصفة ، والزعازع العاصفة ، وفي هذه الجحافل الجرارة ، والألوف المؤلفة من جيوش الأحزاب التي أعدتها قريش وحلفاؤها من اليهود ، وألفاف العرب بكل ما يمكن من قوة وبطش وبطولة ، مما لم تعرف مثله من قبل ... كان « خالد ابن الوليد » أحد أبطال العرب الذين عصبت بهم قريش أمر اقتحام الخندق ، فكان يتناوب العدو إليه على رأس الكتائب المهاجمة مع أبي سفيان بن حرب ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب الفهري ، فيعدو أبو سفيان في أصحابه يوماً ، ويعدو « خالد » في كتائبه يوماً ، ويعدو هبيرة في قومه يوماً ، ويعدو ضرار يوماً ، وفرق المشركون كتائبهم ، ونحووا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة غياظة فيها « خالد ابن الوليد » فاقتتلوا يومهم ذلك إلى هوى من الليل ، ما يقدرون أن يزولوا عن موضعهم ، ولا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ظهراً ، ولا دحراً ، ولا مغرباً ، ولا عشاء ، حتى كشف الله عنهم جنود المشركين .

وقد قص الله تعالى حديث هذه الواقعة في آيات من القرآن الكريم ، صورت شأن طوائف الناس من المؤمنين والمشركين ومن ظاهريهم من اليهود والمنافقين أربع تصويرو ، فقال في سورة الأحزاب : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريماً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الذلونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ؛ ويستأذن فريق منهم النبي يقولون : إن بيوتنا عورة ؛ وما هي بعورة . إن يريدون إلا فرارا . ولودخلت عليهم من أفطارها ثم سئلوا الفتنة لآئوها وما تلبسونها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا .

قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله وئيا . ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحط عليكم فإذا جاء الخوف رأيتمهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ؛ أشحط على الخير ؛ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يدوألوا أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . » ثم قال تعالى « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ؛ وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا . »

إن قريشا لم تسكن فى مواقفها لجند الإسلام تزور عن مكانة « خالد » وبطولته التى كانت تعرفها له من قبل ، بل كانت أحفل به وأعرف لحقه ؛ لأن « خالدا » كان يعرف مكان نفسه من البطولة فيضعها حيث شاء من أسمة المجد ، فهى فى هذه العزوة الشهمة تضع بطلها « خالد » على رأس أغلظ كتائبها وأقواها ، وتخصه بشرف الوقوف أمام كتية رسول الله صلى عليه وسلم ، وهى تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم لشجاعة أحد من البشر ، وتعلم أنه يكون فى أمتع الكتائب وأعظمها ، فتندحى « خالد » للوقوف أمامه فيض من التهمة والتقدير لفتى غزوم انفرديه ولم يكن لقائد عرى سواء ؛ وهذا كان ذلك كله إرهابا لما ينتظر « خالد » من مجد إسلامى عريض ، يملا أرجاء التاريخ ..

الفصل الثاني

خالد

في طريقته إلى الإسلام

مضى أسلم خالد - كتاب أخيه الوليد إليه وأثره في نفسه . رؤيا صادقة -
خروجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه - لقاءه عثمان بن طلحة ،
وعمر بن العاص خارجين الإسلام - احتفاء النبي بخالد ، وثناؤه عليه - ألوان من
العبر في قصة إسلام خالد .

قال أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب » : واختلف في وقت إسلام خالد وهجرته ؛
فقيل هاجر خالد بعد الحديبية ، وقيل : بل كان إسلامه بين الحديبية وخيبر ، وقيل :
بل كان إسلامه سنة خمس بعد فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى قريظة ، وقيل :
بل كان إسلامه سنة ثمان مع عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ؛ ثم قال أبو عمر :
وكان خالد على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؛ وكانت الحديبية في
ذى القعدة سنة ست ، وخيبر بعدها في المحرم وصفر سنة سبع ، وكانت هجرته مع عمرو
ابن العاص وعثمان بن طلحة ؛ فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رمتكم
مكة بأبلاذ كبدها » .

فهذه أربعة أقوال ؛ حكى عز الدين بن الأثير في « أسد الغابة » ثلاثة منها ، وأعرض
عن أولها ، وكأنه رآه حديثاً عن الهجرة ، لا عن الإسلام .

والهجرة إنما تعتبر بعد استقرار الإسلام في النفس واطمئنان القلب بالإيمان ؛
وابن عبد البر جزم في آخر عبارته : بأن خالد كان في الحديبية مسلماً ، وأميراً على خيل
رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة التي كانت في أواخر سنة ست ، وإلى ذلك
جرح فريق من الرواة كما حكاه أبو جعفر الطبري وصححه أبو نصر الفشيري على ما صرح
به القرطبي في تفسير قوله تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم) الآية . قال الطبري :
« لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم بالهدى وانتهى إلى ذي « الخليفة » قال له عمر :
يا رسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ فبعث النبي صلى الله
عليه وسلم إلى المدينة فلم يبع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حملاً ، فلما دنا من مكة منعه
أن يدخل ، فسار حتى أتى « منى » فنزل بمنى ، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد
خرج إليك في خمسمائة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : يا خالد :
هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل ، فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله - نيومئذ سمى
« سيف الله » - يا رسول الله : أرم بي حيث شئت . فبعه على خيل فلقى عكرمة في الشعب ،
فهمزته حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية ، فهمزته حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد

في الثالثة فهزّمه حتى أدخله حيّطان مكة ، فأُنزل الله تعالى فيه « وهو الذي كَفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » . إلى قوله : « عذاباً أليماً » .

هذه رواية لا نستطيع أن نقبلها كما جاءت ، لأن أبا جعفر الطبري الذي حكّاها ، ذكر قبيلها عن الزهري ما يخالفها فقال . « قال الزهري : نَفَرَج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بعسفان ، لقيه بشر بن سفيان السكبي . فقال له : يا رسول الله . هذه قريش قد سمعوا بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النور ، وقد نزلوا بذى « طوى » يخالفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا - والله ابن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع النعيم » وذلك يطابق الرواية الصحيحة الآتية عن البخاري .

وذكر القرطبي نحو هذا في قصة الحديبية ولم يرد فيه . وإذا كنا لا نستطيع قبول رواية أن خالدًا كان في الحديبية مسلماً وأميراً على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا نزعّم أن وهما دخل على الرواه فيها ، فنقلوا حديثها من موضع كان فيه خالد على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الموضع ، ويشبه أن يكون الموضع المذكور . الحديث فتح مكة ، ففي هذا الفتح كان خالد - بإجماع الرواة - على خيل المسلمين .

ومهما يكن شأن هذه الرواية فإنها لم تعين وقت إسلام « خالد » فيجتمعل أن يكون في نفس سنة الحديبية ، أى سنة ست ؛ في أولها أو وسطها ، ويتمتعّل أن يكون في سنة خمس ، ولم أر من صرح بالأول ، أى بدخول خالد في الإسلام سنة ست . وأما الثانى ، فهو قول صريح من الأقوال الأربعة التى ذكرها ابن عسجد البر ، وجزم به القسطلانى في المواهب عن ابن أبي خيثمة ، ورده ابن حجر في الإصابة فقال : « وهم من زعم أنه أسلم سنة خمس ، وهو حرى بالرد ، وعدم القول ؛ لأنه ثبت من رواية من لا يرقى إلى روايته الشك ، الإمام البخاري ، أن خالدًا كان في الحديبية على خيل المشركين ؛ فقد جاء في صحيحه عن المسور بن عجرمة ، ومروان بن الحنبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن خالد بن الوليد بالنعيم في خيل قريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » ولا يمكن أن يتفق ذلك مع القول بإسلام خالد سنة خمس إلا إذا زعم زاعم أن خالدًا أسلم ثم رجع ، ثم أسلم ، ولم يقل أحد مطلقاً بنحو هذا .

بقى قول خامس لم يذكره ابن عبد البر ، وهو أن خالداً أسلم سنة سبع ؛ ذهب إلى ذلك الحاكم ، وجزم به ابن حجر في « الإصابة » فقال : وشهد خالد مع كفارقريش الحروب إلى عمرة الحديبية . كما ثبت في الصحيح أنه كان على خيل قريش طليعة ، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر ، وقيل قبلها .

وأرجح هذه الأقوال ميزانا قول من ذهب إلى أن إسلام خالد كان بهجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ثمان من الهجرة ، لأن رواية البخارى ، وهى أرفع الروايات ، بينة في أن خالداً كان في آخر سنة ست زمن الحديبية طليعة لقريش وأميراً على خياله . ولم أر من الروايات ما ذكر خالداً في وقائع سنة سبع لا مع قريش ، ولا مع المسلمين . ويبعد جداً أن يكون خالد دخل في الإسلام معلناً سنة سبع ، ثم لا يردله ذكر في وقائعها بجانب جنود الإسلام ، اللهم إذا فهمنا أن المقصود بإسلامه استقرار الإيمان في قلبه من غير إعلان إسلامه وهجرته للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يبعد أن تكون معركة الإيمان بدأت بين عقل خالد وقلبه منذ الحديبية وموقفه فيها ، فكان ذلك آية من آيات الله فتج بها قلب هذا البطل العبقري إلى نور الإسلام ، فدف إلى ، وشع في أرجائه ، وانكشفت عنه حجب الجاهلية ، واستقام له الميسم ، وتبينت له الطريق ، وظهر له الحق ، وذهبت عنه نخوة العنجهية ، وتبرزها بموروثها ، ولم يبق عايه سوى الإعلان والجثوب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتأق منه راية الفتح ولقب البطولة .

وقد يكون من الخير أن يترك الحديث لخالد نفسه ، يتحدثنا ونحن نصمى إليه ، ويحكى لنا كيف دخل سبب الإسلام إلى قلبه ؟ وكيف أسلم ؟ وكيف استقبلته النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟

روى ابن سعد في الطبقات عن الحارث بن هشام قال : سمعت خالد بن الوليد يقول لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قذف في قلبي حب الإسلام ، وحضرتني رشدي ، وقلت : قد شهدت هذه المواقف كلها على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فليس موطن أشهد إلا وأنصرف وإنى أرى في نفسي أنى موضع في غير شيء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية خرجت في خيل قريش ، فلقيت (م ... ٤ خالد بن الوليد)

رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان ، فقامت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهور إماماً : فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا ، وكان فيه خيرة ، فأطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الحروف ، فوقع ذلك منى موقعاً ، وقلت : الرجل ممنوع ، واقتربنا ، وعدل عن سنن خياننا ، وأخذ ذات اليمين فلما صالح قريباً بالحديبية ، ودافعتة قريش بالراح قلت في نفسي : أي شيء بقي ١١٢ أين المذهب ؟

أإلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده .

أفأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية ١١٣

أأقيم في عجم ؟

أو أقيم في داري فيمن بقي ١١٤

وبينا أنا على ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة الفضية ، وتبليت فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العمرة فطلبني فلم يجدني فكتب إلى كتابا ، فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ١١ ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أين خالده ؟

كتاب أخيه
الوليد إليه
وأثره في
نفسه

فقلت : يأتني الله به .

فقال : ما مثل خالده يجهل الإسلام ، وأو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له : ولقد مناه على غيره ؟ فاستدرك يا أخي ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة » .

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام وسررتي بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ورأيت في النوم كأنني في بلاد ضيقة جدبة شجرت إلى بلد أخضر واسع ، فقلت : إن

رؤيا صادقة

١ هذه الرؤيا حق ، فلما قدمت المدينة ، قلت : لأذكرنها إلى أبي بكر ، فذكرتها فقال :
 للـ هو مخرجك الذي هداك للإسلام ، والضيق الذي كنت فيه : الشرك .
 خ فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصحابي إلى محمد ؟
 بن فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ ١١٩ إنما نحن
 ١ أ كاة رأس ، وقد ظهر محمد [صلى الله عليه وسلم] على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه
 فاتبعناه ؟ فإن شرف محمد شرف لنا . فأبى على أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيري من قريش
 ما تبعته أبداً ، فافترقنا ، فقلت . هذا رجل مواتور ، يطلب وتراً ، قتل أبوه وأخوه
 يسدر ؟

فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال
 صفوان ، فقلت له فاطلو ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره .
 وخرجت إلى منزلي ، فأمرت براحتي تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة بن
 أبي طلحة ، فقلت : إن هذا لي لصديق ، فلو ذكرت له ما أريد ؟
 ثم تذكرت من قتل من آبائه ، فكهرت أن أذكره ؟ ثم قلت : وما على وأنا راحل
 من ساعتي ؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر ، لوصب
 العاص عليه ذنوب من ماء خرج ١١
 وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة ، وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد
 أن أغدو ، وهذه راحتي بـ « فجع » مناخة ، واعدت أنا وهو « يا جيج (١) » إن سبقني
 أقام ، وإن سبقته أقت عايه ، وخرجنا جميعاً ، فأدجننا سحراً ، فلما كنا بـ « الهده »
 إذا عمرو بن العاص ، فقال : مرحباً بالقوم ، قلنا : وبك .

قال . أين مسيركم ؟
 فأخبرناه وأخبرناه أنه يريد النبي صلى الله عليه وسلم ليسلم ، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول يوم من صفر سنة ثمان ، فأخذنا بظاهر الحرة
 ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . « رمتكم مكة بأفلاكبدها » .
 وفي رواية أخرى فقال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟

(١) مكان على ثمانية أميال من مكة في طريق المدينة كان قرية عامرة في غابر الزمن ، وبه الآن
 هلمنا التميمي ومسجد عائشة حيث اعتمدت أم المؤمنين عائشة وكان معها أخوها عبدالرحمن بأمر النبي
 صلى الله عليه وسلم .

قال : فما الذى أخرجكم ؟

قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد ، قال : وذلك الذى أقدمنى فأسطحننا حتى أقدمنا المدينة ، ثم لبست من صالح ثيابى ، وعممست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقينى أخى ، فقال : أسرع . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بقدمك فسر به ، وهو ينتظر ، فأسرعت المشى ، فلما طلعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه بالنبوة . فرد على السلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذى هدانا لهذا قد كُنْتِ أرى لك علة رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » .

احتفاء النبى
صلى الله عليه
وسلم به
وأنواره عليه

وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقلت : استغفر لى كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله ، فقال : إن الإسلام يجب ما كان قبله . قلت : يا رسول الله على ذلك فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك . ثم تقدم عمر ابن العاص ، وعثمان بن طلحة فأسلموا وبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم أسلمت يعدل بى أسداً فيها محزبه .

هذه الرواية فى إسلام خالد رضى الله عنه وردت فى مصادر السيرة وتاريخ الصحابة وأقدمها ، وهى من حديث «خالد» نفسه عن نفسه ، وفيها تعيين وقت دخوله فى الإسلام بالسنة والشهر ، وفيها بيان الدواعى التى حركت وجدان البطل حتى دلف إلى ساحة الإسلام بإيمان يجمع بين رضا العقل ، وراحة الضمير ، وهذه الرواية قطعت جبهة قول كل خطيب ، وإليها ينتهى المعير فى تحديد وقت إسلام «خالد» وهجرته .

فى قصة إسلام «خالد» وحديث هجرته ألوان من النظر والاعتبار ، وضروب من الناقب والمآثر ، وأفاين من مجالات العبقرية المحسنة بذاتها ، الشاعرة بقيمتها فى الحياة ، وفيها لفتات من الرعاية النبوية الكريمة أبانت عن شغاف فى حياة خالد موصولة البداية بالنهاية .

ألوان من
المعبر فى
قصة إسلامه

وأول ما يطالع الباحث من ذلك : الشعور النفسى الذى اضطرت به نفس البطل العظيم فى مرحلة الانتقال من دين الآباء والأجداد ، وعقيدة الأوثان والأنداد إلى دين بنام الإسلام وعقيدة التوحيد ، وهى مرحلة من أشد مراحل الحياة على النفوس القوية ، صلى لأنها مرحلة يتسلط فيها الشك المريب على نفس الإنسان فيذيبها على مافيه من عقيدة به وروايمان موروث ، ثم يخرجها خالية من الصور والأحاسيس ، حتى إذا أتاها اليقين الله بشواهد الحق تمثلت فى مرآتها آيات الإيمان بأهرة القاهرة .

نشأ كذلك بدأ إيمان بطل الإسلام « خالد بن الوليد » رضى الله عنه ، فهو قد شك فى هذا الشك ، شك فيما هو عليه من دين وعقيدة ، وشك فى مواقفه التى وقفها دفاعاً عن ذلك الدين الذى لا يعرف ما هو سوى أنه دين الوليد ، ودين قريش ، ودين العرب ، ثم انتقل من الشك إلى أولى درجات الإيمان ، فعرف أنه كان فى مواقفه كلها التى وقفها معانداً للإسلام ، موضعاً فى غير شئ ، لأنه يمشى إلى غير هدف ، فماذا إذا ؟

هذا قلبه قد خلا من الماضى ، ماضى الوليد ، وماضى قريش ، وماضى العرب ، فى الدين والعقيدة ، ولكنه لا يستطيع أن يخليه من عقيدة ينطوى عليها ، وأى عقيدة تلك التى يرتضيها لتعمر قلبه ؟ وهنا يبدأ طور جديد من الشك ، ولكنه شك لعله أهدأ من الشك الأول ، لأن ذلك اقتلاع لجذور متأصلة ، وهذا اختيار لعقيدة جديدة ، تملأ فراغ قلبه .

يعصور لنا خالد رضى الله عنه هذا الطور من حياته بأبرع ما يمكن أن تصور به حياة نفس حائرة ، تتنازعها عوامل متجاذبة ، لاتشبه ماضى قبلها ، ولا ما هو آت بعدها ، وكأنها يرضخ يفصل بين فناء لأطلال لأشباحه ، وخلود لانتهاى لقوماته فيقول :

« فلما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا بالحديبية قلت فى نفسى : أى شئ بقى ؟ أين أذهب ؟ أ إلى النجاشى ؟ فقد انبسع شمداً ، وأصحابه آمنون عنده ؟ أ فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دىنى إلى نصرانية أو يهودية ؟ أ فأقيم فى عجم ؟ أم أقيم فى دارى فيمن بقى ؟ فبينما أنا فى ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضية فتعيبت ولم أشهد دخوله » .

كانت هذه الحيرة النفسية تمحيصاً لعقل خالد وقلبه ، وإعداداً له ليستقبل حياته

الجديدة ، وليواجه الحياة بوجه جديد ، يعرف به بين أبطال العبقرية الإسلامية الخالدة

لو أن باحثاً كان يدرس حياة أحد فلاسفة الإلهيات ، ثم وقف من هذه الحياة مرحلة كهذه المرحلة الشاكة المعقدة التي رأيناها في حياة « خالد بن الوليد » أذابة من عقله وروحه موروث العقائد ، لرأينا من متفلسفة الباحثين من بعده هذا اللون الشك أعلى درجات اليقين في مراتب الإيمان ، ولرأينا منهم من بعده أعمق طرائق الفلسفة للوصول إلى ذروة الإيمان ، ولرأينا منهم من بعده أعظم عمل من أعمال العظماء المحررين من أغلال التعقيدات الجوفاء .

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في قصة إسلام خالد ذلك الكتاب الذي كتبه له « خالد » أخوه الوليد بن الوليد ، وكان قد دخل في الإسلام ، وطاب خاله آ في مكة مع المؤمنين فلم يجده ، وفيه يقول : « فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيتك عن الإسلام وعقلك عقلك » .

وهي عبارة تصور شخصية « خالد » ومكانته وامتيازه بعقل قارس ورأي ناضج .

ومن هذا الكتاب يظهر احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم بخاله ، وتقديره له بغيرية وعرفانه لحق بطولته ، فهو يسأل عنه ، ويعجب لإعراضه عن الإسلام ، ويرى أن لو كان خالد جعل نكايته وحده مع المسلمين لكان خيراً له ، وهو يقدمه على يده من أبطال المسلمين ، وفي ذلك من التقريظ والثناء ما ليس بعده غاية لأحد ، وفيه شهادة عظيمة على ما كان يحتله « خالد » من مكانة سامية ، وما كان ينتظره الإسلام منه في بطولته المستقبلية .

وقد حقق الله ذلك في مستقبل حياة « خالد » التي نراها ينافح عن الإسلام ، فكان فيها القائد المظفر والبطل العبقرى ، ولم يشهد النبي صلى الله عليه وسلم في حياته الكريمة من بطولة « خالد » مثل ما شهدت معجزته فيه وتأوه به بقرته ، فذلك آية الآيات على ما خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من نصر بمقاتل الرساو وورثهم بغير أن الخصائص التي تكون فيهم كالعنوان على الكتاب ، ولما كان لا يقرؤها إلا من أوى نظراً نقاداً إلى ما وراء حجب الغيب . وفي سيرة أصحابه ومنابعهم وأسماءهم نرى في ذلك وتصديقه .

والأمر الثالث في هذه القصة: أن إسلام خالد رضي الله عنه كان عن فكر مقتنع ورأى مدبر ، وكرامة موفرة ، فهو إذ يليق داهية العرب عمرو بن العاص في طريق الهداية - وقد بدره عمرو بهذا السؤال ليكشف به خبيثة نفسه ، وهو أعلم بدو بتمامه في قريش - « يا أبا سليمان أين تريد » ؟ ولو كان غير خالد مأسأله عمرو ولا التفت إليه ويحييه « خالد » جواب الرجل المثبت الذي جعل عقله قائده ، فلم يتأثر أحداً ، ولم يخش أحداً ، ولكنه آمن لأن دلائل الحق أنارت جوانب نفسه ، وفنحت قلبه ، وأيقظ ضميره ، فقال : « والله لقد استقام الميسم وإن محمداً لنبي ، اذهب فأسلم ، حتى متى ؟ » ويفصح عن ذلك أكمل إفصاح مقالة عكرمة ابن أبي جهل مع خالد ليعده عن الإسلام ، قال عكرمة بعد أن أطلعه خالد على ذات نفسه رجاء صحبته : « قد صبت يا خالد » فقال خالد : « لم أصب ولكني أسلمت » قال عكرمة : « والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت » قال خالد : ولم . قال عكرمة : « لأن محمداً وضع شرف أبيك ، وقتل عمك وابن عمك بيد ، فوالله ما كنت لأسلم ، ولا أتكلم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله . » قال خالد : « هذا أمر الجاهلية وحميتها : ولكني والله أسلمت حين تبين لي الحق » .

هذا لون من التفكير لا يوزعه الباحث في سير الرجال وتاريخ الأبطال في غير تأمل ، بل هو يدعو إلى التأمل ، وإطالة النظر فيما انطوى عليه من اتجاهات تحدد قيم الرجال في موازين الحياة .

فهذا عمرو بن العاص داهية العرب ، وأحد الأبطال الفاتحين في تاريخ الإسلام ، له من خصائص « خالد » ما يجمعها في قرن العبقرية ، ولكنها عبقرية ذات ألوان وفنون ، لا يستوى في كلها حفظ الرجلين ، فالدارج يعنون كتاب عمرو بالدهاء ، ويطلو في صفحاته ماله بعد ذلك من منافع ونميرات ، ولكنه لا يعنون كتاب (خالد) إلا باسم خالد ، فسحانه يرى أن عبقرية خالد إنما هي في خالد كاه ، لا في خبيثة من خصائصه ، لأننا لانعرف في خصائص (خالد) خبيثة تنفرد بطرة الكتاب في مكان العنوان ، ثم يأتي غيرها بعد ذلك في الصفحات .

يبقى « خالد » عمرو آ في خبر جبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد أجمع في نفسه

على الإسلام ، وكلاهما يقدر صاحبه قدره ، ويزنه بميزانه ، فهل قرأ أحدهما منسج
على صفحة قلب الآخر ، فانتبها إلى غاية واحدة لم يساكنها إلا صحبة اليقين في باع
وإشراق التوفيق ؟ !

وهذا عكرمة بن أبي جهل أحد الأبطال وقوات الجيوش في الجاهلية والامة
من عبقرية ابن عمه «خالد» هذه الخصيصة في البطولة الشهيرة ، ياتاه «خالد» .
سبيل بيته وفرع أسرته في حديثه «خالد» عن وقوع الإسلام في قلبه ، فيرد عليه
رد رجل يعيش مع الجاهلية في سماتها ، يعز بعاها ، ويتأثر منها ، ورجل
«خالد» نذر من لم يرتفع عن شيب الخناس الفيل والعنسية الداهية ، وراح
ليرده عن قصده بأسلوب كان يتأذب خلاله إلى له لو ظلت نفسه في أفق الوا
جهل تدور .

ولكن الله تعالى قد خلق من خالد بن الوليد وابن عم أبي جهل ، خالد
المسلمين وسيف الإسلام ، فما شرف أبيه النبي وبعده محمد «صلى الله عليه وسلم»
وما عمه وابن عمه الآن قتلا يد ؟

هذا كله أصبح في نذر خالد سيف الإسلام «أمر الجاهلية وسماتها» وه
جعل في مواضع قدميه ، وألم إسلاماً دعاه إليه خالد ، واستجاب له فطوره
نبين له الحق .

والأمر الرابع في حديث إسلام «خالد» استشار النبي صلى الله عليه وسلم
وصاحبيه ، عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة الحبشي ، ما نذر خالد بن الوليد
قلاً بأفلاذ كبدها «وهذا أول وسام من أوسمة الشرف والسوية» فله «خالد»
الإسلام ، وشاركه فيه ثقي سبهم ، وفق عبد الدار ، رضي الله عنهم ، وهي ثمة من نه
السلام النبوي ، تأخذ بنسبتي ثقي مخزوم خالد رضي الله عنه إلى ما يسدله من
ونيل في ظلال الإسلام ، وهي إذا صورت خالد وصاحبيه في السوداء من وجاهة
وعزنها ومجدها ، فإنما تعني وصل هذا الجيد بجهاد الخلود في تاريخ الإسلام .
جوانب البطولة الشافرة تمت سمع الدنيا وبسرها .

والأمر الخامس في حديث إسلام «خالد» تلك الرعاية التي اختص بها النبي صلى الله عليه وسلم «خالداً» وذلك السرور الذي أشرق به وجهه الكريم فرحاً بإسلامه، وتقريبه وإظهار فتنيته في عقله، وشجاعته . قال خالد : « فابست من صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبني أخى ، فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك بسر بمؤامرك ، وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه فما زال يتسم إلى حتى وقفت عليه ، فسمعت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق » . وهنا يقف «خالد» رضى الله عنه ليسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلى عليه السطر الأول من كتاب البطولة وسفر العبقريّة الخالديّة في مشهد من المهاجرين والأنصار، مصوراً في تلك المخاضة البارعة التي فالما لخالد بعد أن شهد شهادة الحق : « الحمد لله الذي هدانا لهذا » .

وقد تسنم خالد بها الناج العبقري الذي توجه به النبي صلى الله عليه وسلم ذروة الحياة الجديدة ، وهو لما نزل في أولى درجاتها ، وما كان الإسلام وهو دين الهدى والنور وشريعة العزة والكرامة ليهادر خصائص الأفراد التي كانت لهم قبل إشرافه في أرباب ، نفوسهم ، مادامت تلك الخصائص مما يسمو بالإنسانية ويعزها .

و- سيديّة العتق التي أشاد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بطل الإسلام «خالد» رضى الله عنه من الحملات التي لا تحدها الأمكنة ولا تخضع لقيود الأزمنة .

فهو من خرج إذاً أن يعرف «خالد» لنفسه قيمتها ، ويضعها من الشرف والسيادة موضعها ، ثم يتوسّع عن ذلك تحدّثاً بعمّة الله تعالى عليه ؟

قال «خالد» وهو ياتي الستار على أول فصول روايته « والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهابني أحدًا من أصحابه فيما يحزبه »

والرسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الناس فراسة وأدقهم نظراً ، وأنفذهم بصيرة وأحوصهم - نبأ ، وأباهم حكمة ، وأهداهم سبيلاً ، وأعد لهم مبرأنا .

وفي قول «خالد» فابست من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألتج . « لفتة لطيفة تطامح على تنجديد من أخلاق «خالد» في مظهره ، فابسه من صالح ثيابه ليلقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في رى جميل ، وهيئة متناهية تعطينا صورة من نزوعه إلى الجمال وحب النجمل في المخالف ، ولقاء من لم يكن قد رفع يده

وبينهم حجاب الاحتشام ، وهذا لون من حياة السكينة أو المتكاملين في طبقات الخ
من الناس ، وهو ليس عارية ولا تصنعاً في حياة خالد ، ولكنه خلق وطبيعة يتفق
نشأته وتربيته ومظاهر الحياة في أسرته وبيته .
لعظماء الأمور أراد الإسلام « خالداً » ولها زكى رسول الله صلى الله عليه و
« خالداً » وأثنى عليه .

ومثل خالد إنما يراد للشدائد يكشفها ، وللابطولة يمثلها . قال ابن عبد البر
الاستيعاب ، وابن الأثير في الأسد : ولم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى
عليه وسلم أعنة الحيل ، فيكون في مقدمتها في محاربة العرب .

وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيف الله » :

روى الترمذى عن أبي هريرة قال نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من
جبل الناس يعمرون ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ؟ فأقول : فلا
حتى مر خالد بن الوليد ، فقال : من هذا ؟ قلت : خالد بن الوليد ، فقال : « نعم عبد الله
هذا ، سيف من سيوف الله » .

وفي الاستيعاب عن عبد الله بن أبي أو في قال : اشتكى عبد الرحمن بن عوف
خالد بن الوليد للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا خالد لم تؤذى رسولاً من أهل بدر
لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله » قال يا رسول الله إنهم يفتنون بي ، فأرسلهم
فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله : صبه الله
على السكفار) .

وروى عن ابن عباس أنه قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام
فقال عمار : لقد هممت ألا أكلمك أبداً ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
« يا خالد مالك ولعمار رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدرآ ؟ » وقال عمار : إن خالداً
يا عمار سيف من سيوف الله سله على السكفار) قال خالد : فما زلت أحب عماراً من يومئذ .

وفي الإصابة : لما عقد أبو بكر لخالد على قتال أهل الردة قال : إني سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : (نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيب من سيوف
الله سله على السكفار) . وروى الإمام أحمد أن عمر استعمل أبا عبيدة على الشام وعزل

خالد بن الوليد ، فقال خالد : بعث عايكم أمين هذه الأمة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله :

فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم نقي العشرة .

وفي هذه الأحاديث من نفحات النبوة ما يؤكد الذي أُلغنا إليه من صادق النظرات . النبوية في الشخصيات التي اتصلت بالنبي صلى الله عليه وسلم انصال تربية وتهذيب ، فكل شخصية منهم فضلهام ومكانها ؛ وخالد بن الوليد من ذلك خصيصة التي عقدت بناصيته لواء العبقريّة وبطولة الإسلام . وهو في كل حالة ومع كل شخص « سيف من سيوف الله » وقد كان خالد رضى الله عنه في خلافة الإيانية متساوقا مع سائر خلافة الفطرية ، فهو ضرب من العبقريّة الشاملة التي تستطيع أن تضع عنوان باطنها على ظاهرها ، وعنوان نازرها على باطنها .

وإذا كانت نصايف الحياة أملت على التاريخ سيرة خالد بن الوليد نحت عنوان « البطولة » ، فذلك لأن خالد رضى الله عنه كان في هذا الجانب من العبقريّة نسيج وحده فاستجاب التاريخ في تدوين سيرته إلى ما ألقى إليه من وحى الخصائص في حياة الرجال .

وهو وراء ذلك مع الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سائر الخصائص التي نرفت فيهم طوائف وأفراداً ... وإن تعجب فمعجب أن ترى عبقريّة خالد تنفذ إلى لون من الخصائص ، أبعد ما يكون - في الظاهر - عن خصيصة البطولة التي عنوان بها التاريخ سيرة خالد بن الوليد بين رجالات الإسلام . ذلك هو خصيصة الإيمان الناهر الذي يبلغ في بعض وثباته حد الإعجاز ، ومجازة قوانين الطبيعة . في مشاهد الحس المحدود .

وهذا الإيمان عند التحقيق - هو منشأ العبقريّة في جانب البطولة عند الأبطال . وإنما موضع الإعجب فيه موضعه من سيرة خالد ، وسياسة التاريخ له في أسلوب ينأى به عن مطارح البطولة وهزوماتها ، ويقف به عند حدود الخوارق والكرامات ، وهو بهذا العنوان يقع هنا وهناك ، فلا تقبله خصائص خالد رضى الله عنه إلا على ضرب من التأويل يردّه إلى تنبؤاته الأصيل .

وتأويل ما يروى من هذا النحو في سيرة خالد أنه ضرب من سيطرة القوى الروحانية في الأبطال على سرائرهم وليابهم المادى وصورهم الجثمانية فتتفعل أمامها التفعال

المادة إذا أضيف عليها مزيج يذهبها ، على أن أعمال البطولة لا يسوغ أن يبرهن بها ما رواه العرف والعادة فهي في أكثر أمورها فوق هذه القوانين ، وإنما جعل لها هذه الوقوانين خاصة لمكانها في غيرها الخاص وحيدوها المطلقة .

وعلى هذا النحو نفهم ما جاء في بعض الآثار المشهورة من نزوات الجاهل التي مثلها مثلها لهذا الإيمان الفاضل عند بطل الإسلام خالد بن الوليد ، فالتفت إليه ما رواه جابر الإصطابة قال : لما قدم خالد بن الوليد الطيرة أتى بسمعه فوضعه في راسه فمضى ولم يضره ، وقال أيضاً : وروى ابن أبي الدنيا باب من سمع من رجل من بني النضير أن ابن الوليد رجل معه زق خمر ، فقال اللهم اجعله مسلاً فصار مسلاً ما بقي منه هذا الوجه : من رجل خالد ومعه زق خمر ، فقال ما هذا .

قال : حل ، قال : جعله الله مسلاً ، فظهروا ما جاءهم من ابن الوليد من (١) . وروى الطبري قصة السم بشي ، من القليل فقال : ابن الوليد ما كان له من

(١) قد تكون بعض العقول وقفة في معنى هذه الأحاديث ومسامها ، ومن وقفة فلا بد من النظر العلمي أكثر من المنوع للألوف المتكرر فيها تسمية الأسماء والطبيعة ، ونحن نعرف ما هذه الطبيعة في حقيقةها : وما هذه القوانين السريعة التي تضمنها ما رواه ابن أبي الدنيا كما نفهم من الطبيعة وقوانينها سنن الله تعالى في الوجود ، قلنا : نعم ، ولكن من الذي أهدانا أن سنن الله يمرى دائماً وفي مشهودته وما ألقم في الجاهل لأن الله الذي خلق البشر وهو هو القادر على أن يجرها في أي اتجاه شاء لإشياء ومن شاء حقيقة آلاء نبي الألباء ومن لم يؤمن بهذا فليس الإسلام به كبير حاجة .

ولم نشأ أن نذهب في تعاليل نحو هذا التكبير بما ذهب إليه علماء الفلاسفة من سائر أدي الباطنة في الإنسان على قواه الظاهرة ، وأن نثير الإيهام بما يجعل الإحساس خاصاً لما هو أعمق منه ، لم تقر بالعقول الذين أخضعوا تفكيرهم لتقليد ما سموه علماً ولم نشأ أن نذهب في تعاليل مثل هذه المواقف بما يذهب لآلية الروحانيون في جميع الملل من أنير الأرواح ، الأجر ، أمثالها ، ما كانت حقايقها وهم أمور لم يؤمن بها جمهور أهل العلم والمثقفين .

ولم نشأ أن نضرب الأمثال ونسوق المواقف بما وقع على أيدي العلماء والباحثين في العلوم ، بل يظن في بدء النظر لما يزعمون أنه قانون الطبيعة ، لم نشأ أن نذهب إلى هذا أو ذاك ، نذهب مذهب جمهور المسلمين في اعتقاد أن الله يؤيد المصطفين من الناس بما ينضم لهم الطبيعة في بعض أحاسنها ، وقد اتفق أهل الأديان قاطبة على وقوع ذلك الأبناء في دولهم من سائر الأمم والامدة فيه عندنا صحة النبل وثقة الرواية كيفما كانت طبيعة الحادث وسوره .

الحيرة . نظر إلى ابن بقليلة وكان معه منصف له متعلق كيساً في حقوه ، فتناول خالد الكيس وشرما فيه في راحته فقال : ما هذا ، قال : هذا وأمانة الله سم ساعة . قال : ولم تحتجب السم ؟ قال : خشيت أن تكونوا على غير ما رأيتم ؛ فقد أتيت على أجلي ، والموت أحب إلى من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي . فقال خالد : إنها لن تموت نفس حتى تأتني على أجليها ، وقال : بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض ورب السماء ، الذي ليس يضر مع اسمه داء ، الرحمن الرحيم .

فأهروا إليه لينعوه منه ، فبادرهم فابتلعه ؛ فقال ابن بقليلة : والله يا معشر العرب لتلكن ما أردتم مادام نسبح أحد أيها القرن ، ثم أقبل على أهل الحيرة وقال : لم أركل يوم امرأة أو ضح إقبالا . .

إلى هنا نقف بالحديث عن أوائل خالد وإسلامه ، ونفتح كتاب عبقريته الغامرة ، ونملي من صفحات بطولته الباهرة أسطرا ليقرأ المسلمون فيها آيات البراعة في سياسة الحروب وقيادة الجيوش قيادة مظفرة ، ليستخلصوا منها الأسوة النافعة والعظة البالغة .

الفصل الثالث

خالد في الإسلام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

بجبال العبقريات - - العرب والعبقرية - مكانة خالد في الإسلام - روح
الإسلام وطبيعة خالد - أول وقائع خالد في الإسلام - إمارة خالد في غزوة مؤتة -
القائد الممكر - اختلاف الروايات في هذه الغزوة - رأى في الموضوع - إمارة خالد
في فتح مكة - خالد يحطم « العزى » .

مجال العبريات

لم تكن جزيرة العرب بقباثلها المنائرة هنا وهناك ، وحياتها الاجتماعية الضيقة المحدودة ، لتتسع آفاقها لعلايات العبريات الخصيبة المكثرة ، وجولات البطولة الفاهرة الماهرة ، ومرامى النبوغ الفوى الباهر ، وحاجات الطبائع الفتية الثائرة. وإنما العبريات في الأمم كالشمس في الحياة ، ترسل أشعتها في الآفاق فيصيب ضوؤها كل موجود أدركه ، وحظه منه على قدر استعدادده وتعرضه له بغير حجاب ؛ فإذا أقيمت دونه الحواجز الكشيفة انخس معلنا عن وجوده في صور مشعة تبدد أستار الظلام. ولكل أمة حظ من هذه العبريات ، يستثيرها الزمن إذا تكامل الامة رشدها وتهيأت للعبرية أسبابها .

العرب والعبرية

وقد كان حظ الأمة العربية من هذه العبريات حظا وفيرا ، بيد أن ذلك ظل كما نلاحظ استثناء الإسلام بما أزرع من - حجب ، ومرق من أسدال ، فانبعثت شمس العبرية العربية تشرق في آفاق الوجود ، ثم قارخا بعد أن نالت حبيسة بين أودية الجزيرة ووهادها ، لا تنس لها الحياة وجودا ، ولا يعلم الناس عنها شيئا غير لمعات خافتة تألق حيناً وتخبو أحيانا .. وإذا بهذه الأمة البدوية تخرج من صحرائها معلة تحمل إلى الناس دينها هذا ، وتشريعا عادلا ، وسياسة حكيمة ، وأدبا فاضلا ، وفكرا سرييا ، وقيادة في الحروب مظفرة وبطولة بارعة ، مما سير الأمم ، وأدهش المفكرين ، ولتأنها العبرية الخصيبة المستنزة أطلقها الإسلام من قيود القبالية إلى فضاء العالمية ، وفكها من أغلال العنصرية إلى ساحات الإنسانية ، وانسها من رتبة الذنوبية الزارئة إلى دعوة الأخوة العامة ، فراحت تستبقي إلى الحلود حتى أنامت على ذرونها غير مدانة ولا منازعة ، و« خالد بن الوليد » مثلها المضروب ، وشاهدها المذاور ، فهو في جاهليته بطل من أبطال الجزيرة العربية ، وفي من فتيان مكة ، وفارس من فرسان قريش ، وهو في إسلامه بطل من أبطال الإسلام ، وقائد سامي من قواد الحروب لم يعرف الهزيمة قط ، ومفخرة من مفخرة العرب ، ورجل من رجالات التاريخ الأفاضل .

مكانة خالد في الإسلام

أسلم « خالد » رضي الله عنه ، وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم . وهو أعرف الناس بأقدار الرجال - من التقريظ والثناء عليه ما لم يقله لأحد سواه ، ورأى من احتفائه به ما لم ير لغيره مثله ، فأعد نفسه لمسكنها في الإسلام ، وهل لخالد في حياته الجديدة مكان غير قيادة الأبطال ، في معامع الوصى والنزال ؟ نعم ، ولذلك وجهه الإسلام . (٤ م — خالد بن الوليد)

ألم يقل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه سيف من سيوف الله » ؟

بلى ! وقد شهد منه الإسلام مأقر عينه ، وأرضى دعونه ، فسخن في جميع مواقفه القائد الخنك ، والسياسي الحكيم ، والبطل الصنديد ، والجندى الصادق ، والشجاع المقتحم ، والفارس الجريء ، والمفكر الحازم ، والعقل السدد ، والعلو الذي لا ترعده الحوادث ، ولا تستطير حمله الشدائد ، والمؤمن الذي لا يسنفره النصر ، ولا يظفره العجب ، ولا تملكه الخيلاء الجوفاء ، ولا تخدعه الخدع ، ولا يعجزه الأبطال ، وهذه المزايا منتهى ما يمكن أن يجتمع لرجل في أمة ، وغاية ما يطمح إليها قائد ماهر من فواد الحرب في القديم والحديث ، ولقد كانت في خاله حقائق هي بعض ما جاء الله به من خصائص أحكامها الأحداث ، وسقلمها الشدائد ، وهذبها البحار ، ورباها الإسلام وسجلها له التاريخ .

روح الإسلام
وطبيعة خالد

كان إسلام خالد رضي الله عنه بعد أن حمل الإسلام به السيف ، وأشد ما ساعدته ، واستقامت قناته ، ودوت صوته واستطاع أن يرتد العدا وان عين دعوه ، وأعان في الناس أن القوة يجب أن تنصر الحق ، وتتولى نشر الهداية ، وترفع راية العالم الأخلاقي ، وتتصف المظلوم ، وتوطد دعائم الحرية الفاضلة ، وتؤذن بعشيقته الله في رفع المستضعفين عن حضيض الدالة والهبوان إلى مستوى العزة والكرامة : « وترى أن من على الدين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ، ويعلمهم الوارثين ، ويسان لهم في الأرض » .

لقد نازل الإسلام خصومه ، فكانت بينه وبينهم ومائج أمواجها وأسلطها بحرها وامتنحن ، وكان لا يزال أوارها يستعر حين تلف « خالد » إلى الممر المأزق الذي يسهل بين أحضان هذه الدعوة الجديدة التي تجاوزت روحها المجاهدة مع طمس المخزوم ، وهذا الوجه الجاد الصارم استقبل الإسلام بطله الجديد ، وبهاه الروح المعوية أول البطل على دينه الجديد ، ودفع هذا الدين البطل إلى المارد الحق ، ونجات عمره (خالد) في أول وقعة إسلامية حضرها ، وهي وإن لم تكن به بقاء ، إلا أنها إلهام ، وكان في طليعتها جنديا ، وغدا ينصرها قائدا عبقريا .

أول وقائع
خالد في
الإسلام

ومن عجيب صنع الله تعالى في حياة هذا القائد الموفق ، أن يكون أول مواقفه الإسلامية هي أول موقعة يقف فيها الإسلام أمام أعظم دوله في ذلك التاريخ - دولة

«الرومان — وجهالوجهه . وكأنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك إرهابا للكبريات الأحداث التي عصبت بهذا البطل العظيم في تاريخ الجهاد الإسلامي . وأعاصير الردة التي كادت تعصف بالحياة الإسلامية لولا معجزة الإيمان الحازم من أبي بكر الصديق ، وعبقريّة القيادة من قائد قواده « خالد بن الوليد »

عرفت تلك الموقعة في كتب السير والتاريخ بغزوة (مؤنة) وهم اسم الموضع الذي انحاز إليه المسلمون في أرض البلقاء من أطراف الشام . وجملة القول فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث (الحارث بن عمير الأزدي) رسولا إلى ملك بصرى يدعو إلى الإسلام ، فلما نزل الحارث مؤنة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، فعدا عليه وقتله ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك في ربيع الأول من سنة ثمان قد سرى سرية بقيادة كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح وراء ذات القرى قريبا من الشام ليدعوهم إلى الإسلام ، فقتل جميع من كان في السرية — وكانوا خمسة عشر رجلا — غير أميرهم ، فإنه نجح بجراحاته ، حتى إذا برد عليه الليل لمعامل حتى قدم على أبي صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فاشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، وندب الناس للجهاد ، وإرهاب الأعداء ، فأسرع جند الله ، واجتمع منهم ثلاثة آلاف عسكريا خارج المدينة بموضع يقال له (الجرف) فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل ، فجعفر بن أبي طالب ، فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرضى الله عنه وقال يا رسول الله : ما كنت أذهب أن تستعمل على زيد ، قال : امض . فإنك لا تدري أي ذلك خير ؟)

كان «خالد» رضي الله عنه جنديا في هذا الجيش كغيره من المهاجرين والأنصار ورجالات الإسلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلم مكانه ، ولم يعينه في القواد ، فلم يعترض كما اعتراض غيره ، ولم يتخاوص ذهابا بنفسه عن الجندية تحت إمرة مولى من الموالى ، وبذلك وضع الإسلام أعظم مبدأ في تقدير الفئائل الإنسانية في الأشخاص ؛ فهذا عتيق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه أمير جيش فيه من رجالات قريش وأبناء البيوتات من المهاجرين والأنصار من يصلح لتولي الإمارة ، ولكن القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم

رأى أن مولاه زيدا أهل الإمارة قبل ابن عمه جعفر فأمره ، حتى علم الناس أن الأحساب والأنساب ليست من موازين الفضائل في الرجال ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه . فأى غضاظة على « خالد » رضى الله عنه أن يروض نفسه على أمر الرضا عليه المقابيس الصادقة في وزن الرجال ، وعنده منها ما يرتفع به إلى الندوة في الغد القريب ؟

دفع النبي صلى الله عليه وسلم اللواء إلى القائد الأول زيد بن حارثة ، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم ، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم ، فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع بكى . فقالوا له ما بك بكى ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباية بكى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردة كان على ربك حتما مقضيا » فليست أدري كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ فقال لهم المسلمون : وارج رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيعهم ، فمضوا قدما حتى إذا كانوا يتخوون الالتقاء لقيتهم جموع الروم ومن تبعهم من المستعربة في عدد هائل ، أكثر الرواة في تقديرهم ، وبلغوا حتى صعد به أكثرهم إلى مائة ألف من الروم ، ومثلها من سلم ، وجناب ، وبالنين ، وبهراء ، وبلى ، بمن كانوا تحت حماية الرومان من العرب ، وأسس مدينتهم أدفة التقدير في عدد هذه الجيوش الجرارة ، فلما نظن أن إسعاء الفرق والسناب والمعرفة أعدادها بلغ في ذلك الوقت من الدقة والنظام حالة تيسر جيشاً صغيراً منها من معرفة عدد جيوش ضخمة هائلة العدد كالتي تحدثنا عنها الرواة في هذا الموضع ؛ ولا شك أن معرفة ذلك تحتاج إلى نظام خاص في الخبرات ومعرفة أسرار الدول ، وأسلحة جيوشها وإعداد فرقها ، ومقدار كل فرقة ، ولم يذكر لنا الرواة شيئاً من ذلك عند المسلمين في مهادهم ومبدأ نشأة دولتهم .

والذى نطمئن إليه أن الروم كانوا قد تراءت إليهم أنباء المسلمين وأخبارهم على العرب في داخل الجزيرة ، وكانت دعوة الإسلام قد وصلت إليهم ، وثبت في صحيح الحديث أن هرقلهم بالاستجابة إلى الإسلام ، وأنه دعا قومهم إلى ذلك لئلا يسلم لهم ما لهم ، فلم يجيبوه وخصوا عليه ، فترضاهم ، وأقام معهم على نصرانيته ، وذلك لما جعلهم وجسود خيفة من المسلمين ، يترصدونهم ويستعدون لهم ، ويحرضون القبائل الأولية لهم لئلا يكون معهم حرباً على المسلمين . وهذه القبائل كانت تخشى ما يشاء الروم من سيول المسلمين ،

«وقد جاءتهم النذر من قباهم بهذه السرايا التي قتلوا بعض رجالها فكانت من بواعث هذه الغزوة ، وكان الروم في حذر دائم من الفرس أعدائهم المنافسين .

فليس ببعيد أن يكون الروم على أهبة عسكرية للقاء عدوهم ، فلما بلغهم مسير المسلمين إليهم استعدوا للقائهم بتمتات تنفق مع ما جال في خواطرهم من تقدير قوة الجيوش الزاحفة تقديرأ يعتمد على الخدس والتخمين تبعاً للأخبار التي ترامت إليهم ، وأخبار الحروب مخوفة دائماً بالملالعات الفضاضة . فالذي لاشك فيه أن جيوش الروم وأحلافهم في هذه الواقعة كانت أضغاث مضاعفة بالنظر لجيش المسلمين ، ولا يهيم بعد ذلك حصر عددها في مائتي ألف أو أول أو آخر .

نظر المسلمون إلى جيوش أعدائهم فوقعت كثيرتها منهم موقفاً ، فأنحازوا إلى قرية « مؤنة » وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونخبره بعدد عدونا ، فلما أن يمدنا برجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ، فخطبهم القائد الثالث عبد الله بن رواحة مشجعاً فقال « والله يا قوم إن الذي تسأرون للذي خرجتم تطلبون « الشهادة » وما تقابل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما تقايلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسينيين ، إما ظهور ، وإما شهادة » فقال الناس : صدق والله ابن رواحة . وثابت إليهم شجاعتهم ، واستمرت نفوسهم ، ومضوا إلى عدوهم بإيمانهم وسيوفهم ، والنجم القتال بين الفوتين على تفاوت ما بينهما في العدد ، والعدد ، وسمل اللواء أمير المسلمين زيد بن حارثة بصدق الجملة ، وقاتل حتى شاط في رماح الروم فأخذ اللواء أمير الناس بعده جعفر بن أبي طالب وقاتل وهو على فرس له حتى إذا لجم القتال نزل عنها فعرفها - وهو أول من صنع ذلك في الإسلام - وقاتل رجلاً وهو يرتجز .

ياحبدا الجنة واقتربها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنأعدائهم على إذ لا فيها ضرابها

فقطعت يده النبي ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، فقطعت فاحتضنه بعنقه ، وقاتل به حتى قتل ، ثم أخذ اللواء أمير الناس بعدهما عبد الله بن رواحة ، وكانما فاجأته الطبيعة البشرية ، وهو يرى الموت يختطف الرجال من حواياه ، فأراد أن يحدد لنفسه يقينا

يدرع به إلى لقاء الموت فجعل يستنزل نفسه وينهها وهو رجل شاعر فيقول :

أقسمت يا نفس لتنزلنه طائعة أو فلتسكره نه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالى أراك تسكرهين الجنة

قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة (١)

ثم عدل بنفسه إلى واد آخر من أودية القريش فقال :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلنى فاعلمها هسديت

وإن تأخرت فقد سقيت

ثم نزل إلى القتال فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال له : شديها صابك فانك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، فاتهش منه نهشة ، ثم سمع الخطمة في ناحية الناس ، فقال وأنت في الدنيا ؟ ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفه فتقدم إلى القتال وقاتل حتى قتل ، وكان آخر قائد عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رك الأمر بعد لرأى الجيش ، يختار لنفسه قائداً من أهل البلاء والخسكة .

وفي الحق إن هذه أدق وأخطر ساعة تمر بجيش مشتبك في المعركة ، يفقد فواده العيين ، ويصبح خالياً من قائد يسوس أمره ، وينظم صفونه ، وماذا ينتظر من جيش انفرط عقد نظامه بفقد أمرائه غير التماس طريق النجاة ؟ ولكن هذا الجيش الباسل إن يكن على قلة عدده قد فقد قواده الأبطال فانه لم يفقد روحه المعنوية ، وإيمانه القوى ، وتذكروا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يرتب القواد : فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم .

وإنما قال لهم رسول الله ذلك ثقة بكفاية جند الله الذين حزنوا على الجهاد والطراد ، وتدريباً لهم على سياسة الأمور إذا فاجأتهم الشدائد حتى لا يأخذهم البهر ، ويقعدهم البلاء عن التماس المنافذ في مضائق الأحداث .

إن كل جندي من جنود الإسلام الذين رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائد جعفل وبطل أمة ، وذلك هو السر في ترك الأمر بعد القواد الثلاثة شورى بين أفراد الجيش ، يقيمون على قيادتهم أميراً منهم ، يختارونه من أبطال الإسلام وبين أيديهم ميزان الفضائل منصوب .

ابتدر اللواء بعد استشهد ابن رواحة آخر القواد الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثابت بن أقرم العجلاني حليف الأنصار ، وهو بدرى من السابقين ، وصاح في الناس : يا للأنصار ! فجعلوا يشوبون إليه ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، ثم نظر إلى خالد بن الوليد ، فقال : يا أبا سليمان : خذ اللواء ، قال : لا آخذه ، أنت أحق به منى ، لك سن ، قد شهدت بدرأ !

قال ثابت : خذ أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك ، أنت أعلم بالقتال منى . ثم قال ثابت : اصطلحتم على خالد ؟ قالوا : نعم ، فأخذ خالد اللواء وتأمر على الجيش .

وفي هذه الرواية يرى رجلاً من أهل بدر يسرع لأخذ اللواء بعد أن لم يكن للناس أمير ، ويدعو القوم إليه ، وقد أصابهم من الاضطراب والفرع ما أصابهم ، فاستجابوا لدعوه ، وثابوا إليه فطلب إليهم أن يؤمروا أميراً منهم تحقيقاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم . فقال الناس لايت : أنت الأمير وقد رأوا من شجاعته وسابقته وسنه ما يجعله أهلاً للإمارة ، فأبى عليهم ثابت ، ولكنه رأى أن ينتهز هذه الثقة التي أضفاها عليه المسلمون في ساحة لا تعمل التناول ، فنظر إلى فارس قريش ، فقي غزوم « خالد بن الوليد » فقال له : يا أبا سليمان : خذ اللواء ، فهل هزت هذه الكلمة أريحية الحيلاء وحركت مشاعر الإعجاب في خالد فاستجاب لأول نداء باسم الإمارة ؟ لا . ولكنه أجاب ثابناً ، والمسلمون يسمعون ، بما دل على بعض ما حباه الله به من أدب رفيع ، امتناز به الفرسان من الظهور في أبطال الحروب ، الذين هم في غيبة عن مظاهر الاستمرار ، وأساليب التدريب ، فقال : أنت أحق به منى لك سن ، قد شهدت بدرأ .

فخالد يندرج في اثنين من عمل ميزانه أرجح للإمارة . في نظر خالد - من خاله نفسه ، فمن دونه من الناس ، ذكر أنه رجل مكتمل العقل ، على السن ، قد حنكته التجارب ، وسقته السون والسن في الحروب امتياز ، فأنها حاضنة الأناة والريث ، والحرب لا يصالح لها أحياناً إلا الرجل السكيت ، وذكر أنه شهد بدرأ ، وهذا أشرف أوسمة

الإسلام ، وقد علم خالد رضى الله عنه مقام شهيد بدر ، ومنهم من قارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخالد إذ يحرى بينه وبين عبد الرحمن بن عوف تعجب وتمعن إلى سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فيعتب منه ابن عوف فلا ينضله عليه بأمره من أنه رجل من أهل بدر ، وهو إذ يقع بينه وبين عمار بن ياسر فأنتم يا أبا له عمار ، يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا ينهيه خالداً عن عمار يا أبا له من قوله « مالك وعمار ؟ رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدرًا » . ولم تمنح الله أهل بدر هذا المنه فسالهم إلا لما خصوا به من الفضائل التي ليس أفعالها ولا أشؤونها ، معرفة الحق لأهلها ، ونسبهم الرجال بخصائصهم ، ومن هنا جاء رد ثابت على خالد ، فسمعه له : « والله ما أشرت اللواء إلا لك ، ويذكر له أبرز خصائص القيادة الحربية التي يحتاج إليها الله عز وجل أن تعلم بالقتال منى . فكأنه يقول بهذه الحكمة الجامعة : ليس الله فقه من ماله ، ولا عرض لأوسمة الإيمان بشهود بدر ، ولأنه موقف إنسان جليل عظيم عليه الجن ، يطلب قائداً حازماً عبقرياً ، وأنت يا أبا ساهان ذلك ، لأنك سمعته من رسول الله ، وهكذا توج المسلمون رأس البطل بتاج الإمارة وأصبح خالد سائداً بعد أن كان تابعاً . ومن هنا تبدأ صفحة البطولة الإسلامية في تاريخ خالد رضى الله عنه .

بدأ « خالد » رضى الله عنه حياته الإسلامية جندياً ، يحارب تحت راية أمراء المؤمنين صلى الله عليه وسلم ، وهو أطلع ما يكون جندي في جيش ، وأما من ذمهم الناس عن رجل في مكان « خالد » من العزة العربية والعنصرية الحربية والبطولة الشريفة ، والحرب بحك الرجال ، ومظهر الأبطال ومصنع العبادة ، وهو من في وصفه مؤيداً ، وهو في أول وقعة إسلامية حضرها خالد - ثلاثة أمراء ، كان النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ، ورتب إمارتهم على الجيش ، فالتفت المسلمون إلى أنفسهم ، وهم في أشد الخرج مجرمين عود رجالهم ، ليقوموا عليهم من أنفسهم أمير آيقودهم في هذه الحرب العظمى ، ولم يجدوا في يديهم من يسعفهم في محنتهم أشجع من خالد ولا أربع سادات في الحرب معه ، فاختاروه لقيادتهم ، ورضى هو بإمارتهم ، فماذا عسى أن يسرع في حياته ، من ذلك .

قلت والله لا أبرح اليوم حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهم ، إلى أن قال : ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فطاعن حتى قتل ، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا ، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال : إلى أيها الناس ، فأجمع الله الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد ، فقال له خالد : لا آخذ منك ، أنت أحق به مني ، فقال الأنصاري : والله ما أخذته إلا لك ، فأخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم ، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا .

وفي تاريخ الخميس للديار بكرى : « فأخذ خالد اللواء ، وحمل بأصحابه ففصل جمعا من جمع المشركين » ثم قال : « وقد جاء في بعض الروايات : اصطاح الناس على - الد ابن الوليد ، وأخذ اللواء وانكشف المسلمون وكانت الهزيمة » ثم قال : وفي الألفباء : فلما أخذ خالد الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ثم انحازوا حتى اندرف الناس ففالا ولادنا من المدينة تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، والله الصديقان يشددون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل مع القوم على دابة ، فقال : (ساءوا السبا ان فاسمواهم وأعطوني ابن جعفر) فأثنى بعبد الله بن جعفر فأخذه وسمله بين يديه وجعل الناس يحشون على الجيش التراب ويقولون يا فرار ، أفررتم في سبيل الله ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى) وبالن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لأمرأة سلمة بن هشام بن المغيرة : منلى لا أرى سلمة تحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : إنه والله لا يستطيع أن يخرج ، فطاحرج صاح به الناس ، يا فرار ، فررتم في سبيل الله ؟ حتى تعبد في بيته ؟ وعن أبي هريرة أنه قال : لما قتل ابن رواحة ، انهزم المسلمون ، فجعل خالد يدعوهم في أراهم وسمهم من الفرار وهم لا يسمعون ، حتى نادى قطبة بن عامر : أيها الناس لأن رسول الرجل في حرب الكفار خير أن يقتل حال الفرار ، فلما سمعوا كلام قطبة تراجعوا .

ثم قال الديار بكرى : وروى أن خالد لما أصبح أخذ اللواء ، فوجد مناصروا للمسلمين غير صفوف جيشه ، فجعل المقدمة مكان الساقة ، والساقة مكان المقدمة والمقدمة بين اليسرة ، واليسرة مكان الميمنة ، فوقع الكفار في غلط ، ففسدوا أن لحق المسلمين .

فوقع في نالوجهم من ذلك الرعب ، فانهزموا ، فتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا ، فعلم المسلمون من أموالهم فرجعوا إلى المدينة ، وفي مقلهم مروا بمدينة لها حصن ، وقد كان أهل الحصن قتلوا رجلا من المسلمين في مرورهم إلى مؤتة ، فحاصروهم ، وفتحوا حصنهم ، وقتل خالد كثيرا منهم .

وهذا أبو جعفر الطبري يقول : « فاصطلع الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز حتى انصرف بالناس » ثم روى بعيد ذلك عن خالد بن سمير قال : « قدم علينا عبد الله بن رباح الأنصاري — وكانت الأنصار تفتقه — فغشيه الناس ، فقال حدثنا أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بعث رسول الله جيش الأمراء ، فقال : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة » فوثب جعفر ، فقال يا رسول الله ، ما كنت أذهب أن اسمع زيدا على ، قال : امض فإنك لا تدري أى ذلك خير ؟ فمطأوا ، فابوا ما شاء الله ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ، وأمر فودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إلى رسول الله فقال « باب خير ، باب خير ، باب خير ، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي ؛ إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، فقتل زيد شهيدا واستغفر له ، ثم أخذ اللواء جعفر ، فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، فشهد له بالجهادة ، واستغفر ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيدا ، فاستغفر له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء ، هو أمر نفسه ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنه سيف من سيوفك ، فأنت تنصره) فلما يومئذ سمى خالد سيف الله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكروا فأمدوا إسلامكم ، ولا يمتثلن منكم أحد ، فنفروا مشاة وركبانا ، وذلك في حر شديد) .

وهكذا جرى أثر كتب التاريخ والسير . إن لم نقل كلها — في تدوين أخبار نقد وتحقيق هذه العزوة وغيرها من الحوادث الإسلامية البارزة ، فهذه الروايات التي رويت في مصادر تاريخية لها عند العلماء من المؤرخين قدرها وحرمتها ، وهي عندهم من أصول المراسع ودواوين التاريخ الإسلامي ، لا تقف عند الاختلاف في الأسلوب والعبارة ،

ولكنها تتضارب وتتناقض في معانيها ومراميتها وغاياتها تناقضاً لا يمكن معه التوفيق بينها في يسروا طمئنان ، ولا مناص من رفض بعضها ، ولستأ ندرى كيف قبل هؤلاء العلماء من أئمة التاريخ هذا التناقض العجيب ، فسجلوه ، ولم ينقدوا هذه الروايات فيخرجوا منها الزائف ويحققوا الصحيح ؟ وكان يسيراً عليهم لو أنهم سلكوا مسلك الموازنة والنظر الفاحص ، والفهم الممحص ، لأنهم أخبر بحال الرواة ، وأعلم بحال الوقائع والأشخاص .

ولا شك أن منهمجهم في التدوين من أكبر معوقات التحقيق في روايات التاريخ أمام الباحثين ، فلا يدرى الباحث ماذا يأخذ ، ولا ماذا يدع . وإذا كان التاريخ بين هذه الروايات مجال ، فاعل التي تذهب منها إلى ما تضمنته رواية ابن سعد الثانية ، وهي رواية شاهد معين ، أثقل في ميزان النقد ، وأقرب إلى الوضع المعقول ، لأنها ذكرت الهزيمة على المسلمين في مكانها المعقول ، وهو الوقت الذي تلا فيه جيشهم من مائد مسب أمره ، بعد أن فقد قواده الثلاثة ، وهذا وضع يحدث في كل جيش مصاب به أليم الاضطراب . فلا غرابة إذا أصيب بالهزيمة حينئذ . وذكرت النصر لهم والفتح ما هم في مكانه المعقول لما اجتمع أمر الناس على قائد تسبق شهرته إلى ملوب الجند . أما ما ذهب إلى شخصه ، فثبت إليهم أنفسهم ، وقويت أرواحهم وعازتهم يقينهم ، ووجدانهم ، هم شغل عنهم بعض الشيء بشوة الظفر ، فملوا اصابعهم ، ونالوا من عدوهم ما نالهم .

ويؤيد هذا التجميع ما جاء في رواية الديار بكرى ونحوه من الحطة الحربية التي ابتكرها خالد في تغيير نظام الجيش بما أدخل على العدو في بلاده الطريق ، بالاطمئنان به . وصول أمداد لجيش المسلمين ، وقد يدخل في باب تأييد ذلك حديث أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يا رسول الله مدد لجيش المسلمين بعد تأمير خالد بن الوليد ، وأن الناس نفر والإمداد لا يخافهم مشاة وركبانا ، كانت من أقوى مرشحات انتصار المسلمين على يد قائدهم الجليل . وهو من على هذه الرواية فهم الروايات فهماً يوفق بينها ، وهي أغرب روايات جاءت في هذه الغزوة ، لأن حديث الإمداد والنفر لم نعرفه في غيرها .

وقد أراد بعض المتأخرين من المؤرخين المتحررين من المذاهب والبيد ، فاستبعدوا

انتصار المسلمين في هذه الواقعة لقلّة عددهم وكثرة عدد عدوهم ، ولجأ إلى التأويل في روايات الفتح والانتصار ، وجعله مجازاً عن نجاة المسلمين ، وجرى في هذا الشوط بعض السكتين من المعاصرين .

رأى في.

الموضوع.

ولسنا نذهب هذا المذهب ؛ ولسنا نرجح أن المسلمين انتصروا ورجعوا ظافرين ، غير أنه ظفر الجولة ونصر الحملة المضادة ، لا ظفر الميدان ، ونصر الموقعة الحاسم ؛ أما حديث الفرار وتعبير الناس للجيش في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وردّه عليهم نضجاً عن أصحابه أن يعيروا بالفرار ، فذلك مالا نستطيع أن نعتمد عليه ، ولا الركون إليه ، ولا نضجاً إلى قوله ، لأن استمرار الناس في التعبير بعدما سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم من جود الجيش إلى حديثه سلامة بن هشام صهر رسول الله من حضور الصلاة معه ، بعيد جداً من رضا النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يعيروا بالفرار ، وهو لا يراهم فراراً ، ويعبر جداً من أدب الناس وطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر لا يبرونه ولا يهينه لأحد . من أصحابه

والاحتجاج بآية الله ، وقلّة المسلمين احتجاج لا يقوى على مواجهة التاريخ في حروب المسلمين ، لأنهم لم يعيروا بآية الله قط ؛ وإنما كانوا يشاربون بقوة العقيدة وثبات الإيمان ، وحربهم بالهبة ، وبطولة الجنود ، وحسب الموت في سبيل الله ، وأشهر مواضعهم مع الروم والفرس ثلثان الفاتوات فيها بين عدد المسلمين وقائهم ؛ وعدد المشركين في أكثرهم مظاهراً حياً ، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون .

وفي وصية عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بطل القادسية . (وإنما ينصر المسلمون بمعصية ، وهم لله وطاعته ، وأولاً ذلك لم تنال لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كما دهم ، وعدنا كما است كما دهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإن لا ينصرناهم يندنا لم نعلمهم بقوتنا)

والفران الكرم . عمل المسلم الواحد بعشرة رجال من الكفار في أول الأمر ، ثم خفف الله عنهم جعل المسلم رجلين من السابقين ، وهذا تسجيل للتفاوت المعنوي في القوة والجلاد ، وهو الذي درج عليه المسلمون في حروبهم ومشهور وقائعهم .

فالكثرة العددية لا دخل لها في النصر الحربي ، وقد تؤدي مكيدة من مكايدها للقواد والأبطال إلى ما لم تقم له الألوف المؤلفة من الرجال والعتاد ، والله تعالى يحكي عن أولى اليقين من المؤمنين قولهم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » .

ويمكن تأخيص رأينا في هذه الموقعة بأن المسلمين لما أصيب قائدهم الثالث : عبد الله ابن رواحة ، وكان آخر المعينين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فزعوا لظول الخطب بإصابتهم في قوادهم الثلاثة وانفراط عقد نظامهم ، فأحدث هذا الفرع اضطرابا ساعد العدو على كشفهم فأنكشفوا ، وانهزموا فرعين ؛ حتى إذا أخذ اللواء خالد بن الوليد ، وذاع الخبر في الجنود تراجعوا ، وبات خالد ليلته يعمل فكره ، والمسلمون من حوله في جراحهم يقضون مضجعه ، فلما أصبح كان قد واثه الفكر العبقري بإحدى حديد الحرب . ذلك أنه أراد :

أولا : أن يدخل في روع العدو أن مدداً جديداً قدم على المسلمين ، لينصف بذلك الروح المعنوية لدى أعدائه ، ويوهن من قوتهم ، ويكسر من حدة الغرور الذي انتابهم من جراء النصر الذي نالوه على المسلمين .

ثانياً : — أن يقوى الروح المعنوية في جيش المسلمين بتبادل تحمل أعباء الحرب بين الجنود ، ونجدد المواقف في المعجوم ، وتوجيه طوائف الجيش إلى خطة جديدة بالظفر إلى خطة الأمس ، فعمد إلى حيلة تغيير الوضع الأول للجيش على ما ذكرته الرواية ، وهذا تدبير من أحكم التدبير ، حقق ما قصده الفائد العظيم من وقوع العدو في غائله ، وظنه وصول مدد للمسلمين ، أوقع الرعب في قلوبهم ، وهو أمر قريب للفهم والمعقول ، ولا سيما إذا انضم إليه شجاعة القائد الجديد ، تلك الشجاعة التي يقول في مظهرها سالم نفسه في هذه الموقعة : « لقد اندق في عيني يوم مؤتة نسمة أسياف فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية » .

ويؤيد رأينا تأييداً يرتفع عن الشبهة ما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك : « أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا ، وجعفرأ ، وابن رواحة للناس قبل أن يأمرهم خبرهم ، فقال « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعينه تذر فان ، حتى أخذ سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم » .

— ٦٣ —

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن الله تعالى قد فتح على المسلمين لما أخذ
رايتهم خالد بن الوليد ، وسمى خالدًا سيف الله ، ولا تسمى الهزيمة والفرار
فتحًا ، وإنما عرف الفتح في عرف الحروب الإسلامية بالظفر بالعدو والنصر
عليه ، وليس لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قول ، وليس لراو بعد
البخارى كلام .

— . —

الفصل الرابع فتح مكة

أمل المسلمون في فتح مكة . . . خروج النبي في أصحابه معتمرا . . . المفاوضات مع قريش ورجوع النبي بأصحابه عن مذبحة وفد عمر بن الخطاب في هذا الرجوع —
تفرض قريش العهد — ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد — خيبة أبي سفيان في سفارته . . . تجهيز رسول الله للفتح — تأهب خالد في فتح مكة — إسلام أبي سفيان وهيبة المسلمين في قلبه . . . خالد يحطم العزى .

أهل المسلمين

كان فتح مكة أملاً تجيش به صدور المسلمين منذ أحسوا قوة الإسلام تسرى في قبائل العرب ، فتجذبهم إلى حظيرة قدسه أفراداً وجماعات ، ثم تعاظم ذلك الأمل حتى لمحت به ألسنتهم وتحدثوا عنه في مجالسهم منذ كان العهد بينهم وبين قريش ، ذلك العهد الذي أفصح عن تأييد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بإحبابه به من كامل العقل ، ونافذ البصيرة ، ومحكم التدابير ، بما خفي بعضه على بعض الأكابر فكادوا . . . لولا أن من الله عليهم بالثبوت فثبتوا ، وأنجز الله تعالى موعوده لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وأتم نعمته على عباده المؤمنين بذلك الفتح المبين .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة معتمراً ، لا يريد حرباً ، وقد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي ، وسلك طريقاً ينزل به على مهبط الحديدية من أسفل مكة بعيداً عن طريق قريش حتى لا يصطدم بها ، فلما بلغ موضعاً يقال له ثنية المرار بركت ناقته القصواء ، فقال الناس : خلأت القصواء فقال : « ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش إلى خيلة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

وبينا رسول الله والمسلمون كذلك إذ أقبل عليهم بديل بن ورقاء الخزاعي — وخزاعة عمية نصحر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة — فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد نزلوا أعداد مياه الحديدية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلونك ، وصادوك عن البيت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضررت بهم ، فإن شاءوا مآدناهم مدة ، ويخالو بنى وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فدخل فيهم الناس فملوا ، وإلا فقد سموا ، وإن هم أبو أوفى الذي نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفى ، أو لينفذن الله أمره .

المفاوضة مع

قريش

بلغ بديل بن ورقاء قريشاً مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرعدت فرائصها وخضعت لبعض الأمر ، فندبت عروة بن مسعود الثقفي ليلقى رسول الله ، فتحدث إليه ، ورأى من عظمتهم بهيئة النبوة وتعظيم أصحابه له ما أدهشه وطامن من تنطسه ، فرجع

ورجوع النبي

بأصحابه عن

مكة

ثم لم تزل الرسل تغدو على رسول الله حتى بعثت قريش وفدًا من أهل بن عمرو ليصالحوا رسول الله، فتكلم سهيل فأطال الكلام وتراجعا حتى أضر الساج بالهوى حتى وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، وعلى أن من أتى رسول الله من قريش بعد إتيان ربه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع رسول الله لم ترده عليه ، ومن أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين عامه هذا فلا يدخل منه على منتهى ، فإنه لا يكون عام قابل دخلها بأصحابه ليس معهم سلاح غير سلاح الرادب ، والوفد في الرادب .

تقص قريش
العهد

لم يكذب « خالد بن الوليد » رضي الله عنه يستقر بالمدينة وقد خذله في غزوة بدر من « مؤتة » أميراً ، وكان جندياً فأظفروه الله على عدو كان له في القلوب العربياً مشهورة ، جعلت غزوه مثلها في التندر من صناديد قریش على المسلمين ؛ حتى لا يسمعوا إلا ما بان قریشاً نقضت ما عاهدت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذت حذوها في كبر

على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشرافها : صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكر بن حفص بن الأخيف . ومن تبعهم من عبدانهم ، وبيتوا خزاعة ليلا ، وهم غارون آمنون ، فقتلوا منهم عشرين رجلا ، وخرج عمر بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من قومه ، يستنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أن ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت « بات عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليالي ، ثم قام وتوضأ للصلاة فسمعتة يقول : لييك، لييك ثلاثا . فلما خرج من متوضئته قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ١١ سمعتك تسلم إسانا ، فهل كان معك أحد ؟ قال : هذا راجز بن كعب يستصرخني ، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بنى بكر ؛ قالت ميمونة رضى الله عنها : فأقمنا ثلاثة أيام ، ثم صلى المسيح بالناس ، اسمه راجزاً يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجدين ظهراني الناس وهو يقول : —

لا هم إني ناشد محمدداً حاف أئينا وأبيه الأنددا
فوالداً لنا وكنت ولداً ثمت أسلمنا فلم تنزع يدا
فأنصر رسول الله نصرأعدداً وادع عباد الله يأتوا مددا
فهم رسول الله قد نجردا أبيض مثل البدر ينسى صعدا
إن سيم سقمنا وجهه نربدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشاً أخلموك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رعدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأول عسدا هم يبتونا بالوتير هجدا
فقتلونا ركعا وسجدا

فقام الذي صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه ، ويقول :

« لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسي » . ثم ثابت قريش إلى رشددها وأدركت سوء صنيعها ، فأرسلت قائدها وشيخها أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤكد العهد ، ويزيد في مدته ، فلما قدم المدينة دخل على ابنته ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد

أم حبيبة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، جاء ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوته عنه فقال . يا بنية : والله ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ! قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر .

هنا لفظة روحية سامية ، نسجلها ونمر بها جوازا ، تلك هي قوة الإيمان المسيطرة على العواطف والمشاعر التي لم يبق معها إلا قوة — وهي أعلى درجات الوشائج النسبية — مكان في إحساس الإيمان ، مما سجلته هذه المحاورة الطريفة بين والد الولد في صراحة جادة وحزم مؤمن ؛ هذا هو المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده » .

خرج أبو سفيان من بيت ابنته بعد أن رأى أبداع فصل في رواية بدأها ، إن لم يكن قد أَرْضاه ؛ وهو لم يَرْضه ؛ فلارِيب أنه حرك نفسه حركة غير إرادية في اتجاه لم يقصد إليه ولم يردّه ، ولكنه انتهى إليه في رحلته هذه .

خرج أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكاهما معاً من أحله فلم يرد عليه رسول الله شيئاً . ثم ذهب إلى أبي بكر فسكاهما أن يكلم رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل ؛ ثم أتى عمر بن الخطاب فسكاهما فقال : أنا أشفع لك إلى رسول الله ؛ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم ! ثم أتى علي بن أبي طالب ، ووالده فاطمة ابنة رسول الله ، وعندها الحسن بن علي ، غلام يذب بين يديهما ، فقال : يا علي ؛ إياك أفس القوم بي رحماً وأقربهم منى قرابة ، وقد جئت في حاجة فلا أرجمن كما حثت سائراً ؛ اشفع لنا إلى رسول الله ؛ فقال : ويحك يا أبا سفيان ؛ والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نسكاه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ؛ هل لاني أن أُمري بذلك هذا فيجبر بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت فاطمة : والله ما بلغ باني ذلك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر على رسول الله أحد .

هذا موقف من مواقف الاحتدام النفسي بين المفترسة المستطمة ، والمهجورة الخالعة في ذلة المغلوب ، وتضرع المتخاذل ، يعجز الفلم عن تصويره تصويراً مرمزاً مما لا لولاءات النفسية في خطوطه ، وإلا فكيف يستطيع الفلم أن يرسم بوارع أبي سفيان .

البطحاء، وشيخ قريش، وقائد جحافلها في حرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو يتضرع إليهم أن يمدواوه، فيصكه ابن الخطاب صكة الظافر المسكظوم، ويرده على رءم المهدد المستعلي، فتصاغر طمطممة أبي سفيان تصاغراً يأخذ بيده إلى ذيل طفل يدب بين يدي أمه وأبيه، ويسأل أمه سؤال المستعطف المتهايف أن تصعد بابنها من مهد الطفولة إلى سامقات الرجولية المسيطرة، فيجبر قريشاً وخطريتها أبا سفيان من جده رسول الله؟ ولكن فاطمة عليها السلام - وهي بنعة رسول الله - أدركت ما أصاب الشيخ من تفلت الأعصاب عن مرابطها، ولعلها ابتسمت إذ تقول له: والله ما بلغ بني أن يبحر بين الناس!!

هنا تماسك شطريف قريش، ونفض عن يده ذيل الغلام، وأخذ بعضد أبيه ريب النبوة، وقاهر قريش في (بار) يكشف له عن ذات نفسه فيقول له: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فأنصحنى، فقال له: والله ما أعلم شيئاً يعني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً شيئاً؟ قال: لا، والله ما أظن، ولكن لا أجدر لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت تقول ذلك يا أبا سفيان).

ثم انصرف أبو سفيان قافلاً إلى مكة فالتقاء زعماءها الذين أودوه، فقالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي بشيء، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، وجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت على ابن أبي طالب فوجدته ألين الناس، فقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدرى هل ينبغي شيئاً أم لا؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: والله إن زاد على أن لعب بك على، فما ينبغي لنا ما قالت. قال: لا، والله ما وجدت غير ذلك.

أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بالفتح الأعظم، وأمرهم أن يتجهزوا، وأمر أهله بجهازه، ولم يعلموا به أحدٌ حتى دخل أبو بكر رضى الله عنه على ابنه عائشة وهي تصلح بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا بنية ما هذا الجهاز؟ قالت: لا أدرى، قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تجهزوه؟

خية أبي
سفيان في
سفارته

تجهز رسول
الله للفتح

قالت : نعم ، قال : فأين تريد ؟ قالت : ما أترى ، قال : ما هذا ، ما نغز
بنى الأصفر ، فأين تريد ؟ قالت : لا أعلم .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد
والتهيؤ وقال : (اللهم خذ العيون والأخبار عن فريش حتى ينهيك بالانها) . فنجهر
الناس ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من حوله من السائل وأهل البوادي
فأجابه منهم : أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وسلمة . من اجتمع له
منهم إلى المهاجرين والأنصار عشرة آلاف ، كان الموتى من الله أحب إلى أحدهم
من الحياة ، وسار بهم حتى باعوا موضعاً يقال له (فريش) وهناك عسكر الزحف والانت
وسمى الأمراء والقواد ، ووضع تفاصيل خطة العزو .

تأمير خالد في فتح مكة كانت تلك الخطة أحكم خطة حربية وضعها قائد بربر فبحرأ لم يراى منه العناء ولأنها قامت على أساس المفاجأة وتطويق العدو في بلاده ، وأخذه على غره حتى لم يشب مثال ، وكانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتيبه الحضراء مع الأنصار معقودة لقائدهم سعد بن عباد ، وكان على الخبة اليسرى حواري رسول الله وأبو حمزة الربير بن العوام ، وكان على الخبة اليمنى غامز قبة بنى الأصفر سرف الله وسرف الله ، خالد بن الوليد بطل الإسلام ، وهذه أول إمارة (رسمية) يشرف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً ، وكان أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح على الخيرة والراية .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الربير أن يأسل من (كذا) (كذا) ، وأسئلها ، وأمر قائده كتيبه سعد بن عباد أن يدخلها من (كذا) (كذا) ، وأسئلها ، وأمر سعد بن عباد أن يدخلها من موضع يقال له (لايط) ، وكان سائر رسول الله صلى الله عليه وسلم على جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار ، وكان أوائك أربى من ثلاث الجوش كله . وهذا بلا ريب تقدير عظيم لمكانة خالد العسكرية وبطولة الحربية وعذرة على سياسة الرجال من مختلف القبائل والطلون ، ومنح هذه الامور من الله صلى الله عليه وسلم خالداً على هذا الجمع العظيم كان أعظم الفدحات الإسلامية الأولى ، سماه الله تعالى في القرآن الكريم فتناً مبناً .

فتأمر خالد على ثلث جيش يقوده رسول الله بنفسه في أعظمه ومع سعد المسلمين

يؤيد دليل ساطع على ما لهذا البطل العبقري من البصر النافذ في سياسة الحرب وقيادة الجيوش .

إسلام أبي
سفيان وهيبه
المسلمين في
قلبه

وقد رأى أبو سفيان بن حرب ووصف من حال جيش الفتح ما يصور حال قريش وما أصابها من الفرق والفرع ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنه العباس حين تشهد أبو سفيان شهادة الحق : انصرف يا عباس فاحبس به عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمر عليه جنود الله ، قال العباس فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرت به الكتائب على راياتها حتى مر رسول الله في كتائبه الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق . فقال أبو سفيان : من هؤلاء يا عباس ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أختك عظيماً ! قال العباس : ويعك يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعيم إذاً ، قلت : الحق بقومك فقدرهم . وكان العباس حين استأمن لأبي سفيان حتى أسلم قد قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون في قومه ، فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

وهنا موطن من موطن التأمل ، فهذا لون براق من حرب الأعصاب الذي يقصد به إشاعة الفرع في قلوب الأعداء حتى تخور قواهم وتضعف معنيتهم ، ويتحلل تماسكهم ، وهو ما تحقق ؛ فقد دخل المسلمون البلاد الحرام دون قتال إلا ما كان من البطل الصنديد خالد بن الوليد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى قواده وأمرائه ألا يقتاتوا إلا من فاتهم ، واسكن خالداً لقي بعض غطارفة قريش لا تزال حمية الجاهلية تنفخ في آذانهم ، وأجهجوا على قتال المسلمين ، وكان فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو في ناس من بني بكر ، وقوم من بني الهون ، وبني الحارث وبني المصطلق ممن يسعون بالأحاديث لتتحالفهم بأسفل جبل يقال له « حبش » وكان من البكر بن خنساس بن قيس الذي أعد للمسلمين سلاحاً ، فقال له امرأته : لماذا تعد ما أرى من السلاح ؟ فقال لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد شيء ، قال :

والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم أنشد :

إن تقبلوا اليوم فمالي علة هذا سلاح كامل وأله
وذو غرارين سريع السلة

فلما لقي القوم خالد في أصحابه ، وناوشوهم شيئاً من القتال وأحسوا حرارة السيف
فرحماس لا يلوى على شيء حتى دخل بيته ، وقال لا مرأته ألتقي على بابي ، قالت : فأن
ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الحندمة إذ فر سفوان وفر عكرمة
واستقبلتهم بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضرباً فلا تسمع إلا غنمه لهم نهيت خلفاً ونهضة
لم تنطق في اللوم أدنى كلمة

خالد يدافع ولما علا رسول الله صلى الله عليه ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فئس
المشركين قال : ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ قال المهاجرون : نعلم أن خالداً لم
وبدئ بالقتال فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله ، وما كان برسول الله أصابك ، ولا
ليخالف أمرك . ثم قال لخالد : لم قاتلت ، وقد نهيتك عن القتال ؟ قال : هم يأتوا
ووضعوا فينا السلاح ، وأشعرونا النبل ، وقد كذبت بآي ما استطعت ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : قضاء الله خير .

وفي رواية أن خالداً أنال قريشاً شيئاً من القتل ، فجاء رجل من قريش ، فقال
يا رسول الله ، هذا خالد بن الوليد قد أسرع في القتل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم
لرجل من الأنصار عنده : يا فلان ، قال أبيت يا رسول الله ، قال إني سأله عن الله ،
قل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن لا تقاتل أحداً ، فقال الأنصاري ،
فقال : يا خالد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تقتل من أبيت ، فسمع خالد
فقتل سبعين رجلاً من أهل مكة فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه به ،
فقال يا رسول الله هلكت قريش ، لا فريش بعد اليوم ! قال : ولم تتركها ، قال
لا يلقى أحداً من الناس إلا قتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت يا خالد ، وما
أتى إليه خالد ، قال : يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحداً ؟ قال : بل أرسلتني

أن أقتل من قدرت عليه ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ادع لي الأنصارى ، فدعاه له ، فقال : ألم آمرك أن تأمر خالداً أن لا يقتل أحداً ؟ قال : بلى ، ولكنك أردت أمراً وأراد الله غيره ، فكان ما أراد الله .

هذه الرواية مما لا نظمن إلى تفصيلاتها ، لأننا نستبعد جداً أن يأمر رسول الله رجلاً بأمر في رسالة يبلغها إلى قائد من قواده ، يعصم بها دماء الناس ، وأرواحهم ، ثم يخالف هذا الرسول أمر رسول الله ، فيبلغ القائد أمراً آخر على تقيضه ، يبيح فيه الأنفس والدماء ، ويكون سبباً في قتل هذا العدد من رجال قريش معاندة لأمر رسول الله في قومه ، ثم يحتج لنفسه بهذه الحجة الجدلية ، فيسكت لها النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرضى عنها رضا لا يكون منه تاديب يرشد الناس إلى توقيف أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتبليغ رسالته على أبلغ درجات الأمانة والصدق . هذا بعيد ، بعيد .

وهي في جملتها ونديجتها متمشية مع رواية مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد ، وبعث الزبير على الأخرى ، وبعث أبا عبيدة على الحبر ، فقال لي : يا أبا هريرة اهتفلي بالأنصار فهتفت بهم فجاءوا فأطاعوا به ، فقال : أثرون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟ ثم قال بأحدى يديه على الأخرى : احصدوهم حصداً حتى توافوني بالعصا ، قال أبو هريرة : فأنطلقنا فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه ، فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ، أبحث خضراء قريش لا قريش بعد اليوم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : من أغلق باباً فهو آمن . وهذا أثبت وأقوم .

وقد رويت روايات كثيرة مختلفة ، وما ذكرناه أمثلها ، وقد ترتب على اختلاف الروايات في الفتح ، فقرعات للعلماء والمؤرخين . ولكن موقف خالد من هذه الأحداث هو موقف البطل الذي نأبى بطولته إلا أن تكون عنواناً عليه في جميع مواقفه .

أعز الله يفتح مكة دينه ، ونصر جنده ، وأقربه عين رسوله فأراه البلد الذي عانده ، وهاهنا دعوته . وأخرجه عنه وهو أحب بلاد الله إليه ، يدخل في طاعته طوعاً وكرهاً ،

خالد يحطهم
العزى .

وأراه قريشاً واسطة عقد العرب تستجيب إليه راضية خاضعة ، فيبادل خانها حتى كأنما كان هذا الفتح المبين ميلاً جديداً لها ، لأنه طهرها من دنس الزرارة العقل الإنساني ، وانتشلها من وهدة الوثنية البليدة ، وأراها أصنامها تنفتت إلى حبات من الرمال تحت أقدام جند التوحيد ، فلتعد طهر النبي صلى الله عليه وسلم حرم الله وبيته من رحس «هبل» و «اللات» و «ذراهما» من أحجار الصحراء ورضراضها ، ورضبت قريش منه هذا التطهير راغمة ، ولكنها لحظة في دورة الملك حتى أدركت فداركت ، وهمت فنفتت ، وعزمت فوصلت ، كانت صاحبة اللواء الأعظم في فترات الإسلام ، وكان فتيتها حماة الدعوة وأبطال الجهاد ورسول إنقاذ الإنسانية من وصمة العبودية .



أتم الله على رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة الفتح وتطهير البيت من الأوثان ، ونزل
إلى قريش مستسلة ، وإلى مكة آمنة فلم يثنه ذلك عن متابعة الجهاد وراء حدوده والملاحقة
الحرام أينما حلت قريش من العرب ، فأدعى خضعت في بلدها وحرها وهاواها وأوتانها
رأى عنها ، فليلاحقها انكسار الوثنية وتحطيمها أينما توجهت حتى يسود بها نوره
التوحيد في ظل الإسلام ، وإذاهوى « هبل » من علماء البلاء القديمة في أممها
إلى حقيقة الترابية ، تلك هي « العزى » لا تزال قريباً من مكة رمية ٢٠ سم ، ماء عاف ،
معبودة معظمه من كناية ومضمر ، تزورها قريش ، ونحى أمام صغيرها هاء ، وهوى
إلها نفاستها ، وتقرب بين يديها قرايينها ، ويقوم على سنانها بنو شيبان حامليها ،
سنام قريش وذروتها ، وهذا عرق معرق من أعراق الوثنية لا يزال في قريش راسخاً ،
ولا يتم إشراق نور الإسلام في حنايا أئنتها إلا باستئصاله ؛ فمن لاهوى أعنفها بنين
« هبل » ؟ ذاك الفقى المخزومى سيف الله خالد بن الوليد .

أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبطال الإسلام الأول على بن أبي طالب أن يعظم «هبل» ويرى قريشاً أنها كانت في عبادته من الخاطئين ، فنهان ثلاث سنوات لم يذهب النبوة أى شرف ؛ ثم التفت النبي صلى الله عليه وسلم فرأى سيف الله وارس النبوة ، وأمير جحفل الفتوح خالد بن الوليد ، وكان قد أعده للعطاش ، ورشدته للخروج ، فوجهه

في هذا الشرف العظيم عدل على ، وعلى من رسول الله بمنزلة هارون من موسى عليهم السلام ؛ فكان ذلك من أعظم التكريم لقي مخزوم .

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد في ثلاثين فارساً من جند الإسلام إلى « العزى » يحطمها ويمحو عار عبادتها عن قومه ، وتراعى نبال المسير الخالد إلى سدة « العزى » فطافوا بها وواعدوها الفتك بمن يهتك حرمة ويكشف سترها ، ثم جهزها صاحبها « دية » بن حرمي السلمي بسيف صارم علقه عليها ، وتنحى عنها مصعداً في الجبل وهو يخالبها النظر ، وينشدها منذراً متوعداً :

أيا عز شدى شدى لا شوى لها على خالد ، ألقى التناع وشمرى
ويا عز إن لم تنقلى اليوم خالداً فبؤى بأشم عاجل أو تنصرى
إلى والله لقد اختارت عزاك - يا أخاشيبان - وما بها اختيار - أمر أمريك ،
فبأت بأشم عاجل ، وبؤت معها بشر من إثمها ، فخطمك خالد تحطياً ، وهو يسخر
منك ومنها .

يا عز كفرانك ، لا سبحانه إني رأيت الله قد أهانك
ثم رجع خالد رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل إليه بشرى.
الظفر باجشاث جذر من جذور الوثنية المهينة .

كان فتح مكة من أقوى الحوافز على انتشار الدعوة الإسلامية في قبائل العرب بين أودية الجزيرة ووهادها ، فقد حمل أبناؤها من فتيان قريش المشعل في أيماهم، وقبضوا على السيف بشمائلهم ، وانشأوا في الأرض داعين إلى الله تعالى بالحجة النيرة والبرهان البين ، فمن قبل ورضى فهو أخو المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ؛ ومن أبى واستكبر ووقف أمام الحق منحوه السيف ليتذوا الحياة من شره المستطير .

لم يكن خالد رضي الله عنه يفرغ من أمر « العزى » حتى أرسله النبي صلى الله عليه وسلم أمير سرية من ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة بأسفل مكة من ناحية يلم ، فسار إليهم حتى نزل بأصحابه على ماء لهم يقال له « العقيصاء » وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمره أن لا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً ، أو سمع أذاناً .

وهنا تختلف روايات التاريخ في شأن هذه الواقعة مبتدأ وخبراً كهدنا بها في كبريات الحوادث ، وبحسب هذا الاختلاف يختلف تصوير موقف خالد في هذه القصة ، وهذا الاختلاف من أقوى الأسباب التي تحملنا على التوقف في التسليم إلى هذه الروايات المتضاربة وعلى أن نعود إلى الموازنة بينها ، واستنباط ما نطمئن إليه من الرأي والمذهب .

يقول صاحب « الخيس » نقلاً عن الاكتفاء : « لما فتح الله على رسوله مكة بعث السرايا فيما حولها يدعو إلى الله تعالى ، ولم يأمرهم بقتال ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ، ومعه قبائل من العرب ، فوطئوا بني جذيمة ابن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فقال رجل منهم يقال له جعدهم : ويلكم يا بني جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر ، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبداً . فأخذ رجال من قومه ، وقالوا : يا جعدهم أريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب ، وأمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح إجابة لقول خالد .

« فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فسكتوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل منهم ؛ (م ٦ — خالد بن الوليد)

وقال لهم جحدم ، حين وضعوا سلاحهم ورأى ما يصنع بهم : يا بني جذعة ضاع الضرب ، قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه !

« فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ؟ ثم قال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل انفلت منهم ، فأتاه بالخبر ، هل أنكر عليه أحد ؟ فقال : نعم ، قد أنكر عاين رجل أبيض ربعة ، فهمه (١) خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل آخر مضطرب فراجعته فاشتدت مراجعتهما ، فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فأبى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة » .

مناقشة هذه الرواية تذكر أن القوم استقبلوا خالداً في أهبة الحرب أخذت سلاحهم ، مستعدين للقتال ، ففاوضهم خالد في وضع السلاح وأبناهم أن الناس قد أسلموا ، وأبى عاينه رجل منهم ، وحرص قومه على الإباء ، فلم يسمعهوا له ، ولم يزالوا به حتى نزع سلاحه مع أسلحتهم ، فأمر خالد بهم فأوثقوا ، وقتل من قتل منهم ، وخالفه في ذلك عبد الله بن عمر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ولما باع الحادث النبي صلى الله عليه وسلم يرس إلى الله مما صنع خالد بهؤلاء القوم .

ويرى الذين يأخذون بهذه الرواية أن حمل السلاح في وجه المسلمين عند موت النبي لحاله فيما صنع بالقوم ، ولا سيما أن نزع السلاح منهم كان بعد مفاوضة وخفية ، فمعه أهرب إلى احتمال الثقية والاستتار . ولكن المعارضين لا يتقبلون هذا الادعاء ، ويسندون مذهبهم بالنكار عبد الله بن عمر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وهما من كبار المهاجرين وأجلهم علماً وسابقة ، وبراءة النبي صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد ، ويدعونه بما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت كأنى لقمت لمة من حبيس فالتذت طعمها فاعترض في حلق منها شيء حين ابتاعها فأدخل على يده فانزعه » فقال أبو بكر : « هذه سرية من سراياك تبعتها فأتيتك منها بعض ما نحب ، ويأون في بعضها اعتراض ، فتبعت عليا ، فيسبله » .

ولما كان من خالده في بني جذيمة ما كان ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب فقال له : « يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على حقي جاءهم ، ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدي لهم ميلة الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم على حين فرغ : أبقى دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فأني أعطيتكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال له : أصبت ، وأحسنت .

والعاذرون لخالده رضي الله عنه يردون على ذلك بأنه كان فيمن وافق خالداً ولم ينكر عليه من جلة المهاجرين والأنصار كثرة ممن لا يقل فقها في الدين وتقديراً للحوادث ، وشجاعة نفس عن عبد الله بن عمرو وسالم مولى أبي حذيفة ، وبعيد أشد البعد أن يزعم زاعم أن سائر من كان في هذه السرية من علماء الصحابة قدرأى أنكر ما ينكر في الدين من قتل قوم مؤمنين وسفك دمائهم ، ثم يسكت فلا يغير على خالده . وإنما الذي نفهمه أن إنكار عبد الله بن عمر وصاحبه سالم كان بضرب من التأويل ، قد تكون العجلة من جهة خالده وأزرتة ، ومن هنا نفهم براءة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله بما صنع خالده في هذه الواقعة حين بلغه الخبر ، وحاشا أن تكون براءته من أجل أن قوماً مؤمنين اعتدى عليهم قائد إحدى سراياه فقتلهم مراغمة ، ثم لا يقتص منه ، ولا يعزله عن الإمارة ١١ ، وأما المال الذي دفع إلى بني جذيمة على يد علي بن أبي طالب فليس فيه رائحة القصاص ، وإنما هو من قبيل الترضية والاحتياط وتعويض من بقي منهم مؤمناً .

يقول الواقدي في المغازي : « ثم مضى خالد بن الوليد إلى حى من كنانة بالأبرق ، رواية أخرى يقال له بنو جذيمة ، فوجدهم يصلون صلاة الغداة فغشهم خالد ، فقال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن مسلمون ، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قال فحق أسلمتم إن كنتم صادقين ؟ قالوا الليلة — حين بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كف يده عن ألقى السلاح ، وقال : لا إله إلا الله ، فقلناها وصلينا » .

هذه الرواية صريحة في أن خالداً غشى القوم وهم يصلون صلاة الغداة ، وأنهم شهدوا

شهادة الحق بين يديه ، وأن إسلامهم كان ليلة غشيمهم ، وأنهم لم يحملوا السلاح في وجهه . سرية خالد ، وكل ذلك يدل على أنه لا يجوز قتل أحد منهم بغير حد موجب ، فسكيف قتل خالد من قتل منهم ؟ ، قد يجحد التأمل في رواية الواقدي احتمال التهمة بهذا الإسلام الذي أحذثوه ليلة غشيمهم المسمون قائما ، وخالد قد أبدى شكاً مريباً في إسلامهم بقوله : فتي أسلمتم إن كنتم صادقين ! ومن أين لنا أن الذين قتلهم خالد من القوم هم الذين كانوا يصلون صلاة الغداة ، وهم الذين أسلموا وشهدوا بين يديه شهادة الحق ؟

أغرب
روايات
القصة

وأعجب ما روى التاريخ في شأن خالد رضى الله عنه وبني جذيمة ما ذكره ابن هشام . في سيرته ، وعرض له الطبري وابن الأثير عرضاً عابراً ، قال ابن هشام : « وقد كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام ، فقال خالد : إنما أرت بأبيك ، فقال عبد الرحمن : كذبت قد قتلت قاتل أبي ، ولكنك أثرت بعلمك الفاكه بن المغيرة ، حتى كان بينهما شر ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقت في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته ؟ قال ابن هشام : وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وعوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة ، وعفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس قد خرجوا تجاراً إلى اليمن ، ومع عفان ابنه عثمان ، ومع عوف ابنه عبد الرحمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جذيمة بن عامر كان هلك باليمن إلى ورثته ، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ، ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت فأبوا عليه ، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه ، وقابلوه ، فقتل عوف ابن عبد عوف ، والفاكه بن المغيرة ، ونجا عفان بن أبي العاص ، وابنه عثمان ، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة ، ومال عوف بن عبد عوف ، فانطلقوا به وقتل عبد الرحمن ابن عوف خالد بن هشام قاتل أبيه ، فهت قريش بنزوا بني جذيمة ، فقالت بنو جذيمة ما كان مصاب أصحابكم عن ملائنا ؟ إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ، فخرجن نعقل لكم ما كان قبلنا من دم أو مال ، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب . »

فهذه الرواية أو الأنصوفة ترى أن خالد بن الوليد رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمير سريره للدعوة إلى الإسلام ، وقائد جند الله ، صنع ما صنع في بني جذيمة من قتل وسفك دماء شفاء لحزازة نفسه وهواه ، وإجابة لداعى الجمية الجاهلية في الأخذ بثأر عمه الفاكد بن المغيرة - على ما تزعمه الرواية على لسان عبد الرحمن بن عوف - أو الأخذ بثأر عوف بن عبد عوف ، والد عبد الرحمن - على ما تزعمه الرواية إقراراً لا التواء فيه على لسان خالد بن الوليد نفسه - فيكون خالد حيث قد قتل قوما ذوي عدد من المسلمين معصومي الدم برجل كافر قتل في جاهلية عمياء .

وتزعم الرواية أن عبد الرحمن بن عوف قد أنكر على خالد صنيعه هذا الذي تعدى به حدود الإسلام، وعمل فيه بعمل الجاهلية ، وجرى بينهما كلام في ذلك ارتفع إلى حد الخصومة والاحتجاج حتى بلغ أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن منه إلا زجر خالد عن مخالفة عبد الرحمن ، وبيان فضل عبد الرحمن .

وأما أصل القضية وجانبها الأهم منها، وتلك الدماء المعصومة المهددة المسفوفة بغير ذنب إلا أمر الجاهلية وحميتها ، فلم يعر لها ذكر في هذا الموضع من كلام النبي صلى الله عليه وسلم على ما تزعمه هذه الرواية العجيبة ! !

وقد ينشبت بعض الباحثين في تصحيح هذه الرواية بما رواه ابن هشام وغيره ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ما صنع خالد في بني جذيمة دعا علياً كرم الله وجهه ، فقال له : « يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم ؛ فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج على حق جاء ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى ميلة السكاب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال فقال لهم على رضي الله عنه حين فرغ منهم : هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ فقالوا : لا ، قال : فاني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يعلم ، ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال : أصبت وأحسن ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه يرى ما تحت منكبيه يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات .

فهذه الرواية تصرح بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر علماً بأن يجعل أمر الجاهلية تحت قدميه ، وليس في القصة أمر جاهلية سوى الأخذ بالتأثر على عادة العرب قبل الإسلام في تعدى الحدود وتجاوز العدل ، وهذا هو الذي عابه عبد الرحمن بن عوف على خالد في زعم الرواية .

* * *

إن الباحث ليقف من هذه الرواية التي تداولتها أكثر كتب التاريخ والسيرة ، موقف الشاك فيها شكاً يقودها إلى الرفض والتزيف ، حتى يذبح وجه جديد يدفع البحث إلى وجهتها البعيدة ، وليس لها في العقل المسلم وجه من التأويل .

وإنما نبى هذا الشك - وإن شئت فقل هذا الرفض - على دعائم استقامت في نظرنا فلم تجد ما يدفعها :

أولاً - إن هذا الحادث الجاهلي - على فرض صحته - تسجل الرواية نفسه بها أنه كان قد سوى فيما بين قريش وبنو جذيمة طبقاً لما تعارفوه من قواعدهم الجاهلية ، ورضيت قريش هذه التسوية رضاء العزيز القادر ، وهذا حكم في قوانين الجاهلية لا يقبل التمسك ، والعرب قاطبة ترى نقضه شيئاً من الشين ، يعير به صانعه ، فلو سلمنا بما في الرواية لسكان خالد بن الوليد سليل قريش أشد قبائل العرب تمسكاً بقواعد العرب ومحافظة على قيمها ، ورضاء بعرفها ، من أكثر الناس استهتاراً بتلك القواعد ، واستهانةً بتلك الفوائين . وذلك العرف ، ولسكان مثلاً مضروباً في العذر ونسكت اليهود ، وهذا أبعد ما يكون من أخلاق الأبطال وفرسان الحروب ، وخالد بن الوليد في طليعتهم في الجاهلية والإسلام .

ثانياً : هذه الرواية تزعم أن عبد الرحمن بن عوف قد أنكر على خالد . أشد الإنكار حتى لج بينهما الخصام فرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن نسأل من كان هذا الإنكار ؟ ! أكان قبل قفول السرية إلى المدينة ؟ فذلك مدفوع برواية المتفلس من بني جذيمة إلى المدينة ليستصرخ النبي صلى الله عليه وسلم لقومه كما زعم الرواية ، وقد سأله النبي صلى الله عليه وسلم بمحضر عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة : هل أنكر عليه أحد ؟ فقال : نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فزجره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل مضطرب فراجعته فاشتدت مراجعتهما ، فقال عمر : أما الأول فابني عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي جذيمة ، ولم يذكر معهما مطلقاً عبد الرحمن بن عوف ،

وهو أجل منهما ، وقد كان إنكاره الذي زعمته الرواية أشد من انكار ابن عمر وسالم .

أم كان هذا الإنكار من عبد الرحمن بن عوف بعد قفول السرية إلى المدينة ؟ فإن زعم هذا زاعم فلا بد من التساؤل ، لماذا أخر عبد الرحمن إنكاره على خالد حتى رجع إلى المدينة ، وقد كان في جند خالد في هذه السرية ؟ أفيستطيع أحد عارف بأخلاق عبد الرحمن بن عوف ومكانته في الإسلام أن يقول : إن ذلك قد كان منه جبناً عن خالد وخشية منه ، وهو الذي وضع عمر بن الخطاب في يده أمر الخلافة من بعده ، وجعله رأس رهط الشورى ؟

وإن كان لسبب آخر فلا بد من بيانه حتى يدار النظر في قيمته من الحق كما يقول علماءنا .

ثالثاً : إن هذه الرواية لا تعتمد إلا فهماً واحداً لا يقبل التأويل ، ذلك أن خالداً - بزعم الرواية - يكون قد تعمد مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم لسبب ينكره الإسلام أشد الإنكار لأنه بعثه داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه مقاتلاً ، وأنه قتل قوماً أقرؤا له بالإسلام ، وشهدوا بين يديه شهادة الحق ، وآمنوا به ، والصلاة أعظم شعائر الدين - برجل كافر قتل في الجاهلية ، وصولح قومه على قتله ، فكان أقل ما يستحقه خالد على فعله هذا أن يقتض منه النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أن ينكل به زجراً لمن تحدته نفسه بخرق قوانين الشريعة والعيب بها . وهل يتوهم مسلم ، لا بل هل يتوهم إنسان يقدر النبوة حق قدرها أن النبي صلى الله عليه وسلم يداهن في حد من حدود الله ؟

والروايات كلها شعبة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يذكر لخالد حين رآه شيئاً من عتاب ، ولم يزل خالد في مكانه من فلب رسول الله ، ولم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حازه ، وبقى على مكانه من الإمارة لم يعزل عنها مدة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : أية قيمة تبقى للإسلام خالد إن صححت هذه الرواية ؟ فهي تجعله رجلاً قد اتخذ من الإسلام ستاراً لإشباع شهوة جاهلية . لأنقيم للإسلام وزناً ، ولا نرعى لأصوله عهداً ، ولم يكن خالد بن الوليد في دينه بريئة تنزل به إلى هذا الدرك السحيق منذ أسلم وجهه لله تعالى ، بل المتواتر المتصاف أن خالداً ظلت مكانته عند رسول الله هي مكانته التي أحلها الله

من قلبه ، وظل به حفيماً يقرظه ويثنى عليه ، وسيأتيك نبؤه في غزوة حنين ، ويستحيل على مقام النبوة أن يرفع مكانة رجل قد وقع منه بعض ما تزعم هذه الرواية الزائفة أنه وقع من خالد بن الوليد إلى حيث خالد في الإسلام على الشأو رفيع العما .

خامساً : أن السكامة التي جاءت في رواية بعث على رضى الله عنه لتلافي خطأ خالد ، وهي « واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ليست بواجبة الحمل على ما زعمته الرواية من أمر الفاكه بن المغيرة وثأر خالد له ، بل هي قرينة الحمل على رسم الخطأ التي يسير عليها على في تلافي ما وقع من الخطأ ورضية القوم ، وأنها خطئة يجب أن تكون إسلامية خالصة ، يحمل عليها بنو جذيمة ، مطرحين أمر الجاهلية من القتل الظالم وتعدد الديات ومضاعفاتها ، وأن يرضوا بأمر الإسلام في أمرهم ، ولا سيما والناس قريبو عهد بجاهلية جهلاء ، ومن ثم عمد على إلى رضيتهم ، وتطبيب خوارطهم بما زاد في إعطائهم من المال تأليفاً لقلوبهم ، ونشيطاً لأفئدتهم ، وقد استحسن منه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فصوبه ، وحسن فعله .

ولو صحت هذه الرواية الباطلة فكيف يمكن فهم موقف النبي صلى الله عليه وسلم من خالد ، وهو يصرح - في زعم الرواية - عند تقاوله مع عبد الرحمن بن عوف أنه صنع ما صنع لثأر الجاهلية ؟ فهل يكفي في هذا الموقف أن يبرأ رسول الله إلى الله من سايح خالد ؟ وهذا أقصى ما علمناه جاء في صدد الإنكار من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان هذا الموقف - على ما تذكره الرواية - مما تصحدهه الدنيا وتوزيع الأموال ١١٢

وبعد فهذا عرض وتحليل إجمالي لروايات دارت عابها القصة في كتب السيرة والتاريخ ، ولكننا لا نجد في أنفسنا اطمئناناً إليها ، وحسبنا أننا وجهنا البحث فيها وجهة الكشف عن الأثر الذي تتركه أمثال هذه الروايات في إبعاد الحقيقة عن قلم الباحث إذا استسلم لها ، وليس يكفي أن توجد الرواية أو الأقصوصة في كتاب مشهور من كتب الأولين ، بل يجب البحث عن قيمة ذلك الكتاب في تحجيس مروياته ، ويجب تعرف مقدار صلة تلك الرواية بمعالم الشخصية التي تتحدث الرواية عنها .

وهذا نهجنا في كتابة حياة من نكتب حياتهم من رجالات الإسلام ، نعود إلى أن نرسم الخطوط الأولى لتلك الشخصية من ألوانها الثابتة الأصلية ، ثم نعمل ذلك أساساً

الباحث . وقد عرفنا أن شخصية خالد رضى الله عنه كما عرفها التاريخ الصحيح أبعد ما تكون عن هذه المداورات الغادرة التي ترونها تلك الأفاقيص .

أما وجه القضية في هذه القصة فستراه واضحاً أشد الوضوح فيما سنسوقه إليك بعد من رواية البخارى عن عبد الله بن عمر ، وهو شاهد عيان ، لا يصح العدول عن روايته في البخارى إلى رواية غيره في كتاب غير كتب الصحيح ، وسترى عذر خالد قائماً على حميته الإسلامية التي دافع عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله ، سله على المشركين » .

أولى الروايات روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال : « بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يسموا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صباؤنا ، صباؤنا ، فجعل خالد يقتل ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره ، فقلت : والله لا أقتل أسيرى ، ولا يقتل رجل من أصحاب أسيره ، حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فذكرناه ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده ، فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد : مرتين » .

مناقشة
وترجيح

هذه هي الرواية التي نعتد عليها في فهم هذه القصة ، لأنها :

أولاً : وردت في كتاب أجمعت الأمة على اعتياده في أخذ دينها وفروع شريعتها ، لما تواتر عن مؤلفه العظيم من الدقة في شخص حال الرواة ، واختيار أفضلهم حفظاً وجودة أداء وحسن تلاق ، وبعداً عن مزلق العصية المذهبية أو الطائفية ، وأبلغهم في تحرى الصدق والحشية لله تعالى .

ثانياً : رواية مستقيمة النسيج ، لا اضطراب فيها ، لم تدخل حادثة في حادثة ، ولا مزجت حديثاً بحديث ، فهي تحكي الواقعة منذ بدأت إلى حين انتهائها في أسلوب موجز محكم ، يؤدي لباب الترض في منأى عن الخيال وتلاعبه .

ثالثاً : رواية شاهد معان ، اشتهر بالدقة والتحري ، وكان زعيم المنكرين على أمير السرية صديقه ، واحتفظ بأسيره فلم يقتله ، وأمر أصحابه فصنعوا مثل صنيعه ، فأحربه . أن يحدث النبي صلى الله عليه وسلم بما رأته عيناه ووعته أذناه .

هذه الرواية الصحيحة نروى أن خالد أَرْضَى الله عنه دعا بنى جذيمة إلى الإسلام كما أمر رسول الله صلى عليه وسلم ، وتذكر هذه الرواية أن القوم لما دعاهم أمير السرية إلى الإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، وهذا صريح في أن خالد لم يبدأ القوم بقتال ، ولا أظهر لهم نية في القتال ، بل دعاهم إلى الإسلام كما أمره النبي صلى الله عليه وسلم ، وصريح في أنهم لم يحسنوا الأخبار عن إسلامهم أى دخولهم في الإسلام وإيمانهم بالله وبرسوله ! ففهم عبد الله بن عمر ومن كان معه من أصحابه أن القوم مسلمون بعتيقتهم ، ولم يبال العنوان عن هذه العقيدة أن يكون صريح كلمة التوحيد أو ما يؤدى إلى فهم معناها ؛ وعذر القوم بجهلهم وقبل منهم في حقن دمائهم قولهم : صباأنا .

وفهم أمير المسلمين خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار أن ذلك كان من القوم تقية ، واستبعد أن لا يحسنوا التعبير عن إسلامهم بعنوانه الذى ارتضاه الله للناس ، وهو كلمة التوحيد التى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الناس حتى يقولوها ، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم بها ، فلم يكتف خالد من القوم بما اكتفى به ابن عمر ، وخالد أمير الناس ، ولم يرضه عدولهم عن عنوان الإسلام إلى هذه الكلمة ، ووجد منهم إصراراً ، قال بدر الدين العيني في شرح البخارى : « وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم صباأ فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الإسلام - تقية ، وأما خالد فإنه لم يكتف بذلك حتى يصرحوا بالإسلام » .

ويرشح عذر خالد رضى الله عنه في عدم اكتفائه بقولهم « صباأنا » أن هذه الكلمة كانت عندهم كالتعبير والسب ، وكان كثير من المسلمين إذا قيل له : صباأ ، أنف من قبولها . وهذا خالد بن الوليد نفسه حين خرج مسلماً يأبى أن يقول له تسمية بن أبى جهل « قد صبت يا خالد » فيقول « لم أصب ولكنى أسلمت » وذلك عمر بن الخطاب في قصة إسلامه يصرخ به جميل بن معمر الجمحي في أندية فريش « ألا إن عمر بن الخطاب قد صباأ » وعمر خلفه يقول « كذبت ولكنى قد أسلمت وشبهات أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » وهذا ثماله بن أثال الحنفى ، وقد أخذته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد العمرة فأسلم وبشره النبي صلى الله عليه وسلم وأمره

بالعمرة ، فقال له قائل بمكة « صبت يا ثماله ؟ » قال : لا ولكنى أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أثلاً يعذر خالد رضى الله عنه إذا لم يرض من القوم في التعبير عن إسلامهم وإعلانه قولهم « صبأنا » وهو نفسه مع أولئك الأجلة ما كانوا يقبلون على إسلامهم أن يقال فيه صبوا ؟ بلى ، إن له لعذراً واضحاً ؟ وقد عذره النبي صلى الله عليه وسلم ودافع عنه بقوله : « لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » .

وأيست براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد إلا بياناً لوجه الخطأ في التأويل ، وعدم درء الحدود بالشبهات ، ولا شك أن قولهم « صبأنا » إن لم يكن إسلاماً صريحاً فإنه شبهة قوية تدرك حد القتل حتى يتبين الأمر ، فالخطأ الذي كانت منه البراءة هو الإسراع وعدم التثبت ، ولذلك لم يعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة ، ولم يعزله عن الإمارة وقيادة الجنود ، بل أقره على مكانه وفضله .

وقد عذر أئمة الإسلام بطل الإسلام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأقاموا له صوى الحق في هذه الحادثة . قال الخطابي : يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام ، لأنه منهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين ، فقتلهم متأولاً ، وإنما نقم رسول الله صلى الله عليه وسلم على خالد موضع العجلة وترك التثبت في أمرهم « وقال الداودي : » لم يرضى الله عليه وسلم القود في ذلك لأنه متأول » وقال ابن تيمية : « فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فقالوا صبأنا ، فلم يقبل ذلك منهم ؛ وقال إن هذا ليس بإسلام ، فقتلهم ، ولم يكن خالد معانداً للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل كان مطيعاً له ، ولكن لم يكن في الفقه والدين بمنزلة غيره ، نفى عليه حكم هذه القضية . إلى أن قال ابن تيمية : فإن خالد لم يتعمد خيانة النبي صلى الله عليه وسلم ولا مخالفة أمره ولا قتل من هو مسلم ومسلم عنده ، ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة بن زيد في الذي قتله بعد أن قل لا إله إلا الله ، وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذي قال أنا مسلم » .

ولعل تأول خالد في حادثة بني جذيمة أقرب وجهاً من تأول أسامة في الرجل الذي قتله بعد اعتصامه بكافة التوحيد صريحة . قال ابن سعد في الطبقات : وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذي قال لا إله إلا الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا

شقت عن قلبه ؛ فتعلم صادق هو أم كاذب ١١٤ » وقال الطبري: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله السكابي إلى أرض بني مرة ، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليفا لهم من الحرقة من جهينة ، قتله أسامة بن زيد ورجل من الأنصار . قال أسامة: لما غشيناه قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، فلم تنزع عنه حتى قتلناه ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه الخبر . فقال: يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

وفي معالم التنزيل عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً الآية » في رجل من بني مرة بن عوف يقال له: نهيك بن مرداس ، وكان من أهل فدك ، وكان مسلماً لم يسلم من قومه غيره ، فسمعوا بأن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريدهم وكان على السرية غالب بن فضالة اللثي ، فهربوا ، وأقام الرجل لأنه كان على دين الإسلام ، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فألجأ غنمه إلى حضن الجبل ، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون ، فعرّف أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ونزل وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم . فقتله أسامة واستاق غنمه ، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداً شديداً ، وكان قبل ذلك قد سبق ذلك الخبر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقتلتموه إرادة ما معناه ١٢ ثم قرأ هذه الآية على أسامة بن زيد ، فقال: يا رسول الله استغفري ، فقال: فكيف بلا إله إلا الله ؟ ثلاث مرات ، قال أسامة: فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها ويدها حتى وددت أني لم أكن أسامة إلا يؤمئذ ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لي بعد ثلاث مرات وقال: أعتق رقبة .

قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم تأول أسامة واستغفر له ولم يغلظ عليه كما غلظ على محم ابن جهممة الذي قتل صاحب الغنيمة بعد أن حيا بتحية الإسلام وقال: أنا مسلم ، للعلم بما كان بين نيتهما من فرق عظيم ، فأسامه رضى الله عنه ظن السكامة تقيّة بديل قوله كما في بعض الروايات ، إجابة عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقتلناه بعد أن قال

لا إله إلا الله ! فقال أسامة : يا رسول الله كان متعوذاً بها من السيف . فكان قتله اجتهد مجاهد في سبيل الله .

أما محم فقد ابتغى بقتل الرجل عرض الحياة الدنيا ، وطمع فيما كان معه من متاع قليل ، إلى ما انطوت عليه جوانحه من قصد الثأر وشفاء الإحن الجاهلية ، ولذلك كان غضب النبي صلى الله عليه وسلم على محم متميزاً بلون خاص ، قرنه بالدعاء عليه ، فمات بعد سبع فدفنوه فلفظته الأرض مراراً فألقوه في بعض الشعاب ، وقال عليه الصلاة والسلام : «إن الأرض لتقبل من هو شر منه» وفي رواية عن الحسن أنه قال : «أما إنها تحبس من هو شر منه ، ولكن وعظ النوم أن لا يعودوا» .

قال القرطبي : فإن قيل فتغليظ النبي صلى الله عليه وسلم على محم ونبذه من قبره كيف عجزه ؟ قلنا : لأنه علم من نبته أنه لم ييال بإسلامه فقتله متعمداً لأجل الحنة^(١) التي كانت بينهما في الجاهلية .

وها هنا نكتة تشريعية لطيفة ، وهي عدم القصاص من محم مع العلم بسوء نيته ، تطبيقاً لقواعد الشريعة في إقامة الحدود على ظواهر البينات حتى لا تسفك الدماء وتتلف الأنفس بالشبه ، وفي حادثة محم احتمال التأول قائم في الظاهر كما كان قائماً في حادثة أسامة وحادث خالد مع عدم الشك في خلوص نيتهما وطهارة قصدهما ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رد على أهل صاحب محم غنيمته وحمل إليهم دينته تأليفاً لهم كما صنع مع بني جذيمة إرضاء لمن أقام على الإسلام منهم ، وبقي خالد وأسامة على مكانهما وفصلهما .

* * *

والمأمل في هذه القصص يرى أن وقفة النبي صلى الله عليه وسلم مع أسامة كانت أشد وأعنف حتى تنفى أسامة أن لو لم يكن أسلم إلا يؤمئذ . ولم يكن له صلى الله عليه وسلم موقف مع خالد في مواجهته مع أن حادث خالد كان أعظم لأن قتلاه على بعض الروايات يربون .

(١) الحنة : البضاء .

على السبعين ، وقتيل أسامة رجل واحد ، وقد يكون في قول عبد الله بن عمر وأصحابه أن يأخذوا أسرى من بني جذيمة - كما صرحت به رواية البخارى - وجه وجهه في العذر لخالده ، وأن فضلهم عليه كان في التلبث بأسراهم وأنه هو تعجل فأمر بالقتل وقتل من قتل ، وبعيد جداً أن يكون ابن عمر وأصحابه جازمين بإسلام القوم ثم يقبلونهم أسرى في أيديهم ؟ !

بقيت في القصة رواية جاءت عن ابن اسحاق ، وذكرها المؤرخون وأصحاب السير ، وهي في الطبرى وابن هشام والديار بكرى ، وهم يذكرونها في معرض الاعتذار عن خالد رضى الله عنه ، قال ابن اسحاق : وقد قال بعض من يعذر خالداً إنه قال : ما قتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمى ، وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تقتلهم لامتناعهم عن الإسلام .

رواية
«وتأويلها»

وليس هذا تنازلاً من خالد عن إمارته ، وإنما تأويل ذلك - إذا بحثت الرواية - أن خالد دعا القوم إلى الإسلام ، فلم يجد عندهم صريحه ، بل قالوا كلمة مخملة ، فكان من رأى عبد الله بن حذافة قتلهم حتى يسموا إسلاماً لا تلجج فيه ، وفهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالكف عن قتالهم إذا أجابوا إلى الإسلام صريحاً ، فإن امتنعوا فقتلوا ، وهم قد امتنعوا في رأى ابن حذافة فحق - في نظره - قتالهم وقتالهم على الإسلام ، وقد رفع هذا الرأى إلى أميره فوجد لديه موافقة وقبولاً ، فلما عوتب خالد اعتذر بأنه لم ينفرد برأيه ، وإنما سلك مسلك الإسلام في الشورى فيما لم يكن فيه أمر صريح وقد وافقه على رأيه واجتهاده كثير من سادات الصحابة من المهاجرين والأنصار ، لعل عبد الله بن حذافة كان أشدهم تمسكاً وأجهرهم صوتاً في الأخذ به فأمدد إليه الأمر بالنزال .

ومما يستأنس^(١) به في الاعتذار عن خالد رضى الله عنه ما بسطه أبو الفرج في كتاب الأغاني ، وعرض له الطبرى وابن الأثير وابن هشام وسواهم ، مما يدل على أن الموم لم تخالط بشاشة الإسلام قلوبهم ، أو في الأقل ، قلوب جميعهم ، بل كان منهم من أقام على

استئناس

(١) في تعبيرنا بالاستئناس ما يشعر القارىء بعدم تعويلنا على رواية أبي الفرج وما فيها من تفاصيل تتم على أنها من مسامرات الأدباء المتفكرين ، وبكى منها القدر الذى تنفق فيه مع رواية النسائي في مصنفه وهو من كتب السنة المعتمدة .

كفهره لم يفارقه ، ولعل في هؤلاء كانت غمرة الوقعة من خالد وأصحابه .

قال ابن أبي حدرد الأسلمى : كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد فأثرنا في إثر
ظعن مصعدة ، يسوق بهن فتية ، فقال : أدركوا أولئك فخرجنا في إثرهم حتى أدركناهم ،
ثم مضوا ووقف لنا غلام شاب على الطريق ، فلما انتهينا إليه جعل يقاتلنا ويقول :

ارفعن أطاف الذبول وارفعن مشى حيات كأن لم تفرعن
إن تمنع اليوم للنساء تمنعن

فقاتلناه طويلاً فقتلناه ، ومضينا حتى لحقنا الظعن ، فخرج إلينا غلام كأنه الأول
فجعل يقاتلنا ويقول : —

أقسم ما إن خادر ذولبه روح بين أئمة ووهده
يفرس شبان الرجال وحده بأصدق العداة منى نجده

فقاتلناه ، حتى قتلناه ، وأدركنا الظعن ، فأخذناهم ، فاذا فيهن غلام وضىء
الوجه به صفرة كالمنهوك فربطناه برمة وقدمناه لنقتله ، فقال لنا : هل لكم في خير ؟
قلنا : ما هو ؟ قال : تدركون بي الظعن في أسفل الوادى ثم تقتلونى ، قلنا نفعل ،
فعارضنا الظعن ، فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته : اسلمى حبيش
بعد فقد العيش ، فأقبلت إليه جارية يضاء حسانة وقالت : وأنت فاسلم على كثرة الأعداء
وشدة البلاء ، فقال سلام عليك دهرأ ، وإن بقيت عصراً ، قالت : وأنت سلام عليك
عصراً وشقاً تترى وثلاثاً وترأ ، فقال :

إن يقتلونى يا حبيش فلم يدع هواك لهم منى سوى غلة الصدر
فأنت التى أخليت لى من دمي وعظمى وأسبلت الدموع على نحرى
فقالت تجيبه :

ونحن بكينا من فراقك مرة وأخرى وواسيناك في العسر والبسر
وأنت فلم تبعد فنعلم فى الموى حيل العفاف والمودة فى السرى
فقال لها :

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم بحاية أو ألفتكم بالخواف
ألم يك حق أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائع

فلا ذنب لى أن قلت إذ أهلنا معا أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى وينأى الخليلط بالحبيب المفايق
فإنى لا سراً لدى أضعته ولا راق عيني بعد وجهك رائق
على أن ما ناب العشرة شاغل ولا ذكر إلا أن يكون لواق

قال ابن أبى حدرد : ثم انصرفت به فضربت عنقه ، فبجاءت المرأة إليه ، فلم تزل تشمه وتقبله حتى ماتت ، فروى أنهم لما قدموا إلى رسول الله صلى عليه وسلم خبروه الخبر ، فقال : أما كان فيكم رجل رحيم ؟

فهؤلاء فتيان في ظعن يسوقون بهن وهم يرون الموت يلاحظهم فلا يذكرون كلمة الاسلام لينجوا بها من القتل ، بل إن أحدهم ليرضى بالموت قرير العين بعد حديث في الهوى والهيام .

وقد خرج النسائي في مصنفه هذه القصة عن ابن عباس وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال : إني لست منهم ، عشقت امرأة فاحققتها ، فدعوني أنظر إليها نظرة ، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم ، فإذا امرأة طويلة أدماء ، فقال : اسمى حبش ، قبل فقد العيش ، وأنشد أبياناً فقالت : نعم فديتك ا ا

فقدموه فضربوا عنقه ، فبجاءت المرأة فوقعت عليه ، فشمقت شفقة أو شهقتين ، ثم ماتت ا ا

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فقال : أما كان فيكم رجل رحيم ؟

فصل السادس

خالد في بعوث شتى

خالد في غزوة حنين - انسحاب لا يخذش البطولة - شجاعة النبي وأثرها - خالد
في محاصرة ثقيف - بعث خالد للتثبت من بني المصطلق - سرية خالد إلى أكيدر -
بعث خالد لهدم اللات - بعث خالد إلى نجران داعياً ومعلماً - كتابه إلى رسول
الله مبشراً - كتاب رسول الله إليه يستقدمه بوفد بني الحارث - حنين خالد إلى الجهاد -
رواية أخرى في سرية نجران - توفيق بين الروايتين .

عذر النبي صلى الله عليه وسلم خالداً رضى الله عنه في حادث بنى جذيمة وقبل تأوله، وكان خالد في غزوة حنين
 أعظم مظهر لذلك إبقاؤه على الإمارة حتى في الغزوات التي يكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم القائد الأعلى للجيش ، فهو لم يكدير جمع من بنى جذيمة على رأس كتيبته حتى
 كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تجهز لهوازن لما بلغه تجمعهم لحربه بقيادة زعيمهم مالك
 ابن عوف النصرى ، وخرج إليهم المسلمون في جموع كثيفة من جمهور المهاجرين
 والأنصار ، ومسلحة الفتح وطوائف من الأعراب رغبوا في الغنيمة ، حتى أعجبت المسلمين
 كثرتهم فقال قائدهم : لن نغلب اليوم من قلة ، ولكن الله تعالى الذي تولى تربية المسلمين
 وإعدادهم لحمل رسالته إلى الخلق كافة لم يرز لهم أن يكون اعتمادهم على كثرة العدد وكشافة
 الجند ، فامتحنهم هنا لهذه الآفة النفسية ، وكانت تلك السكامة الغارة مفتاح المحنة ، كما
 امتحنهم في غزوة أحد لخالفه أمرا القائد الأعلى ، وكان لهم من كل ذلك دروس في التربية
 والنظام جعلتهم يتخذون من قوة الإيمان عوضاً عن كثرة الجند وأهبة العدة .

روى أبو جعفر الطبري من طريق ابن اسحاق عن جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا
 وادى حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط ، إنما انحدرنا فيه انحداراً ،
 وذلك في عمالية الصبح ، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادى ، فكمنوا لنا في شعابه
 وأحناؤه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهاؤا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منه حطون إلا السكتائب
 قد شدت علينا شدة رجل واحد ، وانهزم الناس أجمعون ، فانشمروا لا يولى
 أحد على أحد .

وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر قليل معه من أهل بيته وخاصة المهاجرين
 والأنصار ، وتمت المحنة وكان الابتلاء فيها شديداً أحصت به قلوب المؤمنين ، ثم تداركهم
 الله برحمته ، وعاد إليهم نصره وتأييده ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى من الناس
 ما رأى قال لعنه العباس - وكان العباس صبيئاً جهوري - اصرخ في الناس ، يا معشر
 الأنصار يا أصحاب السمرة ، فانهطوا يقولون : لبيك لبيك ، فيذهب الرجل منهم
 ليثني بعيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ثم يقتحم

عن بعير فيخلى سبيله في الناس ، ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فقتلوا ، فكانت الدعوة أولاً بالأَنْصار ، ثم جعلت أخيراً يا للخزرج ، وكانوا صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى مجتهد الناس وهم يجتهدون ، فقال : الآن حمى الوطيس .

وهكذا هزمت القلة الصابرة كثرة المشركين الباغية ، وشفى الله صدور المؤمنين من أعدائهم ، وفي ذلك نزل قول الله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم يروها وعذب الذين كفروا ؛ وذلك جزاء الكافرين »

قال الديار بكري : « كان خالد بن الوليد مع بني سلمة في مقدمة الجيش ، وكان أكثرهم حسراً ليس عليه سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوماً كانوا لهم ، جمع هوازن وبني نسر ، وهم قوم رماة لا يكاد يسهط لهم سهم ، والمسلمون عنهم غافلون ، فرشقوهم رشقاً لا ينادون يخطئون ، فولى جماعة كفار قريش الدين كانوا في جيش الإسلام وشبان الأتباع وأخفاؤهم وتبعهم المسلمون الذين كانوا قريبي العهد بالجاهلية .

انسحاب
لا يحدد
البطولة

« فلما انعطف الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محجبين لندائه كان خالد رضي الله عنه في أول من كر مع أبطال الإسلام يضرب في وجه المشركين ، من كثرة جراحاته ؛ قال ابن عبد البر في الاستيعاب : وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني سليم يوم حنين وجرح يومئذ ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ربه بعد ما هزم الله هوازن ليعرف خبره ويهوده ، ، فنفت في جرحه فانطلق . »

تقع الأحداث فتترك وراءها آثارها في النفوس ، وتلك الآثار تختلف باختلاف مواقعها وأسبابها ، وهذا الحدث الذي انسحب فيه خالد بن الوليد ، وهو بطل الحرب ، ترك في نفسه أثرأ جعله في كرتة يتمثل غدره القوم بالمسلمين وأشدهم على سرقة ، فامناً صدره غيظاً عليهم ، حجب عنه بعض خلائقه ، فكان يقتل كل من لفته من المشركين ، لا يبالى أ كان سيفه في عنق رجل أو امرأة .

ذكر ابن اسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر يومئذ بامرأة ، وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس متعصفون عليها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا . امرأة قتلها خالد ابن الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من كان معه : أدرك خالدًا ، فقتل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفاً^(١) . فكان عند أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس في هذا الانسحاب خدش لبطولة خالد رضى الله عنه ، لأنه كان مع كتيبته في مقدمة الجيش ، فكان عنفوان المفاجأة التي مكرها الأعداء عليه ، فلو صبر وصبر معه جنده لهذه المفاجأة العاصفة لكانت العاقبة إفناء هذه الكتيبة الباسلة في غير شيء يعود على المسلمين بالنفع والفائدة ، فلا حرج على البطل أن ينحاز ليستعد للوثوب ، ولو كان ذلك في صورة الانهزام والتقهقر ، بل لعل ذلك الانسحاب خطة حربية ناجحة ، ولكنهما قد تكون بعيدة النتائج ، وقد عرفنا فيما قرأنا من سير أبطال الحروب الحديثة أن الانسحاب لإنقاذ الجيش المأخوذ على غرة من أهم الفنون الحربية ، حتى تخصص فيه قوم من القواد وحذوقه فكان عند أمهم من أقوى عوامل الانتصار .

ولا تتوهم عاقلاً يعترض بموقف النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ، لأن شخصيته أعظم من أن تقايس بها شخصية في الوجود ، والذين ثبتوا معه هم أقرب الناس إليه نفساً ونسباً فهم أشبه بأركان حرب القائد في الاصطلاح الحديث ، فهم خاصته الملازمون ، فلما رأوا شجاعته الباهرة شجعت أفئدتهم ، وانتقوا به البأس ، أما خالد فقد كان مرتبطاً بكتيبته لأنه قائدها وأميرها فكان عليه أن يعمل على إنجائها من الهلاك ، وليس موقف قائد الفرقة أو قائد الكتيبة كموقف القائد الأعلى ، لأن قائد الفرقة روح فرقته وقائد الجيش الأعلى روح الجيش كله ، ولذلك كان النصر في غزوة حنين هذه أثرًا من آثار موقف النبي صلى الله عليه وسلم وشجاعته ، فإن الناس لم يلشوا أن سمعوا الصوت يناديهم « إلى أيها الناس ، أنا رسول الله » حتى عطفوا عليه عطفة النحل على عيسوبها ، وتم للؤمنين نصر الله بصورة لم تسبق لهم من كثرة الغنائم ورهبة

شجاعة النبي
وأثرها

الأعداء . فقد بلغت الغنائم في هذه الغزوة ستة آلاف من الذراري والنساء وأربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وما لا يحصى من الشاء ، وأسلمت بعد ذلك هوازن فرد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذراريها ونساءها ، وقسم الأموال في المسلمين ، وأعطى المؤلفة عطاء غامراً .

خالد في
محاصرة ثقيف

كان النصر في هذه الغزوة نصراً مؤزراً ، أربع قلوب من بقي من العرب مباعداً للإسلام ، وكانت قبيلة ثقيف قد اعتصمت بحصونها بعد هزيمة حليتها هوازن ، فزحف عليها النبي صلى الله عليه وسلم بجند الله ، ومسير سيف الله خالد بن الوليد في ألف رجل . على مقدمته طليعة ، فحاصروا الطائف زمناً اختلفت الروايات في تقديره ، ولم يقع قتال . غير تراشق النبل ، وكان بطل الإسلام خالد يخرج فينادي : هل من مبارز ؟ فلا يرد عليه أحد ، فلما أعتهم بتعديده وأكثر عليهم أجابه زعيم ثقيف عبد ياليل : لا ينزل إليك منا أحد ولكن نقيم في حصننا ، فإن فيه من الطعام ما يسكننا سنة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في حصاره ثقيفاً رؤيا ففهم على أبي بكر ، فقال : إنى رأيت أنه أهديت لي قبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فأهراق ما فيها ، فقال : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا لا أرى ذلك ، فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل فارتحلوا ، ثم جاء الله بعد قليل بثقيف مسلمين .

بعث خالد
للتثبت من
بني المصطلق

كان بنو المصطلق قوماً من بني جذيمة ، أسلموا وبنوا المساجد فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة مصدقاً ، وكان بينهم وبين الوليد عداوة جاهلية ، فلما قدم عليهم وسمعوا به خرج منهم عشرون رجلاً يلقونه بالجزر والغنم وما جمعه من مال الصدقات ، فرحوا بقدمه وتغلبوا لأمر الله وأمر رسوله ، فنفع الشيطان في صدره أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه أنهم يحولون بينه وبين الصدقة وأنهم يريدون قتله ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاد أن يهجمهم ، فلما بلغهم رجوع الوليد مغاضباً أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يا رسول الله ، سمعنا بعجىء رسولك ، فخرجنا نلقاه ونسكرمه ، فرجع ، فغضبنا أن يكون رده عنا بلوغ .

كتاب منك لنضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليهم سيفه وموضع ثقته وعيبة نصحه خالد بن الوليد في عسكر خفية ، وقال له : أنظر فإن رأيت ما يدل على إيمانهم ، فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار ، فأتاهم خالد فسمع منهم أذاني صلاة المغرب والعشاء ، فأخذ منهم صدقاتهم ، ولم يرمهم إلا الطاعة والخير ، فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخبره الخبر ، قيل : فأنزل الله في شأن الوليد بن عقبة وشأنهم قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيبوا على ما فعلتم نادمين » .

تراعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فرغ من حنين ورجع من حصار الطائف سرية خالد وأقام بالمدينة نحواً من ستة أشهر يحجم أصحابه ، أن الروم جمعت له بالشام جموعاً كثيرة ليقاتلوه ، وقد اجتمع معهم من مستعربة الأطراف من بني لخم وجزام وغسان وعاملة عدد كثير ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ليستعدوا ، وأنهم تقدموا إلى اللقاء فحسروا بها ، فأمر الناس بالتأهب والتجهز والسير إلى الشام ، وكان الزمان زمان حر وعسرة ، وكان هذا الوجه من أهيب وجوه الغزوات للمسلمين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوماً ورى عنهم بغيرهم إلهذه الغزوة التي يقصدها إلى بني الأصفر ، فإنه أعلن عنها للناس ليتأهبوا لها لبعد السفر فيها وشدة الحال على الناس ، وحض رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجهاد ورغب فيه وأمر بالصدقة والإنفاق في سبيل الله ، فأقبل المسلمون فبادت أنفسهم بما وسعها الخير ، فجاء أبو بكر الصديق بماله كله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وأنفق العباس ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن عباد ، ومحمد بن سلمة ، وعاصم بن عدي ، نفقات عظيمة القدر ، وجاء عثمان ابن عفان بمال عظيم اختلفت الروايات في تقديره ، وأمثلها من يرى أنه استقل وحده بتجهيز ثلث الجيش كله ، وكان الجيش في هذه الغزوة ثلاثين ألفاً ؛ فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم وأظهر السرور البالغ بصنيعه . وفي هذه الغزوة نجم النفاق ، وافتضح المنافقون ،

سرية خالد
إلى أ كيدر

فتكلموا بما في أنفسهم من الضغن على الإسلام والمسلمين ، فأخبر الله نبيه عنهم وأنزل في شأنهم ما أنزل من القرآن الكريم .

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى تبوك فلم يجد مما بانه عن تأهب الروم لحربه شيئاً ، ولقيه صاحب أيلة ، وأهل حرباء وأذرح فصالحوه على الجزية ، ولم يجد في طريقه كيذا ، ولا لقي في وجهه هذا حرباً .

كان في هذه الغزوة خالد بن الوليد على ما كان عليه في سوابقه من الإمارة على النهرسان والحيل ، ولكن الروايات لم تبحر له فيها ذكر ، لأنه لم يكن فيها موقف حربى يظهر به بطولته خالد فيحدث عنه بما كان . وقد ذهب بفضل هذه الغزوة أهل الثراء ممن أمدوا الجيش بأموالهم وجهزوا الجند بالأسلحة والمؤن ، ولم يعرف عن خالد أنه كان من ذوى الثراء وأصحاب الأموال ، فليس له فيها إلا حظ القائد الذى تأهب لموقفه من الميدان ، فلم يجد أمامه صائلاً يدفعه ولا عدواً يخاربه ، فتقل ليبحث عن مكانه في ساحة البطولة الظافرة .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بنزع عشرة ليال ، ثم شاور أخا به في التقدم إلى الروم والمسير إليهم في بلادهم ، فقال عمر بن الخطاب : إن كنت أمرت بالمسير وسر فقال صلى الله عليه وسلم : « لو أمرت ما استثمرتكم فيه » ، فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جوعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم وأفرغتهم تبوك ، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله في ذلك أمراً ؟

ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصراف بعث خالد بن الوليد على رأس أربع مائة وعشرين فارساً إلى أكيدر صاحب دومة الجندل - قرية في طرف الشام ولا بد لقاصدها من أن يتخطى بلاد كلب وهى قبيلة من أكثر قبائل العرب عدداً ، وأشدها كلباً - فقال خالد : كيف لي به يا رسول الله وسط بلاد كلب ١٢ وإنا أنا في ناس يسير ، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه سيأخذه ساراً فيخلف به ، فقال : ما مقام يسير الوحش فتأخذه .

فخرج خالد على كتيبته من تبوك ميمها دومة ، فلما دنا منها ، وكان بمنظر العين من حصن أكيدر ثلث قليلاً ينظر في شأنه ، وكان أكيدر على سطح قصره في إله هراء

صانقة ، ومعه امرأته الرباب السكندية ، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن ، فأشرفت امرأته على باب الحصن فرأت البقر ، فقالت له : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا ، والله ؛ قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ؛ وكان أكيدر يضم لهذا الصياد الحليل شهرا ، فنزل وأمر بالخيول فأسرجت ، فركب وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخوه حسان ، فدلف إليهم خالد بفرسان المسلمين فاتبعهم حتى لحق بهم ، فاستأسر أكيدر ، وامتنع أخوه حسان ، وقاتل حتى قتل ، وهرب سائر من كان معه حتى دخلوا الحصن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لخالد : إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله ، وائت به إلى ، فقال له خالد - وهو في يده أخيد - . هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن تفتح لي دومة الجندل ؟ قال : نعم ، لك ذلك ؛ فلما صالح خالد أكيدر وهو في وثاقه كان أخوه معاصد في الحصن ، فأبى أن يفتح الحصن حتى يطلق أكيدر من وثاقه ، فطلب أكيدر أن يصالحه خالد على شيء معين حتى يفتح له باب الحصن ، ثم يطلق به وبأخيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحكم فيهما بما شاء ، فرضى خالد ، وتم بينهما الصلح على ألفي بعير ، وثمانمائة فرس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وخلي خالد سبيله ففتح له باب الحصن ، فدخله المسلمون ، وحقق خالد دمه ودم أخيه ، وانطلق بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقدمه من تبوك ، فغضب عليه وعلى قومه الجزية ، وكذب لهم كتاب أمان ، واختلفت الروايات في شأنه بعد ذلك ، وأثبتها أنه ظل على نصرانيته ، ثم نقض العهد فحاصره خالد نفسه زمن أبي بكر وقتله مشركا .

وفي لقائه الأول أخذ منه خالد فباء غنوصا بالذهب بما تلبسه الملوك ، فبعث به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل قدومه به فجعل المسلمون يمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرد عنهم وساوس الدنيا ، ويصرفهم إلى ما هو أعظم : لنناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا .

كانت تسرية خالد من تبوك إلى دومة الجندل مظهرا من مظاهر تعويض البطولة عما فاتها من غمرات المجادلة ، وكانت عنوانا بارزا على تقويم خالد بقيمته التي وزنه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم إسلامه ، وإن تكن الأحداث قد غيرت من ذلك

التقويم شيئاً فذلك ما يفتنى إليه الذهب بعدفتنته بالنار ، وطبائع النفوس أقوى في حقايقها الإنسانية من طبيعة الذهب في حقيقته المعدنية .

وكانت آية من آيات عقله السياسى البارع ، فهو يصطنع إلى أسيره الملك عارفة من عوارفه فيجيره من القتل على أن يفتح له الحصن ، فلما لم يرض محماد أخو أكيدر بفتح الحصن إلا أن يحل وثاق أخيه الملك ، لم تقف عزة الغالب الظافر أمام خالد فيأبى عليه ذلك ، ولكنه يرضى به ويكسب للمسلمين صلحا يعود عليهم بأعظم المنافع ، ويأبى مع ذلك إلى ما أراده خالد أول المفاوضة من الذهاب بأكيدر وأخيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقر ما صنع بهما خالد ، وردهما إلى مكانهما آمنين .

وقد كشفت لنا هذه السرية عن شيء من خلائق خالد التي تزدان بها البطولة وتغلب في طبع الأبطال ؛ ولنا بكشفه حاجة في حياة خالد تدفع شبهة قد تمس الأمانة في أخلاق البطل ، وإن تكن تلك الشبهة مدفوعة بما مات عنه خالد من فقر في المال ، وهو الفائدة المظفر الذى خاض أكثر من مائة زحف ظفر فيها وغنم من الغنائم ما لو شاء الله أن يكون أثرى أنرياء المسلمين لكان له ما شاء ، لولا خصيصة البطولة في أمانة خالد .

ظفر خالد بأكيدر ملك دومة في متصيد ، وعليه حلة من خال الملوكة عروس قبائها بأسلاك الذهب ، فلم تحدته نفسه أن يحتج لحاصله هذا القباء الذى يباع فيه بثمن أن يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، لما رأى تعجب أصحابه منه : لمناديل سعة في الجنة خير منه ؛ والمؤمنون يعرفون مقدار المفاضلة بين أدنى أشياء الجنة وأعلى أشياء الدنيا في تعظيم ما يراد تعظيمه من حاج الدنيا .

أفليس ذلك أرفع ما يصبو إليه الناس من مراتب الأخلاق في الأمانة والعزف عن زخارف الدنيا ؟ بلى ، إن رجلا أدى ذلك لأمين أى أمين .

بعث خالد
لهدم اللات

لما رجع خالد بن الوليد من دومة ظافر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تقدمه قافلا من تبوك إلى المدينة ، فقدم عليه وفد ثقيف فقاضاهم على الإسلام ، وكان فيما قاضاهم عليه هدم طاغيتهم « اللات » ، وهو بيت كانوا يتعبدونه ، ويهدون له ، يضاهون به البيت الحرام ، وكانوا قد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم فلا يهدمه حتى يدخل الإسلام قومهم ، فأبى عليهم أن يدعه شيئاً من زمن ، فأسلم الوفد وادوا

إلى قومهم ، نفو فوهم بطش الإسلام وقوته ، ورغبوهم في الدخول فيما دخل فيه سائر الناس فأسلموا مستسلمين .

ثم أرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلة ليهدموا معبودهم «اللات» وأمر عليهم خالد بن الوليد ، وكان في الرسل المغيرة بن شعبة ، لأن قومه بنى معتب من ثقيف هم سدنة الطاغية ، فهو يتألفهم ليؤكد دخولهم في الإسلام ، وهم يقومون دونه يحمونه من مثل ما وقع لعروة بن مسعود ، إذ دعاهم إلى الإسلام فقتلوه .

فلما قدم عليهم خالد فيمن كان معه عمدوا إلى «اللات» يهدمونها فتسكفات ثقيف قضاها بقتلها ، حتى خرج العواتق من الحجال ينظرون ماتصنع ربهم بمن يهدمها ، وهم في جهالتهم لا يصدقون أنها تهدم ، ويرون أنها تستمتع نفسها ، ثم أمر خالد المغيرة بن شعبة أن يكون هو الذى يتولى هدمها ، فضحك المغيرة ، وقال لأصحابه : لا تخشاكم من ثقيف !! فأخذ الكرزون^(١) فضرب به ، ثم أخذ يرتكبن ، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة ، وقالوا أبعده الله المغيرة !! قد قتلته الربة ! وفرحوا حين رأوه يسقط ، وقالوا من شاء منكم فليقرب ، وليجهد على هدمها ، والله لا تستطاع أبدا . فوثب المغيرة وقد رأى منهم الشجاعة والسخرية مزوجتين بهذه البلاهة الجاهلة ، فقال : بعبكم الله يا معشر ثقيف ! إنما هي لكع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا على سورها ، وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض ، ولكن جهالة ثقيف كانت على مقدار عنادهم ونسكارتهم ، فما زالت فيهم عقيدة الوثنية تعمل عمالها ، فجعل سادتها وصاحب مفاتيحها يقول : ليغضب الأساس ، فليخسف بهم فلما سمع المغيرة هذه الجهالة البليدة قال لأمره خالد بن الوليد : دعنى أحفر أساسها ، فخفروها حتى أخرجوا تراها ، وأخذوا حليها وثيابها ، فبهتت ثقيف ، وعامت بعد جهالة أن ربهم في حقيقتها إنما هي صورة من بلاهتهم معجونة بمخففات من التراب ، لم تلبث إذ رأت شمس الحق ساطعة أن عادت هباء تذررها الرياح .

هذه الرواية في هدم طاغية ثقيف نقلها الديار بكري في تاريخ الخميس من طريق.

(١) الكرزون : المول .

موسى بن عقبة . وهناك رواية أخرى ذكرها من طريق ابن اسحاق ، رى أن أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة هما اللذان أرسلتا لهدم الطاغية ، فاما قدما الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان ، وقال للمغيرة : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان في مال له هناك ، فدخل المغيرة وهدم الطاغية ، وأخذ ما وجد فيها من مال وحلى ، فأرسله الى أبي سفيان ، ثم عادا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى منه ديناً كان على عروة بن مسعود ، وأخيه الأسود ، وقد سأله في ذلك أبناهما مابيح بن عروة ، وقارب بن الأسود ، وكانا قد أساما قبل يومهما ، ثم قسم سائرهما من يومه .

وقد يظهر للبحث ترجيح الرواية الأولى ، لأنها تتفق مع ما جرى في السوابق من إرسال عدد من الرجال بأمرهم في أمثال هذا الحادث ، ولأنه يبعد أن يرسل إلى ثقيف رجالاً لهدم طاغيتهم ، وهم بعد لم يخالفوا الإسلام قلوبهم ؛ ولأنه يبعد أن يهدم بالان الى أبي سفيان بن حرب وهو قريب عهد بالإسلام ، لم يسلم طواعية ، ولأنه لو كان هو المرسل فإنه يبعد أن يدع صاحبه المغيرة يدخل على قومه وحده في أمر أشق على أنفسهم من القتل وسفك الدماء ، ثم يتخلف في مال له هالك .

وارسال خالد أميراً على سرية لهدم «اللات» وكان هو الذي هدم العزى ، أعرب من إرسال أبي سفيان بن حرب ؛ وقد كان خالد في ثقيف موقفاً برشحه لهدم العمل ؛ وكان لأبي سفيان موقف في ثقيف وهي مع هوازن في حنين لما عسى عايه كثير زعم ؛ يبعد بينه وبين ذلك .

لم يزل خالد بن الوليد رضى الله عنه منذ أسلم حظى المستحانة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حربه ؛ يوليه أعنة الحيل ؛ وبعثه أمراً على سراياه ، ويعقد له على كتائب جيوشه الظافرة ؛ ويرسله معامداً وداعياً إلى الله .

يبحث خالد الى
نجران هادياً
ومعلماً

وإذا كانت عبقرية خالد العسكرية من العبقریات الفاهرة الغامرة حتى غابت على سائر خصائصه وفواضله في جوانب الحياة الأخرى فلم يجعل الجانب سواها ذكراً مهماً في سجل الخلود ؛ فلم يجعل التاريخ فضائل خالد كإمام من أئمة الدين ومعانيه ؛ فقد استأثره

رسول الله صلى الله عليه وسلم معلماً لكتاب الله وسنة نبيه ، ومبيناً لمعالم الإسلام وشرائعه ، وهذا لا يكون إلا عن يقين من رسول الله صلى الله عليه وسلم بفقته خالداً في الإسلام وعلمه بالكتاب والسنة ، لأنه أرسله إلى قوم بعيدة دارهم عن موطن النبوة والوحي ، وقد لا يمكن مع هذا البعد تلافى ما يقع من الخطأ في الأحكام الشرعية ، فلو لم يكن أمير القوم ومعلمهم فقيهاً في الدين عالماً بتأويل الكتاب وفهم السنة لكان في بعثه معلماً تلبيس وحرج على من بعث معلماً له ، وهذا ما لا يمكن وقوعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عرف أنه وقع قط ، بل الذي تظاهرت به الأخبار الصحيحة أن معلمى المسلمين على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من علماء الصحابة المشهود لهم بالفقته في الدين والعلم بالتأويل ، واختلافهم في العلم والفقه ودقة النظر في المسائل والفناوى أمر طبيعى يقع بين طبقات الناس جميعهم في كل عصر ومصر ، وهذا تأويل ما نقل عن خالد رضى الله عنه : شغافى الجهاد عن الكثير من القرآن .

روى أصحاب السير والمؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم : بعث خالد بن الوليد على سرية إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، وقال له : « فإن استجابوا لك فاقبل منهم ، وأقم فيهم ، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام ، فإن لم يفعلوا فقاتلهم » .

فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يغربون في كل وجه ، يدعون الناس إلى الإسلام ، يقولون : « أيها الناس أسلموا تسلموا » فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه ، فأقام خالد فيهم يعلمهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وقد سجل خالد لنفسه هذه المنفعة العظمى في كتاب أرسله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم لحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد ، السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنيك بعثتني إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أنيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم

كتاب خالد
إلى رسول
الله مبشراً

ركبانا ، قالوا : يا بنى الحارث ، أساموا تساموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، أمرهم بما أمرهم الله به ؛ وأنهم عن ما نهى الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

وقد أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتابه هذا فكتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من النبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسولك تحب أن بنى الحارث بن كعب قد أساموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . »

كتاب رسول
الله بوفد بنى
الحارث

وفي كتاب خالد رضى الله عنه إلى جانب تسجيله ما طواه التاريخ من جوانب مضيئة في شخصيته ، ناحية تلفت نظر الباحث ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أرسل خالداً إلى بنى الحارث باليمين أمره أن يقيم فيهم إماماً ومعلماً ، يبين لهم معالم الإسلام ، واسكن خالداً - وهو القائد المظفور على حب الحرب - لم تسكن نفسه لنفسكن إلى الدعة والمندوة بعد أن أدى مهمته الحربية ، وتم على يديه إسلام بنى الحارث ، وعلمهم معالم الإسلام ، بل حنت نفسه الكبيرة إلى الجلاد استجابة لما في طبعه من خصائص عسكرية فائقة ، فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبلغه أنه أدى ما أمره به فدعا إلى الإسلام فاستجاب له الناس ، وأقام فيهم يأمرهم بأمر الله وينهاهم عن مناهي الله ، وأرشدهم إلى شرائع الإسلام ومعالمه ، وهو ينتظر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يسدر إليه بما يوجهه إليه .

حين خالد
إلى الجهاد

وكان هذا تلميح من خالد إلى ما يريد من خوض الغمرات جهاداً في سبيل الله ، فأجابه رسول الله إلى رغبته ، فاستقدمه بوفد بنى الحارث ، فأقبل خالد من اليمين قائلاً ، وأقبل معه وفد بنى الحارث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رانم رسول الله قال يسأل عنهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل يا رسول الله : هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب ، فلما وقفوا عليه سجدوا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ، فقال رسول الله : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن رسول الله ، ثم

قال لهم وهو يعلم شدة شكيمتهم وتميزهم عن العرب بأخلاق المغالبة وشدة البأس : أنتم الذين إذا زجروا استقدموا ؛ فسكتوا فلم يراجعهم أحد منهم حتى ذكر ذلك أربع مرات ؛ فقال أحدهم — يزيد بن عبد المدان — : نعم يارسول الله : نحن الذين إذا زجروا استقدموا ، وجعل يكررها حتى بلغ بها مرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله : لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إلى فيكم أنكم أسأتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم .

ويبدو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم هذه المقالة الشديدة التي لم تجر بها عادته الكريمة في مخاطبة الوفود ، ليطامن من عنجهيتهم ويكسر من حدتهم ويدخل في قلوبهم رهبة الإسلام حتى يبلغوا من وراءهم من قومهم فتلين أفئدتهم ، وتذهب عنهم نخوة الجاهلية وحمية العصبية ، وغرور الاستعلاء والغلب بما تميزوا به عن سائر قبائل العرب ولذلك جاء ردهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير خلى من جفوة الأعرابية وتعزز الجاهلية ، فقال متكاهم يزيد بن عبد المدان : أما والله يارسول الله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً ، فقال رسول الله : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله الذي هدانا لك يا الله . صدقتم .

ولما سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض أخلاقهم التي كانت لهم في الجاهلية والتي كانوا بها غلابين مرهوبين ، أجابوا متغضبين : لم تغلب أحداً ١١ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ؛ قالوا : يارسول الله كنا تغلب من قاتلنا إنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبداً أحداً بظلم ، قال صدقتم .

رواية أخرى
في سيرة خالد
إلى نجران

هذه رواية يجمع عليها المؤرخون وأصحاب السير في شأن بعث خالد بن الوليد إلى نجران من أقاليم اليمن داعياً بني الحارث بن كعب إلى الإسلام ، وهي صريحة في أن خالداً ذهب إليهم أمير سرية ، فدعاهم إلى الإسلام وعلمهم القرآن والسنة ومعالم الإسلام فأتم ما أمر به ، وأداه أحسن أداء ، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب إليه رسول الله فاستقدمه بوفد بني الحارث ، فوفد بهم عليه ، وحدثهم وحدثوه ، ثم ولى عليهم أميراً منهم ، وبعث إليهم معلماً بقي على ولايته حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . بيد أن بعض المؤرخين ذكروا رواية أخرى في بعث خالد إلى اليمن في التاريخ

نفسه الذي تذكر فيه بعثه إلى بنى الحارث بن كعب ، وهي مختلفة في نفسها ووفاتها وتناجها كل الاختلاف مع الرواية الإجماعية ، لأن هذه الرواية تقول : إن خالداً أرسل إلى اليمن لدعوة قبيلة همدان إلى الإسلام ، وحمدان بن الحارث الذين أرسلهم خالد في الرواية الأولى ، ولأنها تقول : إن خالداً دعا القوم فلم يجيبوه ، وأنه لم يوفق في رسالته ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على بن أبي طالب لما كان بعث إليه خالد بن الوليد ، وأمر علياً أن يقبل خالداً ومن معه إلا من شاء منهم أن يبقى في سرية على فله ذلك ، وأن خالداً رجع بسريته بعد ستة أشهر لم يجبه القوم إلى شيء ، وأن علياً أكرم الله وجهه قام بدعوة القوم فأجابوه وأسلموا جميعاً ، فكتب بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لهم وسلم عليهم .

والناظر بعين الباحث الناقد يدرك - إذا فرغنا صيغة الروايتين - أن هناك منسبين في بعثتين مختلفتين كان فيها خالد بن الوليد أمير سرية ، وأنه وفق في إمامتهما - وهي بعثة بنى الحارث - أتم توفيق ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم استأذنه يومئذ منهم ، فقدم بهم عليه ، وجرى حديثهم على ما سقناه .

التوفيق بين
الروايتين

وأما البعث الآخر فهذا كان إلى أهل اليمن عامة ، وجهادهم في تدميرهم ، وهذا هو الذي تحدث عنه الرواية الثانية ، وهو الذي عتب فيه علي - الأ - لأن القوم لم يجيبوا خالداً ، ولم يؤمر بقتالهم فلم يقاتلهم ، فلما قدم عليهم على وأقبل خالد بنهم معه دعاهم إلى الله فأجابوه .

حدث الطبري عن البراء بن عازب قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، فكانت فريسة سار معه ، وأمامه ما هم مستعدون أشهر ، لا يجيبونه إلى شيء ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب ، وأمره أن يقبل خالداً ومن معه فإن أراد أحد من كان مع خالد بن الوليد أن يعقب معه فله ، فمضت فيمن عقب ، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ صفنا صفاً واحداً ، ثم تقدم بين أيدينا محمد الله وأنتى عليه ، ثم مرأى ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قرأ كتابه خر ساجداً ثم جالس فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان ، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام .

ويدل لما ذهبنا إليه أولاً: - أن الطبري وتابعه ابن الأثير - على عادته - ذكر في موضع بعث خالد إلى بني الحارث ، وساقه كما ذكرناه ، ولم يعرض فيه لذكر بعث عليّ إلى اليمن ، ولا لذكر همدان ، وذكر في موضع آخر بعث عليّ إلى أهل اليمن معقباً لخالد وأمره أن يقلل خالداً بمن معه ، وساق حديث البراء المتقدم ، ولم يعرض في هذا الموضوع لذكر بني الحارث ودعوتهم إلى الإسلام .

وجرى في هذا الشوط الديار بكرى في تاريخ الخميس ، فذكر بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث مختصراً على ما ذكره الطبري فلم يجر فيه ذكر لعلي ولا لهما ، وذكر قصة أخرى في التاريخ نفسه الذي تحدث الرواة فيه أن علياً عقب فيه خالداً إلى اليمن ، ولم يجر فيها ذكر لبني الحارث ودعوتهم .

ويؤيد ما ذكرناه أن القسطلاني في المواهب ذكر بعث خالد إلى عبد المدان في التاريخ الذي ذكر المؤرخون فيه بعثه إلى بني الحارث ، وعبد المدان بطن من بني الحارث ، وأن خالداً دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، فهذا هذا .

وكذلك يؤيده ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود من حديث علي قال : بعثني النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فقلت يا رسول الله : تبعثني إلى قوم أسن مني ، وأنا حديث السن ، لا أبصر القضاء ؟ قال علي : فوضع يده في صدري ، وقال اللهم ثبت لساني ، واهد قلبي ، وقال يا علي : إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ، الحديث .

قال الديار بكرى : نخرج على في ثلاثمائة فارس ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك ، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل حتى حمل عليهم على وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً ، فتفرقوا وانهزموا فكف عن طلبهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام ، ثم قتل فوافي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قد قدمها للحج سنة عشر .

فظاهر جداً من سياق هذه الروايات أن القصة أكثر من واحدة ولكن العقدة فيها هي التاريخ الذي يذكر جميع الرواة أن البعث كان فيه ، فالإجماع منعقد من المؤرخين على أن بعث خالد إلى بني الحارث كان فيما بين ربيع الأول وجمادى الأولى من السنة العاشرة ، (م ٨ — خالد ابن الوليد)

والروايات التي تذكر بعث على إلى أهل اليمن معقباً لخالد ورجوع خالد بمن معه تجعله في رمضان من سنة عشر ، فالسنة موضع اتفاق عند الجميع ، وحديث البراء المتقدم يقول : إن خالداً مكث ستة أشهر يدعو القوم فلا يجيبه أحد ، وهذه الستة أشهر هي المدة من ربيع الأول إلى رمضان ، وذلك يحتم أن القصة واحدة في بعث واحد ، وهو ما تقضى بعده تفاصيل الروايات .

وإذا صح أن يكون للحديث والتخمين موضع في هذا المقام فأقرب ما يتجه إليه البحث أن يكون قد وقع خطأ في تاريخ البعثين أو أحدهما ، ولعل الأشبه أن يكون بعث خالد إلى بني الحارث كان في أخريات سنة تسع فجعل في أوائل سنة عشر نائراً بالبعث الثاني الذي كان فيها ، وقد كان إلى الجهة التي كان إليها البعث الأول مع اختلاف القوم المذكورين في البعثين ، وكان خالداً أميراً فيه كما كان في البعث الأول ، فمن السهل جداً وموقع الانتباه والغلط في تاريخ البعثين أو أحدهما .

وقد ثبت في الصحيح قدوم علي بن أبي طالب من اليمن إلى مكة حيث أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته فأهل بها أهل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان بعث علي إلى اليمن في السنة العاشرة مما لا اشتباه فيه .

ومهما يكن من شيء فإن رواية بعث علي إلى يمدان وإسلامها على يديه قد تدفع بعث خالد إلى بني الحارث واستجابتهم له وإسلامهم على يديه ، وإقامته فيهم مع آلهم معاً لا إسلام وكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

الفصل السابع

خالد

في حروب الردة

حال الناس بعد وفاة رسول الله - شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه - أين رأى
خالد - توجيه خالد إلى طليحة الأسدي - وصية أبي بكر لخالد - تنبيه وتذكير - خالد
وعدي بن حاتم - خالد في وجه طليحة - هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام - حملة
تأديبية - سياسة حكيمة .

حال الناس
بعد وفاة
رسول الله

لم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وفي جزيرة العرب ركن لم يدخله الإسلام ، بل لقد فاضت به على من حولها حتى وقعت دعوته في أسماعهم ، فأقر الله عين رسوله وأتم نعمته على عباده ، وأكمل للمؤمنين دينهم الذي ارتضاه شريعة لعامة خلقه ، ولكن الناس كانوا بين مؤمن موقن ، ومؤمن مفزع ، وكافر عنيد ، ومنافق مفضوح النفاق ، ومتأرجح تتطارحه الأهواء ، يصبح مع هذا ويمسى مع ذلك ، وإذا بالطامة الكبرى تفجأ المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسرى النبأ فادحا مع الأثير في أرجاء الجزيرة ، وتلقاه الناس فاغرى أفواهم ذهولا وبهرا ، ورفع النفاق رأسه ، وأبدت اليهودية عن ذات نفسها ، وأعربت النصرانية عن كظيم غيظها ، وتراجع الجفافة من الأعراب إلى مضاربهم في أكنان الصحراء ومنازل الجاهلية يقولون لأنفسهم : لو كان نبياً ما مات ، وتلبأ الكذابون والكذابات ، وتجمع النشأ إلى بعضه جسراً بمنع تيار الإسلام أن يندفع إلى مهابط الهداية والرحمة من الأرض .

شجاعة
الصديق
ورسوخ
إيمانه

وبقيت فيما بين المسجدين طائفة المؤمنين الموقنين بإمامة أفضل مولود بعد النبيين ، ذلك عماد الدين وعلم اليقين ، أول مجدد للإسلام ، الصديق أبو بكر ، سيد المؤمنين ، فنهض بحمل العبء وحده ، ولم يبق رجل في الإسلام ، الفاروق فمن دونه إلا كانت له في هذا اليوم كبوة وتردد ، وانفرد الصديق بعزيمة كانت لها بعزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الشعب والطائف وشائج سميت بها عن عزائم البشرية ، فكانت معجزة الخلافة الأولى أصدق آية على معجزة النبوة في تربية الرجال .

فلما رأى أعلام الإسلام الجد في الأمر من الصديق انشرفت صدورهم لما شرح الله له صدره من الحق . قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تصف حال الناس وحال الصديق معهم حينما صدعهم الخطب العاصف . لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، وأشرأت اليهودية والنصرانية ، وعم الفراق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشائبة لقد نبههم حتى جمعهم الله على أبي بكر ، فلقد نزل بأبي ما لو نزل بالجهال الراسيات لهاضها .

وحدث أبو جعفر الطبري عن عروة بن الزبير قال : لما بويع أبو بكر رضي الله عنه

وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال : لستم بعث أسامة . وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشترأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون . كالنعم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبينهم صلى الله عليه وسلم وقتلهم وكثرة عدوهم ، فقال له الناس : إن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى ، قد انتقضت بك ، فأيس . ينبغي لك أن تفرق جماعة المسلمين ، فقال أبو بكر : والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى . غيري لأنفذته .

أشفق المسلمون أشد الإشفاق على أنفسهم ودينهم من هذا الحادث الخطير ، وودوا . بجمع الأنف لو أنهم هادنوا الناس فهاذهم الناس ، وأعربوا عن خواجلهم وإشفائهم أن تحتاحهم العاصفة إلى إمامهم ، وجادلوه وجادلهم حتى تغلب عزمه على ترددهم ، واجتمعت كلمتهم على أن يأخذوا بحجز الناس عن النار ليردوهم إلى ساحة الإيمان . واليقين .

روى صاحب الخسيس عن يعقوب بن محمد الزهرى : أن العرب افترقت في ردائها ، فقالت فرقة : لو كان نبياً مامات ، وقال بعضهم : انتقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحداً بعده ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ، ونشهد أن محمداً رسول الله ، ونصلى . ولكن لا نعطيكم أموالنا ، فأبى أبو بكر إلا قتالهم ، وجادل أبو بكر أبعابه في جهادهم ، وكان من أشدهم عليه عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومسلم مولى أبي حذيفة ، وقالوا له : احبس جيش أسامة بن زيد ، فيسكون عمارة وأماناً بالمدينة ، وارفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر فإن هذا الأمر شديد عوره ، ومهلكهم من غير وجه ، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا : قاتل بمن معك ممن ثبت من ارتد ، وقد أصفقت العرب على الارتداد ؛ فهم بين مرتد ، ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك ، قد قدم رجلاً وآخر رجلاً .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه لما هم بقتال أهل الردة كره ذلك منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله .

فإذا قالوها عصموا مني واهل بي ما أطركم ؟ فقال له أبو بكر : أليس قد قال : إلا بحقتها ؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ، ولو خذاني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى .

وعند الواقدي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر : وإنما شجعت العرب على أموالها وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئاً ، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة ، وتألفت قلوبهم ورفقت بهم ١١٨

فقال له أبو بكر : أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام ؟ قد انقطع الوحى ، وتم الدين أينقص وأنا حى ١١٩

وقد طمع قوم من جفافة الأعراب ، وشيوخ أهل البادية ممن لم يخالط الإيمان قلوبهم في استغلال هذا الاضطراب استغلالاً مادياً ، وظنوها فرصة قد أكتسبت نهزها ، فلا يريدون أن تغلت منهم .

روى أن عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، قدما على أبي بكر في رجال من رءوس العرب ، فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا : إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام ، وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن تجمعوا لنا جعلنا نرجع فنسكنكم من وراءنا . فدخل المهاجرون والأَنْصار على أبي بكر فعرضوا عليه الذى عرضه عليهم ، وقالوا : نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءها حتى يرجع إليك أسامة وجيشه ، ويشد أمرك ، فإننا اليوم قليل في كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب .

قال أبو بكر : هل ترون غير ذلك ١٢٠ قالوا : لا ؛ قال أبو بكر : قد علمت أنه كان من عهد رسول الله إليكم المشورة فيما لم يتم فيه أمر من نبيكم ، ولا نزل به الكتاب عليكم ، وإن الله لن يجمعكم على ضلالة ، وإني أشير عليكم ، وإنما أنا رجل منكم ، تنظرون فيما أشرت عليكم ، وفيما أشرت به ، فتجمعون على أرشد ذلك ، فإن الله يوفقكم أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وأن لا ترشوا على الإسلام أحداً ، وأن تتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فنجاهد عدوه كما جاهدتم

والله لو منعوني عقالا لرأيت أن أجاهدكم عليه حتى آخذ من أهله وأدفعه إلى مستحقه،
فأتروا يرشدكم الله فهذا رأى ، فقالوا : أنت أفضلنا رأيا ورأينا لرأيك تبع . قال
عمر بن الخطاب : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت
أنه الحق ١١

سبحان الله ١١ رجل من الناس يقف وحده في جانب والناس أجمعون في جانب،
يقفون منه موقف المخالف ، قلة منهم تواليه ، وتؤمن بما يؤمن به ، ولكنها تثبطه وتخذل
عنه ، ويحجزها الفرع عن مجاراته ؛ وكثرة غامرة تناصبه العداوة ، وتترقب به الدوائر ،
وتتأهب لاجتياحه وسحق عصابته .

فما هذا الذي أغرى الصديق أبا بكر بهذا الموقف القذ في تاريخ الحياة ؟ إنه الإيمان ،
ولا شيء غير الإيمان ، هو الإيمان وحده الذي هون على الصديق أمر الحياة بأسرها في
سبيل عقيدته يقول ضرار بن الأزور - وكان فيمن وفد على أبي بكر بأخبار الردة - :
فأرأيت أحدا ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم أملاً بحرب شعواء من أبي بكر ،
جعلنا نخبره ، ولكأنما نخبره بماله ولا عليه .

ذلك طرز من العزائم ، وفن من الإيمان ، ولون من رسوخ العقيدة فوق متناول
الآحاد من البشر ، فلا يصلح أن نطلب إلى الناس أن يأتوا بمثله ، إلا بضرب من التعدي ؛
لأنه في سلك الإعجاز منظوم ؛ ولكننا نرضه للتأسي ، وليس من شرط الأسوة أن تجيء
صورتها الحاكية على أتم ما كان للصورة الحسكية من خطوط وألوان ، وحسبها أن
يكون لها منها ما يكون للولد من طبائع أصوله في وراثته المشخصات .

الإيمان نفحة من نفحات الأرواح ، فهو أوحى سرينا ، وأقوى صهراً لصدا
القلوب ، وسرع ما سرى إلى قلوب المؤمنين فبس من إيمان الصديق ؛ فتحوست أنفسهم
إلى أرواح صديقية تفدى العقيدة بالحياة ، وبحق ما قال الفاروق عمر بن الخطاب : والله
لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعا .

كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما قضى حجة الوداع « التمام » ورجع إلى المدينة

في الحرم من سنة إحدى عشرة ، قد ضرب بعث أسامة بن زيد ، وأمره أن يوطىء الحيل تحوم اللقاء حيث قتل أبوه زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، وأوعب مع أسامة أكثر المهاجرين والأنصار ومن كان حول المدينة من القبائل ، وخرجوا فعسكروا بالجرف ، ونقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد به المرض ، فلم يلبث أن توفي ، فوقف أسامة بالناس ، وكان في جنده عمر بن الخطاب ، فقال له أسامة : ارجع إلى خليفة رسول الله فساتأذنه ، يأذن لي أن أرجع بالناس ، فإن معي وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله ، ونقل رسول الله ، وانتقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار فإن أبي إلا أن نعفى فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة وأنى أب بكر فأخبره بما قال أسامة ؛ فقال أبو بكر : لو خطفتي السكالب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال عمر : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلعجة عمر ، فقال له : ثككتك أمك يا ابن الخطاب ؛ استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرني أن أنزعه ؟ فخرج عمر إلى الناس فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال لهم : امضوا ثككتكم أمهاتكم ؛ ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله ١١٢

ثم خرج أبو بكر حتى أناهم فاشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامه راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأتركن ، فقال والله لا تنزل والله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ، فإن لنا زيارى بكل خطوة يخطوها سبع مائة حسنة تسكتب له وسبع مائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبع مائة خطيئة . حتى إذا اتبى قال : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له .

وسار أسامة بجيشه وخلف وراءه المدينة عاصمة الإسلام ، وليس فيها إلا العدد القليل . من أهل القتال وحملة السلاح ؛ والعرب قد أصفقت كلها على الارتداد وحرب المسلمين يريدون استئصالهم ، وزاد في البلاء ما كان من استغلال أمر مسيلمة الخنفي وطليحة الأسدي ، وما كان تقدمهما من أمر الأسود العنسي ؛ وجاءت رسل المسلمين ووفودهم

من أنحاء الجزيرة العربية فدفعوا إلى أبي بكر بالكتب وأخبروه خبر الناس ، فقال لهم ، أبو بكر : لا تبرحوا حتى نجىء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصقتم وأمر ، وأنتقاض الأمور ، فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبي صلى الله عليه وسلم من كل مكان بانتقاض عامة أوخاصة ، وتبسطهم بأنواع المثل على المسلمين ، فخار بهم أبو بكر بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاربهم بالرسول فرد رسالهم بأمره : واتبع الرسل رسلا ، وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة .

فلما قدم أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة ، وقال له ولجنده : أريحوا وأريحوا ظهركم . ثم خرج في الذين خرجوا إلى ذى القصة والذين كانوا من الصحابة على أنقاب المدينة يحمونها ، فقال له المسلمون : نشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك ؛ فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر ؛ فقال : لا ، والله ، لا أفعل ، ولأواسينكم بنفسى ! فخرج في تعبينه إلى ذى حسى وذى القصة حتى نزل على أهل الربرة بالأبرق فاقتتلوا فهزم الله عبسا وذيان ، وفى ذلك يقول زياد بن حنظلة :

وبوم بالأبارق قد شهدنا على ذيات يانهب النهاب
أئيناهم بداهية نسوف مع الصديق إذا ترك العتابا

وإذا دلت هذه الروايات كلها على شجاعة الصديق وعزيمته فإن فيها وجهاً من الدلالة على خبيصة عقلية بارعة ، تبرجت في هذا اللون من السياسة الحكيمة التي أخذ بها أبو بكر الناس .

فصارم عزيمته مع المسلمين في مطلع العاصفة هو الذى جمع إليه كتلهم ؛ وتسميره جيش أسامة ، وفيه وجوه الناس وحدهم هو الذى أربع قلوب المرتدين ، وجعلهم يظنون بقوة المسلمين ، وهو الذى صورها في أفئدتهم بصورة عظيمة ، وتقديره لخطر المرتدين وداهم خطبهم هو الذى جعله على بيئة من أمره ، فأعد للعلماء أقرانها من الدهى والسياسة والحرب والقتال ، وخروجه بنفسه في قلة من معه من المسلمين إلى لقاء من حدثهم أنفسهم بمن كانوا قرييين من المدينة من القبائل المرتدة بهاجتها هو الذى بيع عزيمته المتربعين وراء هذه القبائل فأخافهم ووقف بهم عند شط الحيرة والاضطراب ؛ وتديره .

الحكم مع من بعدت دارهم من المرتدين ، وأخذه إياهم بمتابعة الرسل هو الذى أفسح له المجال حتى عاد إليه جيش أسامة أسلم ما يكون جيش ، فاستطاع أن يسدد ضربته القاصمة إلى عدوه وهو آمن الظهور مطمئن القلب .

لم نعرف لخالد رأيا في هذه المقاولات التي وقعت بين أبي بكر الصديق وسائر المسلمين أين رأى خالد .. في شأن المرتدين ، ولم نسمع له صوتا نعلم به أنه كان في أى جانب من جانبي هذا الاختلاف فما سبب ذلك ؟ وخالدين الوليد ليس بالرجل المعمر الذى ينكر أو يخفى مكانه ورأيه في أعظم حادث فاجأ المسلمين بعد وفاة نبيهم ؟

لعلنا نستطيع أن نجد السبب في شخصية خالد وخلائقه وخصائصه ، فهو رجل حرب ، وقائد جتحتل ، وفارس ميدان ، وبطل جلال ؛ وفي لسان العصر : رجل عسكري ؛ والعسكريون أبعد ما يكونون عن السياسة ودهيها ؛ أو ينبغي أن يكونوا كذلك ، لأن العسكري ينتهي إليه التنفيذ ، ولو أنه كان رجل سياسة تتجاذبه الآراء وتتقارضه المذاهب ، وتتداوله الأحزاب لم يصاح أن يكون أداة متأسكة لتنفيذ ما تنتهي إليه السياسة من رأى يختلف مع رأيه ومذهب شيعته وحزبه .

والرجل العسكري في طبيعته وتربيته صاحب فكرة واحدة ، ولا يرى لتنفيذها إلا طريقاً واحداً ، والرجل السياسى صاحب فكر كثيرة في الموضوع الواحد ، وله طرائق متعددة يرى أن يسلكها لتحقيق أهدافه ؛ ونعني أن الرجل العسكري ينظر إلى الحياة من جانب واحد ، هو القوة الميدانية ، أما الرجل السياسى فإنه ينظر إلى الحياة من جوانب متعددة ليس غفلا منها القوة المادية ؛ ولكنها عنده ليست أهمها ولا أولها .

وخالدين الوليد في هذا المقام كغيره من العسكريين أبطال الحروب الذين يقفون عند الشدائد وراء رجال الشورى وذوى الرأى من رجال الدولة متأهبين ، ينتظرون الأمر بامتشاق الحسام ليحكم بين الناس ، والسياسة التي نعيمها هنا ليس منها سياسة تدبير الحرب وإدارة المعارك ، لأن هذه لا تخرج بالرجل العسكري عن نظرته للحياة .

وهناك أمر آخر قد يمت إلى الطبيعة العسكرية بصفة ، ولكنه في خالد بن الوليد يتميز أشد التميز حتى يظن أنه من خصائصه ، ذلك أن خالدآء فيما عرفنا من طبيعته

رجل شديد التمسك برأيه إلى حد التعصب ، لا يرى أن يرجع إلى رأى غيره ، ولعل مرد ذلك عنده هو خلق الصرامة الحربية ، والعلو في الاعتداد بالنفس في غير عناد ولا مكابرة ، ولكن عن اقتناع وإيمان ، وليس من الحتم أن يكون الاقتناع والإيمان بالرأى بعيدين عن الخطأ مبرأين عن مجانبة الحق والصواب ، ولكنهما على كل حال بعيدان بصاحبهما عن متابعة الهوى والخضوع لشهوات النفس ، وقد يكون ذلك في قائد لم تشذبه نزعة روحية غلبة من قبيل الغرور والتعالى والادلال على الناس بما تميز به من الخصائص والصفات .

وإذا كنا لم نعرف لخالد رأيا ولم نسمع له صوتا في مشاورات الردة ، فإنه لينقدح في حدسنا أن خالد أكان أميل إلى رأى الخليفة في أخذ الناس بالحزامة وشدة البأس ، ولذلك كان خالد أول قائد عقد له أبو بكر الصديق لواء الإمارة العامة وأوعب منه الناس ، وأمره بالمسير إلى عدوه ، وأظهر أنه ملاقيه على كتيبته ليرهب بخروجه ويعرف الناس الجد في الأمر .

روى الطبرى عن طريق ابن الكلابي أن أبا بكر لما رجع إليه أسامة ومن كان معه من الجيش جد في حرب أهل الردة ، وخرج بالناس وهو فيهم حتى نزل بنى الفصة منزلا من المدينة على يريد من نحو نجد ، فبعي هنالك جنوده ، ثم بعث خالد بن الوليد على الناس ، وجعل ثابت بن قيس على الأنصار وأمره إلى خالد ، وأمره أن يصعد الطليحة وعيينة بن حصن وهما على براخة - ماء من مياه بني أسد - وأظهر أني ألافك بمن معي من نحو خيبر مكيدة » وقد أوعب مع خالد الناس ، ولكنه أراد أن يبالغ ذلك عدوه فيرعبهم .

وقال صاحب الخيبر : ولما كان من العرب ما كان من التوأمهم على الدين ومنع من منع منهم الصدقة جد بأبي بكر الجند في قتالهم ، وأراه الله رشده فيهم وعزم على الخروج بنفسه إليهم ، وأمر الناس بالجهاد ، وخرج هو في المهاجرين والأنصار ، وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بقاء ، وهو ذو الفصة ، يريد أبو بكر أن يلاحق الناس من خلفه ، ويلبسون أسرع لحوجهم ووكل بالناس محمد بن مسامة يستدعهم فانتهى إلى ذى الفصة عند غروب الشمس ، وصلى بها المغرب ، وأمر بنار عظيمة فأوقدت ، وأقبل خازجة بن حذيفة الفرارى

في خيل قومه يريد المدينة للإغارة عليها ، فلقبه أبو بكر فيمن معه من المسلمين . فانكشف خارجة في فلال المرتدين من قومه وولوا منهزمين ، فقويت بذلك شوكة المسلمين وشجعت قلوبهم وتحلبوا إلى الصديق وهو مقيم لهم حتى تكاملت منهم حشود عظيمة ، وهو يظهر أنه سيقود هذه الحشود بنفسه .

رأى المسلمون عزيمة الصديق فأنهات لها نفوسهم وعزموا عليه أن لا يخرج بنفسه وأن يرجع حتى يكون للناس فيثية ورداء ، فلما كثروا عليه وأطمأن إلى صوارم عزماهم أراد أن يستخلف على الناس ، فنثر بين يديه كنانة أبطال الإسلام لينظر أصلها عوداً فيرمى به في أول وجهه ، فدعا زيد بن الخطاب فعرض عليه إمارة الجيش ، فقال له زيد : يا خليفة رسول الله ، كنت أرجو الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أرزقها ، وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه ، وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه !! فتركه أبو بكر إلى نيته وما يرجو لنفسه من الخير ، ودعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة فعرضها عليه فاعتذر بما اعتذره زيد بن الخطاب ، ثم دعا سالمًا مولى أبي حذيفة فأبى عليه .

كان الله تعالى أذخر هذا المقام لسيفه بطل الإسلام القائد العبقري ، حليف الحروب وصنديدها ، وريبب الجلال ، ورضيع الجهاد أبي سايان خالد بن الوليد ، فالتفت إليه أبو بكر وهو أعلم يمين نقيته وطالع سعده ومكانه من سياسة الحرب ، فدعاه فلبى ، وأمره على الجيش فأطاع ، وأعلن في الناس ذلك وقال لهم : سيروا على اسم الله وبركته فأمركم خالد بن الوليد ، فاستمعوا له وأطيعوا .

ثم خلا بخالد فقال له : يا خالد عليك بقوة الله ، وإشاره على سواه ، والجهاد في سبيله ، فقد وليتكم على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار .

توجيه خالد
إلى طليحة
الأسدي

كان طليحة بن خويلد الأسدي ممن تسكّنت فادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والتف حوله جمع من طعام قومه وسفهاهم ، فوجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور ، وأمره بالقيام مع من استطاع من المسلمين على كل من ارتد ، فأشجوا طليحة وأخافوه ، وهم ضرار به حتى كاد أن يأخذه ، ولم يلبث رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن توفي ، فاستطار أمر طليحة ، واستشرى شهره ، وعظمت على الناس فتنته ، وتفاقم خطبه ، وكان رجلاً فارساً شجاعاً وداهية منطقاً ، فوجه إليه أبو بكر رضي الله عنه أول جيش في حروب الردة بعد إيقاعه بعيس وذبيان ، بقيادة البطل المظفر خالد ابن الوليد ، وعهد إليه إذا فرغ من طليحة سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له ثم خلا أبو بكر بخالد وألقى إليه وصيته الخالدة فقال :

« يا خالد عليك بتقوى الله تعالى وإيثاره على من سواه ، والجهاد في سبيله والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً عن الحملة ، فإنني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في صحابك على تعبئة جيدة وأحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاقل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس دلائلهم ، وكههم إلى الله في سريرتهم ، وإذا أتيت داراً فأقبحهم ، فإن سمعت أذاناً أو رأيت مصلياً فأمسك حتى تسألهم عن الذي تقوموا ومنعوا الصدقة ، فإن لم تسمع أذاناً ولم تر مصلياً شن الغارة فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة فمن شاء منهم أن يرجع فليرجع ، وإذا لقيت أسداً ، وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لالك ولا عليك ، متربص دائرة السوء ، ينظر لمن تكون الدبره ، فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل الإمامة فاستمعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفئك الله الضاحية فامض إلى أهل الإمامة ، سر على بركة الله »

. وصية أبي
بكر لخالد

يستوقف نظر الباحث في هذه الوصية أمور جديدة بالتمييز والتسجيل ، فالخليفة الأول يأمر قائده بالرفق بمن معه من جنده ورعيته ، لأنهم من أهل السابقة في الجهاد ، وذوى السوابق في الذود عن حياض الدين وسمائته ، والرفق بالرعية دستور الحكمة السامية في سياسة الجند ، والعروة الوثقى بين الراعى والرعية يربط قلوبهم بقلبه ، وتصل

تلقبه
« بالذكير »

ألبابهم بلبه ، وتمد أبصارهم إلى موقع بصره ، وتنيط طاعتهم بإشارته ، وإقدامهم بأمره .

والخليفة الأول يأمر فائده بمشاورة من معه من أهل رأى في جيشه عند الملمات والمشاورة دستور الإسلام ، وقاعدة نظام الحكم في دولته ، أمر بها القرآن الكريم ، وعمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أغنى الناس عنها ، لو كان لبشر عن الشورى غناء ، واستن بها الخلفاء الراشدون من بعده ، وهى بعد طويل الزمن وكثرة التجارب أعلى مطامح الأمم الراقية ، ولو أن المسلمين حرصوا عليها لما أصابهم هذا التفرق والانحلال .

والخليفة الأول يحذر أمير جيوشه إذا دخل أرض العدو مهاجماً أن يواجه حملة جحمله وعنفوان قوته . لأنه يخشى عليه صدمة الجولة ، وجولة الدفاع بقوى متجمعة متأهبة أشد وطأة وأقوى اندفاعاً ، وأصلب قناة من هجمة المهاجم ، وهذا إرشاد إلى تعرف مواطن الضعف في قوى العدو لأخذه من جوانبها ، وذلك ما يتبارى في ميدانه قادة الجيوش منذ أقدم الأزمان ، وقد أصبح من أعظم مظاهر العبقرية في سياسة الحروب الحديثة .

والخليفة الأول يأمر قائده أن يستظهر بالزاد، ويسير بالأدلاء ، يقدم أمامه الطلائع لترتاد له المنازل، وفي ذلك تنبيه إلى قيمة الاستعداد في تموين الجيوش، وتوفير حاجاتها حق لا يشغل الجمدى بأمر نفسه عن واجبه الحربى وموقفه من القتال ، وقد عرفت الحروب الحديثة، وهى أشد تعقيداً في طرائقها من الحروب القديمة، أن تموين الجيوش وتوفير أغذيتها وذخيرتها وأسلحتها أهم أسباب النصر والظفر على الأعداء .

أما السير بالأدلاء وتقديم الطلائع ، فهذا ما تسميه أساليب الحرب الحديثة طلائع الاستكشاف ، وهو أمر من أعظم فنون الحرب ، وعلى أساسه ترسم الخطط هيجموما ودفاعاً، وفي صحائف الحربين العالميتين ما يقفنا على القيمة العظيمة لهذا الزمن عند قادة الجيوش ويرينا كيف كانت العبقريات الإسلامية تدير دفة الحياة في الحرب والسلم بأفكار لا تعرف حواجز الزمان والمكان .

والخليفة الأول يأمر قائده أن يسير إلى عدوه في تعبئة جيدة ومرد ذلك إلى حذق القائد وحزمه ومهارته في إدارة. دفعة المعارك ووضع كل فرقة في موضعها ، وتراقب الأسلحة وتعاونها ، ونظام الكتائب والفرق ، وقيام كل كتيبة وفرقة بواجبها ، فلا تتعداه إلى ماهو من خصائص غيرها ، وارتباط طبقات الجيش بعملها وحدة في دفاعها وهجومها .

وفي قول أبي بكر الصديق لقائده البطل العبقري في هذه الوصية « واحرص على الموت توهب لك الحياة » إرشاد إلى أعظم مبادئ الفداية الصادقة في سبيل العقيدة الإيمانية التي يجب أن يربي على غرارها الجندي حتى لا يعترضه الجبن المذل ، ولا يقعد به الفرع عن الإقدام ، ولا يردده التشبث بالعيش عن الاقتحام ، ولا يردد فرائسه الفرق فيتقدم وهو ثابت الجأش رابط الجنان .

ويقول الخليفة الأول لقائده البطل : ولا تتقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، وفي ذلك تنبيه على العناية بالجرحى ، فلا يمحسون في المعارك وهم يألمون من جراحهم ، لأنهم حينئذ يكونون وزراً ثقيلاً على المقاتلة ، ومشغلة للقيادة عن التفكير في متابعة الحفظ وتنفيذها ، وعقبة في سبيل الإقدام والاقتحام ، ولا يخلو قول الصديق من لفظة إلى ما يجب أن يكون في أوائل معدات الجيوش من المشافي الحربية المتنقلة تبعاً لحركات الكتائب ، وفي قول الصديق لخالد رضى الله عنهما : واحترس من البيات فإن في العرب غرة ، تحريش على اليقظة الواعية ، وتأكيد للعناية بنظام الحراسة الدقيقة حتى لا يؤخذ المسمومون على غرة تحت جنح الظلام ومعافصة الغفلة ، ولقد كان خالد لا ينام ولا يذم ذاك العيون ، يقظ الحراسة ، نهازا للفرص ؛ لا تغفل منه نهزة إذا طانت

وفي قوله : وأقلل من الكلام ؛ إشارة إلى ما يجب أن يتحلى به القادة والزعماء وولاية الأمر وأصحاب السلطان من حبس ألسنتهم عن الثثرة والنسكثرة من الحديث نحرز من منقطة قد تكشف سراً من أسرار الدولة أو خطة من خطط الحرب بما يؤدي إلى ضياع فرصة كان في انتهازها مصلحة للأمة ، أو ظلم في موقعة ، أو يؤدي إلى إنزال نكبة بالجيش أو الدولة .

وليس أخطر على الأمم ، ولا أفتك بالجيوش من ثرثرة القادة والزعماء وانطلاق ألسنتهم ، وإذا عيبت الثرثرة على عامة القادة فهمى فى قادة الجيوش ورجال العسكرية أخطر وأندح .

وفى قوله له : وأقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وضع لأساس العلاقة التى يجب أن تكون بين ولاة الأمور وذوى السلطان من الحاكمين وبين رعييتهم من عامة الناس وخاصتهم ، بمن استرعاهم الله مصالحهم وولاهم سياسة أمورهم وإصلاح شئونهم ، ونأمين تصرفاتهم فى دائرة العدالة والتراحم .

ونصيحة الصديق ترمى إلى أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ولا سيما علاقة القائد الحربى بجنود جحافلهم لا تتعدى ما يظهر من صفحات الناس فى أقوالهم وأفعالهم ؛ لأن المقصود الأهم من نظم الحكم وتولية القادة إنما هو إصلاح حال الأمة ، ونأمين حقوق الأفراد والجماعات ، ومنع التعالاب الذى ينتهى إلى إبراز الأقوياء الضعفى ، وإضعاف ثقة الرعية والجند فى الولاة والقادة مما يشيع فى الأمة الاضطراب والفوضى ، وينشر فيها الأفكار الخطرة المهادمة .

وليس بالوالى والقائد حاجة إلى أن يفحص عن قلوب الناس ليكشف ما بها من خير أو شر ، وإنما به أشد الحاجة إلى أن يرقب يعصر نافذ وبصيرة نيرة أعمال الأمة ومن تولى أمرهم من الجند ليعجزى من أحسن ويزجر من أساء .

وقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم دهره يسوس أمته ، وأهل النفاق منبذون فى غمار المؤمنين ، فلم يكشف صفحة أفئدتهم ولا نبش قلوبهم ، بل كان يذود عنهم من يريد ذلك بهم حتى فضحهم الله وكشف سوائهم بنعوتهم العامة وأوصافهم الشائعة ، ولم يذكر أحداً منهم باسمه ولا عينه بشخصه ، تربية للأمة على عدم إشاعة سوء الظنة فيما بين أفرادها وجماعاتها ، مما يتوود إلى بلبلة الأفكار واضطراب الحياة الاجتماعية فيها .

وفى ختم به الصديق وصيته للقائد العبرى من الحديث عن قبائل العرب وموقفهم من الإسلام ، وتبيين شأن أسد وغطفان وأهل الجمامة ما يدل على إحاطة الخليفة الأول علماً بشأن الناس ، وأنه بتوجيه خالد إليهم ، وهم على ما وصف ، قد رامهم بالصماء التى لا تنطق بإقالة عثرة ، ووجه إليهم بقائد جمع بين أطراف السكفاية السياسية والحربية (م ٩ — خالد ابن الوليد)

فرد رسن المتردين المتربصين إلى كاهل الإسلام ، وفنك بمجموع الطغاة المعاندين .

* * *

خالد وعدى ابن حاتم وعى بطل الإسلام خالد وصاة إمامه الأعظم ، فسار إلى عدوه بجيشه ، يقامه حزم جليل ، وصيت في الحروب تفزع له قلوب الصناديد ، وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فيارسم له من خطة سيره : أمره أن يبدأ بطيء على أكتاف جبابهم سلمي وأجاء ، ثم يكون وجهه إلى البزاحة ليلقى طليحة وألفافه ، ثم يسير إلى مالك بن نويرة بالبطاح ، وكان طليحة بعد أن أرزت إليه عبس وديان أرسل إلى طيء غوثها وجديتها طلب إليهم أن ينضموا إليه ، فتعجل إليه ناس من الحيين ، فتأنوا في ألفافه ، وحرصوا سائرهم على اللحاق بهم ؛ فلما خرج خالد على تعبيته ازوار عن البزاحة وجنح إلى أجاء ، فبعد ذلك سائر طيء وبطأهم عن اللحاق بأخوتهم الذين انضموا إلى طليحة ، وكان في جيش خالد أبو طريف عدى بن حاتم ، فتقدم إلى قومه يقتلهم في الذروة والمارب حتى أجابوه ، فكان معه من غوثهم ألف رجل من يحمل السلاح ، وكانت بقية جديدة قد همت أن تلوى أعناقها فقام فيهم مكيث بن زيدا الحبي - وكان رجل صدق وحانة - فقال لهم : أريدون أن تسكنوا سبة على قومكم ؟ لم يرجع رجل واحد من طيء ، وهذا أبو طريف عدى بن حاتم معه ألف رجل من طيء فسكسهم ؛ واستأنهم لم يتقدموا إلى صفوف المسلمين حتى لقيهم عدى ؛ فإن خالد رضى الله عنه أراد أن يبدأ بقسالم ما بانته خبرهم ، فقال لعدى : يا أبا طريف ألا نسير إلى جديدة ؟ فقال عدى : ما أبا سليمان « لا تفعل » أقاتل معك بيدين أحب إليك أم بيد واحدة ؟ قال : بل بيدين ، قال عدى : فإن جديدة إحدى يدي ، فكف عنهم خالد ، قاتلهم عدى فدماعهم إلى الإسلام فأسلموا فحمد الله وسار بهم إلى خالد وهم في أهبة الحرب ، فلما راحهم خالد على عدتهم فزع منهم وظن أنهم جاءوا لحربه ، فصاح في أصحاب السلاح ، فقبل له : إنما هي جديدة أنت تقال معك ، ففرح بهم خالد ورحب ، واعتذروا إليه من اعتزالهم ، وقالوا : نحن لك حيث أحببت ، فضمهم خالد إلى جيشه وعقد لواء طيء ، كلها غوثها وجديتها لأبي طريف عدى بن حاتم الذي كان أيمن موالود وخيره في أرض طيء وأعظمه عاها بركة وقد فرح المسلمون به وقومه فرحا شديدا فقال شاعرهم :

جزى الله عنا طيئاً في بلادها ومعتزك الأبطال خير جزاء
هم أهل رايات السماحة والندى إذا ما الصبا ألوت بكل خباء
هم ضربوا به أعلى الدين بعدما أجابوا منادى فتنة وعماء

تقدم خالد بجيوش الإسلام إلى البزاحة وهو ماء لبني أسد حتى كان قريباً منه ،
وكان طليحة قد نزل في جموعه من المرتدين على ماء آخر لهم يقال له العمر ، وتراءى
الجيشان ، فقال عدى بن حاتم لخالد بن الوليد : يا أبا سليمان : اجعل قومي مقدمة
أصحابك ، فقال له خالد : يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك
فإذا لهم القتال انكشفوا فانكشف من معنا ، ولكن دعني أقدم قوماً صبراً لهم
سوابق وثبات ، وهم من قومك (يريد المهاجرين والأنصار) فقال عدى : الرأي ما رأيته .

خالد في وجه
طليحة

وهذه نظرة ثابتة من نظرات أبي سليمان خالد بن الوليد في سياسة الحرب وإدارة
دفة الوقائع والعلم بأحوال الرجال وشأن الجند في حومة الوغى ، ومنزلة أهل العقائد
والإيمان في الإقدام والحرص على الموت استشهاداً في سبيل الله .

انتهى المسلمون إلى معسكر طليحة وهو في قبة من أدم ضربت له ، يسجد لأصحابه
ويتكهن لهم فدعاه خالد إلى الإسلام تنفيذاً لهذا الحليفة وعملاً بسنة الإسلام ، فأبى طليحة
وأعرض اغتراراً بكثافة من معه من الحشود ، فانصرف عنه خالد إلى معسكره ،
وبات يدبر أمره ويشاور أركان حربه ويعيى جيشه ، فلما كان السحر دفع باللواء
الأعظم إلى زيد بن الخطاب ، وعقد لواء الأنصار لثابت بن قيس بن شماس ، ودنا
الناس بعضهم لبعض ، وخرج طليحة في كتيبة خاصة ، فوامها أربعون غلاماً جلداء
أقامهم في الميمنة وقال لهم : اضربوا حتى تأتوا الميسرة فتضعضع الناس ولم يقتل أحد
منهم ، ثم أقامهم في الميسرة ففعلوا مثل صليهم الأول فانكشف المسلمون ، فصاح خالد :
يامعشر الأنصار ، الله ، الله ، واقضوهم واغمار المعركة وتراجع إليه الأنصار ، وتبعهم سائر
الناس فاختلفت الصفوف واختلفت فيما بين الناس السيوف ، وضرس خالد في القتال
فجعل يقحم فرسه ، ويقولون له : الله ، الله ، فإنك أمير الفوم ، ولا ينبغي لك أن
تقدم ، فيقول خالد : والله إنى لأعرف ما نقولون ، ولكنى ما رأيته أصبر وأخاف
هزيمة المسلمين .

نعم إن خالد أَرْضَى الله عنه أمير القوم ، ولا ينبغي لأمر القوم أن يباشر القتال بنفسه ، ولكن إمارة خالد بن الوليد في الحرب طرز فريد ، لأنه بطل قبل أن يكون أميراً ، وجندى قبل أن يصير قائداً ، فأثنى له الصبر عن الاقتحام وقد حمى الوطيس. والمسلمون ينكشفون ؟

روى السكابي عن بعض الطائيين : أن طليحة لما حمل على الناس في كتيبته الخاصة: نادى منادى الناس : يا خالد : عليك ساسي وأجأ ؛ فأجابه خالد : بل إلى الله الملجأ. ثم حمل خالد فوالله مارحع حتى لم يبق من أولئك الأربعين رجلاً واحداً ، وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما .

يريد الناس من خالد أن يتحصن في ساعة العسرة بالجبال وهو يرى أن يتحصن بالله تعالى خالق الجبال ، وإذا لم يكن قواد الجيوش على مثل هذه الثقة ورسوخ الإيمان. والشجاعة في لحظات الشدائد التي لا ينفع فيها التحور والاحتباء بالحصون والقلاع. فليس لهم إلى النصر من سبيل .

هذه حقيقة من حقائق الحرب يعلمها خالد بن الوليد علم اليقين وعليها عاهده إمامه الأعظم والخليفة الأول أبو بكر الصديق في قوله: واحرص على الموت توهب لك الحياة. فلم يستطع خالد — وقد قبل هذا العهد الفدائي — أن يصبر وهو يرى المسلمين تضعفهم أسيف أعدائهم ، وهو واقف ينظر إليهم لأنه أمير ؛ أف لهذه الإمارة التي تمجج بسيف الله وبطل الإسلام أن يواسي المسلمين ساعة المحنة بنفسه !! وليس من شك في أن شجاعة خالد في اقتحامه ومخاطرته هي التي كان لها فضل في تثبيت المسلمين وعطفهم على أعدائهم حتى أنزل الله عليهم نصره .

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما — وكان في جند خالد — نظرت إلى راية طليحة يومئذ حمراء يحملها رجل لا يزول بها فترا ، فنظرت إلى خالد أتاه فحمل عليه فقتله فكانت هزيمتهم ، فنظرت إلى الراية تظوها الخيل والإبل والرجال حتى تقطعت ، ولقد رأيت خالد يوم طليحة يباشر القتال بنفسه. حتى ليم في ذلك ، ولقد رأيته يوم اليمامة. يقاتل أشد القتال ، إن كان مكانه ليتقى حتى يطلع إلينا منبراً .

هكذا كانت بطولة خالد بن الوليد ، وهكذا كانت قيادته لجند الإسلام في حروبهم

الردة ، يصفها جندي من جنوده عرف بصدق المقال ، ودقة الوصف ، وشدة التحري ،
نخاله وهو أمير القوم يضرب للناس المثل بنفسه حتى يكون لهم فيه أحسن الأسوة ، فلا
يبقى منهم أحد إلا وهو في نفسه صورة متحررة لذلك المبدأ الفدائي الذي تكيف به قائدهم
العظيم ؛ فلقد حرص خالد على الموت في سبيل الحق والعقيدة ، فحرص كل جندي من
جنود الإسلام مثل حرصه ، فوهب الله لهم عز الحياة وكرامتها ، ونصرهم على أعدائهم
نصراً مؤزراً .

وقد أدرك أعداء الإسلام هذه الروح القوية في جند الإسلام ورأوا فيهم حب التضحية
وانتهام الموت في سبيل عقيدتهم ودينهم فرجعوا إلى هذه الروح الفدائية نصرهم وهزيمة
المرتدين ، روى أن طليحة لما رأى هزيمة أصحابه بعد جولتهم قال لهم : ويلكم ما يهزمكم ؟
فقال رجل منهم : أنا أخبرك ! إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله ،
وإننا نلقى أقواماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه .

ضرس القتال بين جند الإسلام وأصحاب طليحة ، يقود كل جماعة رئيسها ، وكان هزيمة طليحة
فيهم عيينة بن حصن الفزاري يقود فزارة ، وكانوا من أشد القوم تزامياً على القتال ، ورجوعه إلى
يُزمرهم عينة فيقتحمون حتى إذا لحقتهم الحرب وذاقوا حر السلاح نظروا إلى قائدهم عيينة ،
وطليحة منزلاً بكسائه ينتظر شيطانه ، فأتاه عيينة فقال له : لا أباك ! هل أذاك الوحي
بعد ؟ فقال طليحة وهو تحت الكساء : لا ، والله ماجاء بعد . فقال عيينة : تباك سائر
اليوم ! ثم رجع إلى أصحابه يُزمرهم على القتال ويخصمهم وقد ضيقوا من وضع السلاح فيهم
فما طال الأمر على عيينة جاء إلى طليحة وهو مستلق متشجع بكسائه فجذبه جبذة جلس
منها ، وقال له : قبح الله هذه من نبوة ، ما قيل لك بعد شيء ؟ فقال طليحة قد قيل لي :
إن لك رحي كراحه وأمرأى لن تنساه ! فقال عيينة : أظن أن قد علم الله أن سيكون
لك أمر لن تنساه ؛ يا فزارة هكذا وأشار لقومه تحت الشمس لينصرفوا فانصرفوا ، وقال
لهم : هذا والله كذب ما يورك له ولا لنا فيما يطلب . فتبعهم المسلمون يقتلونهم
ويأسرونهم ، وكان في الأسرى عيينة قائدهم ، وانكشف عن طليحة شيطانه ، ورأى
ما حل بأصحابه من بلاء القتل والأسر ، وهم يصيحون به ماذا ترى ؟ وكان طليحة قد
أعد فرسه فوثب عليها وحمل وراءه امرأته النوار ، ثم قال لأصحابه : من استطاع منكم

أن يفعل هكذا ليفعل ، فهرب إلى الشام ، ونزل هناك على بنى كلب وبلنه ، مالتيت أسد .
وغطفان من جنود المسلمين ، ومعاودة العرب للإسلام فأسلم وحسن إسلامه .

ذكر ابن اسحاق أن طليحة لما ولي هاربا تبعه عكاشة بن محصن ، وثابت بن أقرم ،
وكان طليحة أعطى الله عهدا أن لا يسأله أحديشاً إلا أجابه إليه ، فلما أدبر ناداه عكاشة
للنزال فعطف عليه فقتل عكاشة ، ثم أدركه ثابت فقتله أيضاً فاشتد قتلهم على المسلمين .

وذكر الواقدي في قتل عكاشة وثابت رواية تخالف رواية ابن اسحاق فقال : إن
خالد بن الوليد لما دنا من القوم بعث عكاشة وثابتا بطليحة أمامه ، وكانا فارسين ، فلحقيا طليحة وخواه
مسامة ابن خويلد طليحة لمن وراءهما من الناس ، فلما التقوا انفرط طليحة بعكاشة ومسامة بثابت ،
فلم يلبث مسامة أن أقتل ثابتاً ، وصرخ طليحة بمسامة : أعني على الرجل فإنه قاتلي ، فكرر
معه مسامة على عكاشة فقتلاه ، ثم رجعا إلى من وراءهم ، وأقبل خالد معه المسامون ، فلم
يرعهم إلا ثابت بن أقرم قتيلا ، تطوّه المطى فعظم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيروا إلا
يسيرا حتى وطئوا عكاشة قتيلا ، فثقل القوم على المطى حتى ما تسكاد ترفع أخفافها بهم ،
وأذكر ذلك الحمية في أنفس المسلمين حين التقوا بأصحاب طليحة ، وأخذوهم قتلا وأسرا ،
وصاح خالد في جنده : لا بطبخن رجل قدراً ولا يسخنن ماء إلا أثقيته رأس رجل !

وقد مر طليحة بعد إسلامه بمنبات المدينة المنورة في خلافه أبي بكر معتمرا ، ولم
ينزل بها حياء من أبي بكر ، فقيل لأبي بكر : هذا طليحة ! فقال : ما أصنع به ؟ قد
أسلم ، ولما توفي أبو بكر وقام بالأمر من بعده عمر أتاها طليحة فبايعه ، وقال له عمر : أنت
قاتل عكاشة وثابت ؟ والله لا أحبك أبداً ، فقال يا أمير المؤمنين ما بهمك من رجلين أكرمهما الله
بيدي لم يهني بأيديهما ؟ وقد كان لطليحة بعد إسلامه مواقف محموددة في الجهاد ، وكان
له في حرب القادسية قدم صدق ؟ وعرف له عمر بن الخطاب مكانته ورأيه في الحرب
فكتب إلى النعمان بن مقرن أن استعن في حربك بطليحة وعمر بن معديكرب ، واستشهد
طليحة في حرب نهاوند .

سحمة تأديبية

ولما انتهى خالد رضى الله عنه من بنى أسد وفزارة بهزيمية طليحة سرى الفزع إلى
قلوب القبائل العربية الواقفين بالمرصاد ، ينظرون لمن تكون الدبرة ، فلم يلبثوا أن ترامت
إليهم مع رياح الصحراء أنباء انتصارات المسلمين ، فقدمت وفودهم على خالد ، وألقوا في

يده مقود طاعتهم بين راغب في الإسلام وخائف من السيف ، وكانت بنو عامر متحيرة تقدم رجلا وتؤخر أخرى حتى علموا بما صنع خالد بنى أسد وفزارة ، فأقبلوا على خالد يبأيعونهم فقبل منهم ، وأخذ عليهم عهد الله وميثاقه ليؤمنن بالله ورسوله وليقيمن الصلاة وليؤتن الزكاة ويبأيعون على ذلك أبناءهم ونساءهم .

وكانت هذه أول وقعة أوقعها خالد بالمرتدين ، فجعل منها وسيلة عاصفة للترهيب والتخويف ، فشكل بهم وبعج طوائفهم وبنح زعماءهم وشرد بهم من خلفهم ومثل بكل من عدا على أهل الإسلام في رده ، ولم يدخل فيما دخل فيه الناس من الطاعة وحسن الإسلام فقتلهم كل قتلة ، وحرقهم ورضخهم بالحجارة ، ورعى بهم من شواحق الجبال ونكسهم في البشار .

استبقى خالد قرة بن هبيرة القشيري وعيينة بن حصن المزاري وأرسل بهما إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وكتب إليه كتابا قال فيه : إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخت في الإسلام بعد تربص وإني لم أقبل من أحد قاتلي أو سألني شيئا حتى يحثوني بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة ، وبعثت إليك بقرة وأصحابه .

قال ابن عباس : فقدم بهما المدينة في وثاق ، فنظرت إلى عيينة مجموعة يده إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريدة ، ويضربونه ويقولون : أى عدو الله ! أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنتم بالله ! وكذلك كان أعرابيا جافيا ، أقام ما أقام في حياة رسول الله عليه وسلم مجذوع الأنف مقلم الأظفار ، حتى إذا حانت من الشيطان لفظة الردة فاضطرب لها حبل الإسلام ، ومرج عهده ، وماج أهله ، وبنى العوائل ، ظن عيينة ومن لف لفه من جفاة الأعراب ومنافقي العرب أن قد اكثبت نهزم ، ولات حين الذي يرجون .

روى أن عمرو بن العاص - وهو قافل من عمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم - لقي عيينة بن حصن خارجا من المدينة في جماعة على شاكلته ، وكانوا قدموا على أبي بكر في طليعة الفتنة ، يقولون له : إن جعلت لنا شيئا كفييناك من وراءنا ؟ فقال عمرو بن العاص : ما وراءك يا عيينة ؟ من ولى الناس أمورهم ؟ قال : أبو بكر . قال

عمرو : الله أكبر ؛ فقال عيينة ياعمرو قد استويننا نحن وأنتم ؛ فقال عمر وكذبت يا ابن
الأخابث من مضر !!

وصل كتاب خالد إلى أبي بكر ودخل الأسرى المدينة ، فروى أبو بكر في الأمر ،
وكان رضى الله عنه ضليع الرأي ، فهاذا إلى ما وراء الحجب ، فعفا عن قرّة وعيينة مع
عظيم ذنبهما ، وكتب لهما أماناً لأن الأمر كان لا يزال في إبانة ، وكانت العرب لا تزال
جائحة ، وكان المسلمون لا يزالون في حاجة إلى تأليف قلوب رؤساء القبائل ليكونوا ردهاً
وعوناً لهم في محنتهم ، وهذه سياسة أبي بكر كانت تجمع بين اللين والمؤالفة ، والشدة
الزاجرة .

وكتب أبو بكر يرد على خالد كتابه فشجعه وزمره على أعداء الإسلام ، وأظهره
رضاء عما صنع بهم فقال له : ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً ، واتفق الله في أمرك ، فإن
الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، جد في أمر الله ، ولا تنين ، ولا تظفرن بأحد
قتل المسلمين إلا قتلته ، ونكأت به غيره ، ومن أحببت من حاد الله أو ضاده ممن يرى أن
في ذلك صلاحاً فاقتله .

أخذ خالد بعد ظفره يتتبع فلول المرتدين ليقضى على الشر في مكائمه ، وأخذ يهيل
خيله فيما حوله من مضارب العرب ، فلقى جمعا لبني ساهم ، عليهم أبو شجرة ابن الحنساء
الشاعرة ، وكان شاعراً يشكذب فقال :

صحا القلب عن مى هواه وأقصرا	وطاوع فيها العاذلين فأبصرا
وأصبح أدنى رائد الجهل والصبا	كما ودها غنا كسذاك تنعيرا
وأصبح أدنى رائد الوصل منهم	كما حبها من حبنا قد تنعرا
ألا أيها المسدلى بكثرة قومه	وحظك منهم أن تضام وتنعرا
سل الناس عنا يوم كل كريمة	إذا ما التقينا دارعين وحسرا
ألنا نعطى ذا الطماح لجامه	ونطمع في الهيجا إذا الموت أففرا
وعارضة شهباء تخطر بالقنا	ترى الباق من حافاتها والسنورا
فرويت رضى من كتيبة خالد	وإني لأرجو بعدها أن أعمرها

وكان أبو شجرة حين لحق بمن ارتد من قومه قبل لقاء خالد قد قال :
 فلو سألت عنا غداة مزامر كما كنت عنها سائلا لوأيتها
 لقاء بني فهر وكان لقاؤهم غداة الجسواء حاجة فقصيتها
 صبرت لهم نفسى وعرجت مهرتى على الطعن حتى صار وردا كميها
 إذا هي صدت عن كفى أريده عدلت إليه صدرها فهديتها

وقوله : فرويت ربحى من كتيبة خالد : من أكاذيب الشعراء لأن قومه بنى سليم
 لم يقيموا لخالد وكتيبته الظافرة إلا بمقدار ما أدركتهم السيوف المسامة حتى رعبلتهم وفرقت
 شملهم ، وفر أبو شجرة ، وتقطعت آماله ، ثم أدركته عناية الله فعاود الاسلام ودخل
 فيما دخل فيه الناس . روى أنه قدم على عمر بن الخطاب فى خلافة فلقية وهو يعطى
 المساكين ، فاستعطاها فقال له عمر لما عرفه : أأنت القائل :

فرويت ربحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمر

وعلاه بالدره ، حتى سبقه عدواً ثم ركب إلى أرض قومه فى ذلك يقول :

ضن علينا أبو حفص بنائله وكل محتبط يوماً له ورق
 مازال يرهق حتى خذيت له وحال من دون بعض الرغبة الشفق
 لما رهبت أبا حفص وشرطته والشيخ يفرع أحياناً فينحمق
 ثم ارعوت لها وهى جانحة مثل الطريدة لم ينبت لها ورق
 وردتها الحل من شوران صادرة إنى لأزرى عليها وهى تنطلق
 تطير مرو أبان عن مناسمها كما تنوقد عند الجهبند الورق
 إذا بعارضها خرق تعارضه ورهاء فيها إذا استعجلتها خرق
 ينوء آخرها منها بأولها سرح اليمين بها نهضة العنق

وكان فلال غطفان بمن نجا من خالد قد اجتمعوا إلى أم « زمل » ساسى ابنة مالك
 ابن حذيفة بن بدر ، وهى على مثل عز أمها « أم قرفة » فدمرتهم وصعدت سائرة فيهم
 . وصوبت تدعوهم إلى حرب خالد ، حتى اجتمع لها حشد ، وتأشب إليهم الشراذم من كل
 جانب ، فلما بلغ أمرها خالد ، وهو يتتبع فلال القوم ، عاج إليها ، وقد استكشف
 أمرها وغلظ شأنها فقاتلها قتالا شديداً وهى واقفة على جل أمها أم قرفة تحرض الناس ،

حتى قتل بين يديها وحول جملها مائة رجل ، ثم قتلت وانطفاقتفتها ، وبذلك انكسرت شوكة من أرز إلى البزاحة من المرتدين .

انتهت هذه الوقائع وقد أبانت عن مظاهر البطولة الخالدية ، وتجلت فيها عبقرية البطل العظيم سيف الله خالد بن الوليد بما لم يكن فوقه زيادة لمستزيد ، وقد كشفت عن جانب من جوانب الفكر العبقري في سياسة تصفية الوقائع والسير بها إلى نتائجها الطبيعية . ذلك أن خالد رضى الله عنه بعد أن سم له النصر ، وأقبلت عليه القبائل مستسلمة أخذ من كل من جاءه مسلماً بعد ارتداد ما ظهر من سلاحهم ، واستحلفهم على ما غيبيوا منه حتى اجتمع لديه منه شيء كثير ، أعطاه قوماً من جنده يحتاجون إليه في قتال أعدائهم ، وكتبه عليهم فلقوا به عدوهم ثم ردوه بعد ، فقدم به على أبي بكر فسلمه إلى ما كان قبضه من أسد وغطفان من الحلقة والكراع ، فلما توفي السديق رأى الفاروق أن قد الإسلام ضرب بجرانه ، وأن هذا كان عارية لوقت السباحة ، فدفعه إلى أهله أو إلى عصبة من مات منهم .

سياسة
حكيمه

وفي ذلك من سياسة الحرب ونضائل الأخلاق ما يمكن أن يعد في فرائد المسامير التي رسخها في أنفسهم الإسلام بما بث فيها من أدب سام وخلق كريم ، فبالدرى الله عنه قبل من هؤلاء القوم توبتهم ، وحقق بإسلامهم دماءهم ، ولما كان له أن يطمئن إليهم ، فيترك في أيديهم الأسلحة التي حاربوه بها ، والذخائر التي استعانوا بها عليه ومن الذى يؤمنه إذا تركها لهم وانصرف عنهم أن يطمعوه بها في ظهره ، وهو مشغول عنهم ؟ ثم هو لم يستعن هؤلاء في حربه فيتخذهم جنداً إلى جنده ، لأنهم استسلموا إليه مفزعين ، فليس لهم رسوخ عقيدته وعقيدة جنده التي أحبوا في سبيلها الموت فزادهم الله الحياة .

والذى يتأمل ما يجرى في أعقاب الحروب بين الدول السكبرى في أعصر الحضارة والعلم من معاملة المغلوبين المستسلمين يدرك براعة السياسة الإسلامية التي كان يسوس بها قادة المسلمين الناس في السلم والحرب ، ونظرة إلى جانب صنيع خالد وتسميته فيما صنعه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد رد الأمانة إلى أهلهما بعد أن نشر الدين رايته ، وقويت شوكرته . ورست أوتاده . ترينا كيف كان قادة الإسلام يسوسون الناس سياسة كانت أقوى العوامل فيما بلغ إليه المسلمون الأولون من عز وسلطان .

لفصل الثامن

أحدوثه مالك بن نويرة

عرض وتحليل

قصه غامضة - مالك بن نويرة ومسير خالد إليه - حكمة حازمة - غرور وتيه
جاهلي - اختلاف الروايات - رواية ملفقة - رواية زائفة - رواية مقبولة - موقف
أبي قتادة وابن عمر في القصة - لعب الخيال في أقصوصة زواج خالد امرأة مالك -
وجه الرأي في هذا الزواج - رواية مشهورة ولكنها مريبة - عوامل الريبة في هذه
الرواية - نتيجة .

هذه قصة من قصص التاريخ الإسلامي ، اختلفت فيها الرواية اختلافاً بعيد المدى ، قصة غامضة واضطرب حولها الحديث اضطراباً قصى الغاية ، يعسر معه على الباحث أن يجمع بين أطرافه في عروة واحدة ، ومن ثمة كانت هذه القصة في صفحة التاريخ الخالدي سطرّاً غامضاً لا يتضح معناه إلا بشيء من التحقيق في عرض تلك الروايات المتكاثرة وتحليلها تحليلًا يصل بها إلى وجه الحق من واقع التاريخ .

* * *

كان مالك بن نويرة سيداً من سادات تميم ، وكان فيهم رئيس قومه بن يربوع ، وفارسهم وشاعرهم وفتاهم الذي إليه يجأرون ، ولأمره يطيعون ، وكان في نفسه تباها معجبا ، ذا نخلة وجفلة ، وقد عرف بالجفول .

أسلم حين قدم في وفد قومه بن تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره على صدقات قومه ، فلما ذر قرن الشيطان في أفق الفتنة ، وارتدت الأعصاب ومنعوا الزكاة ، كان مالك فيمن اضطرب أمره وطاش سهمه ، وكان قد جمع صدقات قومه ، فبلغته وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فعدا على ما جمع وانتهبه وفرقه في قومه ، فانتهى ذلك إلى أبي بكر والمسلمين فعضم عليهم فعله ، وعهد أبو بكر إلى قائد جيوشه البطل خالد بن الوليد في وصيته : « إن كفلك الله الضاحية قامض إلى اليمامة » وحقق الله ظن الصديق رضي الله عنه ، وفرغ خالد في الجولة الأولى من أسد وغطفان ومن لف لفهم ، وعزم المسير بجيوشه الظافرة إلى اليمامة ليأخذ الكذاب مسيلمة في قومه بن حنيفة كما أخذ طليحة الأسدي في جموعه وألفافه تحقياً لوصية الخليفة الأعظم ، وكان خالد قد تراءى إليه شأن . مالك بن نويرة ، فمد إليه وإلى من شاركه في ضلالاته يده ليؤمن ظهره ويطنز ما يتركه خلفه من أرجاس الردة ويفرغ إلى أهل اليمامة لقوة شكيمتهم ، وإجماعهم على الارتداد كما أخبر بذلك أبو بكر خالداً في وصيته حيث قال في خاتمتها : « ولسكن الخوف عندى . من أهل اليمامة ، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم » .

-حكمة حازمة
أظهر خالد للناس عهد أبي بكر إليه بالمسير إلى الجيامة فتوقفت الأنصار، وقال قائدهم
ثابت بن قيس بن شماس : ما عهد إلينا ذلك ، وما نحن بسائرين ، وليست بنا قوة ، وقد
كل المسلمون ، وعجف كراعهم ، فقال لهم خالد : « أما أنا فلست بمستكره أحد آمنكم ،
فإن شئتم فسيروا ، وإن شئتم فأقيموا ، وأنا الأمير ، وقد عهد إلى ، ولو لم يأت كتاب
بما رأيته فرصة ، وكنت إن أعلمته - الخليفة - فأتني ، لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر
ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قصد إلى مالك
ومن معي من المهاجرين » .

لابد للقلم هنا من وقفة للتأمل في هذه السياسة الجريئة الحازمة التي تقتضيها الحرب
ولا ترضى غيرها ، حتى نرى كيف تتخطى العقبة الإسلامية ممثلة في بطلها خالد بن الوليد
حواجز الزمن في تفكيرها السياسي ، وإدارة دفعة القيادة الجريئة والحرب يستعراؤها ،
والعدو واقف بالمرصاد يتحين الفرص ليثب على جيوش المسلمين وثبة الأباداة والإفناء .
فهذا القائد العبقري خرج على رأس جيشه ليوقع بالمرتين ، ويتقضى على الفتنة في
منابتها ، وهذه الوقعة التي انتصر فيها على أسد وغطفان ليست إلا مقدمة الأمر ، فكيف
يقف عندها ، وما قفى للإسلام من أعدائه وطرا ؟

فلا بد له من المسير إلى أولئك الذين أجمعوا أمرهم على الارتداد عن دين الله ، ولكن
كيف يحقق مطامح عبقريته وينفذ برنامج خليفته وهذا جيش المسلمين ينقسم على قائده ،
ففریق يعطيه طاعته أنى أراد ، وفریق يختلف عليه ، ويرى أنهم لا يعطون قائدهم مقاد
الطاعة إلا في حدود عهد الخليفة ، وهم لا يعاونون للخليفة عهدا بهذا المسير الجديد ،
ويحتجون لرأيهم بما أصابهم ، فما عسى أن يكون رأى الناس في هذا الموقف الحرج
الآزم ، وما سياسته الحكيمية التي ينهجها مع جيشه المنقسم عاينه حتى يحفظ له روحه
وبسالته ؟

هنا تنفرج العقبة الخالدية عن أحكم سياسة حازمة تساس بها الجيوش ساعة
الأزمات !!

لم يكن بطل الإسلام خالد بن الوليد يجهل قدر الأنصار بين المسلمين ومكانهم من
الحرب والجلاد ، ولم يكن كذلك يجهل العقيلة العربية في عمومها ، تلك العقيلة التي

لا تعرف الخضوع لسلطان بشرى إلا عن طريق العزة والكرامة، فليس يجديه في علاج هذا الموقف التدرع بسلطان القدند ليأمر فيطاع ، بل هو يعطى هؤلاء السادة فرصة التفكير وتقلب الرأى ، ويريهم عملياً أنه على عزمة المسير بمن معه من سائر جنود الإسلام إلى عدوهم عزمة لا تردد فيها ، وأنه لا يستكره أحداً على المسير معه ، ثم هو لا يدعهم دون أن يشعروهم بسلطان الإمرة ، فيقول : « وأنا الأمير » وأنه إذا تجاوز لهم عن ذلك السلطان القانونى ، فلا أنه يقدر لهم مكانهم ولا يرتاب في إخلاصهم ، ويرجوا أن يراجعوا رأيهم . وقد تحققت دراسة القائد المظفر ، فإنه لم يكذب ينفصل بمن معه من المهاجرين وأنشاء القبائل عامداً لأرض بنى تميم والجماعة حتى تلاومت الأنصار فيما بينها ، وأدركوا أنهم جانبوا ما عودهم الله تعالى من السداد في مواقفهم الإسلامية ، وقال بعضهم لبعض : والله ما صنعنا شيئاً ، والله لئن أصيب القوم ليقولن خذلتموه وأسلمتموه ، وإنها السببة باقى عارها إلى آخر الدهر ، ولئن أصابوا خيراً وفتح الله فتحاً إنه لخير منعموه فابعثوا إلى خالد يقيم لكم حق تملحوقه ، فبعثوا إليه رسولا من أنفسهم فلما جاءه الرسول أقام لهم حتى لحقوه فاستقبلهم في كثرة من معه من المسلمين وفرح يرجعهم فرحاً شديداً وساروا جميعاً حتى انتهى بهم خالد إلى البطائح من أرض تميم .

لم يقف خالد رضى الله عنه عند هذه السياسة الحكيمة الحازمة في علاج هذا الموقف الذى فاجأه فى أخرج ساعات الحرب ، ولكنه تخطى ذلك إلى أمر هو أفضل . ما يتحلى به القائد العظيم .

ذلك أن خالد لم تشأ له عبقرية أن يقف فى سياسة جنده وقيادة جيشه عند حرفية القانون ونصوص العهود ، بل شاء له أن يكون قائداً سياسياً بعيد النظر ، نهذا للفرص ، إذا سنحت لم يفلتها ، ولو لم يكن فى ذلك من الخليفة كتاب أو عهد ، ولا سيما الحال فى البداية يومئذ على ما كان عليه من بطلان فى المواصلات تقضى به طبيعة الحياة ، ويضيع معه كثير من العرض لو أنه وقف فى أموره خاضعاً لقانون تلقى الأوامر من الخليفة فى كل جزئية ، وهو لا يأمن المفاجآت ، وهى لا تخضع لسلطان غير سلطان الوقت واللحظة . وفى ذلك يقول القائد العبرى « ولولم يأت كتاب بما رأته فرصة ، وكنت إن أعلمته فانتنى لم أعلمه » بل هو يرمى إلى أبعد من ذلك ، يرمى إلى أن يعلم تلاميذه من قواد

المسلمين وسواسهم أن يتحملوا المسؤوليات ويجعلوا صنيعه قانوناً عاماً يسوسون به جندهم فيقول : « وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه من الخليفة عهد إلينا لم ندع أن نرى أنضل ما يحضرنا ثم نعمل به » وفي ذلك قطع لأطماع « الواقفية » الذين تبغضهم الخيرة ويطعن عليهم التردد سبيل الإقدام ، فلا يبقى أحد أمام هذا القانون الخالد ناظراً إلى الوراء أليس هذا هو أقصى ما يتطلبه النظر الطليق من قيود التزمّت؟ بلى إن خالد أَرْضَى الله عنه كان في هذا المضمار فارساً من طرز جديد كانت الحياة الإسلامية أخرج ما تسكون إلى مثله في محنتها التي كشفها خالد ، لا بشجاعته وحسن سياسته في إدارة دقة الحرب لحسب بل بتفكيره الثمريعي الطليق وهذه الروح المشبوبة بشعلة الحرية هي السبب الأول - كما ستري - فيما كان بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

كأن بنو تميم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين وفي بهد الإسلام مقبم على الإيمان ؟ ومتردد ينظر إلى الناس حتى أفا ، وراجع اليقين ؟ ومرتد مانع للزكاة ؟ منتهك لحرمات الإسلام ، وكان مالك بن نويرة من هذا الفريق ؟ وكان تياها مغروراً ، وكان متلاقاً لاتليق يده شيئاً ، جمع صدقات قومه فلما بالفته وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عدا عليها وانتهبها وفرقها في صعايك بنو تميم ، وبجح بذلك في شعره فقال :

غرور و تبه
جاهلى

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء من الغاء
فإن قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

وفي لسان العرب لابن منظور : « ومنه حديث مالك بن نويرة حين جمع بنو يربوع صدقاتهم ليوجهوا بها إلى أبي بكر رضى الله عنه فمنعهم من ذلك وقال :

وقلت خذوها هذه صدقاتكم مصررة أخلافها لم سحرد
سأجعل نفسى دون ما تحذرونه وأرهنكم يوماً بما قلته يدي

وقد لامة بعض سادة قومه ممن بقى على الإسلام وحذره منبهة عمله رجاء أن يراجع نفسه فيقضى إلى أمر الله ، فقال له الأقرع بن حابس وضرار بن القعقاع : إن لهذا الأمر قائماً وطالباً فلا تعجل بتفرقة ما في يديك ؛ فأبى مالك إلا اعتوا واستسكباراً وأنشدها :

أراني الله بالنعم المندي بركة رحران وقد أراني
أين قرت عيون فاستقيمت غنائم قد يوجد بها بناني
حويت جميعها بالسيف صلتا ولم رعد يداي ولا بناني
تمشى يا ابن عوذة في نعيم وصاحبك الأقيرع تلحيانى
ألم أك نثار رائبة تلغى فتتقيا أذى وزهباني

أحسن مالك دنو خالد بجيوش المسلمين من أرض قومه وملاً أذنيه صدى انتصار
الإسلام على طلائع المرتدين فأمر من كان معه بالتفرق فتفرقوا .

وهنا يختلف الروايات اختلافاً تتباعد أطرافه فلا تتقارب ، وتفتقر فلا تجتمع . وأشد
ما في هذه الروايات المتضاربة إقحام أسماء جماعة من سادة الصحابة رضوان الله تعالى
عليهم الذين لا يرتفع إلى ضمائرهم ظل من الشك في عدالتهم وصدق دياتهم ؛ وحسب
القارئ الذي لم يتعمق في معاویر التاريخ الإسلامى أن يسمع اسم فاروق الإسلام عمر بن
الخطاب في جانب حادث أو رواية حتى يندفع إلى الإيمان بما سمع في غير ريب ولا تحفظ .
ويتأكد ذلك إذا انضم إلى اسم عمر أسماء رجال آخرين ممن يعرف لهم المسلمون امتيازاً
في الديانة وفضلاً في الإسلام من أضراب أبي قتادة الأنصاري ، وعبد الله بن عمر بن
الخطاب ؛ ومن ثمة ينبع على الباحث أن لا تأخذ هذه هيئة هذه الأسماء فتقف به دون
الوصول إلى تزييف ما يؤدي البحث إلى زيفه ، فقد يكون إقحام هذه الأسماء إمعاناً في
ستر الحقيقة التاريخية لسبب خارج عن إرادة الرواة وخاضع للعوامل التي دون في ظلها
ذلك التاريخ .

من هذه الروايات رواية ترى أن مالك بن نويرة وهنت نفسه وراجع الإسلام بعد رواية ملفقة
تردده وأوصى بذلك قومه فقال : « يا بني ربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح
وقد نظرت فيه فوجدت أن الأمر ينأى لهم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه الناس ،
وإياكم ومناوأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وأدخلوا في هذا الأمر »

وقريب من هذه الرواية تلك التي نقول : إن خالد لما قدم البطاح بث السرايا وأمرهم
بدعاية الإسلام ، وأن يأتيوه بكل من لم يحب ، وأن امتنع أن يقتلوه ، فجاءته الخيل
بمالك بن نويرة في نفر من بني ربوع ؛ فاختلفت السرية فيهم ، فشهد قوم أنهم أذنوا
(م ١٠ — خالد بن الوليد)

وأقاموا وصلوا؛ وشهد آخرون أنه لم يكن شيء من ذلك، وكان ممن شهد للمالك بالإسلام أبو قتادة الأنصاري؛ فكان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل، فأخذ القوم السلاح. قال أبو قتادة: فقلنا إنا المسلمون؛ فقالوا: ونحن المسلمون؛ قلنا فما بال السلاح معكم؟ قالوا لنا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوها ثم صلبنا وصلوا.

ثم تمضى هذه الرواية - في غير فطنة - إلى تزيينها المقصودة فتقول: فلما اختلفت السرية فيهم أمر بهم خالد فخبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء؛ فامر خالد منادياً ينادى أدفثوا أسراكم فظن القوم أنه أراد القتل، ولفظة أدفثوا في لغتهم معناها اقتلوا، ولم يرد خالد إلا الدفء، وهو معنى السكامة في لغته فقتلواهم؛ وقتل ضرار بن الأزور ممالك ابن نوريه، وسمع خالد الواقعة فخرج وقد فرغوا منهم. فقال: إذا أراد الله أمراً أسابه. وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك.

وهذه الرواية في أصلها وفرعها لا نظمائن إلى قبولها. بل ننقاد بنحزم أنها رواية ملفقة مصنوعة. وأن صانعها عريض الوسادة. لا يؤبن بالفطنة. ولا يزن بالدهاء.

ذلك أننا إذا تجاوزنا عن أن هذه الكلمات الموضوعة على لسان مالك في نصيبه لقومه بمراجعة الإسلام وأن لا يناوئوا المسلمين لأن أمرهم لا يسوسه الناس وإنما يسوسه رب الناس. لم تذكر لنا كيف انتهت إلى قتل هذا الناصح الحكيم؟ نتساءل: إذا كان مالك بن نورية راجع الإسلام وأسلم تخلصاً ونصح بذلك قومه فلم يذهب إلى لقاء المسلمين طائعاً مختاراً معلناً إسلامه؟ ولماذا أمر قومه بالفرق وتركهم ورجع إلى منزله ثم كيف يتفق مع العقل وأوليات الدين أن قوماً أذنوا ودعوا بدعاية الإسلام. وصلوا مع المسلمين - كما تزعم الرواية - ثم تختلف السرية في إسلامهم. وهي قد صلت معهم وصلوا معها؟ أليس في هذا نسبة الكذب الصريح والنش التعمد إلى خيرة الصحابة من المهاجرين والأنصار؟ لأن الرواية تزعم أن المختلفين من رجال السرية كلهم قد اشتركوا في الصلاة مع القوم فإن كان ابن نورية وقومه قد صالوا مع المسلمين حقاً وأعلنوا إسلامهم؛ فالذين شهدوا من الصحابة بعدم إسلامهم قد كذبوا وغشوا. وإن كان ابن نورية وقومه لم يصلوا مع المسلمين. ولم يعلنوا إسلامهم فالذين شهدوا بإسلامهم

قد كذبوا وغشوا ، وهل عرف تاريخ الإسلام هذا النحو من الأخلاق عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم كيف جاء رجال السرية بابن نورية إلى خالد إذا كان قد أسلم ؟ وخالد إنما أمر جنده أن يحثوه بمن لم يجب إلى الإسلام ؟ وكيف صح من قائد المسلمين أن يخاطبهم بلغة يعلم أنها ليست لغتهم فيما يقصد إليه من معنى وغرض ؟ وإن كان لا يعلم ذلك فلماذا لم يعتذر بهذا العذر الوجيه عند الخليفة يوم أن عاتبه ؟ قد يغلب على الظن أن إقحام اسم أبي قتادة هنا من نوع ما قلناه في إقحام الأسماء الضخمة في الروايات الملققة للتمويه والتضليل ؛ وأبو قتادة رضى الله عنه إذا كان قد شهد عند خالد بإسلام مالك بن نورية ، وأنكر على خالد صديقه فلعن ذلك كان بطريق آخر لوعرفناه المسكن للرأى فيه مجال ويمكن تعليل اختلاف السرية تعليلاً معقولاً .

وهذه رواية أخرى تحمل في طواياها دلائل زيفها وبطلانها ، جاء في خزائن الأدب للبغدادى : أن أبا بكر رضى الله عنه لما بلغه مقالة مالك أمر خالد أن يأتيه ، وعزم عليه ليقتله إن أخذه ، فأقبل خالد حتى هبط أرضهم فلم يسمع أذاناً ، فحمل عليهم ، فنار الناس ولا يدرون ما يبتهم ، فلما رأوا الفرسان والجيش قالوا : من أتم ؟ قالوا : نحن المسلمون ، قال مالك : ونحن المسلمون . فلم يلبث المسلمون لذلك . ووضعوا السيف فيهم . وأعجل مالك عن لبس السلاح ، وإن امرأته ليلي بنت سنان قامت دونه عريانة . ودخل القبة . فلبس أذاته ثم خرج وقاتل حتى أخذ أسيراً . فلما أتى به إلى خالد قال له : يا ابن نورية هلم إلى الإسلام ، قال مالك : وتعطينى ماذا ؟ قال : ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة أبي بكر ، وذمة خالد بن الوليد . فأقبل مالك وأعطاه بيديه ، وعلى خالد تلك العزمة من أبي بكر ، قال خالد : يا مالك إني قاتلك ، قال : لا تقتلنى . قال : لا أستطيع غير ذلك ، قال : فأنت مالا تستطيع إلا إياه فقدمه إلى الناس ، فتهيبوا قتله ، وقال المهاجرون : أقتل رجلاً مسلماً ؟ غير ضرار بن الأزور الأسدى فإنه قام وقتله ، وفي ذلك يقول أخو مالك متمم بن نورية :

نعم القتل إذا الرياح تناوحت فوق الكنيف قتيلك ابن الأزور
أدعوت به بالله ثم قتلته لو هو دعاك بذمة لم يغدر
ولنعم حشو الدرع يوم لقائه ولنعم مأوى الطارق المتنور
لا يلبس الفحشاء تحت إزاره صعب مقادته عفيف المنزر
وزيف هذه الرواية ظاهر من وجوه :

أولاً - إنها تذكر أن أبا بكر عزم على خالد ليقتلن مالكا إن أخذه . فهل يسوغ
لنا أن نزع - إن صحت هذه العزمة من أبي بكر - أنه أرادها من خالد وأو أخذ
مالكا مسلماً بريئاً من حدود الله ؟ ما نظن أحداً من المسلمين يذهب إلى ذلك . ثم كيف
يسوغ لنا أن نقبل هذه المحاورة الساذجة التي تعقدها الرواية بين خالد ومالك وتنتهي
بقتل رجل مسلم لم يعرف له المسلمون الذين شهدوا قتله ذنباً يسوغ هذا القتل حتى
تهيبوه وأنكروه ؟

ثانياً : إن هذه العزمة التي تذكرها الرواية معزوة إلى أبي بكر بقتل ابن نيرة
تخالف ما اشتهر في الروايات الكثيرة من جزع أبي بكر عندما بلغه قتل مالك ، ذكر
ابن عساکر في تاريخه « لما قدم أبو قتادة على أبي بكر وأخبره بقتل مالك وأصحابه
جزع جزعاً شديداً » .

ثالثاً : هذه الرواية تخالف ما ثبت من أن أبا بكر دفع دية مالك بن نيرة إلى أخيه
متعم ، وأنه عاتب خالداً ولأمله لوماً شديداً حتى أبان خالد عن وجهة رأيه فعارضه
أبو بكر واعتذر عنه .

رابعاً : إن هذه الرواية لا تقف عند حد أن خالداً ردى الله ، بل رجمه رجلاً مسلماً ،
تهيب المسلمون قتله وأنكروه . بل هي تسجل على أعظم قواد الإسلام غدراً بذمة الله
وذمة رسوله ، وذمة الخليفة ، وذمة نفسه وهو أمير المسلمين وفائدهم ، وهذا ما يندفعه
تاريخ الصدر الأول عن هذه الأمة وتنسكبه أشد الإنكار سيرة خالد بن الوليد رضي
الله عنه في معاملته للخواص .

وهذه رواية شهرة وعقد عليها الرواة الخناصر ، وهى أدخل فى مجاهل الرية رواية مشهورة
 وهى تقول : إن خالد أ رضى الله عنه لما وصل إلى بلاد بنى تميم ثاروا إليه فقال من أنتم ؟
 قالوا : نحن عباد الله المسلمون ، وقد كان خالد بث سراياه فلم يسمعوا أذاناً فقاتلهم
 وأسر مالك بن نويرة وأصحابه ثم قتلهم ؛ ولما بلغ خبر قتل مالك بن نويرة وأصحابه عمر
 ابن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى بكر : إن سيف خالد فيه رهق ، وأكتر عليه فى
 ذلك ، فقال : يا عمر تأول فأخطأ ، فأرفع لسانك عن خالد ، فإنى لا أشتب سيفا سلة الله
 على الكافرين ، وودى مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ، ففعل ، ودخل المسجد
 وعليه قباء ، وقد غرز فى عمامته أسهما - فقام إليه عمر رضى الله عنه فنزعها وحطمها ،
 وقال له : قتلت امرأ مساماً ، ثم نزوت على امرأتها ، والله لأرجنك بأحجارك ، وخالد
 لا يكلمه ، يظن أن رأى أبى بكر مثله ، ودخل على أبى بكر فأخبره الخبر ، واعتذر إليه
 بأنه سمع منه كلاماً استحل به قتله فعدره وتجاوز عنه ، وعنفه فى الزويج الذى كانت العرب
 عليه من كراهته أيام الحرب ، وأمره أن يفارق امرأة مالك ، فخرج خالد وعمر جالس
 فى المسجد ، فقال : هلم إلى يا ابن أم شملة ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه ، فلم
 يكلمه ودخل بيته .

هذه الرواية من أعظم روايات القصة استغلالاً فى توجيهها توجيهاً يضع من قدر
 أعظم قواد الإسلام خالد بن الوليد ، فنصوره فى تلك الصورة التى تتجافى عنها المروءة
 وينكرها الدين ، وتشتم من الرجال ، ولا يرضى عنها عامة الناس ، فهى أحقها
 بالنظر الناقد والنفيد ، لأنها تتسكى على اسم رجل هوثال ثلاثة فى الإسلام كاه فتجعل
 منه بطلا تدور عليه فصولها ؛ ذلك فاروق الإسلام عمر بن الخطاب ، وحسب القارىء
 أن يجد اسم عمر يحتل المسكان الأرفع فى القصة فيؤمن من أشد الإيمان بالجانب الذى ينتهى
 إليه . هكذا أراد الدين استغلوا هذه الرواية وأبدوا فيها وأعادوا ونقصوا وزادوا ، ولم
 يراعوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة ولا للحق كرامة ، وهذه الرواية
 تحمل بين طياتها عوامل الرية فيها :

أولاً : إنها تصور خلافاً حاداً بعيد المدى بين رأى الشيخين الصديق والفاروق عوامل الرية
 فى قصة خالد بن الوليد ، ومالك بن نويرة . فعمد بن الخطاب - كما تزعم الرواية - كان فى هذه
 يرى أن خالد قد نزل رجلاً مسلماً معصوم الدم متعمداً . لأخبط قصد وأسوأ غرض .
 وأنه نزا على امرأة قتيله المسلم ، وأقسم ليرجن خالداً بأحجاره .

وأبو بكر الصديق كان يرى أن أقصى ما يُعاب على خالد في هذه القضية أنه تأول فأخطأ . وهذا اختلاف غريب في حادث خطير ، لم يعرف أنهما انتهيا فيه إلى اتفاق ، وإذا لم يكن الاتفاق لازماً بين المجتهدين فليس هذا من مواضع اختلاف المجتهدين ، لأن هذا اختلاف في تكيف الحادث ، لا في فهم نص وتطبيقه ، وهذا التكيف إنما كان مصدره عند الشيخين شهادة النقل ممن كان شاهداً ؛ فكيف إذا انتهى بهما إلى هذا التصوير المضاد ؟ والمعروف المشهور في هذه القضية أن الذي قدم المدينة قبل قدوم خالد أو رسوله إليها هو أبو قتادة الأنصاري ، وهو رجل صدق وشجاعة . وهو الذي أخبر الخليفة بتفاصيل ما رأت عيناه وسمعت أذناه ؛ وعن طريقه — في الأغلب — وصل النبأ إلى سمع عمر بن الخطاب ؛ وكان أبو قتادة قد ذهب مغاضباً لقائده خالد مقسماً أن لا يعمل تحت رايته ؛ ولكن الخليفة لم يقبل منه هذه المغاضبة ؛ بل زجره زجراً رده إلى قائده جندياً كما كان .

فهل كانت مغاضبة أبي قتادة لمحض حادث مالك بن نويرة ؟ وهل كانت صورة الحادث في نفس أبي قتادة كصورته التي عزتها الرواية إلى عمر بن الخطاب ؟ وما الذي منع أبا بكر حينئذ من الأخذ بشهادته وعمر يلح عليه مشدداً ؟ أو كان للحادث في نفس أبي قتادة صورة أخرى ؛ فهم منها أبو بكر ما أملى عليه قوله في رده على عمر « تأول فأخطأ » .

والذي شهد أبو قتادة ولم ير ضه لخال ؛ ولم يقره عليه قد شهد عشرات من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ ولكنهم لم يصنعوا ما صنع أبو قتادة ولا شيثاً منه ؛ ولم يحجهم عبد الله ابن عمر عن الإعلان برأيه في مخالفة خالد ؛ ولكنهم لم يصنع صليح أبي قتادة ؛ وكان أقصى ما فعله أن طلب إلى خالد حين دعاه لشهود عقد نكاح ليلى امرأة مالك أن يعرض الأمر على الخليفة ليفصل فيه برأيه .

وإذا صحت هذه الرواية وصح ما فيها معزواً إلى عمر بن الخطاب فأين التنفيذ لأعظم حد من حدود الله في أخطر حادث إسلامي ؛ وقد ملكه عمر في خلافته ؛ وكان قد قال لخالد — فيما تزعم بعض الروايات — « لئن وليت الأمر لأفيدنك به » وأين

ذهبت حماسة عمر بعد خروج خالد من لدن أبي بكر وكان يسمع منه تفاصيل ما حدث؟
ألا كان يملك عمر معارضة الخليفة والاحتجاج عليه في تعطيل حد من حدود الله تعالى؟
فهل لنا أن نفهم إذا لم نجد جواباً عن هذا النحو من التساؤل - ولن نجد - أن للقضية
في التاريخ وجهاً غير وجهها الذي رسمته هذه الرواية الزائفة؟

ثانياً : هذه الرواية تقول : إن أبا بكر دفع إلى متعم بن نويرة أخى مالك دية أخيه
من بيت مال المسلمين ، وهى نفسها تقول : إن للمالك أصحاباً كانوا على مثل ما كان عليه ،
وصاروا إلى مثل ما صار إليه ، فمن المعقول أن يكون حكمهم حكمه ، فلماذا خص مالك
بغضبة عمر ، ولم يذكر معه أحد من أصحابه ، وكانت الجناية أشنع في قتل جماعة مسلمة ؟
معصومة الدم عمداً ، هل كان هذا التخصيص لمسألة زواج خالد من امرأة مالك ؟
كيف وهى متفرعة على أصل قتل مالك ، فإن كان قتله حلالاً فلا شيء مطلقاً على خالد
في هذا الزواج ، وإن كان قتله حراماً ، فحرم القتل أعظم من جرم هذا الزواج مهما
قيل في تصويره ، وجرم قتل الجماعة أخطر من جرم قتل الواحد ، فكيف أهدرت
تلك الدماء ولم تجد من المسلمين من يطالب بها ؟ ولعل قائلاً يقول : ذلك أنه ليس في
أصحاب مالك من هو مثل مالك ، قلنا : تلك مزايا جاهلية أهدرها الإسلام ولم يبق لها
وزن . وعمر نفسه كان أبلغ مثل عملي تطبيقى لإهدارها في حادث جيلة بن الأيهم المشهور .

ولماذا خص أبو بكر مالكا بالدية ولم يد غيره من أصحابه الذين قتلوا معه إن كانوا
كما تزعم الرواية - قد قتلوا مسلمين ؟

ثالثاً : تقول هذه الرواية الزائفة : إن أبا بكر استقدم خالد . فلما قدم المدينة دخل
المسجد في هيئة القائد الظافر ، فقام إليه عمر ونزع أسنانه وحطمها وقال له تلك الكلمة
المجبهة المتوقعة بقاصمة الظهر : « قتل رجل مسلم ثم نزلت على امرأته ، والله لأرجنك
بأحجارك » وبطل الإسلام خالد لا يكلمه . يظن أن رأى أبي بكر مثله ، فمن أين لعمر
ابن الخطاب هذا السلطان الذى جعله يصنع بقائد جيوش المسلمين هذا الصنيع المهين قبل
أن يصل إلى الخليفة الذى استقدمه ليعرف منه وجه الحق فيما حدث ، والخليفة وحده هو
صاحب السلطان الشرعى في تأديب قواده وإقامة الحدود عليهم وعلى من دونه من الأمة ؟
أفيظن أن خالد بن الوليد يرضى ويستسلم لعمر بن الخطاب يصنع معه ما صنع قبل أن

يصل إلى الخليفة لمجرد أنه يظن أن رأى أبي بكر على مثل رأيه ؟ وهل المقام مقام تعذير يقوم به رجل من رجالات المساميين ؟

ثم إن عمر بن الخطاب كان يعرف رأى أبي بكر في هذه القضية قبل أن يقدم خالد عليهما ، لأنهما تجاوزا في القضية ، واشتد عمر على خالد ، فنهبه أبو بكر وقال له : ارفع لسانك عن خالد ، وقرظ خالداً وزكاه بما زكاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن خالداً سيف مسلته الله على الكافرين فلا أشيمه » فكيف ساغ لعمر بن الخطاب بعد هذا أن يصنع بخالد هذا الصنيع مخالفاً رأى الخليفة ؟ فديقول قائل : إن عمر بن الخطاب ذلك الرجل الشديد في الدين ، الذي يقف مع رأيه غير متخاذل لرأى أحد ، قلنا : وأين ذهبت تلك الشدة بعد أن قابل خالد أبا بكر وأفضى إليه بحقيقة الأمر كما وقع وكما قدره هو ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج على عمر يتوعده بهذه الكلمة الساخرة : هلم إلى يا ابن أم شملة ؟ أكانت في تلك الصورة الهزيلة التي نختتم بها الرواية فصولها . « فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه ، فلم يكاحه ودخل بيته » وهذه المعرفة كانت عند عمر قبل أن يلقي خالداً وينزع أسنانه ويحطمها ، ولكن الرواة ينسون أو ينفلون ؟ أم إن عمر غير رأيه وعرف أن خالداً برىء مما قذف به ؟

رابعاً : إن هذه الرواية لم تذكر لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أبي بكر وعمر رأيا في هذه القضية الخطيرة حتى الذين كانوا من جنس خالد وغاصبوه ، وأبوا عليه أن يحضروا عقد نكاحه ، مثل أبي قتادة وعبد الله بن عمر ، فأين رأيهما في تحقيق القضية وقد أخذت هذا الوضع الحاد بين الخليفة ووزيره ؟ وأين رأى على بن أبي طالب الذي قال فيه عمر : لولا على لهلك عمر ؟ وأين رأى أكابر الصحابة من أمثال عثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، ووجوه الأنصار ؟ أين رأى هؤلاء الأجلة في أخطر قضية مرت على المساميين ؟ قضية تتعلق بتصرف قائد قواد الإسلام تصرفاً إذا صح فيه ما نسب إلى عمر في اتهامه لخالد كان أقل جزاء هذا القائد في الشريعة الإسلامية القتل على شر وجوهه ؟ أفيسكني أن يقال في بعض الروايات إن عمر غضب حين رأى خالداً وفي عمامته سهمان ، فقام فأتى علياً ، فقال : إن في حق الله أن يقاد هذا بمالك ، قتل رجلاً مسلماً ، ثم نزا على امرأته كما ينزو

الحمار؛ ثم قاما فأثيا طلحة فقتلوا على ذلك، فقال أبو بكر: سيف سله الله لا أكون الأول من يعمده، أكل أمره إلى الله !!

هل هذا يتفق مع ما عرف في سيرة هؤلاء السادة من أشد الغيرة على الشريعة وحدودها، وما عرف عنهم من شدة في البحث عن الحقائق والكشف عن حقيقة الوقائع؟ وهل يتفق مع العقل أن يتطابق علماء الصحابة وخيارهم على أن رجلاً من قادة المسلمين خرق في الشريعة خرقاً استوجب عندهم القصاص منه، وهم يطلبون إلى الإمام الأعظم إقامة حد الله عليه فيرد عليهم بهذا الرد المعطل لأحكام الدين ثم يسكتون، ويبقى هذا الرجل في مقامه من صدارة الدولة؟

خامساً : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه تولى الخلافة بعد أبي بكر وأصبح سلطان الدولة الإسلامية في يده، وكان رجلاً قواماً على حدود الله جريئاً في الحق، لا يهاب أحداً ولا شيئاً، وكان خالد بن الوليد يومئذ يقف أميراً على عامة جيوش المسلمين في نحر الروم، فلم يرجه عمر بأحجاره كما توقعه - في زعم هذه الرواية - ولم يقتله قصاصاً بمالك وأصحابه، وليس عمر بالذى يظن فيه رجوع عما اقتنع أنه الحق، ولا بالذى يظن فيه هوادة في الدين ومعاملة في حدود الله.

أما عزل عمر خالداً عن الإمارة فلم تكن قضية مالك بن نويرة سبباً من أسبابه عند التحقيق، ولا يستقيم أن تكون من أسبابه، لأن الله تعالى لم يشرع العزل عن الإدارة حداً من حدوده، ومنعحق أسباب هذا العزل عندما نصل من سيرة بطل الإسلام وعبقري قاداته خالد بن الوليد إلى نهايتها.

سادساً : تسند بعض الروايات إلى عمر بن الخطاب أن متمم بن نويرة وفد عليه بعد أن تولى الخلافة فاستعداه على خالد، فقال عمر: لا أرد شيئاً صنعه أبو بكر، فقال متمم: قد كنت تزعم أن لو كنت مكان أبي بكر أفدته به، فقال عمر: لو كنت ذلك اليوم بمكانى اليوم لفعلت، ولسكنى لا أرد شيئاً أمضاه أبو بكر. فكيف يطلب صاحب الحق حقه ممن يراه له ويملك تنفيذه فلا يقوم له به لأن غيره أمضاه؟ ومق كان هذا؟ في عهد عمر بن الخطاب !! على أن الكلمة المنقولة عن عمر وهى «لئن وليت الأمر لأقيدنك به» لا تحتل هذا التأويل المزعوم.

سابعاً : روى أن متمم بن نويرة دخل على عمر بن الخطاب في خلافته ، فقال له عمر : ما بلغ من وجدك على أخيك مالك ؟ قال : بكيته حولا حتى أسعدت عيني الذاهبة عيني الصحيحة ، وما رأيت ناراً إلا كدت أقطع لها أسفاً عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه ، قال عمر : فأنشدني بعض ما قلته فيه ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

لعمري ومادهري بتأبين مالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا
لقد كفن المنهال تحت ردائه فقي غير مبطان العشيات أروعا
حق انتهى إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كآنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال له عمر : هذا والله التأبين ، ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيدا بمثل ما رثيت به أخاك ؟ فقال متمم : لو أن أخى مات على مامات عليه أخوك ما رثيته ؛ فقال عمر : ما عزانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم .

فعلى أى شيء مات مالك بن نويرة إذا لم يكن قد مات على الإسلام الذى مات عليه .
زيد بن الخطاب شهيدا ؟ !

رواية مقبولة وهذه رواية تقول إن مالك بن نويرة لما جاءت به السرية أسيراً إلى خالد حاوره خالد في موقفه من الإسلام فقال مالك : أنا آتى بالصلاة دون الزكاة ، فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معا ، لا تقبل واحدة دون الأخرى فقال مالك قد كان صاحبكم ؟ يقول ذلك ؟ قال خالد أو ما تراه لك صاحباً ؟ ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك ، ثم تجاوزا في الكلام ، فقال له خالد : إني قاتلك ، فقال له ؟ أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : هذه بعد تلك ؟ وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصاري حاضرين ، فسكبا خالد ألقى أمره . فكره كلامهما ، فقال مالك : يا خالد ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذى يحكم فينا ؟ فقال خالد : لا أقالى الله إن أقتلك ؛ وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه ، وقبض خالد امرأته ؛ قيل إنه اشتراها من النخع فأعتقها .

وتزوج بها ، وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها ، وقال لابن عمر ولأبي قتادة : احضرا النكاح فأبيا ، وقال له ابن عمر : نكتب إلى أبي بكر ونعلمه بأمرها وتزوج بها ، فأبى خالد وتزوجها ، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره .

هذه الرواية قد تكون قريبة القبول ، لأنها تذكر جهة الردة التي باء بها مالك بن نويرة ومن اتبعه من قومه ، وهي امتناعه عن الزكاة ، وهذا موافق لأصل السبب الذي التوى من جهته عامة العرب في هذه الفتنة ، والذي بدأ به موقف مالك بتفريقه ما جمع في يده من صدقات قومه ، والذي ثبتت فيه المفاوضة بين الصديق وسائر الصحابة نزاعاً عن عمر بن الخطاب ، واحتجوا لها بالحديث الثابت ، فقد روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » واحتج الصديق بأن الزكاة من حقها الموجب للقتال ، وقال والله لو منعوني عناقاً أو عقلاً ، كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . ومن هنا استقى خالد بن الوليد حجته على مالك بن نويرة في مجادلته حيث قال : أما علمت أن الصلاة والزكاة معا ، لا تقبل واحدة دون الأخرى ؟ وعندئذ تكشف ابن نويرة عن صريح أمره الذي طوى عليه كشمه ؛ فقال في رده على خالد : قد كان صاحبكم - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول ذلك ، وهذه كلمة لا تخرج من صدر سليم الإيمان ، ولكنها نفثة من نفثات النفاق ، أو فلتة من فلتات الكفر البواح ، غير أن خالداً في دينه ورجوليته لا يسرع إلى قتل رجل بأمر قد يشبهه على بعض سليمي الصدور من المؤمنين ، فمد إلى مالك حبل المجادلة حتى استبان له أمره ، ولم يبق في نفسه موضع للشك في رده فأبزم العزم على قتله ، ولم يرض أن يستأني به كما استأني بقرّة بن هبيرة وعيينة ابن حصن ويرسله إلى أبي بكر كما أرسلهما وكما طلب ذلك ابن نويرة ، لأن قرّة وعيينة لم يثبت لهما مقالة خبيثة الطوية كهذه المقالة التي ثبتت على مالك في مواجهة خالد ومحاورته .

موقف أبيه
قتادة وابن
عمر

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو قتادة الأنصاري ممن حضر مجلس المجادلة بين خالد ومالك ، فكما خالداً في أمر مالك وأراد أن لا يقتله ، وكأنهما تأولا ما صدر منه وزادت حساسة أبي قتادة لرأيه وخالف قائده وفارق الجيش ذاهباً إلى الخليفة شاكياً له أمر خالد في شأن مالك وأمراته ، وأقسم أن لا يقاتل تحت راية خالد أبداً ، فلم يكن من

الخليفة الحازم الراشد إلا أن رد أبا قتادة إلى جيشه جنديا تحت راية أميره وقائده خالد كما كان ، ولم يفتح باب شكاية الجند لقوادهم والخروج عليهم حتى يحقق الأمر بنفسه بعد عودة القائد بجيشه، وهذه سياسة من أحكم وأحزم السياسات التي حرصت الدولة الإسلامية في أول عهدها من الانقسام والفساد .

أما عبد الله بن عمر فاكتمى بأن أظهر رأيه في القضية ولم يصحب إنكاره ما أنكر من حادث مالمك بن نويرة بالخروج على القائد ، وهذا من فقه ابن عمر ، لأنه علم أن خالدا ومن معه من الصحابة الذين وافقوه على قتل مالك لا يصرون عن هوى ، وأنهم إن أخطأوا فقد تأولوا ، والفيصل إنما هو رأى الخليفة عند رجوع الجيش ومواجهة القائد ولهذا لما دعاه خالد مع صاحبه إلى حضور نسكاح ليلى امرأة مالك ألبيا ، وقال ابن عمر : نكتب إلى أبي بكر ونعلمه بأمرها وتزوج بها ، ومن هنا يظهر الفرق بين الاتجاهين فبعد الله بن عمر رجل علم وفقة وأبو قتادة رجل فروسية وشجاعة فكان تصرّفهما مطابقا لتكوينهما العقلي والخلقي .

لعبد المبال
في أقصوة
زواج خالد
امرأة مالك

وقد لعب خيال القصاص في أقصوة زواج خالد بامرأة قتيله مالك بن نويرة . وأمر هذا الزواج عجيب كشأن القصة في أصلها .

فبعض الروايات تقول : إن خالداً قتل مالكا وتزوج امرأته من ليلته . ولمالم يعقل هذا والناس في ذلك العهد ناس والدين دين ، تمحل بعض حسنى النية من المؤرخين والفقهاء فقال لعلها كانت مطلقة قد انقضت عدتها إلا أنها كانت محبوسة عند مالك . وهذا تخريج لا يتم إلا على أساس أن مالكا قتل مسلما حرام الدم والمال والأهل ، وحينئذ يعود الكلام إلى القضية العظمى وهى سفك دم مسلم عدوانا ونسكاح امرأته بغير وجه شرعى ودون إثبات ذلك تناول نجوم السماء باليدين .

ومما يتصل بهذه الرواية بسبب من التفضيل وسوء الفرية على أجلاء أبطال الإسلام وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحسبك بعض أغرار المؤرخين من أن خالد بن الوليد عشق امرأة مالك لفرط جمالها فقتل مالكا ليستولى عليها ، وأن الكافال تزوجته لم يقتلنى غيرك ، وأن خالداً رد عليه حين سمعه يقول ذلك بقوله : بل الله فملك برجوعك عن الإسلام .

وهذا الكلام لا تحصيل في نقاشه لأنه أشبه بروايات أهل الفراغ والبطالة من سفهاء العقول وسفهاء الأحلام الذين لا يبالون أن يخذلوا تاريخ عظماء الإسلام بمثل هذه التفاهات التي ينفر منها رعايا الناس ورذاهم، بله عقلاء هم وذوى المروءات فيهم. فكيف بالصحابة في تربيتهم ودينهم وعلو أنفسهم وكمال مروءتهم وتاريخهم شاهد صدق على جلال أخلاقهم ونزفهم عن دنيا الأمور ؟

وكيف فيهم بخالد بطل الإسلام وسيف الله ؟

في الرواية التي رأينا أنها قريبة القبول والتصديق أن خالداً اشترى امرأة مالك من الفراء وتزوج بها وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها ، وهذا أمر معقول ومقبول صدوره من خالد جبراً لمخاطرها وتطليبا لنفسها ، إذ هي قد جفت في زوجها وهو فارس قومها ورئيسهم . وحينئذ يجب أن نفرض بقاءها على الإسلام وعدم موافقتها مالك على رده وذلك تأويل من زعم أنها كانت مطلقة منه ، ومجروسة عنده لأن رده فصلت بينهما واستبقاها تحته ظالماً حتى استنقذها خالد فزوجها . ويكون الذي عيب على خالد إنما هو ما كان عند العرب معيياً من الزويج أيام الحرب ولا سيما إذا كان المزوج بها من نساء الأعداء والمركة ما زال ناشبة فإنه حينئذ يخشى من التجسس والفتك بالأبطال . ولعل خالداً تيقن إخلاصها للإسلام فخلصها .

وفي قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية بنت حيي ما جعل أقوى دفاع عن خالد في هذه القضية إذا جردت قصة مالك بن نويرة من خيالات القصاصين .

أمر هذه الروايات في أحذوثة مالك بن نويرة ظاهر أنه من زيد القصاصين . وإقحام اسم عمر بن الخطاب بهذه الصورة التي نقصها الروايات ظاهر الانتحال ، ولباب الأمر في هذه القصة كلها أنها لا نعدو أن تكون مثل قصة خالد نفسه مع بني جذيمة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سلف الحديث عنها ، فهم قد أساءوا لما أظلمتهم سرية خالد بما ليس صريحاً في إسلامهم فظن خالد أن قولهم « صباؤنا » تقيية السيف لاعتقاده القلب فقتل خالد منهم من قتل اعتقاداً لكفرهم ، فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم وبرى إلى الله مما صنع ولم يعزله ولم ير أن ذلك موجب للقصص منه .

ولا نعدو أن تكون مثل قصة أسامة بن زيد مع الرجل الذي لاذ بالشجرة وقد قال :

نتيجة

"لإله إلا الله ، فقتله أسامة محتجاً أنه قالها تقية لاعتقده ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هلا شقت عن قلبه ، ولم يقتص منه ، ومن ثمة قال أبو بكر لعمر رضى الله عنه : تأول خالد فأخطأ ، ولعل سبب ذلك أن عمر كان يرى أن يشتد أبو بكر على خالد في العتب كما اشتد النبي صلى الله عليه وسلم عليه وعلى أسامة ولاسيما وخالد كان فيه استقلال بالرأى في الحرب كان يخشاه عمر ويرى أن يحذ منه ، وكان من سياسة أبي بكر أن يحتفظ بخالد فلا يكسر شوكته ؛ والمسلمون في أزمة الردة أشد ما يكونون حاجة إلى أمثال خالد .

وعلى هذا الأساس لا يرى حرجاً على خالد في تزوجه امرأة مالك لأنه قتل رجلاً كافراً في اعتقاده منابذاً للإسلام محارباً للمسلمين معتدياً عليهم ، فإذا فرضنا إسلام زوجته وهى تحته فيكون خالد قد أحسن إليها وجبر خاطرها بتزوجها ، وهذا ما نرجحه في شأنها لأن أكثر المؤرخين ذكروا أنها اعتدت بثلاث حيض ؛ وإذا فرضناها غير مسلمة فكما حكم السبي ويكون خالد قد أحسن إليها أيضاً . لأنه كما تقول بعض الروايات ، اشتراها من الفء وأعتقها وتزوج بها .

ويتعلق بهذا النكاح نكتة لطيفة لم يلتفت إليها كثير من الباحثين : ذلك أن أبا بكر لما استقدم خالداً وسمع حجته أمره بطلاق امرأة مالك عقوبة سياسية على تسرعه للنساء في الحرب ، وهو أمر تخشى عواقبه . والطلاق حكم شرعى لا يكون إلا بعد نكاح صحيح وهذا يحمل في طياته صحة رأى خالد واقتناع أبي بكر به ، وأن مالكا لم يقتل مسلماً معصوم الدم ، ولاسيما وأن الطلاق لم يكن معجلاً فقد عاد القائد إلى حرب مسيامة وتحته أم متمم امرأة مالك ؛ وإنما دفع أبو بكر مالا لأخى مالك متمم بن نويرة من باب الترضية والتأليف على نهج ماصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى جذيمة .

الفصل التاسع

واقعة اليمامة بين خالد ومسيمة

هول معركة اليمامة — عبقرية خالد في إدارة المعركة — نبوءة صادقة — إدعاء
مسيمة النبوة — شعوذة وخبث دهي — عصبية عمياء — أول لواء لحرب اليمامة —
توجيه خالد إلى حرب مسيمة — سياسة حكيمة — مجاعة بن مرارة الحنفي ومكانته في
قومه — بدء المعركة وترجيحها هنا وهناك — نفحات البطولة الإسلامية — حملة
صادقة — قتل مسيمة — من قتله ؟ — بدء النهاية في المعركة — خدعة مجاعة —
الصلح بين التأييد والمعارضة — كتاب أبي بكر إلى خالد وإمضاء الصلح — غدره
لم تتم — رسول خالد إلى أبي بكر — هل وفد خالد على أبي بكر بعد اليمامة ؟ —
زواج خالد بنت مجاعة — رجولية بطل — عتب أبي بكر ودفاع خالد —
تحليل وتوضيح .

لم يلق المسلمون الأولون في تاريخهم الحربى أشد مما لقوا في واقعة اليمامة ومقاتلة
 بنى حنيفة قوم مسيلمة بن حبيب الحنفي المشهر بالكذاب ، وقد كانت هذه الشدائد أعظم
 امتحان لقوى الرجولية وأحد مشاهد لعبقريّة البطولة ، وفي هذه الواقعة تجلت عبقرية
 بطل الإسلام وقائده المظفر خالد بن الوليد رضى الله عنه عن مظاهر الشجاعة وسياسة
 الحرب ، وحسكة القيادة ، وحزامة الإمارة التي سجلها له التاريخ في صحائف أعظم
 القادة والأبطال .

ومن الخير في توجيه ذهن القارئ إلى إدراك صورة تمثل هول هذه الموقعة وشدائد
 الابتلاء فيها أن نرسم لها خطوطاً أولية تبدو من أثنائها عواصف الهول ، وقواصم
 العزائم إلى جانب رواسى الهمم لدى جيوش المسلمين وصبرهم في وجه الموت وشجاعتهم
 عند زلزلة أقدام فوارس الحرب وأبطال اللقاء ؛ مستمدين ذلك من روايات التاريخ
 عمن شهدوا أوارها حتى يتم لنا أن نؤمن على ابتهالات التاريخ في محراب البطولة
 الخالدية :

أولاً — قال رافع بن خديج : خرجنا من المدينة ونحن أربعة آلاف ، وأصحابنا من
 الأنصار ما بين خمسمائة إلى أربعمائة ، وعلى الأنصار ثابت بن قيس ، ويحمل رايتنا
 أبو لبابة ، فانتها إلى « اليمامة » فننتهى إلى قوم هم الذين قال الله تعالى فيهم « يستدعون
 إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسامون ، » فلما صففنا صفوفنا ووضعنا الرايات
 موضعها لم يلبثوا أن سفلوا علينا فهزمونا مراراً فنعود إلى مصافنا وفيها خلل ، وذلك أن
 صفوفنا كانت مختلطة ، فيها حشو كثير من الأعراب في خلال صفوفنا فينهزم أولئك
 بالناس ، فيستخفون أهل البصائر والنيات حتى كثر ذلك منهم ، ثم إن الله تعالى بمنه
 وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر ، وذلك أن ثابت بن قيس نادى خالد بن الوليد :
 أخلصنا ، فقال خالد : ذلك إليك ؛ فنادى أصحابك ، فأخذ ثابت الراية ونادى
 يا للأنصار ، فتسللت إليه رجلاً رجلاً ، فنادى خالد : يا للهاجرين ، فأخذوا به ،
 ونادى عدى بن حاتم ، ومكنف بن زيد الخيل بطيء فثابت إليهما طيء ، وكانوا أهل
 (م ١١ — خالد بن الوليد)

بلاء حسن ، وعزلت الأعراب عنا ناحية ، فقاموا من ورائنا غلوة أو أكثر ، وإنما كنا نؤتى من الإعراب .

وأجهض أهل السوابق والبصائر العدو ، فهم في نحورهم ما يجد أحد مدخلا إلا أن يقتل رجلا منهم أو يخرج فيقع فيخلف مقامه آخر حتى أوجعنا فيهم ، وبأن خلل صفوفهم وضجوا من السيف ، ثم اقتحمنا الحديقة فصاروا فيها وغلقنا الحديقة ، وألقنا على أيدينا رجلا ثلثا يهرب منهم أحد فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت ، فجدوا في القتال ودانت السيوف بيننا وبينهم ، ما فيها رمى بسهم ولا حجر ولا طعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيلة :

هذه رواية فيها من إيجاز الخبر وناصح الأسلوب وحسن القصص ما جعلها يجمع بين أطرافها لباب الأمر في واقعة أطال المؤرخون رشاء القول فيها ، وفيها من وصف أعداء المسلمين وبشدة بأسهم ما جعلهم في نظر علماء الصحابة يحمل الآية الكريمة « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد » .

وبحسبك أن تجد القرآن الحكيم يصف قوما بالأس الشديد فتعلم من هم ؟ وعلى أى لون من القوة في العدد والعدة هم ؟ وفيها بيان سبب انهزام المسلمين أول الأمر ؛ وأن ذلك كان باختلاط صفوفهم بحشو من الأعراب الذين لم يكونوا قد انضموا لجيش الإسلام مسوقين بعقيدة يناضلون عنها ويقاتلون بها ، فزلزلت أقدامهم حينما لحمتهم السيوف وأحسوا حر السلاح ، فانهمزوا ، واستخفوا بهزيمتهم أهل البصائر والنيات ممن خرجوا في سبيل الله مفعمة أنفسهم بالآيمان وقوة العقيدة التي بها يقاتلون وعنها يناضلون ، وهذا أمر معقول تصدقه السوابق الخالدية ، فقد ذكرنا أن عدى بن حاتم أراد في حرب أسد وغطفان أن يجعل قومه — وكانوا قد توقفوا فجتمعهم الله به إلى الإسلام — مقدمة جيش خالد ، فأبى عليه خالد ذلك ، وقال له : يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك ، فإذا لحمتهم القتال انكشفوا ، فانكشف من معنا ، ولكن دعنى أقدم قوما صبرا لهم سوابق وثبات ، وهم من قومك .

وهؤلاء الأعراب الذين أتى المسلمون من قبلهم الذين أبى عليهم خالد أن يكونوا جندا في جيشه لضعف روحهم وانحطاطهم ، واكتفى بأن أخذ منهم سلاحهم يستعين به

على حرب عدوه ، حتى كان أبو بكر رضى الله عنه هو الذى ألحقهم به تمحيصاً لإسلامهم وتكثيراً لسواد المسلمين بهم ولشغلهم بالجهاد عن التفكير فى هزيمتهم فلا يكونون شوكة فى ظهر جيوش الإسلام ، وكان أبو بكر قد عاهد خالد إذا فرغ من أسد وغطفان والضاحية أن يقصد اليمامة وأكد عليه فى ذلك ، فلما أظهر الله خالد أعلى أولئك الأعراب تسلل بعضهم إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم فقال لهم : يعنى إياكم وأمانى لكم أن تلتحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ، فمن كتب إلى خالد بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، ولا تقدموا على واجعوا وجوهكم إلى خالد ، فقال أبو الجهم : أولئك الذين لحقوا بخالد من الضاحية هم الذين كانوا انهزموا بالمسلمين يوم اليمامة وكانوا على المسلمين بلاء .

وفى هذه الرواية تأييد سياسة خالد رضى الله عنه مع جنده إذ اشتد وطيس القتال ، ذلك أن بعض القوادى فى جيش خالد لما أدرك أن هؤلاء الأعراب هم سبب هزيمة الجيش طلب إلى القائد العام تنحيته عن الميدان إلى حيث يكونون وراء الجيش رداءً له فى نظر العدو وتكثيراً لسواد المسلمين ، فنادى ثابت بن قيس — وهو قائد كتيبة الأنصار — خالداً فقال له : أخلصنا ، فأجابه خالد إلى ما طلب لعله بأن ذلك رأى له قدره وأثره الخطير فى توجيه المعركة ، فامتاز الأنصار بلوائهم ، وامتاز المهاجرون بلوائهم ، وصنع صنعهم أهل الإيمان والعقيدة من سائر الجيش وأبناء القبائل ، وعزلت الأعراب ناحية ، فقاموا من وراء الجيش يترصدون ، وهذا من أحكم التدبير ، لأن امتياز الناس إلى وحدات مستقلة بأوصافها الخاصة ينفى التواكل ويذكر الحمية ويشعل روح التنافس بين هذه الكتائب المتميزة ، وبهذا ملك المسلمون زمام المعركة حتى انتهوا بها إلى نهايتها الظافرة .

ثانياً — فى حديث ضمرة بن سعيد المازنى أن المسلمين لم يلقوا عدواً أشدهم نكاية من بنى حنيفة ، لقوهم بالموت الناقع ، وبالسيف قد أصلبتوها قبل النبل ، وقبل الرماح ، وقد صبر المسلمون لهم ، فكان المعول على أهل السوابق .

ثالثاً — حدث خالد بن الوليد رضى الله عنه فقال : شهدت عشرين زحفا فلم أر قوماً أصبر لوقع السيف ولا أضرب بها ، ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة .

إنما لما فرغنا من طليحة، ولم تسكن له شوكة، قلت كلمة والبلاء موكل بالقول؛ وما بنو حنيفة إلا كمن لقينا، فلقينا قوماً ليسوا يشبهون أحداً، ولقد صبروا لنا من مطلع الشمس إلى صلاة العصر حتى قتل عدو الله، فما ضرب أحد من بني حنيفة بعده بسيف، ولقد رأيتني في الحديقة وعانتني رجل منهم وأنا فارس وهو فارس فوقعنا عن فرسينا ثم تعانقنا بالأرض، فأجؤه بخنجر في سيفي، وجعل يحوئي بمحول في سيفه، فجرحني سبع جراحات، وقد جرحته جرحاً أثبتته به فاسترخى في يدي، وما بي حركة من الجراح، وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقتني بالأجل فالحمد لله على ذلك.

هذه رواية قائد القواد خالد بن الوليد الذي شهد في الجاهلية والإسلام من الوقائع والرحوف ما لم يشهده سواه؛ يصف أعداءه فينصفهم بأنه لم ير قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً في وجه الموت منهم، وهي شهادة حاذق بالحرب مجرب لأهوالها. فإذا ظفر خالد بهؤلاء الأبطال فهو ظفر عبقرى، لا يعده في جلاله إلا سمو النسوة به.

ولم يكن خالد ليقول هذا القول عن بني حنيفة لظفرهم بهم تعظيماً لا تنصاره عليهم، ولكنه حق يقوله وواقع يصفه أليس قد ظفر من قبل ظفره ببني حنيفة بأسد وغطفان وهزم طليحة حتى ألجأه إلى الفرار، فلم يفخر بهذا النصر ولا عظم ذلك الظفر، بل هو يقلل من شأن طليحة وقومه إلى جانب الحنفيين، ويرى أن طليحة لم تسكن له شوكة مع ما عرفناه من شدة وقائمه.

وهذه الصراحة التي يتحدث بها خالد إلى الناس طبع فيه وخليفة لا يتسكفها، فهو يعترف بأنه ظن ظناً خاطئاً فكان منه ابتلاؤه، ذلك أنه حسب أهل الجيامة كأهل الضاحية وأن بني حنيفة كأسد وغطفان بيد أنه لقي من بني حنيفة قوماً لا يشبهون أحداً ولا يشبههم أحد في الصبر والبأس، وشجاعة القلب والسماح بالحياة.

رابعاً — كان مسيلة الكذاب قد أصاب حبيب بن زيد وعبد الله بن وهب الأسلمي من المسلمين، فقال لهما: تشهدان أني رسول الله؟ فقال الأسلمي: نعم؛ فأمر به فحبس متقلاً بالحديد، وقال له حبيب بن زيد: لا أسمع، فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر به فقطع، وكما قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: لا أسمع، فإذا

قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم ، حتى قطعه عضواً عضواً ، فقطع يديه من المنكبين ، ورجليه من الوركين ، ثم أحرقه بالنار ، وهو في كل ذلك لا يتزعزع عن قوله ، ولا يرجع عما بدأ به حتى مات حرقاً بالنار بعد شديد العذاب ، فلما تهيأ خاله إلى اليمامة جاءت أم حبيب ، وهي نسيبة بنت كعب ، وتسكن أم عمارة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستأذنته في الخروج ، فقال لها أبو بكر : ما مثلك يحال بينه وبين الخروج ؟ قد عرفناك وعرفنا جرائك في الحرب فاخرجي على اسم الله .

قالت أم عمارة : فلما انتهينا إلى الحديقة بعد إذ تداعت الأنصار ، أخلصونا ، أخلصونا ؛ ازدحمنا على الباب وأهل النجدة من عدونا في الحديقة قد انحازوا يكونون فئة لمسيمة فافتحمنا فصار بناهم ساعة ، والله ما رأيت أبذل لمهج أنفسهم منهم ، وجعلت أقصد إلى عدو الله مسيمة لأن أراه ، ولقد عاهدت الله لأن رأيت لا أكذب عنه وأقتل دونه ، وجعلت الرجال تحتلط والسيوف بينهم تختلف ، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف حتى بصرت بعدو الله ، فشددت عليه ، وعرض لي رجل منهم فضرب يدي فقطعتها ، فوالله ما عرجت عليها حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع ، وأجد ابني عبد الله قد قتله .

فسألها سائل : أكثرت الجراحات في المسلمين ؟ فقالت : لقد تحاجز الناس وقتل عدو الله وإن المسلمين لجرحى كلهم ، لقد رأيت بنى أبي مجروحين ما بهم حركة ، ولقد رأيت بنى مالك بن النجار بضعة عشر رجلاً لهم أنين يكمدون ليلتهم بالنار ، ولقد أقام الناس باليمامة خمس عشرة ليلة ، وقد وضعت الحرب أوزارها وما يصلى مع خالد بن الوليد من المهاجرين والأنصار إلا ندر يسير .

هذه الرواية تصور لونا من ألوان البطولة الإسلامية تمثلها شخصية حبيب بن زيد ، ذلك البطل المسلم العظيم ، وقد قطع عضواً عضواً وأحرق بالنار ليقول كلمة بلسانه ، فما رجح عن إيمانه ، ولا عرض ، ولا وري ، ولكنه تماسك واستصلب ليكون نموذجاً من نماذج التربية الإسلامية الصادقة التي أسس عليها الإسلام بناء الأمة الإسلامية .

وتمثلها شخصية أمه أم عمارة نسيبة بنت كعب التي كانت نموذجاً من نماذج المرأة المسلمة في تربيتها الإسلامية حتى ولدت للإسلام مثل حبيب بن زيد ، فكانت خليفة بتركية الخليفة الأول أبي بكر الصديق بقوله ما مثلك يحال بينه وبين الخروج ،

وما كان أبو بكر ليذكر امرأة مسلمة في خروجها للحرب بما زكى به نسيبة لو لم يكن يعلم من صدق عزمها وقوة إيمانها ما كانت تعلم من نفسها ، وهى فوق ذلك تشكى موتورة ، وقد وصفت هذه المرأة المسلمة الجليلة ، تدافع أهل اليمامة على الموت فى حربهم للمسلمين فحققت ، وصورت لنا احتدام القتال فصدقت ، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف .

هذه هى واقعة اليمامة فى هولها ؛ فماذا كان حظ القائد البعقرى خالد بن الوليد فيها ؟ هذا ما نصوره لك فيما يرد من الحديث ، وتقصى الآثار .

عبقرية خالد فى إدارة المعركة

إن نظرة فاحصة إلى ذلك الإطار الذى يجمع بين حفافيه صورة الهول الذى كانت عليه معركة اليمامة بين جند الإسلام من المهاجرين والأنصار وصادق الإيمان بقيادة البطل البعقرى خالد بن الوليد ، وبني حنيفة بقيادة مسيلمة بن حبيب الشهير بالكذاب ، تجعل القارى يدرك كيف أدار خالد رضى الله عنه هذه المعركة حتى انتهى بها إلى نهايتها التى أقرت عين الإسلام فى جزيرة العرب ، وانتقل بها النضال إلى ما وراء السفوح العربية حيث كان نضالا بين العرب وهم جرثومة الإسلام وجنده ، وبين دولق الفرس والرومان .

قدم مسيلمة فى وفد قومه بنى حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم عام الوفود ، فلما أظلموا المدينة خلفوا مسيلمة فى رحالهم يحفظها لهم ، فحباهم النبي صلى الله عليه وسلم على عادته الشريفة مع وفود العرب التى كانت تقدم عليه مسلمة ، فذكروا له مكان مسيلمة ، فقالوا يارسول الله . إنا قد خلفنا صاحباً لنا فى رحالنا وركابنا يحفظها لنا ، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لقومه وقال لهم : « إنه ليس بشركم مكانا » قال علماءنا فى تأويل ذلك : يعنى لحفظه ضيعة أصحابه .

نبوءة صادقة

والذى يتقدخ فى الحاضر أن تأويل هذا الحديث أعمق من ذلك ، وأن هذا ضرب

من نبوءات رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادقة ومعجزاته الإخبارية الواقعة، فقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في لوح الغيب ما كتب على نواصي هؤلاء القوم من دلائل الغدر والنكوص على الأعقاب والارتداد عن دين الله، وأن صاحبهم هذا الذي سألو له رسول الله صلى الله عليه وسلم حباء مثل حباءهم فأخبرهم عنه أنه ليس بشرهم مكانا ، سيقودهم الى شر عاقبة يهلكهم بها ، وأنهم سيتابعونه على ضلالته فيهلكونه كما أهلكهم ، فهم وهو في شرها على سواء .

يرشح تأويلنا هذا ماروى عن رافع بن خديج أنه قال : قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وفود العرب فلم يقدم علينا وفد أفسى قلوباً ولا أحرى أن يكون الإسلام لم يقر في قلوبهم من بى حنيفة ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر له أن مسيلمة الكذاب قال عندما قدم في قومه : لو جعل لى محمد الخلافة من بعده لاتبعته ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس ، وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتخة^(١) من نخل ، فوقف عليه ثم قال : لئن أقبلت ليفعلن الله بك ؛ ولئن أدبرت ليقطعن الله دابرک ، وما أراك إلا الذى رأيت فيه مارأيت ولئن سألتنى هذه الشظية — لشظية من الميتخة التى فى يده — ما أعطيتكها . وهذا ثابت يبيحك .

قال ابن عباس : سألت أبا هريرة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا الذى رأيت فيه مارأيت ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم رأيت فى يدي سوارين من ذهب فنفخنهما فطارا فوق أعقابهما باليامة ، والآخرا بالين . قيل : وما أولتهما يارسول الله ؟ قال أولتهما كذابان يخرجان من بعدى .

انصرف مسيلمة الى موطنه ، ولم يلبث أن أبدى لقومه خبيثة نفسه ، فادعى فيهم النبوة ، وأنه أشرك فى الأمر مع محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن عجيب خذلانه أنه جعل حديث النبي صلى الله عليه وسلم عنه مع وفد قومه وإخباره أنه ليس بشرهم مكانا دليلا على دعواه السخيفة ، وسرعان ما تطاير اليه بنو حنيفة تطاير الفراش على النار ، فلما رأى ذلك منهم

وملاً يديه من جهاتهم كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقریش نصفها ، ولكن قریشاً قوم يعتدون .
فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك » .

شعوذة
وخبث دهي
كان مسيلة رجلاً صاحب ذكاء ودهي . فيه خبث ومكر واقتدار على الاحتيال . واعتباد السذج وضعفاء العقول ؛ فاستولى بذلك على عامة قومه . وخدعهم فأنخدعوا له . وتعصب له قوم من ذوى رأيهم فوافقوه على سخفه .

قال الجاحظ : كان مسيلة قبل ادعاء النبوة يدور في الأسواق التي بين دور العرب والعجم كسوق الأبله وسوق بقره وسوق الأنبار وسوق الحيرة . يلتبس تعلم الخيل والنيرنجات . واحتيالات أصحاب الرق والنجوم ؛ ومن حيله أنه صب على بيضة من خل حاذق قاطع ؛ فلانت حتى إذا مددتها استطالت واستدقت كالعلق . ثم أدخلها في قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وعادت كهيئتها الأولى فأخرجها إلى قومه وهم قوم أعراب وادعى النبوة .

وذكر الرواة أن من أعظم ما فتن بني حنيفة بمسيلة شهادة رجل من قومه يقال له نهار الرجال بن عنقوة . زعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول بإشراك مسيلة معه في الأمر فكان أكلذب لصاحبه من صاحبه على الله . وإنما وقعت فتنة هذا الرجل في قلوب بني حنيفة لأنه كان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ القرآن وتعلم من السنن ثم عاد إلى قومه فوجدهم يطيعون بمسيلة فأنسلخ من الإيمان بهذا الكذب السخيف وانتفخ أنف مسيلة ، وأمال لقومه عطفه وأخذ يسجع (١) لهم سخافات هي في وزن

(١) يستبعد بعض الباحثين صدور هذا الهراء الذي تحكيه بعض الروايات معزولاً إلى مسيلة بن حبيب في سخجات سخيفة اللفظ مريضة المعنى مدعياً أنها مما أوحى إليه ، ونحن لا نثبت هذا ولا ننفيه من جهة الرواية لأنه ليس لدينا حجة على أحد الأمرين ولكننا استبعدنا صدور هذا ، السخف من هذا =

العقل من أضحك البله الموررين . وفي وزن البيان العربي من سخرية اللغة على الباقليين .

وكان أعقل بنى حنيفة في هذه الفتنة العاصفة من جرفتهم العصبية القبلية دون نظر إلى عقل أو دين . حدث عمير بن طلحة النخري عن أبيه أنه جاء اليمامة فقال : أين مسيلة ؟ فقالوا : مه !! رسول الله ؟ فقال : لا . حتى أراه ؛ فلما جاءه قال : أنت مسيلة ؟ قال : نعم . قال من يأتيك ؟ قال : رحمن ؛ قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ فقال في ظلمة ؛ فقال : أشهد أنك كذاب . وأن محمداً صادق . ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر !!

ويروى أن فتان بنى حنيفة نهار الرجال كان يقول بعد ما أضله الله على علم : كبشان انتطحا . فأحبهما إلينا كبشنا ؛ وقال محكم بن الطفيل - وهو من سادات أهل اليمامة - لما قيل له : هذا خالد بن الوليد في المسلمين : رضى خالد أمراً ورضينا غيره ، وما ينسرك خالد أن يكون في بنى حنيفة من أشرك في الأمر ؟

هذا تفكير عقلاء الحنفيين ، وهذا فهمهم للنبوة والدين ، وإن كانوا لم يعدوا آحاداً منهم ثبت الله أقدامهم وعصم عقولهم فاستمسكوا بروة الإسلام الوثقى ، وكان في هؤلاء الأحرار الذين لم تستعبدهم العصبية القبلية عمير بن صالى اليشكري ، وهو من سراة أهل اليمامة وأشرفهم ، فكتم على قومه إسلامه لما رآهم يمرجون في الفتنة يقودهم إليها محكم بن الطفيل ونهار الرجال ممسكين بخطام مسيلة يقودانه كما يقاد الجمل الخشوش ، وفيهما يقول عمير بن صالى :

ياسعاد الفؤاد بنت أثال طال ليلى بفتنة الرجال
فتن القوم بالشهادة والله عزيز ذو قوة ومحال
لا يساوى الذى يقول من الأم رقبالا وما احتذى من قبل

== الرجل الماكر المشعوذ لما انا في دعم دعواه عند ذوى الجهالة من البدائيين الذين لم ترق فطرتهم عن ضرائر الخفافيش ودواب الظلام ، بعد أن استطاع بدهائه أن يترك عوامل العصبية عند عقلاء قومه فتعصبوا له وهم يعلمون كذبه . ولو لم يكن هذا السخف صدر من مسيلة لكان في حكايته هذه تمثيل لروح جهرة المهتمم الذى اتبع نعيقه ، مع احتفاظ الرواية بتمثيل روح الحاسة في وحي شيطان العصبية لها بقوله (ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر) .

إن ديني دين النبي وفي القو
أهلك القوم محكم بن طفيل
بزههم أمرهم مسيلمة اليو
قلت للنفس إذ تعاضمها الصب
ربما تجزع النفوس من الأم
إن تكن ميتقى على فطرة
م رجال على الهدى أمثالي
ورجال ليسوا لنا رجال
م فلن يرجعوه أخرى الليالي
ر وسادت مقالة الأقوال
ر له فرجة كحل العقال
الله حنيفاً فإنني لا أبالي

استعلن أمر مسيلمة واستشرى خطره بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أول لواء أبو بكر الصديق رضى الله عنه قد استقبل أمر ردة العرب بعزيمة يعرفها التاريخ لرجل في لحرب الإمامة أمة من الأمم ، فاستجابت لعزيمته قلوب المسلمين ، فوضعوا أرواحهم بين يديه يدفع بها حيث شاء ، فعقد الأولوية وأرسل الجيوش مجاهدة في سبيل الله فكان من حظ الإمامة لواء عكرمة بن أبي جهل مردفاً بشر حبييل بن حسنة ليكون ردها له . ولكن عكرمة رضى الله عنه أراد أن يكون له خاصة نحر الظفر بهؤلاء المرتدين ، فتمعجل المهجوم ، ولم ينتظر رديفه ، فنكسب ولم يصنع في القوم شيئاً ، فأغضب ذلك أبا بكر رضى الله عنه ، وكتب إلى عكرمة يعنفه بقوله : يا ابن أم عكرمة لا أرينك ولا ترانى على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفة ، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة . وكتب إلى شرحبيل أن يتمهل حتى يأتيه خالد بن الوليد بمن معه من جند الإسلام المظفرين لثلايق شرحبيل في مثل ما وقع فيه عكرمة من قبل ، ولكن شرحبيل أراد ما أراد عكرمة ، فلقى صاحبه حتى أدركه البطل العبقرى خالد ، وأخذ يمينه زمام القيادة وأدار المعركة بوحى البطولة وساسها بمهارة السياسى الحكيم .

توجيه خالد قال شريك الفزاري : كنت بمن حضر براحة مع عيينة بن حصن فرزقني الله الإنابة ، إلى حرب فحث أبا بكر ، فأمرني بالسير إلى خالد ، وكتب معي إليه بوصايا وفي آخرها : إن مسيلمة أظفرك الله بأهل الله الإمامة فأياك والإبقاء عليهم ، أجهز على جريهم وأطلب مدبرهم وأحمل أسيرهم على السيف ، وهول فيهم القتل ، وأحرقهم بالنار ، وإياك أن تخالف أمرى ، والسلام عليك ؟ فلما انتهى الكتاب إلى خالد اقتراه وقال : سمعاً وطاعة . أنرى ما عسى أن يصنع خالد رضى الله عنه ، وقد قدمت له الحوادث نسكة صاحبيه عكرمة وشرحبيل ؟

أترأه يندفع مهاجماً معتمداً على قوة السلاح كما اعتمد صاحبه من قبله ورأى بعينه مصيرها ؟ أم ترأه ياجأ إلى العقل يستوحيه التدبير ويستلهمه التفكير ؟

إن خالداً رضى الله عنه كان قائداً من طراز يمالك أعصابه متى شاء ، وهو يعرف للروح المعنوية في الجيوش قيمتها ويقدرها قدرها ، وقد رأى أن أهل اليمامة فازوا على جيش من جيوش المساهين ؛ والظفر مما يرفع حرارة الروح المعنوية في الجيوش المحاربة ، فلا بد له من أن يقدم أمام المعركة لونا من حرب الأعصاب حتى يروى قوة عدوه ويخضع شوكتة ويوهن معنويته ، وكان أهل اليمامة لما اتصل بهم مسير خالد إليهم بعد الذي صنع الله له في أمثالهم جزعوا وتحيروا ، واضطرب للأمر عاقلهم محكم ابن طفيل ، وبات يتلوى على فراشه ، وكان خالد يعلم مكان محكم في قومه ، وكان في جيش خالد زياد بن ليث بن بياضة الأنصارى ، وكان زياد صديقاً لمحكم بن طفيل ، فقال له خالد في بعض الطريق : يا زياد لو ألقيت إلى محكم شيئاً تكسره به ، فإنه سيد أهل اليمامة وطاعة القوم ، فبعث إليه زياد بهذه الآيات من الشعر .

يا محكم بن طفيل قد أتيك لكم	لله در أيكم حية الوادى
يا محكم بن طفيل إنكم نفر	كالشاء أسامها الراعى لآساد
ما فى مسيلة الكذاب من عوض	من دار قوم وإخوان وأولاد
فاكشف حنيفة يوماً قبل نائمة	تنعى فوارس شاج شجوها باد
لا تأمنوا خالداً بالبرد معتجرا	تحت العجاجة مثل الأغصاف العادى
ويل اليمامة ويلا لافراق له	إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادى
والله لا تلتفى عنكم أعتها	حتى تكونوا كأهل الحجر أوعاد

ولكن محكم بن الطفيل كان أبعد في عصبية مما ظن به زياد البياضى ، فلم يكثرث لآيياته ، ولم يرفع لما فيها من تهديد ووعيد رأسه ، بل لقد زادت حمية وتذميراً لقومه ، فقد اندفع يجرضهم على قتال المسلمين ويخطب فيهم بقوله : يا معشر أهل اليمامة إنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم ، فابذلوا أنفسكم دون صاحبكم ، فإن أسداً وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذباب السيف فكانوا كالنعام الشاردة .

فهل كان موقف محكم بن الطفيل وتصلبه في عصبته الجاهلية مما صد خالداً عن سياسة العقل وحرب الأعصاب ؟ لا ؛ إن خالداً يعرف لهذه الحرب « الباردة » قيمتها في نتيجة الحرب الدموية إذا نشبت . وها هو ذا يترك زياداً ومحكماً . ويعوذ برجل آخر ، هو من سادات أهل اليمامة . أسلم فكتم على قومه إسلامه . وكان راسخ الإيمان . قوى العقيدة . عرفه خالد فلم يحجم عن توجيهه في كسر قومه بني حنيفة قياماً بحق الإسلام عليه . ذلك هو عمير بن صالى اليشكري . فقال له خالد : تقدم إلى قومك فأكسرهم . فأتاهم ولم يكونوا علموا بإسلامه . فقال : يامعشر أهل اليمامة . أظلمكم خالد في المهاجرين والأنصار . تركت القوم يتتابعون إلى فتح اليمامة وقد قضوا وطراً من أسد . وغطفان : وعليها هوازن . وأنتم في أكفهم . وقولهم لا قوة إلا بالله ؛ إن رأيتم قوماً إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر . وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد ، ولستم والقوم سواء ؛ الإسلام مقبل والشرك مدبر . وصاحبهم نبى وصاحبكم كذاب . ومعهم السرور . ومعكم الغرور . فالآن والسيوف في غمده . والنبل في جفيره^(١) . قبل أن يسيل السيف . ويرى بالسهم سرت إليكم مع القوم عشرا .

وهذا مسلك غير مسلك زياد البياض مع محكم ، لأن عميراً خاطب العامة بأسلوب يقارب ويباعد ، ويلين ويشدد ، وخطاب عامة الناس أفعال في تخذيل الهمة من خطاب رجل واحد له مكانه في قومه ؛ مما يجعله يملك زمام أعصابه فلا تخور .

وقد جرى على هذه الطريقة في حرب الأعصاب بعد عمير رجل آخر من أشرف بني حنيفة ، ذلك ثمامة بن أثال الحنفي الذي مشى في قومه خطيباً يقول : يا أهل اليمامة : اسمعوا منى وأطيعوا أمرى ترشدوا . إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا نبي بعده ، ولانبي مرسل معه ، ثم قرأ عليهم « حم تنزيل السكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » هذا كلام الله عز وجل ، أين هذا من : يا صنفدع نقي ، كم تنقين ، لا الشرب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ؟ والله إنكم لترون أن هذا الكلام ما يخرج من إل^(٢) . وتوفي رسول

(١) الجفير : الجمعية من الجلد أو الحشب (٢) الإل : من معانيه المناسبة هنا الربوبية .
والأصل الجيد وقيل هو اسم لله تعالى .

الله صلى الله عليه وسلم وقام بهذا الأمر من بعده رجل هو أفقههم في أنفسهم لاتأخذه في الله لومة لأثم ، ثم بعث إليكم رجلاً لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه ، يقال له « سيف الله » معه سيوف الله كثيرة ؛ فانظروا في أمركم .

هذه خطوة في سياسة خالد بن الوليد الحربية التي استنتها في حرب أهل الجمامة، وهي خطة من أحكم الخطط الحربية في القديم والحديث ، وقد شهد الناس في الحرب المعاصرة ما لهذا الأسلوب من أثر عظيم في تحطيم قوة العدو المعنوية ، وكانت تلجأ إليه الدول المتحاربة في وقائع كثيرة كلما عوزتها القوة المادية أو قصروا إدراك الغاية السلاح، وكسب الزمن إحدى نتائجه وله أثره الفعال في تغير الخطط الموضوعية .

ترك خالد خطته هذه تفعل في نفوس القوم فعلها ، ورأى أنه فرغ من مرحلة السياسة وحرب الأعصاب ؛ ونهض إلى السيف يحكمه ، وزحف إلى بني حنيفة وقدم أمام جيوشه الطلائع ، فأخذت طلائعه جماعة من بني حنيفة فيهم جماعة بن مرارة الحنفي من ساداتهم ، فلما جاءوا بهم إلى خالد سأطهم عن مسيلة ، ما يقولون فيه ؟ فشهدوا أنه رسول الله ، فقال لجماعة ما تقول أنت ؟ قال : والله ما خرجت إلا في طلب رجل من بني نضير ، أصاب فينا دماً ، وما كنت أقرب مسيلة ، ولقد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما غيرت ولا بدلت ، فأمر بهم خالد فضربت أعناقهم لإصرارهم على أقبح الكفر بقوطهم في كذابهم ، حتى إذا بقي منهم رجل يقال له سارية بن مسيلة بن عامر ، تقدم إلى خالد فقال له : أيها الرجل إن كنت تريد بأهل الجمامة خيراً أو شراً فاستبق هذا ، يعني جماعة بن مرارة ، فإنه عون لك على حربك أو سلمك فاستبقاه خالد فلم يقتله ، واستبقى سارية لنصحه . ولكنه أمر بهما فأوثقاه في جوامع حديد ، تحوطا لنفسه ولجيشه ، وكان خالد يقرب جماعة ويتحدث إليه ، ويستخبره خبر مسيلة ويضحك عندما يسمع أسجاعه وأرجازه التي زعم أنه يعارض بها القرآن ، ويقول : يا معشر المسلمين اسمعوا إلى عدو الله كيف يعارض القرآن ! ويقول لجماعة : هات زدننا من كذب الحديث ، فقال لجماعة :
جماعة بن
مرارة
ومكانته في
قومه

أخرج لكم حنطة وزوانا^(١) ، ورطباً وتمرانا ، فقال خالد وهذا كان عندكم حقاً وكنتم تصدقونه ؟ قال جماعة : لو لم يكن عندنا حقاً لما لقيتك غداً أكثر من عشرة آلاف سيف ، يضاربونك فيه حتى يموت الأعرج ، قال خالد : إذا يكفيناهم الله ويقر دينه ، فإياه يقاتلون ، ودينه يريدون .

بدء المعركة

تقدم خالد بالمسلمين حتى نزل على كتيبه مشرف على أرض اليمامة ، فنضرب به عسكره ، وأقبل مسيلة في قومه وألفاه حتى زلوا مكاناً يقال له «عقرباء» ، وقد سلوا سيوفهم ، فظن خالد أنهم صنعوا ذلك ترهيباً للمسلمين ، فقال : يا معشر المسلمين أبشروا ، فقد كفاكم الله عدوكم ، وماسلوا السيوف من بعيد إلا ليرهبونا ، وإن هذا منهم لجبن وفشل . فقال جماعة ونظر إليهم : كلا والله يا أباسليان ، ولكنها الهندوانية خشوا من تحطمها ، وهي غداة باردة ، فأبرزوها للشمس لأن تسخن متونها ، فلما دنوا من المسلمين نادوا : إننا لنعتذر من سلنا سيوفنا حين سللناها ، والله ما سللناها ترهيباً لكم ولا جبناً عنكم ، ولكنها كانت الهندوانية ، وكانت غداة باردة ، فخشيننا تحطمها فأردنا أن تسخن متونها إلى أن نلقاكم فسترون .

نهض خالد إلى المسلمين فصلهم ، وأعطى رايات الكتائب نفر آمن فوارس الأبطال ، فأعطى راية المهاجرين زيد بن الخطاب أخا عمر بن الخطاب ، وأعطى راية الأنصار ثابت بن قيس بن شماس ، وجعل على اليمامة أباحذيفة عتبة بن ربيعة ، وعلى الميسرة شجاع ابن وهب ، وعلى الحيل البراء بن مالك ، ثم أسامة بن زيد ، والتقى الجمعان واقتتلوا أشد القتال ، وصبر الفريقان أحر الصبر وأمره ، فقال عكرمة بن أبي جهل — وكان من أهل البلاء في هذه الواقعة — : حملت بنو حنيفة أول مرة كانت لها الحملة ، وخالد على سيره حتى خلص إليه فجرد سيفه وجعل يسوق بني حنيفة سوقاً حتى ردهم وقتل منهم قتلى كثيرة ، ثم كرت بنو حنيفة حتى انتهوا إلى فسطاط خالد فجعلوا يضربون الفسطاط بالسيوف ، وأرادوا قتل زوجه أم مقيم فأجارها منهم جماعة بن مرادة الحنفي ، وأثنى عليها بقوله : نعمت الحرة كانت ، وعير قومه فقال لهم : تركتم الرجال وجئتم إلى امرأة

(١) الزاون . حب يخالط القمع قال في اللسان : وهي حبة أسكر .

تقتلونها ؟ وكانت أم متمم أجارته من سيوف المسلمين ، لأن خالداً قال لها استوصي به خيراً .

وكان شر حجيل بن مسيلمة الكذاب يذمر قومه بنى حنيفة ويمحسهم ويستثير حميتهم بقوله : يا بنى حنيفة ؛ اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم .

نفعات

البطولة

الإسلامية

اضطرب الناس ، واعتسكر الجو ، وتعاورت الهزيمة الفريقين خشي أبطال المسلمين عاقبة الأمر ، فصاح ثابت بن قيس : بشس ماعودتم أنفسكم يامعشر المسلمين ؛ اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعنى أهل اليامة - وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وتقدم براية الأنصار في نحر العدو يقاتل حتى قتل ، ثم تقدم زيد بن الخطاب وفى يده راية المهاجرين فقال : لا تحوز (١) بعد الرجال ، والله لا تكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فأكله بحجتي ، غضوا أبصاركم ، وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، وأضربوا في عدوكم وأمضوا قدما ، وقاتل على حاله هذا حتى قتل ، فأخذ الراية سالم مولى أبي حنيفة ، فقال المسلمون : يا سالم إنا نخشى أن نؤتى من قبلك ا فقال : بشس حامل القرآن أنا إذا أتيت من قبلى ، ثم تقدم وحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه ، وحشى وطيس القتال وكثر القتلى حتى فنى كثير من حملة القرآن وحفاظه ، وقتل من بنى حنيفة عدد عظيم ، واختلط حابل الناس بنا بلهم ، ولم يعرف كراهم من فرارهم ، وقال المهاجرون والأنصار : إنما نؤتى من قبل الأعراب وأهل البوادي ، وطلبوا إلى أميرهم سيف الله أن يخلصهم فميز الناس بأوصافهم حتى قال بعضهم لبعض : اليوم يستحى من الفرار ، فاشتدت حمية الناس وعظم الأمر ، وثبت بنو حنيفة لوقع السيوف ، ولم يحفلوا بكثرة من قتل منهم ، فعرف خالد أن الحرب لا تخف وطأتها ما بقي مسيلمة بينهم فدعاه للبارزة ، فشرح إليه ، فعرض عليه خالد أموراً مما يشتهى ، فأعرض مسيلمة ، متظاهراً بأنه يستشير شيطانه فركب خالد كسفیه حتى أرهاقه ، وصاح في المسلمين : دونكم فلا تقيلوهم ، فحملوا عليهم حملة صادقة حتى أدخلوهم حديقة مسيلمة فرموهم بالنبل ، واقتحموا عليهم الحديقة ، وقتلوا

حملة صادقة

(١) التحوز والتعيز : التهنى ومنه قول الله تعالى (أو متحيزا إلى فئة) :

منهم مقتلة عظيمة ، وكان أول من فدى المسلمين بنفسه ، واقتحم باب الحديقة ففتحها للمسلمين فارس المسلمين البراء بن مالك ، وقيل أبو دجاجة ، وقيل عباد بن بشر ، وثلاثتهم من الأنصار . وفي حديقة الموت هذه قتل مسيلمة بعد أن كشف لأصحابه قناع ضلالتهم وعرى لهم خبثة ففت في أعضادهم ، وكسر شوكة حميتهم ، فقد سألوه وهو منهزم عنهم : أين ما كنت تعدنا ؟ فقال لهم : أما الدين فلا دين ، قاتلوا عن أحسابكم !!

قتل مسيلمة
من قتله ؟
فاستيقن القوم أنهم في غير شيء ؛ وأنهم قبضوا بأيديهم على الماء . والرواية الصحيحة تقول : إن الذي تولى قتل مسيلمة وحشى مولى المطعم بن عدى قاتل حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء يوم غزوة أحد ، وكان وحشى إذا تحدث عن ذلك يقول : قتلت خير الناس وأنا على جاهليتي وشر الناس وأنا على الإسلام ، وقد تقدم في حديث نسبية بنت كعب أن ابنها عبد الله بن زيد هو الذي قتل مسيلمة الكذاب ، ولا يبعد أن يكون عبد الله ووحشى اشتركا في قتله ، روى البخارى في الصحيح عن وحشى قال : خرجت مع الناس فإذا رجل قائم في ثلثة جدار وكأنه جمل أورك ، ثائر الرأس ، فرميته بحرقى فوضعتها بين يديه حتى خرجت من بين كتفيه ، ووثب إليه رجل من الأنصار فضر به بالسيف على هامته ، فقالت جارية على ظهر بيت : وا أمير المؤمنين قتله العبد الأسود !!

وروى غير البخارى أن وحشى قال : لما اختلط الناس في الحديقة ، وأخذت السيوف بعضها بعضاً نظرت إلى مسيلمة وما أعرفه ، ورجل من الأنصار يريد ، وأنا من ناحية أخرى أريده فهزرت من حرقى حتى رضيت منها ، ثم دفعتها عليه ، وضربه الأنصارى فربكم أعلم أينما قتله ، إلا أنى سمعت امرأة من فوق الدبر تقول : قتله العبد الحبشى .

بدء النهاية
في المعركة
كان قتل مسيلمة بدءاً لنهاية هذه المعركة القاسية ، فلم يكد يسرى نبأ قتله في قومه ، حتى انفرط عقدهم ، وانحلت عزائمهم ، ووهنوا أمام المسلمين مع ما نالهم من القتل والجراح ، ففرق من بقى منهم إلى الحصون ، وتحاجز الناس على النصر والظفر للمسلمين ، والهزيمة والاندحار على أهل اليمامة من الحنفيين .

رأى ذلك مجاعة بن مرارة الحنفى وهو أخيد^(١) في يد خالد بن الوليد فأقض

(١) الأخيد : الأسير .

مضجعه ، وأقامه وأقعدته ، فسكر وقدر ، وأعمل الحيلة ودبر ، وانتهى به تديره إلى أن أرسل إلى بقية السيف في قومه ليلا : أن ألبسوا السلاح النساء والذرية والعبيد ، ثم إذا أصبحتم فقوموا مستقبلي الشمس على حصونكم حتى يأتكم أمرى .

وبات خالد والمسلمون يذنون قتلاهم ، ويتكمدون بالنار من شدة ما بهم من الجراح ، حتى إذا أصبح أمر بمجاعة فسبق معه في الحديد ، وجعل يسير القتلى ، وهو يريد مسيلة ، فمر برجل وسيم ، فقال يا مجاعة : أهو هذا ؟ قال : لا هذا والله أكرم منه ؛ هذا محكم بن الطفيل ، ثم قال مجاعة : إن الذى تبتغون رجل ضخم أشعر البطن والظهر ، أبجر بجرته كالقدح ، مطرف إحدى العينين ، وأمر خالد بالبحث عنه بين القتلى وحتى وجدوه فوقف عليه خالد وحمد الله كثيراً ، وأمر به فألقى مع قتلى قومه في خفير .

ظن خالد رضى الله عنه أن الهزيمة التى لحقت ببني حنيفة لم تبق على أحد ممن فيه خدعة مجاعة قوة لقتال منهم ، ولكن خديعة مجاعة الحنفى فوتت على خالد ما كان أمره به أبوبكر من استئصال بني حنيفة إذا ظفر بهم لسوء صنيعهم بالمسلمين ، وإذا أراد الله أمراً أفذهه وهياً له أسبابه .

قال خالد رضى الله عنه لمجاعة وهما واقفان على مسيلة قتيلاً : يا مجاعة هذا صاحبكم الذى فعل بكم ما فعل ! فقال مجاعة : قد كان ذلك يا خالد ؛ ولا تظن أن الحرب انقطعت بينك وبين بني حنيفة وإن قتلت صاحبهم ، إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن جماعة الناس وأهل البيوتات لى الحصون ، فانظر ! فرفع خالد رأسه وهو يقول : قاتلك الله ما تقول ؟ قال : أقول الحق ، فنظر خالد فإذا السلاح ، وإذا الحلق على الحصون ، فرأى أمراً غمهم ومساءه ، ولا سيما وحال المسلمين أمامه يصورهم وقد ملوا القتال بعد أن قتل منهم من قتل ، وعامة من بقي منهم جريح ، وقد لاحت دلائل الرغبة على وجوه كثير منهم فى الوقوف بالمعركة عند هذه النهاية التى توجت ربوس المسلمين بالنصر ودمغت أهل الجامة بالهزيمة .

غير أن خالد بن الوليد لم يكن بالرجل الذى تهزه الأزمات مهما اشتدت ، ولم يكن بالقائد الذى يغريه النصر بالانسحاب فصاح فى المسلمين : يا خيل الله اركبي ، فاندفع جنوده (م ١٢ - خالد بن الوليد)

الإسلام إلى حومة الوغى يطلبون نصراً يقضى على عدوهم قضاء لا تقوم لهم بعده قائمة ، ولكن جماعة خذى انكشاف حيلته قبل أن تثمر ما قدر لها من ثمرة تنفذ من قومه من بقيت فيهم من الحياة بقية ، فأسرع إلى خالد يستنزل عن عزيمته بقوله : أيها الرجل إني لك ناصح ؛ إن السيف أفناك وأفنى غيرك ، فتعال أصالحك عن قومي ، فقال خالد إلى الصلح رقة بالمسلمين ، وقد أصيب منهم أهل السوابق ، وكثرت جراحات سائرهم مع عجب السكران وطول اللقاء ، فرق لهم وأحب المواجهة ، وقبل الصلح على الصفراء^(١) والبيضاء والحلقة^(٢) والسلاح والسكران^(٣) ونصف السبي ، فلما فتحت الحصون ، وأنجلي الموقف عن خديعة جماعة ، ولم ير خالد في الحصون إلا النساء والصبيان والضعفي والعاجزين عن القتال ، قال لجماعة : ويحك خدعتني فقال له جماعة : هم قومي ، ولم أستطع إلا ما صنعت .

الصلح بين
التأييد
والعارضة

لحق هذا الصلح في أول أمره معارضة شديدة من الجانبين ، فعارضه من بني حنيفة سلمة بن عمير ، وقام يذمر قومه بقوله : قاتلوا عن أحسابكم ، ولا تصالحوا على شيء فإن الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء .

وهذا كلام رجل مخادع أو مخدوع ينطقه الوتر والضعيفة ، ولا يبالي ما وراء ذلك وقد عرف من حال قومه ما عرف جماعة الذي قال لقومه يرد عليه قوله : يا بني حنيفة أطيعوني واعصوا سلمة فإنه رجل مششوم قبل أن يصيبكم ما قال شر حيل بن مسيلم : قبل أن تستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات فقبل بنو حنيفة قوله جماعة وأجازوا صلحه .

وعارض هذا الصلح من المسلمين فريق من الأنصار بزعامة أسيد بن حضير ، وأبي نائلة ، فإنهما قالَا لخالد : اتق الله ولا تقبل الصلح ، فقال خالد والله قد أفناكم السيف ، فقالا : وإنه قد أفنى غيرنا أيضاً ، فقال خالد : فمن بقي منكم جريح ، فقالا : وكذلك من بقي من القوم جرحى ، لاندخل في الصلح أبداً ، أغد بنا عليهم حتى يظفرنا الله عليهم أو نبعد عن آخرنا ، أحملنا على كتاب أبي بكر : « إن أظفرك الله بيني حنيفة فلا تبقي

(١) الصفراء : الذهب ، والبيضاء : الفضة (٢) الحلقة : الدروع (٣) السكران : الخيل .

عليهم « فقد أظفرنا الله وقتلنا رأسهم ، فمن بقى منهم أكل الشوكة ^(١) ، وهذا كلام ينطف من سحائب الإيمان ، لا يبالي صاحبه أن يقتل أو يقتل في سبيل الله ، فهو فائز على أى أمر به اتسكأ ، والإيمان وحده لا يكفي لتوجيه المعارك الحربية ، ولا سيما بعد أن يتنسم الناس شيئاً من روح المهادنة ويسمعوا همساً في المصالحة ؛ مما يدخل على النفوس لوناً من الفتور يستعجبون معه المواجهة ، فلو نشبت هؤلاء الحركة لم تكن مضمونة النهاية في قوتها المعنوية ، ومن هنا تشبث خالد وهو أعلم بحال جنده بما كان قد أمضى من الصلح ، ولم تؤثر فيه حماسة الأنصار لرأيهم ، ورأى أنه لا يجوز له أن ينقض ما أبرمه من غير عذر يأتيه من قبل العدو ، وواقفه على رأيه سائر المسلمين .

* * *

كتاب أبي

لم يكذب المسلمون يتنفسون بعد إتمام هذا الصلح حتى قدم عليهم مسلمة بن سلامة بن بكر إلى خالد . وقش بكتاب من أبي بكر لخالد يقتردهما ، وفيه يقول : « إذا جاءك كتابي فانظر ، فإن أظفرك الله ببني حنيفة فلا تستبق منهم رجلاً جرت عليه المراسي » فعاتت الأنصار إلى مقاتلتها في معارضة الصلح ، وقالوا لخالد : أمر أبي بكر فوق أمرك . فلم يترشح خالد عن رأيه الأول ، وفاء بعهد وذمة المسلمين ، ولكنه لا ين الأنصار ، فقال لهم : إني والله ما صالحت القوم إلا لما رأيته من رقتكم ، ولما نهكت الحرب منكم ، وقوم صالحتهم ومضى الصلح فيما بيني وبينهم ، والله لو لم يعطونا شيئاً ما قاتلتهم وقد أسلموا . وفي هذه الكلمة الخالدية نفعات إسلامية مشرقة ، فهي تأتي أولاً إلا أن تخاطب من هؤلاء المتحمسين من جنود الإسلام وجدانهم وعواطفهم ، ثم تأتي ثانياً إلا أن تظهر عزيمة القيادة المسيطرة في تنفيذ ما أبرمت ، ثم تأتي ثالثاً إلا أن تضع هذا العنوان في وجه تلك الحماسة الإيمانية لتكشف كلف من غلوها ، فكيف يقاتل قوماً قد أسلموا فأصبح لهم من حق الإخاء الإيمان ما يردهم إلى موضع الأمن على أنفسهم وأموالهم ؟ وقد رضى الأنصار ما رضى به خالد ورضيه سائر الناس ، فكتب إلى أبي بكر بالصلح الذي تم ، وقال له : « إني لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به ، وحتى عجب السكران ، ونهك الحف ، ونهك المسلمون بالقتل والجراح » .

(١) الشوكة : شدة بأس القتال .

تم الصلح كما عقده خالد بن الوليد ومجاعة بن مرارة الحنفي ، وأقبل بنو حنيفة غدره لم تتم على خالد في عسكره يبايعونه على الإسلام ، ويبرأون إليه بما كانوا عليه ، غير أن سلمة ابن عمير وهو حامل لواء المعارضة في الصلح من بني حنيفة كان قد أضمر غدره بقائد المسلمين ، وأمير الجيوش الإسلامية خالد بن الوليد ، فقال لمجاعة : استأذن لي على خالد أكله في حاجه له عندي ونصيحة ، وقد أجمع في نفسه أن يفتك به إن ظفر بالدخول عليه ، فأنذع له مجاعة ، وكلم خالد ، فأذن له خالد ، والناس في سلم وتسليم وبيعة بالبيعة إلى الله تعالى وإلى دينه القويم ، فأقبل سلمة بن عمير بوجه المريب القلق مشتتاً على السيف يريد به ما يريد من فاقرة ، ولكن نور الإيمان كشف لقائد الإسلام عن طوية هذا الغادر ، وكأنا قرأ خالد بفراصة المؤمن على وجه سلمة بن عمير غدرته وسوء قصده ، فلم يكدره مقبلاً عليه حتى قال : من هذا المقبل ؟ فقال مجاعة : هذا الذي كلمتك فيه وقد أذنت له ، قال خالد : أخرجوه عنى ، فأخرجوه ، وكأنا اختلجت نفوسهم بالشك في أمره ، ففتشوه فوجدوا السيف ، فلغنه قومه وسبوه ، وأوثقوه ، وقالوا له : أردت أن تهلك قومك ، وأيم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة ، وأيم الله لو أن خالداً أعلم أنك حملت السلاح لقتلك ، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال ، ويسبى النساء بما فعلت ، ويحسب أن ذلك عن ملائنا .

ولم يجد ذلك مع سلمة شيئاً ، فقد أفلت من قومه وخرج من الحصن الذي أوثقوه فيه ، فعمد إلى عسكر المسلمين قاصداً تنفيذ ما طوى عليه كشحه من غدر وخيانة ، فصاح به عسكر الإسلام ، فقتل نفسه .

رسول خالد إلى أبي بكر ولما كملت بيعة بني حنيفة على الإسلام ، واستسلم سائرهم أمر خالد بالحصون فألزمها الرجال ، وحلف مجاعة بالله لا يغيب عنه شيئاً مما صالحه عليه ، ولا يعلم أحد أغيب شيئاً إلا رفعه إليه ، ثم فتحت الحصون ، وأخرج ما فيها من السلاح والحلقة والكرع والذهب والفضة وقسمه على الجند ، وعزل الخنس فأرسل به إلى الخليفة ، وكان أبو بكر رضى الله عنه في هم شديد من جراء هذه الموقعة لما كان يعلمه من كاب أهل اليمامة على ضلالهم وشدة شكيمتهم في الحرب ، وجلدتهم في القتال ، وأنهم يحاربون وهم في ديارهم وأموالهم وحصونهم ، وذلك أقوى لهم ، فكان يستروح إلى أخبارها بقدر ما يحى رسول قائده خالد ،

نُفِرَ جُيُوشًا يَوْمًا إِلَى ظَهْرِ الْحَرَّةِ ، وَمَعَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَنَفَرُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، فَلَقِيَ أَبَا خَيْشَمَةَ النَّجَارِي رَسُولَ خَالِدٍ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ ، وَلَمْ يَنْظُرْهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُحَدِّثُهُ : مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا خَيْشَمَةَ ؟ قَالَ : خَيْرٌ يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ، قَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا الْيَمَامَةَ ، وَهَذَا كِتَابُ خَالِدٍ إِلَيْكَ ، فَسَجَدَ أَبُو بَكْرٍ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ السَّابِغَةِ الْعَظْمَى ، ثُمَّ أَخَذَ يَسْتَوْصِفُ أَبَا خَيْشَمَةَ الْوَاقِعَةَ ، فَجَعَلَ يَصِفُهَا لَهُ وَيَذْكُرُ صَنِيعَ خَالِدٍ ، وَيَسْمِي مَنْ قَتَلَ مِنْ أَهْلِ السَّوَابِقِ وَحِمْلَةَ الْقُرْآنِ حَتَّى قَالَ : يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ أَتَيْنَا مِنْ قَبْلِ الْأَعْرَابِ ، انْهَزَمُوا بِنَا وَعُودُوا مَا لَمْ نُسْكَنْ نَحْمُسِنْ حَتَّى أَظْفَرْنَا اللَّهَ بَعْدَ .

وَلَمَّا ذَكَرَ أَبُو خَيْشَمَةَ الصَّلَاحَ الَّذِي أَجْرَاهُ خَالِدٌ وَانْتَهَتْ بِهِ الْمَوْقِعَةُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْتَ خَالِدٌ لَمْ يَصَالِحْهُمْ وَأَنَّهُ حَمَلَهُمْ عَلَى السَّيْفِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَؤُلَاءِ الْمَقْتُولِينَ يَسْتَبْقَى أَهْلَ الْيَمَامَةِ ، وَلَنْ يَزَالُوا مِنْ كَذَابِهِمْ فِي بَلِيَّةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَنْ يَعَصِمَهُمُ اللَّهُ .

كَانَ إِسْرَافُ خَالِدٍ لِأَبِي خَيْشَمَةَ تَعْجِيلًا بِبَشْرَى الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ لِعَلَّهُ بِمَا كَانَ يَسَاورُ الْخَلِيفَةَ هَلْ وَفَدَ خَالِدٌ وَسَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقِيمِينَ بِعَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِسْهَاقِ عَلَى جَنْدِ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ يُوَاجِهُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ هَذِهِ الْمَعْرَكَةَ الْقَاسِيَةَ ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْأَمْرُ ، وَأَعْلَمَ أَنَّ إِلَى النِّهَايَةِ الْقَصْوَى ، بَعَثَ بُوَيْفِدَ بْنَ حَنْظَلَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَهَذَا تَحْتَلِفُ رَوَايَاتُ التَّارِخِ ، فَبَعْضُهَا يَذْكُرُ أَنَّ خَالِدًا أَرْسَلَ الْوَفْدَ لِيُثَبِّتَ فِي الْيَمَامَةِ يَلْتَمِظُ أَمْرَ الْخَلِيفَةِ إِلَيْهِ ، فَكَتَبَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : « أَنْ سِرْ إِلَى الْعِرَاقِ حَتَّى تَدْخُلَهَا » وَبَعْضُ الرِّوَايَاتِ يَذْكُرُ أَنَّ خَالِدًا لَمَّا فَرَّغَ مِنْ بَنِي حَنْظَلَةَ قَعَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ سَبْعَةُ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ سَرَاوَاتِهِمْ ، فِيهِمْ صَاحِبُهُ مِجَاعَةُ بْنُ مِرَاةٍ الْحَنْفِيُّ وَإِخْوَتُهُ ، فَدَخَلَ بِهِمُ الْمَسْجِدَ ، وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ ، عَلَيْهِ صَدَأُ الْحَدِيدِ ، مُتَقَلِّدًا بِالسَّيْفِ ، مَعْتَمًا فِي عِمَامَتِهِ أَصْبَحَ ، فَمَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلَمْ يَكَلِّمْهُ ، وَدَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَرَأَى مِنْهُ مَا يَحِبُّ ، وَسَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ أَهْلِ الْبَلَاءِ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ ، فَقَالَ خَالِدٌ : كَانَ الْبَلَاءُ كُلُّهُ لِلْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ وَالنَّاسِ لَهُ تَبِعٌ ، ثُمَّ قَالَ الصَّدِيقُ لِلْحَنْفِيِّينَ : وَيَحْكُمُ مَا هَذَا الَّذِي اسْتَنْزَلَ مِنْكُمْ مَا اسْتَنْزَلَ ؟ قَالُوا : يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ كَانَ الَّذِي بَلَغَتْكُمَا أَصَابِنَا ، كَانَ أَمْرًا لَمْ يَبَارِكْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا لِعَشِيرَتِهِ فِيهِ ؛ ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ أُسْجَاعِ مَسِيلَةَ فَذَكَرُوا لَهُ شَيْئًا مِنْهَا فَقَالَ لَهُمْ :

« سبحان الله ! ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر . فأين يذهب بك ؟ »
ونحن نشك في رواية قدوم خالد إلى المدينة مع وفد بني حنيفة ، ونرجح عليها
رواية كتب أبي بكر إليه بالسير إلى العراق على رأس جيوشه الظافرة من مقامه بالجمامة .
لأن رواية قدوم خالد المدينة لم تذكر كيف ترك خالد جيوشه الواثرة بين قوم موتورين .
مهما قيل عن استسلامهم ، فإنه لم يبلغ أن يكون استسلاماً يحولهم بين عشية وضحاها
إلى طبيعة غير طبيعة البشر .

وهذه الرواية لم تذكر من هو القائد الذي أقامه خالد مقامه في إمارة الجيش مدة
غيبته حتى يعود ، مع بعد المسافة وبطء المواصلات واضطراب الأحوال .

وهذه الرواية فيها مشابهة من رواية قدوم خالد المدينة بطلب من أبي بكر على إثر قتل
مالك بن نويرة ، تلك الرواية التي تصف خالداً في هيئته وزيه وهو داخل المسجد بما تصفه
به هذه الرواية من لبس القباء وعليه صدأ الحديد ، ومن تقلد السيف والتعمم وعرز رأسهم
في عمامته ، غير أن تلك الرواية تزيد على هذه بما زعمته من موقف غير كريم وقفه عمر
بن الخطاب من خالد بن الوليد ، وقد ناقشنا تلك الرواية في مكانها ، وأبدينا فيها شكاً
ملحاً لا يقيمها بين سائر الروايات على ساق .

فلعل صاحب هذه الرواية من المتكثرين في روايات التاريخ لا يبالي ما أخذ وما
أعطى ، فللق أولف عليه هذه الرواية متزعة من صاحبها تلك ، وهما من وادي الزيف
السحيق .

انتهى القائد المظفر خالد بن الوليد رضي الله عنه من حرب أهل الجمجمة ظافراً متصمراً
بعد أشد الهنة ، وأقصى الابتلاء ، ولكن خالد لم يكن من أولئك الرجال الذين تهزمهم
قواصم الحن ، أو تزعزعهم عواصف البلايا ، وإنما هو طرز من الرجولية فريد لا ينجود
به الحياة إلا بعد مرور الحقب ، وتعاقب الأجيال .

زواج خالد
بنت حجة

لم يكد خالد ينتهي من عمل السيف ، ويطمئن على جرحى المسلمين ، ويقسم بين
المجاهدين غنائمهم حتى التفت إلى صاحبه حجة بن مرارة الحنفي ، وقد عرف مكانه من

قومه ، ومكان قومه منه ، خاطباً إليه ابنته ١١ وهذا من أعجب ما ينتظر في هذا الموقف من قائد حربى خاض معركة ، يصف هو لها وأثرها عليه وعلى جيشه بقوله : « شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ، ولا أضرب بها ، ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة » ولقد كثرت فيها جراحه حتى قال عن نفسه : « وما بى حركة من الجراح ، ولقد اقتحمت حتى أيست من الحياة وتيقنت الموت » فكيف اتسعت إذا مشاعر خالد في هذا الموقف العصيب إلى هذه العاطفة المشبوبة بالحيوية الدافقة التي تتوجه إليها النفس البشرية وهي - في غالب الأمر - فارغة من الهم ، بريئة من الآلام في متعارف طبائع البشر ؟

أجل إن تاريخ خالد بن الوليد صفحة من خصائص الرجولية الكاملة في أسمى معانيها ؛ رجولية بطل وهو هنا في هذا الموقف يتجلى ثابت الجنان رابط الجأش ، قوى النفس ، فوار الحساسة والعواطف ، خصب الحيوية ، والرجل إذا فقد خصوبة الحيوية فقد فقد كثيراً من خصائص الرجولية ، وهذا مقرر عند علماء الاجتماع والأخلاق وذوى المباحث النفسية ، وهو ملحوظ في تاريخ الأبطال وعظماء التاريخ ، وقلما عقد التاريخ فصلاً لعبقريته من العبقريات ، ولا سيما عبقرية الحروب والبطولة ، إلا وفي ضمن صفحاتها صفحة عن اكتمال الحيوية عند صاحب تلك العبقرية .

وقد فرغ الناس قديماً من الحديث عن صلة الجسم بالعقل ، وجاء العلم الحديث وأقر ما اتفق عليه العلماء الأقدمون من قوة هذه الصلة حتى أصبح قولهم : « العقل السليم في الجسم السليم » قاعدة من قواعد الحياة الصحيحة القوية ؛ وليس أصدق حجة على سلامة الجسم الذى يستقر في خلاياه العقل السليم من خصوبة الحيوية ووفور القوة الجنسية التي ناط الله تعالى بها تبهدهد الحياة في نماذج النوع المتتابعة بالتوالد .

وقد كان خالد بن الوليد من وفور الحيوية بالموضع الذى يجعله صورة للرجولية بالحية الفوارة بإمداد الحياة . وهو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ألان الدين قناتهم لشريعته وأحكامه ، فكان من القوامين عليها بالقسط ، والشرعية الإسلامية هي الشريعة الفذة التي قدرت وفور الحيوية في الإنسان حق قدرها ، ولم

تغفل شأنها في الحياة ، فكانت بذلك متمشية مع الفطرة بعيدة عن النزمت والسكبت ، وكانت واقعية أمام الحياة ، وأمام الناس .

ومن أحق من قائد جيوش الإسلام خالد بن الوليد وهو على ما وصفنا من وفور الحيوية أن يكون نموذجاً لطلاقة الشريعة الإسلامية ، وأن يكون عروة من عرى الترابط بين الأسر الإسلامية وبيوتات العرب ، وقد بلغ منهم مآرب للإسلام ، وهو في أشد الحاجة إليهم ، ليلين بهم من الأمم الآخري ما أراده الإسلام ؟

استجاب خالد رضى الله عنه إلى قوة نفسه ووفور حيويته من طريق هذه الشريعة المطهرة ، ولم يعاب بما عسى أن يقال برغم صاحبه بحجاجة الذي لفت نظره إلى ما يتوقعه من القالة عليه بقوله : « مهلاً انك قاطع ظهري وظهرك عند صاحبك ، إن القالة عليك كثيرة ، وما أقول هذا رغبة عنك » فأبى خالد أن يستمع إلى قول بحجاجة ، ورد عليه نصيحته بقوله : « زوجي أيها الرجل ، فإن كان أمرى عند صاحبي على ما أحب فلن يفسده ما تخاف على ، وإن كان على ما أكره فليس هذا بأعظم الأمور » .

وهذا كلام تلمية الحكمة الحازمة ، والإرادة القوية التي لا تلين أمام وشاية ، ولا تهرب سعاية ، فلو لم تسكن الدولة في حاجة إلى بطولة خالد لكان خالد في أشد الحاجة إلى الاعتزاز بنفسه ، وكأن صاحبه بحجاجة لم تقنعه هذه الحجة الثائرة ، أو هو أراد أن لا يقتنع ليستغفر عزيمة خالد ، ويستثير حميته حرصاً على مصاهرته ؛ فقال له : « قد نصيحتك ، ولعل هذا الأمر لا يكون عيبه إلا عليك » .

عتب أبي بكر ودفاع خالد
وقع ما ظنه بحجاجة بعد ما أجاب خالد إلى رغبته وزوجه ابنته ؛ فقد بلغ الخبر أبا بكر فغضب له ، وكتب إلى خالد يعاتبه عتاباً أقرب إلى التعنيف والتقريع منه إلى اللامه والعتاب ، فقال له : « يا خالد ابن أم خالد ! إنك لفارغ تسكح النساء وتعرض بهن ويابك دماء ألف ومائتين من المسلمين لم تجف بعد ، ثم خدعتك بحجاجة عن رأيك فصالحك عن قومه ، وقد أمكنك الله منهم » فلم تضعف عزيمة خالد أمام هذا التهديد بل كتب إلى الخليفة يدافع عن نفسه ، وأرسل بكتابه إليه مع أبي برزة الأسلمي فقال : « أما بعد فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور ، وقرت بي الدار ، ما تزوجت إلا إلى امرئ لو عملت إليه من المدينة خاطباً لم أبل ؛ دع إنى استشرت خطبتي إليه من

تحت قدمي ، فإن كنت قد كرهت لي ذلك لدين أو دنيا أعتبتك ؛ وأما حسن عزائي عن قتل المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حياً أو يرد ميتاً لأبقى حزني الحى ورد الميت ، ولقد اقتنضت حتى أليست من الحياة وأيقنت الموت ، وأما خدعة مجاعة إياي عن رأيي فأني لم أخطيء رأيي يومى ، ولم يكن لي علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين خيراً ، وأورثهم الأرض وجعل العاقبة للمتقين) .

تحليل وتوضيح إذا تأمل الباحث في كتاب أبي بكر إلى قائد البطل ، وفي رد خالد عليه تجلت أمامه العبقرية الخالدية في أقوى صورها وأسطع مظاهرها ؛ فالخليفة الحليم الرشيد يعيب على قائده أنه فارغ النفس من الهموم ، لا يشغله ما كان حرياً أن يشغل غيره ممن يقف في موقفه ، ويعيب عليه أنه لم يحزن على قتل المسلمين ، ودماؤهم لا تزال بياضه لم تجف بعد ، حزناً يصرفه عن التفكير في الزواج والتعريس بالنساء استجابة لعواطفه المشبوبة ، ويعيب عليه أنه خدع عن رأيه فصالح القوم بعد أن أمكنه الله منهم ، وكان يستطيع لو أراد أن يستأصل شأفتهم ، ولا سيما أنه يخاطب إلى الرجل الذى خدعه فيرتبط معه برباط المصاهرة بعد الذى كان منه .

جاء رد خالد على هذه المآخذ رداً حازماً في لين ، صريحاً في صدق ، قوي في هدوء فهو يرى في رده أن النصر ولو مع النصيحة لا يبقى في النفوس العظيمة آثار الآلام ، ولوعاج الأحران ، وقد تم للقائد السرور بالنصر المؤزر ، وقرت به الدار ببسط سلطانة على أعدائه ؛ ويؤكد خالد حجة بما يبرر خطبته إلى هذا الرجل الذى خدعه حتى لا تندفع الأوهام السقيمة في التظلم بالقائد العبقرى كما وقع هذا التظلم في زواجه بامرأة مالك ابن نويرة ، فهو يعلن أنه قد خطب إلى رجل هو سيد قومه فما يمنعه أن يجعل الخطبة إليه وسيلة من وسائل الاستقرار وتطبيب النفوس ، على أن هذه الخطبة سعت إليه ، ولم يحرك لها المطايا ، ولسكنه استئثارها من تحت قدميه ، ولو عمل إليها من المدينة قصد لها ما كان عليه في ذلك ملام ولا عتاب ؛ فإذا كان الخليفة الأعظم كره له ذلك لضرر لحقه في دينه أو دنياه قبل عتبه ، ولقد أبان خالد أروع إبانة عن حسن عزائه على قتل المسلمين ، وأنه حزن عليهم حزناً كان كفيلاً أن يرد الحياة إليهم لو كان حزن يرد الحياة إلى ميت ، وكان كفيلاً أن يخلد من كان من المسلمين باقياً لو كان الله كتب البقاء والخلود لأحد من الأحياء .

ولم يكن خالد بالقائد الذى يعرض جنده للموت ويقف هو من ورأهم يأمر وينهى، ولكنه كان القائد الذى يقتحم أمام جنده فى طلب الموت واسمهم بنفسه ، وإيكون لهم المثل الأعلى فى الفداء والتضحية ، والاستهانة بالحياة فى سبيل الحق ، وإذا كان صاحبه جماعة خدعه فهو لم يخدع والحرب دائرة الرحى ؛ ولم يخطئ رأى يومه حتى يزن (١) بغلة لا تليق بباقرة القادة وأبطال العسكريين ، ولم يكن له علم بالغيب فيقرأ ما طواه جماعة بين جوانحه ، وما قيمة هذه الخديعة بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وباء العدو بالخذلان وذلل التسليم ، وتوج الله هجمات المسلمين بالنصر ، وأورثهم أرض أعدائهم وجعل لهم عاقبة المتقين ؛ فماذا بقى على القائد العبقري بعد ذلك ؟

إن من خصائص العبقرية أن تعلو على آفاق العامة والخاصة من الناس فلا تقعدها، الأحزان الممضة من الوصول إلى أهدافها ، ولا تبطرها المسرات المبهجة فيديد العرور مذخورها من القوى المعنوية الدافقة ، وعبقرية خالد بن الوليد كما تصورهما سيرته . طرز من العبقريات الفريدة فى جميع مواقعها .

ولقد كان لرد خالد على أبي بكر هذا الرد الرصين تأثيره القوى فى نفس أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، فإنه لما بلغه رقى لخالد وعذره ، ووكد له العذر عنده شهادة أبي بركة الأسلى ، وكان رسول خالد إلى أبي بكر ، فإنه قال : « يا خليفة رسول الله ما يؤمن (٢) خالد بجهن ولا خيانة ، ولقد اقتحم حتى أعذر ، وصبر حتى ظفر ، وما صالح القوم إلا على رضا ، وما أخطأ رأييه بصلح القوم ، إذ لا يرى النساء فى الحصون إلا رجالا » فقال أبو بكر : « صدقت ؛ لكلامك هذا أولى بعذر خالد من كتابه إلى »

وإنما كان كلام أبي بركة أولى بعذر خالد عند الصديق لأن أبا بركة أبان عن الجهة التى كانت منها الخديعة فاطمأن الصديق إلى الواقع الذى كان لا يستطيع غيره .

رضى الخليفة الموفق عن قائد المظفر فسيره إلى فتح العراق وحرب فارس ، والفرس . إحدى دولتين كانتا تتبادلان زمام السيطرة على الدنيا يومئذ . وهنا يفرغ التاريخ من سفر البطولة الخالدية فى جزيرة العرب ، وهى بحال أصنيق من أن تتسع آفاقه لآيات.

(١) يزن : يثبم .

(٢) يؤمن : يثبم .

العبقريّة في مثلها العامّة الكاملة ونماذجها الفاضلة ، وأبو بكر الصديق أعرف الناس بالرجال ، وهـ وأعرف بخالد قائده المختار ، نقصد إلى أن يرمى به الفرس بعد أن أقرعين الإسلام في العرب ؛ والفرس كانوا أهيب عند العرب من أن تطمح أنفسهم لحربهم ، ولكن خالد بن الوليد القائد الذي لم تنكس له راية ، ولم يهزم له جيش ، والذي كان العرب باسمه أسرع إلى قلوب أعداء الإسلام من سيفه إلى أعناقهم ، هو الذي جرأ العرب على الفرس حتى خاصوهم من أوزار الظلم ، واستنقذوهم من آصار الاستبداد حتى تفيثوا وإياهم ظلال السلام والعدل والرحمة في ساحة الإسلام .

الفصل العاشر

دولة الفرس بعد العرب فتح العراق

أسس الفتح الإسلامي — مقومات الدولة في الإسلام — العراق باب فارس —
الإسلام يثير في العرب روح المغالبة — المثنى بن حارثة وفتح العراق — أبو بكر يأمر
خالد بنعزو فارس — سياسة خالد في حرب الفرس — من خالد بن الوليد إلى طارق بن
زياد — تلاحق الهزائم بالفرس — واقعة «المدار» — واقعة «الولجة» — نهج خالدى،
في إثارة الحماسة — واقعة «أليس» — غرور فارسى أجوف — واقعة «أمنغشيا» —
عبقرية خالد فى نظر الصديق — فتح الحيرة — حيلة ومكيدة — عزمة خالدية —
محاصرة قصور الحيرة — براعة فى المفاوضة — نظرة منبهة إلى عوامل الفتح الإسلامى
تحليل — عدل فوق الرحمة — عهد خالد لأهل الحيرة — الحيرة قاعدة الجيوش
الإسلامية — أثر فتح الحيرة — أقصوصة طريفة — أقصوصة أخرى — غزو الفرس
فى عقر دارهم — تيمن خالد بالفأل — واقعة «الأنبار» — خطة سياسية — فتح
دومة الجندل — شهادة خصم — وقائع «الحنافس» و «الحصيد» و «المصيخ» —
إنتصار خالد بالرعب — مناوشات وتطهير — واقعة «الفراض» .

أسس الفتح الإسلامي
كانت واقعة اليمامة أعظم وقائع الإسلام بالمرتين من العرب، وكانت نهاية تلك الحروب الداخلية في جزيرة العرب، وبالفراغ منها تم للإسلام إنشاء قاعدة في بناء دولته الكبرى، وقد اعتمدت هذه القاعدة على وحدة الغاية ووحدة اللغة، ووحدة الدين، ووحدة العنصر القومي، ووحدة الوطن والمقر.

والإسلام في طبيعته النظرية، والعملية : شريعة ودولة؛ وقد استقرت أسسه، وكل بنيانه باعتباره شريعة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهذا الجانب هو المعنى بقول الله تعالى في القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » وبقي شطره باعتباره دولة تقوم على حماية الشريعة وتنفيذ نظمها وقوانينها. وبسط سلطانها ضماناً لإقرار الحق والعدل بين أبناء المجموعة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها؛ ديناً في عنق هذه الأمة العربية الموحدة على أنها هي القاعدة العظمى لدولة الإسلام الكبرى.

ومن هنا نرك الإسلام للأمة أمر نظام الحكم في الدولة تختاره على مقتضى أطوار الحياة الصالحة في مدارج الزمن، بعد أن ضمن لها مقومات البناء وحاطها بسياس من الضمانات القوية الثابتة.

مقومات الدولة في الإسلام
وقد أغضى الإسلام في بناء دولته الكبرى على بعض ما اعتمد عليه في بناء قاعدة هذه الدولة. توسعاً في ربط الإنسانية، وفي إهدار المظاهر الضيقة في روابط الحياة، فأهدر العنصرية الطائفية والوطنية القومية، وأحل محلها العنصرية الإنسانية، والوطنية العالمية، وأهدر الإخاء القبلي، وأقام مقامه الإخاء البشري. وسكت عن عروة اللغة بعد ما أحاط العربية بسياس من الضمانات يجعلها على مر الزمن وثيقة الوجود ضمن الروابط العامة، وإن لم تكن من أصولها، وحافظ في بناء الدولة الإسلامية الكبرى على وحدة الدين، والغاية، ثم مزج بينهما في عروة واحدة هي عروة « الإخاء » العام التي يدور عليها فلك الشريعة في الإسلام.

العراق باب فارس
على هذا الأساس الخالد بدأت الفتوحات الإسلامية ، وكان أول ما توجهت إليه أنظار الخلافة الصديقية فتح العراق لأنه باب فارس إحدى دولتين ملكتنا زمام الحياة يومئذ ، واعتصمت كلتاهما بالحواجز العنصرية الطائفية والوطنية القومية المتعطرسة . وأهدرتنا عروة الإخاء الإنساني فكان لا بد للإسلام من أن يعالج أمرهاتين الدولتين ، ويحطم فيهما هذه الحواجز الخائفة التي اعتمدتا عليها في بسط ما كان لهما من سلطان على جانبي الأرض.

الإسلام يشير في العرب روح المغالبة
والعراق يومئذ عربي اللغة والعنصر ! ولكنه فارسي الحكم ، ومنذ أحس عرب العراق صوت الإسلام يدوي في أرجاء الجزيرة العربية قويا قاهرا تحركت فيهم غريزة المغالبة لهذه الدولة العظيمة المصابقة لهم ، وقد كانت عندهم يوم أن كانوا لا يعتمدون على وحدة سوى وحدة اللغة ، فلا يعرفون ديناً قيماً يجمعهم ، ولا يعرفون هدفاً واحداً يقصدون إليه ، — أهيب من موت الفجاءة فلما هز الإسلام فيهم أريحية الكرامة الذاتية ، وبصرهم بأنفسهم ، وأشعرهم بشخصيتهم الأمية وعرفهم أن لهم رسالة في الحياة أسمى وأجل من كل ما عرفوه أو سمعوه ، وأمدتهم برابطة الإخاء العام في وحدة الدين والغاية ، لما صنع الإسلام بالعرب هذا الصنيع ضرروا بفارس وجرءوا عليها ، فناوشوها ونالوا منها ، فإذا أرادتهم كان لهم في فيافيهم الفيح منطلق أمين ، ومهرب ممكن ، حتى إذا عجموا عودها ، ورازوا (١) قناتها ، وعرفوا خيأ أمرها ، ورأوا أسوس الفتى ينخر في عظامها ، وقدمزقت المذاهب والنحل أديمها ، فمن زرادشتية ، إلى مانوية ، إلى مزدكية ، فوق ما كان يعانيه الشعب من إذلال حكماءه . واستبدادهم به . لم يعد لذلك الجسم الضعيف المتراخي في أكناف الأرض طولاً وعرضاً تلك الهيبة التي كانت لفارس لدى العرب قبل الإسلام .

المثنى بن حارثة وفتح العراق
كيتب المثنى بن حارثة الشيباني — وكان أحد أولئك الأبطال الذين رازوا قنات فارس وعجموا عودها ، فعلموا علمها — إلى أبي بكر الصديق يستعده بجيش لنزو فارس وفتح بلادها ، وكانت أخبار مناوشات المثنى وقائمه مع الفرس تبلغ أبا بكر فيعجب ويقول : من هذا الذي تأتينا وقائمه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب . ولا ذليل العباد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني ،

فكتب له أبو بكر عهداً بالإمارة على من قبله ، وكانت الفرصة مواتية أمام الخليفة لأن بطل الإسلام المظفر ، وقائده الذي لم تهزم له راية ، فاقى عين الردة ، ورئيس هيئة أركان حرب الخلافة الصديقية خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله كان قد فرغ من مهمته العظمى في الوطن العربي ورجع العرب إلى حظيرة الإخاء الإسلامي .

* * *

أرسل أبو بكر إلى خالد يأمره بغزو فارس بادئا بشعر أهل الهند والسند ، وهو أمر أبي بكر يومئذ الأبهة ليأمن أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، ثم وجه عياض بن غنم رديفا لخالد ، خالد بغزو وأمره أن يغزوها من الشمال بادئا بالمسيح ، وأمرهما أن يستنهما من قاتل أهل الردة ، فارس وأن لا يستعينا بمرتد ، وأن يسيرا بمن يحب الجهاد معهما في هذا الوجه ، ولا يستكرها أحداً من الناس ، فلما أعلننا ذلك في الناس انصرف كثير ممن كان معهما ، فاستمدا أبا بكر ، فأمد عياضاً بعد ينعوث الحميري ، وأمد خالد بالقعقاع بن عمرو التميمي ، فقال له بعض من كان حاضره : أتمد رجلاً انفض عنه جنوده برجل واحد ؟ فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا ؛ وقد صدق أبو بكر وكان بصيراً بالرجال ، فلقد كان القعقاع مع خالد جيشاً في إهاب رجل ؛ ورجلاً في عزيمة جيش .

ثم كتب أبو بكر إلى المثني بن حارثة ومن معه كتاباً يأمره فيه بطاعة خالد ، فأنحدر المثني إلى خالد جواداً كريماً مطواعاً ؛ وكان جند خالد الذين ساروا معه في هذا الوجه عشرة آلاف ، ولحقه المثني في ثمانية آلاف ، غير أن هذا العدد الذي اجتمع في جيش المسلمين لم يكن شيئاً إلى جانب العدد السكثيف الذي اجتمع لمرزقائد الفرس ، فعمد خالد إلى بعض التدبير السياسي ؛ فقسم جيشه إلى ثلاث فرق ، ووجه كل فرقة في طريق غير التي سلكتها الأخرى ، وجعل المثني بفرقة طليعة تقدمته إلى العدو ، ثم سرح عدي بن حاتم ، وعاصم بن عمرو على فرقة تبعت فرقة المثني ، وخرج خالد بعد ذلك ومعه سائر الجيش ، وكان قد وعد أصحابه الذين سيرهم مكاناً يقال له « الحفير » عرف باسم ماء أباهلة ، وهو عند أول منزل من البصرة بعد ما عرفت لمن يريد مكة ، وكتب خالد كتاباً إلى هرير يدعوهم إلى الإسلام ، أو عقد الدمة ، أو المناجزة فقال : « أما (م ١٣ — خالد بن الوليد)

سياسة خالد
في حرب
الفرس

بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرار الجزية ، وإفلا تلو من إلا نفسك ، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » وفي هذه الجملة الأخيرة من كتاب القائد العبرى ما يشرح معجزة الفتح الإسلامى ، وأن هذه المعجزة إنما تمت لأن الإسلام أيقظ في الأمة العربية خصائص الطبيعة الفيضة بالقوى الروحية التي لا تقم ورننا للعدد والعدة إذا لم يكونا على جسر من الإيمان واليقين .

بلغ كتاب خالد رضى الله عنه هرمز ، وسمع بمسيره إليه فكتب هرمز إلى أزدشير ملك الفرس يعلمه ويستمدده ، وتعجل بمن معه وسبق إلى المسكان الذي كان جند الإسلام تواعده للاجتماع عليه ، فلما علم خالد بمنزل هرمز عدل عن « الحفير » إلى كاظمة ، فابتدر هرمز أيضا . وثرل على الماء واضطر خالد أن ينزل بجيوش المسلمين على غير ماء ، فحدثه بعض أصحابه في ذلك فقال للناس : « حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فلمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » نعم وقد صار الماء بل صار النصر المؤزر والظفر الباهر لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ، جند الإسلام .

من خالد بن الوليد إلى إن القائد العبرى خالد بن الوليد لم يقم جنده في منزل لاء فيه دون أن يحاول ارتياد أطيب المنازل لهم ، ولكن الفرصة لم تسعه ، فهل يترك جنوده فريسة لليأس طارق بن زياد يدلف إلى قلوبهم فيستولى عليها ؟ إن العبرية لا تعرف اليأس ، ولا يعرف اليأس طريقها ؛ وهى أخصب ما تكون أملا ، وأقوى عملا إذا ادلهمت الأزمات ، فإذا لم يكن الماء في أيدي المسلمين ، وهم في جانب ذلك قليل عددهم ، فليستمدوا من إيمانهم قوة ، ومن يقينهم عدة ، ومن أرواحهم أسلحة ، وليجالدوا على الماء عدوهم حتى ينتزعوه منه ، وهذا الذى قدره القائد هو الذى أمله الحياة في صحائف الواقع التاريخي المجيد .

وإذا كانت هذه الكلمة العظيمة على لسان بطل الإسلام خالد بن الوليد مفتاح العراق وباب فارس ، فقد كانت هى في إطار آخر على لسان طارق بن زياد مفتاح الأندلس ؛ فهل كانت نوابغ خالد ومبادئه موضع دراسة القواد والأبطال ممن جاء بعده ؟ نعم ؛ فهذا ما نطمئن إليه ، وهكذا تتلاقى أرواح العبريين في ساحات الخلود .

كان هرمز القائد الفارسي أخبث رجل جاور العرب وأغدره ، حتى كان خبثه مثلاً تلاحق الهزائم شرودا فيما بين محافل العرب وقبائلهم ، فلما رأى جموع المسلمين أخذوا مصافهم للقتال ، وقرأ في وجوههم صدق مقال قائدهم : إنهم أحرص على الموت من عدوهم على الحياة ، وقرأ في وجوه أصحابه من العلوج دلائل الجبن والخور قرنهم بالسلاسل لثلايفروا ؛ ومن ثم سميت هذه الواقعة في كتب التاريخ وقعة « ذات السلاسل » . ثم دعا هرمز خالدا للبارزة ، وأضمر له غدره واطأ عليها أصحابه وعلوجه ، فمشى إليه خالد راجلا فاحتضنه ، وحمل العلوج على خالد تنفيذاً لما اتفقوا عليه مع هرمزهم ، فلم يشغل ذلك خالد عن شدة وطئه على هرمز ، وهنا تحققت فراسة أبي بكر الصديق في القعقاع بن عمرو حين أمدت به وحده خالداً ، فقد حمل على أهل فارس حين رآهم يحملون على قائده خالد وهو مشغول بمبارزة قائد الفرس هرمز ، حتى كشفهم ومكن خالداً من قتل القائد الفارسي وبدأت هزيمة الفرس وركب المسلمون أكتافهم ، وأخذوهم قتلاً وأسرا وبعث خالد يبشر أبا بكر بالفتح ، وبعث إليه بالجنس بعد أن قسم الغنائم على أهلها ، وأرسل فيما أرسل سلب الهرمزان ، وفيه قلنسوته المفصصة بالجواهر ، وكانت قيمتها مائة ألف ، لأن الهرمزان كان ممن تم شرفه في فارس . وكانت تلك سلتهم مع أمثاله ، فنقلها أبو بكر قائده خالد أَرْضَى اللهُ عَنْهُ .

كان الهرمزان قد كتب إلى ملكه أزد شير بخبز الجيوش الإسلامية قبل أن يتعجل لقاءهم بمن معه ، وكتب إليه يستمده ، فأمد به بجيش يعدل في كثافته عدده جيشه تحت قيادة « قارن بن قرياقس » أحد شجعان الفرس وقرن الهرمزان في تمام الشرف عندهم .

ولما قتل الهرمزان وانهمز جيشه لايولى من نجا منه من القتل أو الأسر على شيء واقعة
التقى فلهم بجيش قارن في مكان بين واسط والبصرة يقال له : « المذار » فتذامروا « المذار »
وقال بعضهم لبعض . إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا ، فاجتمعوا على تعبئة واحدة ،
وبلغ خبر اجتماعهم قائد الإسلام خالد بن الوليد فنهذ إلى انماهم على تعبئته التي لقي عليها
جيش الهرمزان ، فافتتل الفريقان على حنق وحفيظة ، وبرز « قارن » قائد الفرس يدعو
للمبارزة ، فانتهض إليه خالد ليورده ما أورد الله رمزان قبله ، ولكن بطلا آخر من أبطال
المسلمين شرى نفسه وفدى قائده فكان أسرع إلى العليج بيارزه ، وذلك هو أبيض الركبان

معقل بن الأعشى ، ولم يكذب محاوله حق قضى عليه ، فولت جيوش فارس الأدبار ، وكان للمسيين فيهم مقتلة عظيمة ، يقدر بعض المؤرخين عدد القتلى منهم ثلاثين ألفا سوى من غرق أو أغل في الحرب فلم يعثر له على أثر .

واقعة «الولجة»
كبر على الفرس تلاحق الهزائم التي حلت بجيوشهم ، وقتل أشجع أبطالهم على أيدي هؤلاء العرب الذين كانوا لا يجرؤون قبل اليوم على مواجهتهم ؛ فأرسلوا جيشا كثيف العدو قوى العدد بقيادة بطل من أبطالهم يدعى : «الأندرزغر» ثم أمدوه بجيش عليه «بهمن جاذويه» واجتمع الجيشان بمكان يقال له «الولجة» وأعجب قائد الفرس ما رأى من كثرة جنده وتعام أسلحتهم ، وبلغ خالد تجمعهم فنهض إليهم ، وخاف سويد بن مقرن ليحمي ظهره ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق ، سار على رأس فرقة منها الملاقاة العدو ، وجعل من فرقتين كميناً بقيادة بسر بن أبي رهم ، وسعيد بن مرة ، وهذه خطة حربية ماهرة ، تبين حذق خالد ودهاءه في إدارة دفة الوقائع وملاقاة الأعداء مهمات كائناً عددهم .

التقى الجمعان واستعرت نار الحرب بينهما ، وطال الأمر على الناس ، وعظم الخطب على الفريقين حتى نفذ الصبر منهما ، وإذا بالسكين الخالد يهاجم العدو فيكتنهم من جوانبهم ، وخالد بفرقة يأخذهم من بين أيديهم ، حتى دارت عليهم الدائرة فولوا الأدبار منهزمين ، ومضى قائدهم «الأندرزغر» على وجهه من الرعب لا يلوى على شيء ، ثبات عطشا .

سهب خالدي في إثارة الحماسة
ثم قام خالد رضى الله عنه في المسلمين خطيباً يرغبهم في فتح بلاد العجم فقال : «الأترون إلى الطعام كرفع (١) التراب ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش لسكان الرأي أن تقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإتلال من تولاه بمن أثاقل عما أتم عليه» .
هذه كلمة من كلمات القائد العبقرى جليلة الخطر عظيمة الأثر نهوض ما أوتي هذا البطل من حكمة سياسية وعرفان بحاجات النفوس ووسائل الدعوة إلى الجهاد والتزغيب

(١) رفع التراب : جاء في اللسان قوله : وجاء فلان بمال كرفع التراب في كثرته ، وتراب رفع وطعام رفع : ابن ، قال بعضهم : أصل الرفع اللين والسهولة .

في الفتح ، فهو يصور لجنده الحياة الناعمة ، والرفه الذي يتلقب فيه هؤلاء الأعداء ، ويلفت نظر المسلمين إلى ما هم فيه من يؤس الحياة والحرمان ؛ وهو تقديم بديع يقصد به إلى إعداد النفوس جميعها لاقتحام هذه الرغائب ، سواء في ذلك المؤمن الصادق والمؤمن الطموح في نعيم هذه الدنيا ، ثم يقف على ذلك بالإشارة إلى أن الجهاد لله واجب في سبيله لنشر دينه والدعوة إليه ، ثم هو لا ينسى جانب المغالبة في النفوس البشرية والتنافس في سعة العيش ، فلفت نظر جنوده إلى من تخلف عنهم متاثلاً عن الجهاد وفوزهم دونه بهذا الخير العظيم .

كان جيش « الأندرزغر » قد جمع إلى جند فارس عرب الضاحية ، ومتنصرة بكر ووائل ، وقد أصيب هؤلاء ، بمثل ما أصيب أولئك من القتل والهزيمة ، وكان فيمن قتل من نصارى العرب ابن لجابر بن بجير ، وابن لعبد الأسود العجلى ، وهما رأسان من رؤوس العرب المنتصرين الذين ارتضوا ظالمين أن يكونوا مع أهل فارس على بنى أبيهم فغضب لعضبهما من كان على شا كلهما من قومهما ، وكاتبوا الفرس أن يكونوا معهم يدا واحدة على المسلمين . وقاد هؤلاء العرب عبد الأسود العجلى ، وقاد الفرس « بهمن » جاذويه « الذى أناب عنه قائدا آخر يقال له « جابان » ورجع « بهمن » إلى أردشير يحدد به عهدا ويشاوره ، وقدم « جابان » بجند فارس على حلفائهم نصارى العرب فاجتمع عليه منهم نصارى نجل ، وتيم اللات ، وضيعة ، وعرب الضاحية من أهل الحيرة .

بلغ خالداً أمر تجمع هؤلاء العرب فنهض إليهم على غير علم منه بقدوم « جابان » غرور فارسى وجنده من أهل فارس . وقد كانوا عسكروا بمكان يقال له « أليس » فلما طلع عليهم خالداً يحيوشه الذى كان أعدها للملاقاة متنصرة العرب من حلفاء فارس وحميمها ، استقلها أهل فارس وطعموا فيها بنير قتال ، فقالوا لقائدهم والغرور يملأ جوانبهم الجوفاء . أنعاجلهم أم نعدى الناس ؛ ولا نريهم أننا نحفل بهم ، ثم تقاتلهم بعد الفراغ ؛ وهذا كلام لا يخرج من قلب يؤمن بالقوى المعنوية في نماذج الإنسانية الحية ، وإنما هو كلام السكرة المغتررة التى لا تعلم أن كل رجل في جند الإسلام جيش ، فقال قائد الفرس وهو يكظم غيظه ، وقد جاءته البوادر لطلائع الفشل « إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ، ولكن ظنى أن سيعجلونكم ويهاجلونكم عن الطعام » فعمسوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطمعة وتداعوا إليها فوافوها ؛ وإذا عصى الجند قائدهم فذلك بدء الهزيمة الساحقة .

واقعة
« أليس »

أجوف

أمر خاله بالنزول في وجه الجيش الفارسي ، ثم توجه إليهم وطلب مبارزة قائد العرب المنضمين إلى فارس في حرب الإسلام ، فنادى باسم عبد الأسود العجلي ، ومالك ابن قيس ، وابن أبجر ، فبرز إليه مالك فقال له خالد : يا ابن الحبيثة ماجرأك على من بينهم ، وليس فيك وفاء ؟ وأهوى إليه بضربة كانت فيها نفسه ، ثم كر على أهل فارس فأعجلهم عن طعامهم ، فلم ينالوا منه شيئا ، فقال قائدهم « جايان » يعتب عليهم مخالفتهم له ويذكرهم بمقاتلته الناصحة ، ويريه عصيانهم واعتراهم ، ألم أقل لكم يا قوم ؟ أما والله ما دخلني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم ، فقالوا له متجلدين : ندع الطعام حتى نفرغ منهم ونعود إليه ؟ وهذا إمعان في الغرور بالكثرة العددية التي كانت للفرس بما لا يحسب أن يعقد معه نسبة في التكافؤ العددي بين الجيشين المتحاربين .

ولما رأى قائد الفرس ما هم سادرون فيه من غرور وفشل دعاهم إلى مكيدة يلحقون المسلمين إليها فأبوها عليه ، قال لهم : سمو الطعام ، فإن كانت لكم فأهون هالك وإن كانت لهم هلكوا بأكله فعصوه مرة أخرى ، ولم يفعلوا ما أمرهم به والتحم الجيشان واقتتلوا قتالا شديدا ، وزاد في كلب أهل فارس على القتال ما كانوا يرتقبونه من قدوم قائدهم « بهمن » على مدد لهم ، وارتفعت روح المسلمين في القتال وشروا أنفسهم لله تعالى ، واشتد حنقهم على الفرس وحلفائهم من متصرة العرب حتى نذر خالد رضى الله عنه أن يجرى نهرهم ندمائهم ، فقال : اللهم إن لك على إن منعحتنا أكتافهم أن لا أستبق منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم .

وحاقت بهم الهزيمة فولوا الأدبار وتبعهم المسلمون يأخذونهم ، فأرسل خاله من ينادى بالناس : الأسر ، الأسر فجاءت بهم الخيل إليه تسوقهم سوقا ، وأمر بضرب أعناقهم حتى غلبت دماؤهم ماء النهر ، فسمى يومئذ نهر الدم .

وكانت هذه الموقعة أشد مآلتي خالد بن الوليد في قتال الفرس ، وفي ذلك يقول :
« وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس » .

وقسم خالد الغنائم بين الجنود وعزل الخنس فأرسل به للإمام ، ونفل الجند الطعام الذي كان أهل فارس أعدوه قبل المعركة لأنفسهم فأعجلهم خالد عنه فلم يهشوا به ، فلما جلس إليه المسلمون - وكان فيهم أعراب حديثو عهد بالترف ورقيق العيش - ورأوا

ما فيه من الرقاق ، قال بعضهم من التعجب : ما هذه الرقاق البيض ؟ قليل له : هل سمعت برقيق العيش ؟ هو هذا . فسموه الرقاق .

اتتهى خالد إلى هذا النصر المبين في هذه المواقع ، فلم يشأ أن يقف بنشوة الظفر التي تمثل بها جنده عند هذا الحد ، بل اندفع بجيوشه إلى الأمام حتى بلغ « أمغيشيا » وهي « أمغيشيا » مصر كالخيرة ، وكانت « أليس » من مسالحها خشي خالد أن يكون للفرس وحلفائهم من متحصنة العرب جموع بها ، فأراد بتقدمه هذا القضاء على مظان المقاومة ، ولم يكذباً بجيوشه أمغيشيا حتى جلا أهلها عنها وتفرقوا في السواد وتركوا كل شيء من الأموال والأثاث وعتاد الحرب ، فعظمت غنيمة المسلمين حتى بلغ سهم الفارس خمسمائة وألف درهم سوى الأنفال .

وأرسل خالد بالبشرى والخمس إلى أبي بكر الصديق ، ففرح الصديق بنصر الله للمؤمنين فرحاً شديداً ، وخطب الناس مشيداً بفضل خالد وعبقريته الحرية فقال « يامعشر قريش ! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (١) ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ؟ » وهذا القول من أبي بكر — وكان أعلم بالرجال — أعظم شهادة ، وأجل تقدير يناله رجل في تاريخ الإسلام ، فالصديق وهو خليفة المسلمين الأعظم لا يرى لخالد رضي الله عنه في الناس عدلاً في عبقريته وشجاعته ، ولا نظيراً في بطولته ومهارته ، وحسبك بها لخالد من الصديق .

لم يكن سيف الله خالد بن الوليد يفرغ من نصريته بوج به هامت المسلمين إلا ليستقبله فتح الخيرة نصر أعظم وأروع ، ولم يكن الفرس يفيقون من غمرة هزيمة منكرة إلا ليسرعوا أمام البطل المظفر إلى هزيمة أنكر وأوجع .

ها هي ذه أخبار الانتصارات الإسلامية المتوالية تتراعى إلى مرزبان « الخيرة » عاصمة الفرس في العراق ، وقد أصبحت الجيوش الإسلامية منه على قيد وثبة خالدية ، فيتهاً ويستمد ما وسعه التهيز والاستعداد ، ولكن مائة جسم مهما ضخماً وطال واستعرض

وهو خلى من الروح ؟ كذلك كان شأن هؤلاء الفرس في عديدهم وعددهم .

حيلة ومكيدة حمل خالد الرجلة والأثقال في السفن ، وسيرها في نهر الفرات ، وخرج يقود الحيل ، وكان المرزبان قد خرج بجيوشه حتى عسكر خارج الحيرة ، وأمر ابنه أن يتقدم فيسد الفرات ليفجر الماء إلى الأنهار المتفرعة من الفرات حتى تقف السفن التي تحمل جيوش المسلمين ، وقد تمت هذه الخديعة وجنحت السفن بمن فوقها من الجند وما عليها من الثقل والعتاد ، وبقيت على الأرض فارتاع المسلمون ، وأدرك الملاحون بعد فوات الفرصة ، وقالوا إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتيها إلا بسد الأنهار ، فما عسى المسلمون أن يصنعوا في هذه المفاجأة التي لم يكن لهم بمثلها عهد ؟

عزيمة خالدية لفئة من لفئات العبقرية الخالدية ، ووثبة من وثبات سيف الله كفيفة بتفريع هذه الأزمة السانحة ، تغالد رضي الله عنه سواء العبقرية في البديهة ، فلم يترك الفرصة تغلت من يده ، ولم يعطل على المسلمين التفكير ، ولكنه سرع ما انفلت في كتيبة من الحيل نحو ابن المرزبان الذي سد النهر ففجر الماء فيلقى خيلا من خيل الفرس تعط في نوم الغرور والأمان ، لأنه لم يكن ليدور في خلدكم أن قائد المسلمين يثب عليهم في هذه الساعة ، ولم تسكن إلا جولة حتى قضى عليهم قبل الأخبار والبرد فلقى ابن المرزبان مع جيشه على قم « فرات بادقلى » فالتهم الفريقان في قتال مرير انجلى عن انفراط عقد الفرس في هزيمة أتت على آخر رجل فيهم ، وفجر المسلمون الماء وسدوا الأنهار الشارعة في الفرات ، فارتفعت السفن بأحمالها وسارت باسم الله مجريها ومرساها ميممة الحيرة وسار إليها خالد بمن معه من فرسان المسلمين حتى نزل منزلا بين الحورنق والنجف .

وكان المرزبان قد بلغه ما نزل بابنه وجيشه من القتل والهزيمة المفنية ، سفارت قواه ، وضعت عزيمته ، ولم يقو على لقاء جيوش الإسلام الظافرة ، فأطلق لنفسه عنان الهرب من غير مواقعة أو قتال ، وذهب لا يلوى على شيء مفزعا مرعوبا ، وزاد في فزع ورعبه ما أتت به إليه الأنباء من موت أردشير ملك فارس ، واختلاف أهل مملكته فيمن يولونه عليهم مكانه .

محاصرة تحصن أهل الحيرة في قصورهم ، وأقمهم خالد خيله في طرقاتها ، وأجالها في عرصاتها ، قصور الحيرة ثم أمر بضرب الحصار عليهم ، وأمر بكل قصر قائدا من قواده على رأس كتيبة من جند

الإسلام ، فكان ضرار بن الأزور محاصرا القصر الأبيض ، وفيه إياس بن قبيصة الطائي ، وكان ضرار بن الخطاب على قصر العدسين ، وفيه عدى بن عدى قتيل المنذر بن ماء السماء ، وكان ضرار بن مقرن المزي يحاصر قصر بني مازن ، وفيه جيري بن أكال ، وكان المشي بن حارثة الشيباني محاصرا قصر ابن ببيعة ، وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وعهد خالد إلى قواده أن يبدؤا أهل القصور بالدعوة إلى الإسلام ، فإن أجابوا قبلوا منهم ، وإن أبوا أجلوهم يوما واحدا ، وقال لهم : لا تمسكونا عدوكم من آذنكم فتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ، ناجزوهم ، ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم .

وكان أول قائد أنشب القتال بعد الأجل المضروب ضرار بن الأزور ، ودعا أهل القصر الأبيض إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة ، فاختاروا المنابذة ، ورشقوا المسلمين بالنبل ، قاتلهم المسلمون واقتحموا عليهم الدور والأدياروا كثروا فاهمهم القتل ، فصاح أهل الأديار من القسيسين والرهبان : يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ! فنادى أهل القصور يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا حتى تبلغونا خالد .

فأرسلوا إليه ، فكان يخلو بأهل كل قصر منهم ، وبدأ بأصحاب عدى بن عدى براعة في
المفاوضة فقال لهم : ويحكم ؟ ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنعمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنعمون من الإنصاف والعدل ؟ فقال عدى : بل نحن عرب عاربة ؟ وأخرى متعربة ، فقال خالد : لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتسكروا ، أمرنا ، فقال عدى : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية .

قال خالد : اختاروا واحدة من ثلاث ، أن تدخلوا في ديننا فلکم مالنا ، وعليكم ما عاينا إن نهضتم وهاجرتم أو قمت في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة .

فقال عدى : بل نعطيك الجزية ؟ فقال خالد تبالسكم ، ويحكم إن السكفر فلاة مختلة ، فأحق العرب من سلكها ، فلقية دليان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى . فصالحوه على تسعين ومانق ألف ، وأهدوا له الهدايا فأرسلها مع البشري بالفتح إلى أبي بكر الصديق ، فقبلها أبو بكر على أن تكون من الجزية ، وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزى ، وخذ بقية ما عليهم ففوق به أصحابك .

هنا يحمل بنا أن نقف قليلا إلى جانب هذه المفاوضة بين بطل الإسلام خالد بن الوليد، ومتكلم أهل الحيرة عدى بن عدى ؛ فسنجد فيها من دلائل العبقريّة الخالدية. وآيات العدل الإسلامي ما يرشدنا إلى كثير من عوامل تيسير فتح هذه الممالك الضخمة على المسلمين في زمن وجيز ، مع قلة العدد والأهبة الحربية بالقياس إلى عدد أعدائهم وأهبتهم .

يدور كثير من الباحثين في تاريخ الإسلام حول أمور توهموها عوامل للفتح الإسلامي؛ وكثير منها لا يستقيم مع طبائع الأشياء والواقع ، وإنما يندفع هؤلاء الباحثون إلى ذلك لأنهم يأبون أن يفهموا ، أو يعتاص عليهم أن يفهموا حقيقة الإسلام وشأئجه بالقوى الكامنة في ضمير الإنسانية ، هذا الضمير الذي يعتمد عليه الإسلام في تحريك المشاعر ولأحاسيس لترتفع عن حضيض مطالب الجسم الدنيا من الخبز والماء إلى آفاق غير محدودة في أرجاء هذا الكون العظيم الذي يقول عنه الإسلام في كتابه الكريم في معرض الامتنان « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » . فالكون في نظر الإسلام مخلوق للإنسان ، وإنه شركة بين جميع الناس ، فلا سلطان لفرد أو جماعة أو جيل عليه إلا بمقدار ما في أيديهم من مفاتيح خزائن السموات والأرض . هذا الفهم لحقيقة الإسلام هو الذي حرر العقول والأجسام ودفعها إلى تحطيم الأغلال الفكرية والجسمية ، وأقبلت عليه إقبال الظمآن على الماء .

وفي الحق إن شأن الفتح الإسلامي معجزة من معجزات الإسلام ، لأن عوامله كلها نبعت من صميم الإسلام كدين وشريعة ودولة ، وانفجرت عنها طبيعته في نماذج الذين دعوا إليه ، ونقلوه إلى الناس ونقلوا الناس إليه ، وهونق المعدن صافي الأديم قبل أن تشوه آدابه وتعالجه تلك الفلسفات الكافرة الغريبة عن طبيعته ، وقبل أن تفسد نظم الحكم الفاسقة عن جادته نظام دولته وطرائق الحكم في شريعته .

تحليل براءة
خالدية

ولقد كان خالد بن الوليد في خلافة الصديق مثالا من مثل النماذج العليا في الدعوة إلى الإسلام ؛ والقارىء المتأمل في حديث هذه المفاوضة بين خالد وأهل الحيرة ، وما انتهت إليه ، يحس أول كل شيء تلك السياسة الحاذقة التي ساس بها قائد الإسلام الموقف في بدء لقاء وفود القوم بعد إحكام الحصار عليهم ، فهو لا يلقاهم جميعا لقاء المنتصر المعتز

بالنصر ، ولكنه يلقي أهل كل قصر وحدهم ، ويرى أول وفودهم إليه بهذا السهم النافذ إلى حميتهم العنصرية ليوقظ فيهم روح الكرامة والاعتداد من أقرب طريق ، ويشير نفوسهم ضد هذا الاستعباد الفارسي المضروب عليهم ، فقال لمشجدهم كالحجه لهم : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون منا ، ونحن إخوانكم في العروبة ، يجمعنا وإياكم روابط الدم واللسان ، والوطن ووشائج الحياة ، فنحن أحق بكم وبالوحدة معكم من هؤلاء الفرس الذين يدفعون في ظهوركم لتلقوا المنايا على أيدي إخوانكم ؟ وإن كنتم غير عرب ، فما تقومون منا وقد جئناكم ناشرين رايات العدل والإخاء الإنساني ، لا نريد استعباد أحد ولا استعمار بلد ؛ وإنما نبغى إنقاذكم من هذا الاستبداد بكم ، والظلم الذي أهدر إنسانيتكم ونريد إشعاركم بالعدالة الاجتماعية التي هي حق من حقوقكم الطبيعية . فإن دخلتم معنا في ديننا فأنتم إخواننا ، ونحن على سواء ؛ لكم من الحقوق في حرية العيش والتمتع بشعرات الحياة مثل مالنا ، وعليكم من الواجبات نحو خالقكم ونحو إخوانكم في الأسرة الإنسانية عامة مثل ماعلينا ، فلا سيد ولا مسود ، ولكنه إخاء لا يفضل فيه الأخ أخاه إلا بفضل عقله وعلمه وعمله . لا نهيجكم عن مقامكم فنطلب إليكم الهجرة من بلادكم ، ولا نتحكم فيكم فنحتكم عليكم الإقامة في دياركم ، وإن أبيتكم إلا العكوف على دينكم وخالككم مع السلم والأمان . فلنحمي علينا حق حمايتكم ، والدود عنكم ، كما نحمي ذمارنا ونذود عن أنفسنا ، ذلك الحق هو جزية تؤخذ منكم على قدر سعتكم وطاقتكم ، ما استطعنا إلى حمايتكم آمنين سبيلا ، فإن عجزنا عن أداء حقوقكم فيما عقدناه لكم فلا جزية لنا عليكم وأمركم مردود عليكم .

هذا منتهى ما يطلب من أمة تريد السلام قائما على رعاية قواعد الحق والعدل والرحمة ، وليس بعد ذلك إلا السيف في غير هواة ، وهنا يبرز خالد القائد الحربي ليقدف بهذه الرمية الصميمة حتى لا يترك لعارضيه مجالا في خديعة ، أو أملا في نجاة إذا اختاروا لأنفسهم « فقد والله أثبتتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » فهل وراء هذا لون من ألوان الحكمة السياسية يمكن أن يقال إنه فات خالد الداعي إلى الإسلام ، والقائد البطل الذي يدير دفة حرب لاهواة فيها ؟

رضى القوم لأنفسهم بالجزية فلم يتهلل لها وجه القائد العظيم ، وهذه أيضاً فريدة من خصائص النماذج الإنسانية الفاضلة التي صنعها الإسلام في مهاده الأولى ، لأن المسلمين الأولين لم يكونوا في انسياحهم في الأرض يبعثون الدنيا وزينتها ، فهم أبناء الشظف والزهادة ، ولكنهم كانوا يبعثون تخليص البشرية من أغلال الشرك البليد ، وتطهيرها من أوضار الوثنية الوضعية ، وتحريرها من رق العبودية للأباطرة والملوك والحكام ، ونشر المساواة والعدل بين أبناء البشر ، وتمكين كل فرد أو جماعة من صرف طاقته في الحياة ليكون جزاؤه وامتيازه على قدر هذه الطاقة التي هيأه لها استعداداً ، فكان دخول الأمم في دين الإسلام أحب إليهم وأرضى لأنفسهم .

ذلك ما أوحى لخالد رضى الله عنه كلمته الأخيرة التي ألقاها إلى قلب عدى بن عدى متحدث أهل الحيرة في أسف بالغ وإشفاق شديد على ما فوتوه على أنفسهم من خير وهداية قدما إليهم على أيدي إخوانهم وبني أبيهم من العرب المسلمين .

وليتأمل القارىء في صليح خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد بعث له قائد جيوشه بشرى الفتح وأخماس الغنائم ومعها هدايا المغلوبين ، فلم يرض الخليفة الراشد قبول هذه الهدايا تحت هذا العنوان من قوم مقهورين مغلوبين ، ولكنه رضى بها حقاً واجباً فيما عاهدوا عليه قائده العظيم ، فكتب إليه : أن احسب لهم هديتهم من جزيتهم .

عدل فوق
الرحمة

فهل يتصور المتشدقون - بما لعقوه من عصير فتات منن من مخلفات الموائد الأجنبية في الشرق والغرب ، فنقلوها إلى هذا الشرق الإسلامي الأسيف في قوالب براقية ، وألفاظ خلافة من « ديمقراطية » و « اشتراكية » في هذا العصر المضطرب ، وهم ينشدون العدل والأمن والسلام - عدلاً فوق عدل المسلمين الأولين الذين كانوا نماذج حية لروح هذا الدين القويم ؟ !

ليت قادة العالم وزعماء الدول الكبرى يقرؤون دستور الإسلام في القرآن السدرى ، وسيرة رسوله الأمين ، وتاريخ رجاله الأولين ليعلموا - إن كانوا صادقين - على أى أساس يجب أن يقوم العدل الاجتماعى في الأرض . وعلى أى أساس يتحقق الإخاء والتعاون بين الأمم ؟ !

صالح خالده رضى الله عنه أهل الحيرة وكتب لهم عهداً سجل مبادئ الإسلام
في تحديد العلاقة بين الغالب والمغلوب ، والقوى والضعيف ، فقال : « هذا ما عاهد
عليه خالده بن الوليد عدياً ، وعمر بن عدي ، وعمر بن عبد المسيح ، وأياس بن قبيصة ،
وجيرى بن أكال ، وهم بقاء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به ،
عاهدتهم على تسعين ومائتي ألف درهم ، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الديار هبائهم
وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حببنا عن الدنيا ، تاركاً لها ، وعلى النعمة ، فإن
لم نمنعهم فلا شئ عليهم حتى نمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فاللذمة منهم بريئة » .

نود للقارىء أن يسرح طرفه في كتاب خالده مرة ومرة ومرات فإنه سيزداد اقتناعاً
بما تحدثنا عنه من سمو المبادئ الإسلامية وارتفاع القائمين على تنفيذها في عهد العزة .
الإسلامية عن سطحية العنصرية أو القومية الضيقة إلى آفاق العدالة الإنسانية العامة .

وليتأمل في قوله : إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حببنا عن الدنيا « وفي .
قوله : « وعلى النعمة فإن لم نمنعهم فلا شئ عليهم حتى نمنعهم » ليدرك عدالة الإسلام .
والمسلمين في أخذ الجزية ممن رضى بها .

كان فتح الحيرة عملاً حربياً عظيم القيمة ، وسع أمل المسلمين في فتح بلاد باب فارس ،
لمسكان هذا البلد الجغرافى والأدبى من العراق والمملكة الفارسية ، فقد اتخذها أمير
المسلمين خالده بن الوليد مقراً لقيادته العليا ومركزاً رئيسياً تتلقى منه جيوش الإسلام
أوامر الهجوم والدفاع والإمداد والنظم ، وكذلك جعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة
التي يقوم عليها تنظيم مواقع في يد المسلمين .

بث خالده عماله على الولايات لجباية الخراج والجزاء ، ووجه أمراءه إلى النهر
لحمايتها ، وأقام هو رئيساً يتهم ما أراد من الاستقرار والنظام ، وترامت أخباره إلى الدهاقين .
والرؤساء فأقبلوا إليه يصالحونه حتى لم يبق ما بين قرى سواد العراق إلى أطرافه من .
ليس مولى للمسلمين أو على عهد منهم .

وقد كان لهذا الفتح إلى جانب ذلك أثره البالغ في أنفُس العرب المغلوبين مع حمايتهم من أهل فارس ، فأوهن عزائمهم ، وفل شكيمةهم ، وخضد شوكتهم ، وبجمعهم أسفاً ونحسراً ، فسجلوا ذلك في أشعار كثيرة رواها الثقة من المؤرخين ؛ ولهذه الأشعار قيمة أدبية وتاريخية عظيمة في تاريخ الأدب في هذا الجانب من وطن الأمة العربية ، كان عند كثير من الباحثين في الأدب العربي وتاريخه مظنة تشكيك في صلاته القومية واللغوية بالأمة العربية ، فمن ذلك قول ابن بقللة :

أبعد المنذرين أرى سواما	تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أوعى	قلوصا بين مرة والخفير
فصرنا بعد هلك أبي قبيس	كجرب ^(١) المعز في اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد	علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم	فنحن كضرة الضرع المفخور
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى	وخرج من قريظة والنضير
كذلك الدهر دولته سجال	فيوم من مساءة أو سرور

وكذلك كان لهذا الفتح شأنه العظيم في نفوس المسلمين ، فقوى عزائمهم وشد أزهرهم ، وأطعمهم في عامة دولة الفرس ، وتغنوا بفخره في أشعارهم ، فمن ذلك قول فارس الأبطال القعقاع بن عمرو :

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة	وأخرى بأباج ^(٢) النجاف الكوانف
فنحن وطننا بالكواظم هرما	وبالثلث قرنى قارن ^(٣) بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت	على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كاد عرشهم	يميل به فعل الجبان الخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا	غبوق المنايا حول تلك الحارف
صبيحة قالوا : نحن قوم تنزلوا	إلى الريف من أرض العريب المقائف ^(٤)

(١) الجماعة . (٢) اسم مكان . (٣) اسم موضع . (٤) هو من قولهم أرض قنفة : متشعبة

ويذكر المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر المسلمين بهذا الفتح ، فسأله رجل أن تكون له كرامة بنت عبد المسيح أحد سادات الحيرة ، فقال له : هي لك إذا فتحت عنوة ، فلما تم لخالد فتح الحيرة ، ونزل أهلها على حكمه جاءه صاحب الوعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وسماه الطبرى « شويلا » وسماه ابن الأثير « خريم بن أوس » وسمى المرأة الشفاء بنت نفيل - يستنجز خالد الوفاء بذلك الوعد وشهد له جماعة بأن ذلك قد كان ، فجعل خالد في شروطه على أهل الحيرة تسليم هذه المرأة ، فشق ذلك على قومها ، وخاطروا الرجل ، فأعظموا له الخطر ، فقالت لقومها : لا تخطرروه ، ولكن اصبروا ، متخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ ! فإنما هذا رجل أحقق رأيي في شيبتي فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إلى الرجل ، فلما كانت في يده قالت له . ما أربك إلى عجوز كما ترى ؟ ! فادنى ؟ قال : لا ؛ إلا على حكمي ؛ قالت ، وكأنها أنست منه السداجة والغفلة : فلك حكمك مرسل ؛ فقال : لست لأمر شويل ، إن نقصت من ألف درهم ، فاستكثرت ذلك لتخذه ، ثم أتته بها ، فأرسلها ورجعت إلى أهلها ، وتسامع الناس بذلك فلاموه ؛ فقال : ما كنت أدرى أن عدداً يزيد على ألف ، فقال خالد : أردت أمراً وأراد الله غيره ؛ فأخذ بما يظهر وندعك ونيئتك . وفي هذه القصة تتمثل عدالة الإسلام في قضاء خالد رضى الله عنه .

وهذه المرأة - على رواية الطبرى - هي أخت عمرو وعبد بن المسيح أحد نفر الدين عاقدهم خالد عن أهل الحيرة ، ويذكر المؤرخون أن عمراً هذا من الدهاة المعمرين ، ويروون له أعاجيب ، ويحكى الطبرى أحداثاً عجيباً جرت بينه وبين خالد بن الوليد ، فقد سأله خالد لما رأى شيخوخته الفانية ، ورجوع قومه إليه في الورد والصدر ، قال له خالد : كم أتت عليك ؟ قال مؤسسين ؛ قال : فما أعجب ما رأيت ؟ ! قال : رأيت القرى منظومة ما بين دمشق والحيرة ، تخرج المرأة من الحيرة ، فلا تزود إلا رغيفاً فتبسم خالد ، وقال هل لك من شيخك إلا عقله ؛ خرفت والله يا عمرو ، ثم أقبل خالد على أهل الحيرة . فقال ألم يبلغني أنكم خبئة ، خدعة مكرة ، فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لا يدرى من أين جاء ؛ فتجاهل له عمرو وأحب أن يريه من نفسه ما يعرف به عقله ، ويستدل به على صحة ما حدثه به ، فقال : وحقك أيها الأمير إنى لأعرف من أين جئت ،

أقصصة
أخرى

قال : فمن أين جئت ؟ قال : من بطن أمي ؛ قال : فأين تريد ؟ قال : أمامي ، قال : وما هو ؟ قال : الآخرة ؛ قال : فمن أين أقصى أترك ؟ قال : من صلب أبي ؛ قال : ففيم أنت ؟ قال في ثيابي ؛ قال أتعقل ؟ قال : أي والله وأقيد ؛ فوجده حين فره (١) أعضاء ، وكان أهل قريته أعلم به ، فقال خالد : قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضا عالمها ، والقوم أعلم بما فيهم ، فقال عمرو : أيها الأمير ؛ النملة أعلم بما في بيتها من الجمل بما في بيت النملة .

ومهما يكن أمر هذه القصة فهي لون من الحديث الذي يصور لنا خالدًا في نظر راسمي شخصيته من القدامى ، شخصية مستقصية مفيدة من تجارب غيرها ، ولكنها لا تؤمن إلا بما تعقل .

غزو فارس أجمع خالد أمره على منازلة الفرس في ساحات ملكهم بعد أن صفاه الجو في العراق ، في عقر دارهم وأمن ظهره بانحسار أمر فارس عن العرب فيما بين الحيرة ودجلة ، وكان أهل فارس في هذه الفترة على خلاف شديد فيمن يولونه عليهم بعد موت كسراهم أردشير ، فأنهز خالد هذه الفرصة وكتب إلى خاصتهم يقول : « من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس : أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك كان شرا لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وكتب إلى عامتهم فقال : « من خالد بن الوليد إلى مرازمة أهل فارس : الحمد لله الذي فض خدمتكم ، وفرق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزكم ، فإذا أتاكم كتابي فأسلموا تسلموا ، أو اعتقدوا منا الذمة . وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذي لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ؛ ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا » .

تيمن خالد قال : ثم دعا خالد برجلين أحدهما عربي حيرى ، والآخر نبطي ، فقال للعربي ما اسمك ؟ قال : مرة ، قال : خذ الكتاب وأت به أهل فارس اهل الله أن يمر عليهم عيشهم ، أو يسلموا وينيبوا ؛ ثم قال للنبطي ما اسمك ؟ قال : هز قيل ، فقال : اللهم أزهق نفوسهم .

وقد كانت حجة الفأل الحسن من أخلاق النبوة ، ومن نورها يقتبس خالد ، وإخوانه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون ذلك في خالد على سنن سلامة الفطرة والتطلع إلى معرفة الغيب ، وهذا خلق يشبه أن يكون نحيضة في نوابع العبريين ، وهم غير مختارين فيه ، فأخذهم على أنه جانب من جوانب الضعف في شخصية العبرى غفلة عن حقيقة الطبيعة البشرية ، وإغراق في تقديرها تقديراً مجاوز بها حدودها المرسومة لها في الحياة .

أرسل خالد رسوله بالكتابين ، ونهض على تعبثته لغيث عباس بن غنم ، وجعل مقدمته الأقرع بن حابس ، وخلف على الحيرة فارس الأبطال الفقعاس بن عمرو ، وسار بالجيش حتى بلغ الأنبار ، فوجد أهلها قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم ، ثم نظر خالد إلى أعدائه بعد أن طاف بالخندق ، وعرف مأتية ، وثغرات الضعف فيه ، فرأى قوما من ألفاف العرب ولوائف النبط . يتغشاهم الفشل . ويتملكهم الخور والانحلال ، وكان خالد إذا رأى الحرب لم يصبر عنها ، فأنشب القتال وتقدم إلى الرماة من جند الإسلام فقال لهم : « إني أرى أقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ، ولا تؤخوا غيرها » فاستجابوا لأمره ، ورموا رشقاً واحداً ثم تابعوا ففحق لأهل الأنبار ألف عين يومئذ ، فتصايحوا : ذهب عيون أهل الأنبار .

هذا لون من ألوان الحرب الخاطفة التي يقصد إليها تقصيراً لأمد القتال ، وتجافياً عن سفك الدماء ما أمكن ذلك ؛ وإرهاقاً للعدو حتى يكون في ذلك تشريد لمن خلفهم بالرعب والفزع ، وإلى هذا النحو قصد خالد من هذه الخطة التي وضعها للهجوم في أول مرحلته . فنجح وتحققت فراسته ، فلم يكذب زعيم الفرس وقائدهم «شير زاذ» يسمع تصايح أصحابه حتى أوفد إلى خالد يطلب منه الصلح ، ولكنه عرض ما لم يرضه خالد من الشروط ، فرد عليه وفده خائباً ، وألقى إلى السيف زمام الأمر يقوده إلى نهايته بمجده ؛ وكان خالد قد استبطن سر خنادقهم ، ونوافذ حصونهم ، فأتى إلى أضيق مكان ورمى فيه بكل ضعيف من الإبل بعد نحره ، ثم عبر عليها ليلقي عدوه في مضاربه وراء الخنادق والحصون ، وعندئذ رأى قائد الفرس «شير زاذ» من قائد الإسلام وجنده الجند الذي لا يقوم له هذا الخليط من شذاذ المحميين من العرب وشراد سادتهم من أهل فارس المحميين (م ١٤ — خالد ابن الوليد)

سياسة
ماهرة

لغير غاية ، فأرسل « شير زاذ » إلى خالد ، وبذل له ما أراد من شروط الصلح على أن يبلغه مأمنه ، فلما أتى « شير زاذ » صاحبه وقرنه « بهمن جاذويه » وأخبره الخبر لآمله على فراره وتسليمه ، فقال معتذراً : « إنى كنت فى قوم ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب فسمعتهم مقدّمهم علينا يقضون على أنفسهم^(١) . ولما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم ، ثم قاتلهم الجند ففقتوا فيهم وفى أهل الأرض ألف عين ، فعرفت أن المسألة أسلم » .

أمن أهل الأنبار فى ظل الصلح مع المسلمين ، ورأى خالد فيأرأى منهم أنهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فراقه منهم ذلك ، فسألهم : ما أتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فقال : بمن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : من إباد ، وأنشدوه لشاعرهم :

قوى إباد لو أنهم أمم^(٢) أو لو أقاموا فتزل النعم
قوم لهم باحة المراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم

واقعة تجمع بقايا العرب الموالين للفرس من قبائل تغلب ، والنمر ، وإباد ، ومن انضم إليهم « عين التمر » قريبا من « الأنبار » بعد أن خلصت للمسلمين ، وجعلوا منها قاعدة فرعية لمعسكر المسلمين ، بمكان يقال له : « عين التمر » وكان به « مهران بن بهرام » فى جوع من العجم . وعلى العرب يومئذ « عقة بن أبى عقة » فلما بلغ أمرهم خالد استخلف على الأنبار « الزبرقان بن بدر » وسار إليهم فى جموع المسلمين حتى كان قريبا منهم ، فأنبرى « عقة » مأخوذاً بعزة الجاهلية وحيتها ، وقال لقائد الفرس ابن بهرام : إن العرب أعلم بقتال العرب . فدعنا وخالد ؛ فاهتبلها الفارسى ، وأجاب عقة فى خبث ودهاء إلى ما أراد ، وقال له : صدقت لعمري ، لأنهم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لملثنا فى قتال العجم ، فدو نكموهم ، وإن احتجتم إلينا أعناكم . فخازت خديعة الفارسى على عقة وقومه ، فجعلوهم فى وجه خالد واتقوا بهم عزائم المسلمين ؛ وكان الفرس لا يرون للعرب قدراً يبلغ بهم أن يكونوا

(١) معنى هذه الجملة : إنهم يتحدثون فيما بينهم بقوة مدوهم وضدّهم عند لقاءه .

(٢) أمم : جميع :

وإياهم على سواء ، لذلك عز على عامة الفرس في جيش ابن بهرام صنيع قائدهم مع الزعيم العربي « عقة بن أبي عقة » فقالوا له : ما حملك على أن تقول لهذا « الكلب » هذا القول ؟ فقال : دعوني ، فإنني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم ؛ إنه قد جاءكم من قتل ملوككم ، وفل حاكم فائقته بهم ، فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوىاء وهم مضعون .

بيد أن الأمر انتهى على غير ما قدر قائد الفرس في غدره المبيت بحلفائه من العرب نخاليد بن الوليد لا ينال من شجاعته تهور « عقة » وحمقه في تشاجعه ، ولا من وقدة ذهنه وومضات عقله مكر ابن بهرام وخنتله ، فقد ضرب خالد « عقة » ضربة طار لها قلب صاحبه الفارسي من ورائه ، فلم تحمله ساقاه ولا اعتدل به ظهر جواده .

تقدم « عقة » في جموع من العرب فوقف لخالد على طريق الكرخ بينه وبين الفرس الذين اعتصموا بحصن « عين التمر » ومشى خالد يجيوشه حتى كان في وجه « عقة » وأصحابه ، فوجداه يعدل صفوف جيشه ، فلم يمهله ، بل انقض عليه كالشهاب الصاعق ، بعد أن ألقى إلى مجنبتيه من جند الإسلام : إني حامل على « عقة » فاكفوني ما عنده ، فلم يرتد إليهم طرفهم حتى عاد إليهم به أسيراً بين يديه ، وانفرط عقد جند « عقة » وانحل نظامهم ، وانهمزوا هزيمة منكسة ، وتبعهم المسممون يقتلون ويأسرون كيف شاءوا ، ولم ينبج منهم إلا من أدرك الحصن فاعتصم به .

ولم يكد ما حل بجيش « عقة » يبلغ القائد الفارسي الذي دبر وقدر حتى تساقطت دعائمه فلم يقو على الثبات ، ففر بجيشه يسابق الريح طلباً للنجاة من هول العزائم المسملة .

اعتصم العرب الذين نجو بالحصن بعد أن خلاهم حلفاؤهم من أهل فارس ، وظنوا أن تحصنهم يجعلهم في مأمن ومنجاة من صوارم المسلمين ، وأن خالد أوجيوشه إن هم إلا قورم من العرب عضهم الجوع في قفارهم ، فجاءوا يغيرون على ريف العراق لينالوا من خيراته ، ويقنعوا بالغنائم والأسلاب ينهبونها والأموال يسلبونها ، ثم يعودون إلى قفرهم راضين بما أصابوا .

قصور في التفكير ، وجهالة بتصاريف الحياة ، وقبوع عند مطالب البطن في أحط مظاهرها ، وكذلك كان شأن العرب قبل أن يجعل الإسلام منهم أبطال هداية ، وأئمة دين ،

ونماذج للفضيلة ، أخرجهم من ديارهم يدعون إلى توحيد الله ، ونشر راية العدل والرحمة بين عباد الله لا يريدون مغنا ، ولا يبتغون مالا ، من أجابهم إلى الحق والهدى فهو أخوهم ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن أبى عناداً ووقف في طريق الدعوة يصدها عن وجهها أوردوه موارد الختوف وهم عند الله يؤمئذ أبر خلق الله .

جاصر خالد الحصن ، وجاء بطاغيته وقائدهم « عقة » فضرب عنقه وطرده اليهم على أنظارهم ليفل من حدهم ويطامن من غرورهم ، ويؤيسهم من موقفهم ، فزولوا على حكمه مكرهين ، وتسلم خالد الحصن ، وغنم جميع ما فيه من أموال وذراى ، ولقى في كنيسهم أربعين غلاماً محبوبين على تعلم الإنجيل ، فقال لهم : ما أنتم ؟ قالوا : رهن ، قسمهم في أهل البلاد من جنود الإسلام ؛ فكان من هؤلاء العامة المنقذين كثير من العلماء والقواد الأبطال ، والساسة المفكرين من رجالات الإسلام ، فمنهم سيرين والد محمد بن سيرين ثاني اثنين من سادة التابعين ، ومنهم نصير والد موسى بن نصير القائد الأموى فاتح الأندلس بمولاه طارق بن زياد ، ومنهم حمران ، مولى عثمان بن عفان ، وغيرهم من ذوى الأثر الحميد في دولة الإسلام ، وتاريخ الإسلام .

فتح دومة الجندل
بعث خالد رضى الله عنه بالفتح والأخماس إلى أبى بكر الصديق مع الوليد بن عقبة ، فلما قدم الوليد دار الخلافة وبلغ رسالة قائده رأى الخليفة أن يرسل الوليد « لعياض بن غنم » فليحق الوليد بعياض فلقبه وهو محاصر دومة الجندل ، وأهلها قد أخذوا عليه الطرق فأشجعوا عياضاً وشجوا به ، فقال الوليد لعياض : رأى فى بعض الحالات خير من الجند الكشيف ؛ ابعث إلى خالد فاستمده . وكان الوليد من أعرف الناس بيمين نقيبة خالد وفضل شجاعته ، وبراعة تفلته من المضايق ، وبصره بمنافذ الخروج من الأزمات ، وجراءته على اقتحام الوغى وتفريج كربات المؤمنين ، فأجابه عياض إلى مارأى ، وأرسل إلى خالد يستغيث به ، فكتب إليه خالد كتابه المشهر فى التاريخ والأدب قال :

« من خالد إلى عياض ؛ إياك أريد » .

لبث قليلا تأتاك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب^(١)

كتائب يتبعها كتائب

وهو فيما عرف الأدب العربي أوجز كتاب وأفيد فيما قصد إليه ، وهي ناحية من نواحي العبقريّة الخالدية في ميدان البلاغة العربيّة ، كانت جديرة أن تجعل أبا سليمان خالد بن الوليد في أول صف الرعيل الأول من مداره العربيّة وبلغائها المقاول ، وهي تكشف عن جانب في العقل العربيّ حرى بالدرس الواعي ، تلك هي ناحية تركيز المعاني التي تحتاج إلى رسائل مطولة في صورة من الإيجاز القوى البارع المنتهى إلى غايته من أقرب طريق ؛ وكان هذا واجب الذين يعنون بدراسة الأدب « المقارن » ولاسيما في العصر العباسي ، عصر الرموز والتوقيعات المنقولة مع التفكير الفارسي ، حتى لا تغمط العقل العربيّ الخالص حقه في فراهة البداة واكتناز التفكير .

لم يكد كتاب خالد يلم بساحة عياض حتى كانت صيحات جيوشه صواعق في آذان أهل شهادة خصم دومة الذين استنفروا مظاهريهم من غسان وتنوخ وبهراء وكلب ، وكان عليهم « أ كيدر ابن عبد الملك » و « الجودي بن ربيعة » فلما دنا منهم بطل الإسلام خالد تفزعت قلوبهم ، وتفرقت كلمتهم . واختلفوا على أنفسهم ؛ فقال « أ كيدر » وكان من قبل أخيدا لخالد ، فمن عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأطلقه ، وكتب له كتابا ، نفاس^(٢) بهمه وخان ذمته وغدر مرتدأ عن الإسلام ؛ « أنا أعلم الناس بخالد ؛ لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أحد في حرب ؛ ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوبا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم » فأبوا عليه رأيه ، فالتخذل عنهم ، وقال : لن أمالككم على حرب خالد ، فشأنكم ؛ ثم فر هاربا حذرا أن يراه خالد رضى الله عنه .

وإذا أدار الباحث نظره فيما قاله أ كيدر في وصف خالد رأى رجلا يتحدث عن رجل خبره وعرف أمره عن تجربة واحتكاك ، فهو قد راز خالد قبل يومه هذا ،

(١) الحلائب : جمع ، مفردة حلوبة وهي الناقة المحلوبة اللبن ، والقاشب من قولهم : سيف قشيب أي حديث عهد بالجلاء .
(٢) نفاس : فناء ، خاس بالهمد : نقضه .

فعمرك خالد أديعه في حرب له على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فعرف عن خالد هذا الذي تحدث به إلى قومه في صراحة لا ترحم، فهو يصف خالداً بيمين النقية، ومحالفة التوفيق، وأنه أقوى الناس في الحرب، وأحدهم في ميادينها، وأنه موهوب بما أكسبه في نفوس أعدائه هيبة وجلالا، فلا يراه قوم إلا رعبوا منه وانهمزوا أمامه؛ ولو كانوا في كثرة الحصى، وهذه نعوت تجلت في تاريخ خالد ووقائعه. ثم إن «أكيدر» لا يدهان عن نفسه، ولا يستطيع أن يمكن خالداً من النظر إليه لسكان غدره بالمسلمين؛ وخيائه لعهد النبي صلى الله عليه وسلم، وارتداده عن الإسلام فيفر هارباً ويلاحقه رسول خالد، فيجىء به إليه ويضرب عنقه.

اتخذ خالد خطة الالتفاف حول أهل دومة ومشايعهم من بهراء وكتب وتنوخ، فجعلهم جميعاً بين فكي «كاشة» ذراعها الأولى عسكره، والثانية عسكر عياض بن غنم، واشتبك القتال في الجانبين، فأخذ خالد صاحبه أكيدر وانهمز الجودي بن ربيعة لا يلوى على شيء، ومكن الله عياضاً ممن كانوا في وجهه فربعهم، فطار منهم من استطاع إلى الحصن يعتصمون به حتى امتلأ ولم يتسع لسائرهم، فغلقوا الأبواب دون إخوانهم، وبقي من بقي منهم خارج الحصن تحت ظلال السيوف المسلة، ولم يبرح خالد عن محاصرة الحصن حتى اقتلع أبوابه، واقتحم على من فيه فألقاهم بإخوانهم.

وقائع كان قتل «عقة بن أبي عقة» غصة تأخذ على عرب الجزيرة أنفاسهم، فهم متربصون، «خنابس» حتى إذا رأوا خالداً قد تباعد به المنزل عن الحيرة والأنبار وهما أعظم مسالح المسلمين في و «الحصيد» هذا الجانب من دولة الإسلام؛ هموا بالغدر به، وكتبوا الأعاجم، واتعدوا معهم مكاناً يقال له «خنابس» بالقرب من الأنبار، فلما شعر الزرقان بن بدر خليفة خالد على الأنبار استمد القعقاع بن عمرو، وكان على الحيرة، فأمد القعقاع بجيش تحت قيادة أعبد بن فديك السعدي؛ وعروة بن الجعد البارق؛ تقدما حتى وقفا في وجه قائد الفرس «روزبة» و «زرمهر» ومنعاهما من التقدم حتى بلغ الخبر خالداً؛ وكان رجع من دومة إلى الحيرة، فأرسل القعقاع وأباليلي بن فديك إلى قائد الفرس، ثم

بلغه أن قوما من العرب عليهم الهذيل بن عمران ، وربيعة بن بجير خرجوا يريدون
الفرس لينضموا إليهم في محاربة المسلمين أخذاً بثأر «عقة» فنهض إليهم خالد ، واستخلف
عياضا على الحيرة ، وعبي جيشه فجعل على مقدمته الأقرع بن حابس ، وسار حتى لقي
القعقاع وأبا ليلى ، ووجه القعقاع إلى «الحصيد» في أطراف العراق . وجعله أميراً على
الناس في هذا الوجه . ووجه أبا ليلى إلى «الخنابس» ليدفعوا في ظهور الأعداء من
كل جانب حتى يتجمعوا فيتسنى لخالد ضربهم ضربة حاسمة ، ولكن الفرس وألفاف
العرب معهم فطنوا إلى ما يراد بهم فآثروا الفرار عن اللقاء ، وجبنوا فلم يجتمعوا ،
وفزعوا فلم يثبتوا .

واقعة

«المسيخ»

أصاب القعقاع بن عمرو أهل «الحصيد» وهرب أهل «الخنابس» من وجه أبي
ليلى بن فديك ، فأبلغا خالداً انتصارهما فيما وجههما إليه ، فكتب إليهما خالد ، وإلى أعبد
ابن فديك ، وعروة بن الجعد ، يواعدهم ساعة من ليلة بعينها يجتمع فيها معهم بمكان يقال له
«المسيخ» بين حوران والقلت ، وكان خالد مقبلاً بعين التمر ، ومنها نهض للقاء أصحابه
فلما كانت الليلة الموعودة وافى خالد أصحابه في الساعة التي عينها لهم ، وفيها وافوه بعدد هم
وعتادهم ، فاجتمعوا هناك بالمسيخ ، وكان قد نزل به قوم من تغلب عليهم هذيل بن
عمران ، فبيتهم خالد وأصحابه من ثلاثة أنحاء ، فلم يفلت منهم سوى قائدهم الهذيل مع
نفر قليل من خاصته .

وفي هذه الواقعة أصيب عبد العزى بن أبي رهم ، وليد بن جرير وكان قد أسلما
وكتب لهما أبو بكر كتاباً بسلامتهما ، فلما بلغ أبا بكر قتلتهما ، وبلغه قول عبد العزى عند
قتله :

أقول إذا طرق الصباح بغارة سبحانك اللهم رب محمد

سبحان ربى لا إله غيره رب البلاد ورب من يتورد

جعل يردد قوله : سبحانك اللهم رب محمد ؛ ثم ودأها وأوصى بأولادها ، وقال :
أما إن ذلك ليس على ؛ كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب في ديارهم .

وقد كان قتل هذين الرجلين مما يأخذه عمر بن الخطاب على خالد مضافاً إلى قتل
مالك بن نويرة فيما يقول بعض الرواة .

وقارىء هذه البحوث قد عرف شأن قصة مالك بن نويرة وموقف الفاروق فيها ، وأغاليط الرواة ، وزيف الروايات ، وبراعة خالد من إثمه إن كان فيه إثم ؛ وهنا يستشف القارىء من قولة أبي بكر رضى الله عنه في شأن هذين الرجلين عذراً وجيهاً لخالد وجيشه ، وأنه ليس على أحد في قتلها حوب أو ملام ، بل إن أبا بكر نفسه يذهب إلى أبعد من ذلك ، فينفي عن نفسه مسئولية قتلها باعتبارها الإمام الأعظم ، فلو كان على أحد تبعة لكان عليه منها نصيب ، ولكن كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب .

انتصار خالد
بالرعب
وكان خالد رضى الله عنه ممن ينتصر باسمه كما ينتصر بسيفه . يسبقه اسمه إلى أعدائه قبل موافقتهم ، فيعمل الرعب في قلوبهم ما تعمله الصواعق ، ويشيع الفزع بينهم فتتحل قواهم ، وتنهار عزائمهم . روى الطبرى عن عدى بن ساتم أنه قال : أغرنا على أهل المصيخ وإذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامراته ، وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف ، يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة . وفي أعجاز الليل ؟ فقال : اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمرآ بعدها : هذا خالد بعين النمر ، وقد بلغه جمعنا ، وليس بباركنا ، ثم قال :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر بعيد انفاخ القوم بالسكر الدهر (١)
وقبل منايانا المصيبة باتقدر حين لعمرى لا يزيد ولا يجرى (٢)

ويروى ياقوت في معجم البلدان : أن ربيعة لما تجمعت إلى الهذيل بن عمران نفسها لعنة بن أبي عقبة لتأخذ بثأره من خالد وجيشه ، نهشم حرقوص بن النعمان عن مكاشفة خالد ، فعصوه ، فرجع إلى أهله وهو يقول :

ألا فاسقيانى قبل جيش أبى بكر لعل منايانا قريب ولا ندرى
ألا فاسقيانى بالزجاج وكررا علينا قيمت اللون صافية تجرى
أظن خيول المسلمين وخالدا ستطرقكم عند الصياح على البشر
فهل لكم بالسير قبل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخدر

(١) العكر : الإبل الكثيرة ، والدثر : الكثير من المال .

(٢) يجرى : ينقص ، قال فى اللسان : جرى الشيء يجرى جرأ : نقص .

أربنى سلاحى يا أميمة إننى أخاف يبات القوم أو مطلع الفجر
عرف خالد رضى الله عنه بعد إيقاعه بأهل المصيخ أن ربيعة بن بجير التغلبى فى حشود
من العرب والفرس مقيم بالثنى ، وهو جبل يأخذ فى عرض الفرات من أرض الشام ،
فتقدم إلى قائدیه القعقاع وأبى ليلى أن يسبقاه إلى الثنى ؛ وواعدهم ليلة معينة فيها
يلتقون ، ورسم لهم خطة الهجوم على غرار ما صنع بأهل المصيخ من الإحاطة بالعدو ،
وأخذ من ثلاثة أوجه ، وتم لهم ما أرادوا فلم يفلت من أصحاب ربيعة بن بجير أحد ،
وكثر غنائم المسلمين فى هذه الوقائع فقسمها خالد على جنده ، وبعث بالخمسة إلى أبى
بكر مع النعمان بن عوف الشيبانى ، وكانت فى السبى ابنة لربيعة بن بجير ، فاشترها على بن
أبى طالب رضى الله عنه ، فجاءت منه بولديه عمرو وريقة .

كان الهذيل بن سمران قد لجأ بعد فراره إلى مكان يقال له « البشر » وهو جبل
يتمدد مع الثنى ، وكان بالبشر رجل يقال « عتاب » تجمع إليه عسكر ضخم ؛ يريد
حرب المسلمين ومنازلهم ، فبلغ خبره خالد آ رضى الله عنه ففضى على من تجمع إليه ،
ولم ينبج منهم أحد ، ثم عطف خالد إلى هلال بن عقة ، وكان متربصا بالرضاب ، وهو
موضع الرصافة قبل أن يابنها هشام بن عبد الملك ، فلم يكدر يسمع أصحاب هلال
بدنو خالد حتى ارفضوا عنه ، وخنلوه وحده فزایل الرضاب ، فاستولى عليه خالد
دون قتال .

نظر خالد إلى ما صار فى يده من سواد العراق ، فرآه أصلح معسكر يثب منه إلى
قلب فارس ، بيد أنه رأى من ورائه الفراض (١) ، والنعخوم ، وأطراف العراق والجزيرة « الفراض »
بما إلى الشام ؛ وفى الشام الروم لا تزال شوكة لوخللها وراء ظهره وانجبه إلى قلب فارس ؛
لم يأمن شوكتها ، وكان فيما أوصاه أبو بكر حينما وجهه لفتح العراق :
حماية ظهره أبدا ، فتوجه على تعبئته إلى الفراض ، وتسامعت بمسيره الروم فى شامها ،
واستعدت للقائه حشود من الفرس ، ولغائف من تغلب ، وإباد والنمر ، وراسلوا الروم ،
وكاهم حردان (٢) حاقد على المسلمين ، قد شوى العيظ أكبادهم ، وأنضج لخب الحفيظة

(١) الفراض جمع فرة ، وهى موارد الاستقاء من الأنهار ويراد هنا ما حولها من الأماكن
الآهلة بالناس .

(٢) حردان : غاضب .

قلوبهم ، فقد وطىء المسلمون رقابهم ، ونزعوا نواصي أشرافهم ، فتمثلوا مصارع ساداتهم بأيدي هؤلاء المسلمين من العرب الذين كانت فارس تراهم في مكان الخول والاتباع ، فأصبحوا بهذا الدين الجديد وإذا هم سادة فاتحون غلابون ، لا يصددهم صاد ، ولا يرددهم عن البلاد والعباد راد .

تجمع من هؤلاء وأولئك جيوش جرارة ، وواجهوا جيوش المسلمين ، يفصل بينهم الفرات ، فقال الأحلاف للمسلمين ، إما أن تعبروا إلينا أو نعبث إليكم ، فقال خالد بن الوليد : لا ، ولكن اعبروا أسفل منا ، فأدرك الروم من هذه الكلمة الحكيمة سر تضعع الفرس أمام هذا البطل المسلم ، فقالوا : احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم ، والله لينصرن ، ولنخذلن ١١ .

نعم ، ولقد صدقوا ، فخالد بن الوليد أشجع الناس في حرب ، وقلمما يصبر على الحرب إذا رآها ، ولكنه العقل الذي لا يطيش ، والرجل الذي لا تستغزه الخدع ، والبطل الذي لا يلفت من يده زمام الرأي ، فلم يثره العجب بسابقات الظفر ليدفع بمجده إلى مضايق لا تؤمن مغايها ، ومداخل لا تعرف مخارجها ، وتقدمت قد لا تسلم عواقبها ، فتصبر ، وأبى أن يعبر إلى عدوه ، وطلب إليهم أن يعبروا هم أسفل منه ليقا تل المسلمون أعداءهم في مكانهم الذي اختاروه لجولاتهم ، وأثقالهم على بصيرة وتقدير .

عبر الأحلاف أسفل من المسلمين حتى تم جمعهم ، ثم قالت الروم لفارس : امتازوا حتى نعرف اليوم من أين يكون الثبات أو التولى ، وهذه أولى خطوات الهزيمة ، لأن انعدام الثقة بين الجنود سهم نافذ يوجهه الله إلى قلب من يريد خذلانه من جنود الباطل ، وإلما إذا بقي من الروح المعنوية لجيش تجمع من لفائف الأجناس والعناصر ، تحالفوا على الشك بعضهم في بعض ؟ وهل يبقى الشك لدى الجندي عزمة إقدام أو أين هذا من موقف خالد يوم اليمامة ، وقد عرف من الأعراب الذين تجمعوا معه ممن كانوا قد ارتدوا أنهم لا يقاتلون عن عقيدة ، ولكنهم جاءوا لطلب الغنيمة ، نفقوا المسلمون أن يؤتوا من قبلهم ، فقالوا للقائدهم : أخلصنا ، فنحى أولئك الأعراب المزعزعين عن تلقى حر السلاح ، وجعل الصدارة لأهل الصبر واليقين من المهاجرين والأنصار ، ورضوه من الأعراب تسخير سواد المسلمين وقيامهم بما تقوم به فرق العمال في الحروب الحديثة .

امتناراً لأحلاف ، فكان الفرس بلوائهم ، وكان أخلاط العرب بلوائهم ، وكان الروم بلوائهم ، واقتتل الجمعان قتالاً مريعاً ، وتبدت لخالدرضى الله عنه بشائر النصر يعقد بلواء المسلمين ، فقال لجنوده : ألحوا عليهم ، ولا ترفهوا عنهم . فجعل خيالة المسلمين وفرسانهم يأخذونهم زمراً ، يرقل الفارس^(١) المسلم إلى الزمرة من الأحلاف فيحشرونهم برماح أصحابه حتى إذا سقطوا في جبالهم أتوا على أنفسهم ، فأنجحت المعركة بهزيمة ساحقة لفرس ومن لف لفها من الأعراب ، ونصر حاسم يعقد بنواصى المسلمين ، ونذير يأتي به الله تعالى طليعة للروم .

وكانت هذه الواقعة آخر واقعات خالد بن الوليد رضي الله عنه مع الفرس بالعراق وقد كثرت فيها قتلى الروم وفارس ، وأتباعهم من العرب ، حتى قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف قتيل .

ومهما يكن أمر هذا التقدير في ميزان التصحيح فإن الثابت الذي لا يمتري فيه . أن فارس لم تقم لها شوكة حربية يخشاها الإسلام بعد هذه الموقعة .

(١) يرقل : هو من أرقل لما أسرع .

عزيمته خالدين

كان خالد رضى الله عنه قد اتخذ الحيرة قاعدته الكبرى بالعراق ، ينشر منها رايته إذا غزا ، ويرجع إليها إذا ثوى ، ولما انتهى من وقعة الفراض ، ودانت له تخوم الشام ، أذن في الناس بالرحيل إلى مستقره ، وقاعدته مصر العراق (الحيرة) ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش ، وجعل شجرة بن الأعز ساقا له ، وأظهر في الناس أنه سيكون في الساقا .

تحرك الجيش بثقله وعتاده ، وانطوى خالد رضى الله عنه على مغامرة من أخطر المغامرات ، فقد عزم أن يأتي مكة ويحج مع الناس ، ثم يدخل الحيرة مع الجيش في الساقا ، وخالد إذا عزم ألقى بين عينيه الوصول إلى هدفه مهما تكن العواقب في طريقه ، فخرج في جماعة من خاصة أصحابه مسامتا مكة ، يعتسف البلاد اعتسافا ، ويمتحم السبل اقتحاما ، فتأني له ما لم يتأت للخزيت الحاذق ، وجاز من دروب الصحراء أصعبها ، وقطع من طرقها أعجبها ، حتى أسامه ذلك إلى عرفات ، فحج ثم عاد إلى جيشه ، فدخل معه الحيرة ، فما توافى آخرهم حتى وافاهم خالد مع رفاقه في كتيبة ساقا الجيش ، ولم يشعر بتغامره خالد وحجه أحد لولا أن رأوه في سمات الحج محلقا ومقصرا .

تراعى نبأ هذه المغامرة الخطيرة إلى مسامع الخليفة فأعظم ذلك ، وكتب إلى خالد بعائنه ، ويشغله ويشغل به ، فاستنهمر إلى غوث إخوانه بالشام .

الفصل الحادى عشر

دولة الروم بعد الفيرسين العرب

مقدمات غزو الشام - مشاورة أبى بكر لأهل رأى - تأمير خالد بن سعيد ثم عزله - عقد الألوية وطموح ابن العاص - رأى أبى بكر وعمر فى طموح عمرو - لواء يزيد بن أبى سفيان ووصية أبى بكر له - لواء شر حبيب بن حسنة - لواء أبى عبيدة - ابتهاج أبى بكر بكتائب المجاهدين - فزع الروم ورأى هرقل - مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم - بعث خالد بن الوليد أميراً على الأمراء - كتاب أبى بكر إلى خالد - بين خالد والمثنى - مغامرة خالدية - نظرة وعبرة - بين خالد وأبى عبيدة - أدب رفيع - جولات فى الطريق - سياسة حكيمة - زمام الإمارة فى يد خالد - إيمان - قصة جرجة القائد الرومى - هزيمة الروم - نبل عبقرى - نظرة عابرة فى قصة جرجة - ترتيب الوقائع الشامية - طريقة أخرى فى ترتيب الوقائع - نظر وترجيح - نتيجة .

كان غزو المسلمين للروم في الشام قد بدأ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . ففي السنة الثامنة للهجرة جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة بقيادة زيد بن حارثة . ثم انتهت قيادة الجيش باتفاق المسلمين إلى خالد بن الوليد الذي تجلبت عبقريته الحربية في إنقاذ جيش المسلمين من نكبة كادت تقضى عليه بعد أن قتل قواده الثلاثة الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن من بينهم خالد بن الوليد . وفي السنة التاسعة تجهز النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثين ألفاً لغزو الروم ، وسار إليهم يقود المسلمين حتى بلغ تبوك ، فلم يلق قتالاً ، وعاد بالمسلمين سالمين غانمين . وقيل وفاته صلى الله عليه وسلم جهز جيش أسامة بن زيد ، وأوعب فيه الناس . ولكنه لم يخرج إلى هذا الوجه الذي جهزه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في خلافة أبي بكر . فالمسلمون كانوا قد مروا على غزو الروم ، وكان فتح الشام أملاً يملأ صدورهم ، فما قام بالخلافة أبو بكر الصديق ، وفرغ من أهل الردة واستقام له العرب ، فكر في إتمام ما بدأه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنا غزو الروم وفتح الشام .

روى عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي : أن أبا بكر لما أراد أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم . وشاورهم وكلهم استصوبوا رأي أبي بكر ، وقالوا : ما رأيت من الرأي فامضه ، فإننا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، وعلى في القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر : ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : أرى أنك مبارك ، ميمون النقية ، فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله تعالى ، قال أبو بكر : بشرك الله بخير ، ومن أين علمت هذا ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون » قال أبو بكر : سببحان الله ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتني ، سررك الله في الدنيا والآخرة .

تأمير خالد
ابن سعيد
ثم قام أبو بكر فخطب الناس ورجبهم في الجهاد ، ثم أمر بلالا فأذن في الناس : انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، وأمير الناس خالد بن سعيد . وكان

خالد بن سعيد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن . فلما ولاه أبو بكر الجند الذى استنقر إلى الشام أتى عمر أبا بكر ومنعه من تأمير خالد بن سعيد على الناس ، فعزله عن الإمارة العامة وجعله رداء يتجاء .

قال أبو جعفر الطبرى : وكان سبب عزل أبي بكر خالد بن سعيد أن خالدًا حين قدم من اليمن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تربص ببيعة أبي بكر شهرين يقول : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يعزلنى حتى قبضه الله ، وقد لقي خالد بن سعيد على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، فقال : يا بنى عبد مناف لقد طبتن أنفسنا عن أمركم بليته غيركم ؟ فأما أبو بكر فلم يحفظها عليه ، وأما عمر فاضطجعها عليه . ثم بعث أبو بكر الجنود إلى الشام وكان أول من استعمل على ربع منها خالد بن سعيد ، فأخذ عمر يقول : أتؤمره وقد صنع ما صنع ، وقال ما قال ؟ فلم يزل بأبي بكر حتى عزله . وفى رواية أن عمر لما سمع منه الكلمة المفرقة لشمس الجماعة الإسلامية قال له : فض الله فاك ، والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثم لا يضر إلا نفسه ، ثم نهى عمر أبا بكر عن توليته وقال : إنه لخنذول ، وإنه لضعيف التروثة (١) ، ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدل بها وخائف فيها ، فلا تستنصر به فلم يحتمل أبو بكر عليه وجعله رداء يتجاء ، أطاع عمر فى بعض أمره وعصاه فى بعضه .

تتابع الناس مستجيبيين ، فنفروا من كل فج يطلبون الجهاد فى هذا الوجه . وعقد أبو بكر الأولوية للأمراء وأوعب معهم الناس ، فعتدلوا لعمر وبن العاص بعد أن استقدمه من عمان وكان والياً عليها من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم من قبل أبي بكر وفاء لعدة كان وعدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ، فكتب إليه أبو بكر يقول : « إني كنت قد رددتك إلى العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كمرة ، وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان إنجازاً لما وعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ، ثم وليته ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » . فكتب إليه عمر : « إني سهم من سهام الإسلام ،

عقد الأولوية
وطموح عمرو
ابن العاص

وأنت بعد الله الراعى بها والجامع لها . فأنظر أشدها وأخشنها وأفضلها فارم به . وكان عمرو بن العاص يرغب فى الإمارة العامة على جيوش الإسلام فى الشام كلها . فأبى عليه ذلك أبو بكر . ذكر الديار بكرى : أن أبا بكر جمع أشراف قريش من المهاجرين وغيرهم من أهل مكة ، ثم دعا بأشراف الأنصار وذوى السابقة منهم ، ثم دعا بعمرو بن العاص فقال له : يا عمرو هؤلاء أشراف قومك يخرجون مجاهدين فأخرج فعسكر حتى أئدب الناس معك .

فقال عمرو : يا خليفة رسول الله . أنا والى الناس ؟ فقال نعم ، أنت والى على من أبعث معك من ههنا ، قال : لا ، بل والى على من أقدم عليه من المسلمين ا قال : لا ، ولكنك أحد الأمراء ، فإن جمعتم حرب فأبو عبيدة أميركم ؛ فسكت عنه ، ثم خرج فعسكر ، فاجتمع إليه ناس كثير . وكان معه أشراف قريش ، فلما حضر خروجه جاء إلى عمر بن الخطاب ، فقال : يا أبا حفص : إنك قد عرفت بصرى بالحرب ، ويمين تقيت فى الغزو ، وقد رأيت منزلتى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن أبا بكر ليس يعصيك ، فأشرك عليه أن يولى هذه الجنود التى بالشام ، فإني أرجو أن يفتح الله على يدي هذه البلاد ، وأن يريكم والمسلمين من ذلك ماتسرون به . فقال له عمر : لا أكذبك ما كنت أكلمه فى ذلك لأنه لا يوافقنى أن يعثك على أبى عبيدة ، وأبو عبيدة أفضل منك منزلة ، قال عمرو : فإنه لا ينقص أبا عبيدة شيئاً من فضله أن ألى عليه ، فقال له عمر بن الخطاب : ويحك يا عمر وإنك والله ماتطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا ، فاتق الله ، ولا تطلب بشئ من سعيك إلا وجه الله ، وأخرج فى هذا الجيش ، فإنك إن يكن عليك أمير فى هذه المرة ، فما أسرع ماتسكون إن شاء الله أميراً ليس فوقك أحد . فرضى عمرو وخرج على رأس جيوشه التى حشدتها له أبو بكر ، وخرج معه يشيعه ويوصيه فقال له : يا عمرو إنك ذو رأى وتجربة للأمر ، وبصر بالحرب ، وقد خرجت فى أشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تألهم نصيحة ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود فى الحرب مبارك فى عواقب الأمور : ثم أمره أن يجعل وجهه فلسطين من أرض الشام .

(م ١٥ — خالد ابن الوليد)

موقف
الصديق
والفاروق من
طموح عمرو

لواء يزيد بن
أبي سفيان
ووصية أبي
بكر له

وعقد لواء يزيد بن أبي سفيان وأوصاه فقال : «إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد بن سعيد » فإياك وعيبة الجاهلية فإن الله ييغضها ويغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وأبدأهم بالخير ، وعدهم أياه ، وإذا وعظهم فأوجز فإن كثير السلام يلسى بعضه بعضا ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتجشع فيها ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل لبشهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون . ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكريك ، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم . ولا تجعل سررك لعلايتك فيخلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق في الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك ، واسمر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار وتكشف عندك الأستار ، وأكثر حرسك وبدد في عسكريك ؛ وأكثر مفاجأتهم في محارسمهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير أقراط ، وأعقب بينهم بالليل وأجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار ، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلحن فيها . ولا تسرع إليها . ولا تتخذ لها مدفا ، ولا تغفل عن أهل عسكريك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضعهم . ولا تأسف الناس عن أسرارهم واكتف بعلايتهم ، ولا تجالس العباثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء ، واصدق اللقاء ولا تبجن فيجبن الناس ، واجتنب الغلول ، فإنه يقرب الفقر ، ويدفع النصر ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع ، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له » ،

قال ابن الأثير : وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر . ثم دعا أبو بكر ربيعة بن عامر بن لؤي ، فعقد له ، ثم قال له : أنت مع يزيد بن أبي سفيان لاتعصه ولا تخالفه ، ثم قال ليزيد : إن رأيت أن توليه مقدمتك فافعل ، فإنه من فرسان العرب وصلاح قومك ، وأرجو أن يكون من عباد الله الصالحين ، ثم خرج أبو بكر يودع يزيد وهو يمشي ويزيد راكب ، فقال له : يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب ، وإما أن

تأذن لي فأمشي معك . فاني أكره أن أركب وأنت تمشي ، فقال أبو بكر : ما أنا براكب وما أنت بنازل ، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله .

وعقد أبو بكر لواء لشرحبيل بن حسنة، وسيره إلى الأردن، وكان شرحبيل جاء إلى لواء شرحبيل أبي بكر ، وأبو بكر يحدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد . فقال له : يا خليفة ابن حسنة رسول الله : أحدثت نفسك أن تبعث إلى الشام جندا ؟ قال : نعم ، حدثت نفسي بذلك . وما يطلع عليه أحد ، وما سألتني إلا لشيء ، فأخبره شرحبيل أنه رأى ذلك في نومه ، فقال له أبو بكر : نامت عينك ؟ هذه بشرى وهو الفتح - إن شاء الله - لاشك فيه ، وأنت أحد أمرائي ، فإذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثا ، ثم تيسر للمسير ، ففعل ذلك شرحبيل ، فلما مضى اليوم الثالث أتاه من الغد يودعه ، فأوصاه أبو بكر بمثل ما أوصى به يزيد بن أبي سفيان .

لواء أبي عبيدة بن الجراح وعقد أبو بكر لواء لأمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ، وجعل وجهه « حصص » وجعله أمير الناس إن اجتمعوا ، وأبى أن يؤمر عليه عمرو بن العاص ، مع إلحاح عمرو في ذلك ، وعسكر أبو عبيدة خارج المدينة يصلي بمجده وينتظر أن يسرحه أبو بكر حتى قدمت عليه جموع العرب بقادتها وفرسانها ، فلما تنام حشدهم خرج أبو بكر في رجال من المسلمين على راحلهم حتى أتى معسكر أبي عبيدة ، فمأشاه إلى ثنية الوداع وأوصاه وناصحته . وأوصاه بقيس بن مكشوح المرادي ؛ وكان من فرسان العرب المؤلفة قلوبهم ، فقال له : إنه قد صعبك رجل عظيم الشرف ، فارس من فرسان العرب لا أظن له عظيم حسبة ، ولا كثير نية في الجهاد ، وليس بالمسلمين غنى عن مشورته ورأيه وبأسه في الحرب ، فأدنه وألطفه وأره أنك غير مستغن عنه ولا مستهين بأمره ، فانك تستخرج منه بذلك نصيحته لك وجهده ووجده على عدوك ، ثم دعا أبو بكر قيسا ، فقال له : إني بعثتك مع أبي عبيدة الأمين الذي إذا ظلم كظم ، وإذا أسىء إليه غفر ، وإذا قطع وصل ، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، فلا تعصين له أمرا ، ولا تخالفن له رأيا ، فإنه لن يأمرك إلا بخير ، وقد أمرته أن يسمع منك ، ولا تأمره إلا بتقوى الله ، لقد كنا نسمع أنك شريف بثيس مجرب ، وذلك في زمان الشرك والجاهلية الجهلاء ، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك اليوم في الإسلام على من كفر بالله وعبد غيره ، فقد جعل الله فيه الأجر العظيم والعز للمسلمين .

سرور أبي بكر بكتائب المجاهدين . وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يسره شيء ما يسره قدوم جمع من المسلمين يريدون الجهاد في هذا الوجه . قال عمرو بن محسن : لم يكن أبو بكر رضى الله عنه يسأم توجيه الجنود إلى الشام وإمداد الأمراء الذين بعثهم بالرجال بعد الرجال إرادة إعزاز الإسلام وإذلال أهل الشرك . وقال أبو سعيد المقبرى : لما بلغ أبا بكر جمع الأعاجم لم يكن شيء أعجب إليه من قدوم المجاهد عليه من أرض العرب . فسكانوا كل ما قدموا عليه سرح الأول فالأول . ولما قدم عليه حمزة بن مالك الحمدانى في جمع عظيم من قومه : ورأى أبو بكر عددهم وعدتهم سره ذلك وقال : الحمد لله على صنيعه للمسلمين . ما يزال الله تعالى يرياح لهم بعدد من أنفسهم يشد به ظهورهم ويقصم به ظهور عدوهم .

فزع الروم ورأى هرقل سارت جيوش المسلمين حتى نزل كل جيش منها مكانا يشرف منه على الروم ، وتسامعت الروم بحلول المسلمين بساحتهم وتمثل عقلاؤهم الخطر الذى أحرق بهم . وكان هرقل مقبيا بيت المقدس بعد انتصاره على الفرس وتحريره من يبرهم . فأتاه الخبر بقرب جنود الإسلام منه . فجمع إليه خاصته وأصحاب مجلسه . وفهم أخوه « تزارق » فقال لهم : أرى من رأى ألا تقاتلوا هؤلاء القوم . وأن تصالحوهم فو الله لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم . فأبوا عليه رأيه . وردوا عليه قوله وتغلبت العامة على الخاصة وذوى رأى . وأخذتهم العزة بالإثم . فاضطر هرقل أن ينزل على رأيهم ويسير بهم لقتال المسلمين . فنزل حمص واجتمع له فيها جيش كشف فرقه بكتائب . وجعل في وجه كل أمير من أمراء المسلمين جيشا يفوق عدده عدد جيش الإسلام وتزيد عدتهم على عدتهم . وكان قد تراسى إلى هرقل أن خالد بن الوليد قد طلع على « سوى » وانتسف أهله وأمواله . وعمد إلى بصرى فافتتحها . وهو في طريقه لغوث إخوانه أمراء الشام . فقال هرقل لجلسائه : ألم أقل لكم لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم . إن دينهم دين جديد يحدد لهم ثبارهم ^(١) فلا يقوم لهم أحد حتى يبلى . فقال له قومه : قاتل عن دينك ولا تبجن الناس . واقتل الذى عليك ؛ فلما رأى هرقل ذلك منهم جمع إليه أهل البلاد وأشرف الروم ومن كان على دينهم من

(١) ثبارهم : حرصهم على التوالب في الحرب .

العرب فقال لهم : يا أهل هذا الدين إن الله قد كان إليكم محسنا ، وكان لدينكم معزا وله نصرنا على الأمم الخالية ، وعلى كسرى والحووس والترك وعلى من سواهم من الأمم ، وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم الذي كان أمره رشدا ، فلما بدلتهم وغيرتم ذلك أطمع فيكم قوماً والله ما كنا نعبأ بهم ، ولا نخاف أن نبتلى بهم ، وقد ساروا إليكم حفاة عراة جياعا قد اضطروهم إلى بلادكم قحط المطر وجدوبة الأرض وسوء الحال ، فسيروا إليهم وقتلوه عن دينكم وبلادكم وأبناءكم ونساءكم وأنا شاخص عنكم وممدكم بالخيول والرجال .

وعن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص قال : لما مضت جنود أبي بكر إلى الشام بلغ ذلك هرقل ملك الروم وهو بفلسطين ، وقيل له . قد أتتكم العرب وجعلتكم جموعا عظيمة ، وهم يزعمون أن نبيهم الذي بعث إليهم أخبرهم أنهم يظهرن على أهل هذه البلاد ، وقد جاءوك وهم لا يشكون أن هذا يكون ، وجاءوك بأبناءهم ونساءهم تصديقا لمقالة نبيهم يقولون : لودخلناها وافتتحناها نزلناها بأولادنا ونسائنا ، فقال هرقل : ذلك أشد لشوكتهم ، إذا قاتل القوم على تصديق فما أشد على من كذبهم أن يزيلهم أو يصد هم .

مشاورة
أمراء
المسلمين
واجتماع
جيوشهم

فلما رأى أمراء المسلمين اجتماع الروم لهم رأوا أن يتشاوروا فيما يصنعون ، فكان فيما أشار عليهم به عمرو بن العاص : « إن الرأي لثلثنا الاجتماع ، وذلك أن اجتماع مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة » وكتبوا إلى أبي بكر ، ثم انعدوا جميعا « اليرموك » ووافاهم كتاب أبي بكر بالاجتماع على مثل ما أشار به عمرو بن العاص ، فقال لهم : « أن اجتمعوا فتكونوا عسكريا واحدا ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره ومخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

بعث خالد بن
الوليد أميرا
على الأمراء

اجتمع الروم ونزلوا واديا عسكريا على صفته وجعلوه خندقا بينهم وبين المسلمين ، فحصرهم المسلمون شهر صفر والربيعين لا يقدر أحد الفريقين على أن ينال نيلا من الآخرة ، فلما طال الأمر على المسلمين كتبوا إلى الخليفة يخبرونه بجموع الروم وكثرتهم ويستمدونه ، ولم يتكد كتاب الأمراء يقع إلى أبي بكر حتى طاف بخاطره فأتى عين الردة ، وفتح العراق ، ومدوخ فارس سيف الله وسيف رسالة القائد المظفر خالد بن الوليد ، فاستنار وجهه

أبو بكر لهذا الخاطر وقال يخاطب نفسه : « خالدها ؛ والله لأنسين الروم وساوس الشيطان .
بمخالده بن الوليد » .

لله أبو بكر ! ما عرفه بالرجال ! وأخبره بالعقريات يوجهها إلى حيث تملك مجالها
من الحماة ، وتملك منها الحياة ما تشاء من خصائص البطولة في ميادينها .

أولئك الأمراء الذين عقد لهم أبو بكر أولية الإمارة في غزوة الشام من أقدر رجال
الإسلام وأشجعهم وأدهام وأعلمهم بمدخل الغمرات في الحروب ؛ وقفوا بإزاء الروم
ثلاثة أشهر ، وهم يجتمعون متساندون لم ينالوا منهم نيلاً ، ولا أنشبوا معهم قتالاً حتى
أعيام الانتظار ، وأملهم الاضطراب ، وهالهم حشد الروم ، وتكاثر أعدادهم ؛ فكتبوا
إلى الخليفة بخبرونه ويستمدونه ؛ وفي عاصمة الإسلام من جنود الإسلام مدد وأمداد
وفها أبطال وقواد ، ولكن أبا بكر الصديق يعلم أن النصر لم يكن معقوداً بكثافة الجنود ،
وإنما ينزل الله نصره على من يشاء من عباده الذين حباهم بخصائص من مقومات العقريات
في الأفراد ، موزعة على وفق الاستعداد .

أليست هذه المجموع التي جمعها الروم ووقف أمراء المسلمين بإزائها يستمدون الخليفة
قد جمع الفرس من قبل أمثالها لخالد بن الوليد فرعبها (١) ، ونكل بها ، وهزمها شر
هزيمة وأنكرها ؛ أوليس هؤلاء الروم كانوا قد تجمعوا من قبل مع الفرس وشجعهم
من فلال العرب في حشود أضخم من هذه الحشود التي ينفرد بها الروم وحدهم ، ووقفوا
في وقعة الفراض أمام خالد بن الوليد قائداً وحده فالتصر عليهم نصراً مؤزراً ، وظفر بهم
ظفراً مشى حديثه في فارس فبضعها ، وفي الروم فأرعبها ؛ بل فماذا إذا ؟ أفنتف الفتوح
الإسلامية أمام تكاثف جيوش الروم وفي المسلمين سيف الله ؟ لا ، لن تقف ، بل خالد
لها ، إذا كان للشيطان نفخة غرور في أنوف الروم خدعتهم عن جند الله ، وأبطال
الإسلام ، فليسينهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وساوس الشيطان بسيف الله خالد
ابن الوليد .

كتاب أبي بكر بالإمارة
ويهنئه ، ويذكره ويعظه ثم يستغفره إلى غوث إخوته أمراء الشام ليتهم نعمة الله عليه
إلى خالد

(١) رعبها : مزقها وفرقها .

بفتح الشام كما فتح العراق ويكسر شوكة الروم كما كسر قناة الفرس، فقال له: «أن سرحتي تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا، وأياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع بعون الله أحد من الناس شجيك، ولم ينزع الشجى أحد من الناس نزعك، فليهلك أبا سليمان النية والخطوة فأتم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتستخر وتذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء» ثم قال له: «دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وحجوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك ورحمة الله».

بين خالد
والثني

وفي رواية أن أبا بكر أمر خالد بالخروج في شطر الناس وأن يخلف على الشطر الثاني المثني بن حارثة، وقال أبو بكر لخالد: لا تأخذ مجداً إلا خلفت لهم مجداً، فإذا فتح الله عليك فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك، وأحضر خالد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأثر بهم على المثني، وترك للمثني أعدادهم من أهل الغناء ممن لم يكن له صعبة، ثم نظر فيمن بقي، فاختلج من كان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم، وافداً أو غير وافد، وترك للمثني أعدادهم من أهل الغناء، ثم قسم الجند نصفين فقال للمثني والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة وإبقاء النصف أو بعض النصف، فوالله ما أرجوا النصر إلا بهم فأني تعزيتي منهم.

وإذا كان المثني قد تشدد في التمسك بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه يرجو النصر بهم، فخالد أحق بالتشدد في التمسك بهم أن يكونوا معه فيما ندب إليه من غوث المسلمين بالشام وقد كلب عليهم الروم وجمعوا لهم؛ لأن خالداً أعرف بالصحابية وصبرهم في الحرب وجهم للموت في سبيل الله، وقد صحبوه في حروب الردة فقمعها بهم، وكانوا معه في حرب الفرس بالعراق ففتح بهم البلاد ودوخ فارس وطامن من غرورها على العرب فأثني له أن يترك واحداً منهم يستطيع أن يجعله من بين أبطاله وشجعان جيشه؛ لذلك حاول أَرْضاء المثني باعاضته منهم كل فارس من أبناء البيوتات ورجالات القبائل حتى رضى المثني وأخذ حاجته من الرجال، وشيع خالداً وودعه ودعا له ولأصحابه.

والتأمل في كتاب أبي بكر إلى خالد يقرأ في أثناء سطروره وحنايا عباراته اصدق آيات تقدير العبقرية الخالدية ، ويرى المسكان الذي تبوأه خالد بن الوليد في الخلافة الصديقية ، وقد حقق الله للصديق جميع ما أمله في سيف الله خالد بن الوليد .

قرأ خالد رضى الله عنه كتاب الخليفة بالمسير إلى الشام ، فغز عليه ترك العراق إلى الشام ، ولكنه وهو الرجل العسكرى لا يعرف لغير الطاعة في نفسه سبيلا ، فنهض للسمع والطاعة ، وخلف على العراق بأمر الخليفة المثنى بن حارثة الشيباني ، وفصل بمن معه من أبطال الإسلام وجنده من الخيرة إلى دومة ، ثم طعن في البرية ، وطلب حذاق الأدلاء وقال لهم : « كيف لي بطريق أخرج فيه عن وراء جموع الروم ؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » فسكاهم قالوا : لانعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش ، يأخذه الفذ الراكب ، فإياك أن تغرر بالمسلمين ، فأبى خالد إلا أن ينفذ رأيه ؛ وطلب الخريت ، قدل على رافع بن عمير الطائي ، فقال له : في ذلك ، فقال رافع إنك لن تطيق ذلك بالخيال والأثقال ؛ والله إن الراكب المفرد لمخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا مغرر ، إنها تحس ليال جياذ ، لا يصاب فيها ماء مع مضلتها ، فقال له خالد : ويحك ! إنه والله لا بد لي من ذلك ، إنه قد أتني عزيمة فمر بأمرك .

مغامرة
جريرة

ثم قام خالد في الناس ليشجذ عزائمهم ، ويقوى إيمانهم ، فقال « لا يمتثلن هديكم ولا يضعفن يقينكم ، وأعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله » .

هذا مظهر من مظاهر الخلاق الإيمانية التي عرضنا لها في حديثنا عن شخصية خالد رضى الله عنه ، ورأينا أنها عنصر من عناصر عبقريته . وهل تمت إيمان أقوى وأعظم من هذا الإيمان الذي يرى أنه لا ينبغي للمسلم أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله ؟

وقد أحدثت هذه الكلمات في نفوس المسلمين ما قصد إليه خالد منها فقالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ، والنفت خالد إلى رافع بن عمير يستنطقه ، فقال رافع : استكثروا من الماء من استطاع منكم أن يصبر أذن نأته على ماء فليفعل ، فأبى المهالك إلا مادفع الله ، ثم قال لخالد : أبني عشرين جزورا عظاما سمنا مسان ، فأناه

بهن ، فعمد إليهن فظمأهن ، حتى إذا أجهدهن العطش أوردهن فشربن حتى إذا تملأن
عمد إليهن فقطع مشافرهن ، ثم كعمهن لئلا يجترن ، ثم قال لخالد سر ، فسار خاله
معه مغذا بالخيول والأتقال ، فكلما نزل منزلاً ، اقتطع أربعاً من تلك الشرف ، فأخذ
ما في أكراشها فمزجه بما كان من اللبن فسقاه الخيل ، ثم شرب الناس مما حملوا معهم
من الماء ، فلما كان آخر يوم من المفازة خشى خالد على أصحابه أن يفضحهم حر الشمس
فأراد أن يطمئنتهم فقال لرافع : ويحك يارافع ما عندك ؟ قال خير ؛ أدركت الرى إن
شاء الله ، وشجعهم وهو متحير أرمده ، فلما دنا من مكان يعرفه قال للناس انظروا هل ترون
شجرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا ما نراها : قال رافع : إن الله وإن إليه راجعون !!
هلكتم والله إذاً وهلكتم - لا أبا لكم - انظروا . فطلبوها فوجدوها قد قطعت وبقيت
منها بقية ، فلما آراها المسلمون كبروا وكبر رافع ، ثم قال : احفروا في أصلها فخفروا فانبج
الماء ، وشربوا حتى روى الناس واتصلت بعد ذلك المنازل .

وهذه المفازة التي غامر خالد بنفسه وجيوشه في قطعها من العراق إلى الشام ليخرج
على الروم فلا يجيبه سوى هي المعروفة الآن ببادية الشام ، وهي اليوم طريق السيارات
بين دمشق وبغداد .

قال المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام في بحثه بعنوان «مهد العرب» : وفي هذا الجانب
طريق السيارات بين دمشق وبغداد اليوم وهو زهاء ثمانمائة وستين كيلاً تقطعها السيارات
في عشرين ساعة مع الاستراحة ، وهي البادية التي اخترقها سيدنا خالد بن الوليد بجيشه
في السنة الثانية عشرة من الهجرة : إذ سار من العراق مدداً لجيوش العرب في الشام
فرمى بنفسه وجيشه في بادية لاماء فيها ، وآتى الروم من مأمنهم ، وجأهم بما لم يحتسبوا ،
وقد قطعها في خمسة أيام .

العقريات لا تعرف الحدود . ولا نعرف بقيمة الحواجز المادية التي تصادفها في طريقها نظرة وعبرة
إلى غاياتها النبيلة . فصارمات العزائم عند العباقرة أمضى من صوارم المرهفات . وبطل
الإسلام خالد بن الوليد واحد من أفذاذ العباقرة الذين استنارت صفحات التاريخ

بأسمائهم ؛ وقد كانت مواقفه في حياته كلها ولا سيما المرحلة الإسلامية منها شواهد على ما تستطيع أن تصنعه البعقرية مما يراه سواد الناس أدخل في مراتب المستحيل ، وموقف خالد رضى الله عنه في سفره من العراق إلى الشام بحفاله وأثقافها بعد تلك المغامرة الجريئة التي خرج فيها إلى الحج ثم عاد إلى الحيرة فدخلها مع ساقاة الجيش ، من أعجب ما رواه التاريخ من مغامرات القواد والأبطال .

جاء كتاب أبي بكر إلى خالد ، يعاتبه على ما كان منه من مخاطرة قاسية ، ثم هنأه على ما أصاب من توفيق الله ، واتهنأ الصديق هذه الفرصة المواتية ، ورمى الروم بسيف الله ليلسبهم وساوس الشيطان ؛ وهذا لون من الأدب الرفيع أخذ به الصديق قائده البطل بعد أن سجل له جلائل أعماله ومظاهر عبقريته بقوله : « سرحت تأتى جموع المسامين باليرموك . فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لثمل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فلتهمشك أبا سليمان النية والحظوة » وهذه سياسة في الحزم والحكمة معروفة عن أبي بكر الصديق في خلافته وما جرى فيها من الأحداث العظام ، وكان بهذه السياسة أعرف رجل بالرجال وأخبر إمام بأمة أعطته مقادها ، وأيمن خليفة في عزمة وسلطان مبسوط بالعدل القاهرة والرحمة الحانية .

صدع القائد البطل بأمر الخليفة الراشد ، بيد أنه خشى إن هو أخذ إلى وجهه سميت الناس أن يلقي العدو مواجهة فيحبسه من غياث المسلمين ؛ فماذا إذن ؟

فكر القائد البطل ، ورأى أنه لا بد له من أن يأتى الشام من طريق لا يحول بينه وبين المسلمين في أثنا شيء . ولو كان في ذلك أعظم المخاطر وأشد العقبات ، فليلق أمره إلى حذاق الأدلاء ، ومهرة الحريتين ، ولسكنهم جميعا حذروه وخوفوه على نفسه وعلى جيشه لأنهم لا يعرفون طريقا يدفع به إلى وجهه من وراء عدوه إلا طريقا واحدا ، الراكب الفذل لو سلكه لكان مغررا بنفسه ، فكيف بهذه الجحافل وأثقافها ؟

ومضى خالدين الوليد للعقبات والمصاعب تحول بينه وبين أهدافه ومقاصده ؟ إن العبقرية لا تعرف المحال ، فليسكن ما تريد ، ثم ليسكن ما شاء الله ؛ « ويحك يارافع ابن عمير ؟ إنه والله لا بد لي من ذلك » وليس العجيب أن يعزم خالد على تخطي الصعاب

فيصدق في عزمه ، ولكن العجيب حقا أن تسرى روحه الجياشه بغوارب القوى القاهرة إلى جيشه فيستجيب له في ثقة لاتعرف التردد ، وإيمان ييمن نقيته ورعاية الله تعالى له ، فهو إذ يقول لجنده مشجعا : « إن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله له » يجيونه يقلوب مخلصه وألسنة صادقة : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشا نك »

نشط خالد وازداد يقينه قوة إيمان بما رأى من ارتفاع روح جيشه الباسل ، بين خالد وأبي عبيدة واستجاب إلى الخريت رافع بن عمير الطائي ، وصدق الله في عزمته ، ثم فكر في شأن المسلمين بالشام وقد ضايقهم الروم بكثافة عددهم وكثرة عتادهم ، وفكر في أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح وهو يقود جنود الإسلام ، فرأى أن تكون بنراهم بإمداده وغياثه لهم رسول السكينة إلى قلوبهم ، ورأى إذ ولاء الخليفة الأعظم القيادة العامة ، ووجه أميراً على الأمراء بالشام أن يشعر الأمين بأبي عبيدة أنه أعرف بمكانه وقدره بين المسلمين ، وأن رأييه إلى رأييه ينتهي ، فبعث بكتابين أحدهما إلى عامة المسلمين بالشام يقول لهم فيه : « أما بعد فإن كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني بالسير إليكم ، وقد شمريت وانكسحت^(١) ، وكأن قد أظلت عليكم خيلي ورجلي ، فأبشروا بانجاز موعود الله وحسن ثواب الله ، عصمنا الله وإياكم باليقين ، وأنا بنا أحسن ثواب المجاهدين » .

ورأسل ثانيهما إلى أبي عبيدة خاصة . وفيه يقول : « أما بعد فإن أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الحوف والعصبة في دار الدنيا من كل سوء ، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني بالسير إلى الشام ، وبالقيام على جندها والتولي لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ، ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك التي كنت عليها ، لانصيك ولا نخالفك ، ولا تقطع أمرا دونك ، فأنت سيد المسلمين ، لانكر فضلك ، ولانستغنى عن رأيك ، تتم الله ما بنا وبك من إحسان ، ورحمنا وإياك من صلى النار ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ولما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال : « بارك الله لخليفة رسول الله فيما رأى . وحيا الله خالدا » .

الأدب رفيع

ولابد لنا من الالتفات قليلا إلى هذه الآداب الرفيعة في حديث القائدين العظميين ،
خالد بن الوليد رأى أنه ولى القيادة العامة ، وأصبح أمير أمراء الشام ، وفيهم أبو عبيدة ،
وهو من سادة السابقين الأولين ، وله بين الناس مقام ملحوظ فلا يسوغ في سرعة
المسكارم وأدب البطولة الإسلامية أن يغافسه (١) خالد بالأمر ، فليكتب إليه يطلعه على
الحقيقة ويعرفه أنه لا يزال في مكانه من التسجيل والاحترام ، وأنه سيد المسلمين في هذا
الوجه ، وأنه لا يقطع أمرا دونه .

وهذا الأدب الرفيع هو الذى عامل به أبو عبيدة خالد حينما أنتم الملك دورته
الخالدية ، وعاد القائد البطل جنديا يعمل في ظل إمارة أبي عبيدة بأمر الخليفة الثانى
عمر بن الخطاب في مطلع خلافته ؛ فقد روى ابن كثير في تاريخه أن خالد قال لأبي
عبيدة حين أبلغه أمر عمر بعزله ، وكان أبو عبيدة قد أخرج إخبار خالد بأمر عزله حتى
يفرغ خالد من الاشتباك في إحدى المواقع ؛ ولم يخبره به فور عجيته . « يرحمك الله !
مامنعك أن تعلمنى حين جاءك ١٢ » فأجابه الأمين أبو عبيدة : « إني كرهت أن أكرس
عليك حربك ؛ وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ؛ وما ترى سيصير إلى زوال
وانقطاع ؛ وإنما نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يليه أخوه في دينه وديناه » .

جولات في
الطريق

وكان أبو بكر رضى الله عنه كتب إلى أبي عبيدة يعلمه بتولية خالد الإمارة العامة
لظنه أنه أفطن في الحرب ، ولم يكن ذلك ليقلل من مكانة أبي عبيدة عند خليفة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له في كتابه « أما بعد : فإني وليت خالد أقتال العدو بالشام ،
فلا تخالفه ، وأسمع له وأطع أمره ، فإني لم أبعثه عليك أن لا تكون عندى خيرا منه ،
ولكنى ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ؛ أراد الله بنا وبك خيرا » .

وكان هذا اللون من الأخلاق السريّة والأدب الرحيم الذى صورت في إطاره
أعمال رجال الإسلام الأولين من أقوى دعائم نهضة المسلمين ورفعة شأنهم يوم أن
كانوا حرساء على التسامى عن المنافسة في سلطان الدنيا .

لم يكن خالد رضى الله عنه وهو في طريقه إلى مانب إليه يكتفى بأنه يعتسف المهالك
اعتسافا ، ويعلموى المضلات للوصول إلى هدفه طيا ، بل كان لا يتر على بلد من بلدان

الشرك إلا وقف عنده وقفة لا يطيها ، ولكنها وقفة كانت تنتهى دائماً بفهم في صلح أو نصر في جولة ، فقد روى أنه مر في طريقه على « تدمر » فتحصن منه أهلها فأحاط بهم وحاصروهم من كل جانب فلم يقدر عليهم ، وخشى أن يطول مقامه عليهم فيشغله عن مقصده الأعظم ، فترحل عنهم ، وقال لهم : « والله لو كنتم في السحاب لأنزلناكم وظهرنا عليكم ، ماجئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستقتحون علينا ، وإن أنتم لم تاتصالحون هذه المرة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهي هذا ، ثم لا أرحل عنكم حتى أقفل مقاتلكم وأسبي ذراريكم » فلما فصل عنهم قال عقلاؤهم : إنا لا نرى هؤلاء القوم إلا الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا فافتحوا لهم ، فبعثوا إلى خالد فصالحوه .

وعن سراقبة بن عبد الأعلى أن خالداً في طريقه ذلك مر على « حوران » فهابوه فتحرز أكثرهم منه فأغار عليهم وأستاق الأموال وقتل الرجال ، وأقام عليهم أياماً فبعثوا إلى من حولهم ليدوهم من مكانين : من بعلبك - وهي أرض دمشق - ومن بصرى وهي مدينة « حوران » ، فلما رأى خالد المدين قد أقبلأ خرج وصف بالمسلمين ، ثم تجرد في مائتي فارس فحمل على مدد بعلبك ، وهم أكثر من ألفين ، فما وقفوا له حتى أنهزموا ودخلوا المدينة ، ثم انصرف يوجف في أصحابه وحيثما حتى إذا كان بمجداء مدد بصرى ، إنهم لأكثر من ألفين ، حمل عليهم فما ثبتوا له فواقاً حتى هزمهم فدخلوا المدينة ، وخرج أهل المدينة فرموا المسلمين بالنشاب فانصرف عنهم خالد وأصحابه حتى إذا كان الغد خرجوا إليه ليقاتلوه فعيجزوا وأظهره الله عليهم فصالحوه .

وكان في أهل « حوران » علي بن شجاع ، وكان فيمن شهد هذه الواقعة مشركاً فحدث ، بمحدثها عمرو بن محسن قال : والله لخرجنا إليهم بعد ما جاءنا مدد أهل بعلبك وأهل بصرى بيوم ، وإنا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم ، فما هو إلا أن دنونا ، منهم فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد ، فأنهزنا أقبح الهزيمة وقتلونا شرمقتة ، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم ، ولقد رأيت رجلاً منا كنا نعهه بألف رجل قال : لأئن ، رأيت أميرهم لأقتله ، فلما رأى خالد أليل له : هذا خالد أمير القوم فحمل عليه ، وإنا لنرجو لبأسه أن يقتله ، فما هو إلا أن دنامنه فضرب خالد فرسه فأقدمه عليه ثم استعرض ، وجهه بالسيف نأطاره فحفر رأسه ودخلنا مدينتنا ، فما كان لنا هم إلا الصلح حتى صالحناهم .

سياسة
حكيمه

قدم خالد اليرموك في عشرة آلاف - كما تقول بعض الروايات - فتم بهم عدد المسلمين أربعين ألفاً ، وكان المسلمون قبل قدوم خالد عليهم يقاتلون أعداءهم متساندين ، كل أمير منهم يقصد إلى ناحية ليغزوها ، ويبث غاراته فيها ، وكانوا إذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا له وصلى كل أمير بأصحابه وجنده ، وإذا احتاج أحد الأمراء إلى معاضدة من أحد إخوانه سارع إلى إنجاده ، ولكن خالد أَرْضَى الله عنه لما وصل إليهم بجيوش العراق ، ورأى كثرة الروم ، واجتماعهم وخروجهم على تعبئة لم ير الناس مثلها ، لم يشأ أن يفتح على الأمراء باباً ربما لم يقع من أنفسهم - بادي الرأي - موقع الرضا والتسليم ، ذلك أن يفرض عليهم إمارته العامة التي ولاه الخليفة إياها ، واكتفى بإعلام أبي عبيدة لأنه بمنزلة أمير الأمراء قبل ورود خالد عليهم ، فقد قال لهم أبو بكر عند بعثهم : « فإذا قدمتم البلد ، ولقيتم العدو فاجتمعتم على قتالهم فأمركم أبو عبيدة بن الجراح » بل لجأ خالد إلى أسلوب يمكنه من الإشراف النام على إدارة الحرب ، ويرضى عنه أصحابه فيمشون معه قدما في عزائم صارمة ، فقال لهم : « هل لكم يامعشر الرؤساء في أمر يعز الله به الدين ، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيص ولا مكروه » ؟ قالوا : نعم ، فخطب الناس بعد أن استأنس من رضاء الأمراء بصفة عامة فقال : « إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة (١) على تساند (٢) وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال يديكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة » .

قال الأمراء : فهات ؟ فما الرأي ؟ قال خالد : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سننأسر ، ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيمهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله ، الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيد عليه إن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ، ولا عند خليفة

(١) تعبئة الجيش : تجهيزه ونهيبته للقتال .

(٢) التساند : أن يعمل الجيش تحت رايات شتى لا تجمعهم راية أمير واحد .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده ، إن وردناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نرددهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهللوا فلتتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا ، والآخر بعد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعوني إليكم اليوم » .

رضى الأمراء هذا الرأي فأمر واخالدًا عليهم ، وهم يرون أنها كخرجاتهم إذ كانوا على تساندهم ، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه ، وأن من لم يكن منهم أميراً اليوم فسيكون أميراً غدا .

زمام الإمارة
في يد خالد

تسلم خالد بن الوليد زمام القيادة ورأى الروم قد خرجت على تعبئة لم ير الروم مثلها قط ، فخرج لهم في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك ، فجعل جيشه كراديس^(١) ، وقال لجنوده : إن عدوكم قد كثر وطنى ، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأى العين من السكراديس ، فجعل القلب كراديس ، وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح ، وجعل الميمنة كراديس ، وعليها عمرو بن العاص وفيها شر حبيب ، وجعل الميسرة كراديس ، وعليها يزيد بن أبي سفيان ، وأقام على كل كردوس بطلا من شجعان المسلمين وفرسانهم من أضراب القعقاع وعكرمه ، وعياض بن غنم ، وعبدالرحمن بن خالد ، وكان عبدالرحمن يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، وأقام على القضاء أبا الدرداء ، وعلى القصص^(٢) أبا سفيان ابن حرب ، وأمر المقداد بقراءة سورة الجهاد ، وهى الأنفال ، وكان فى هذا الجيش نحو ألف رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيهم زهاء مائة من أهل بدر ، وكان أبا سفيان يسير فى السكراديس ويقف عليها وهو يقول : الله ، الله ، إنكم قادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وهكذا أعد البطل خالد جيشه لمواقفة حشود الروم إعداداً روحياً ونظامياً لم يسبق للمسلمين أن خرجوا فى مثله ، وكان عدوهم فى كثرة تزيد على خمسة أضعافهم فى أقل تقدير المقدرين ، وسمع سيف الله خالد رجلاً من صفوف الناس يقول : ما أكثر الروم وأقل

(١) السكراديس : الكتائب ، قال فى القاموس : وكردس الخيل : جعلها كتيبة .

(٢) القصص هنا لون من الوعظ التاريخي يقصد إلى تحميس الجند وبث الحمية فى قلوبهم .

المسلمين فزجره خالد ورد عليه رداً يجعل من كل جندي من جنود الإسلام جيشاً في إهاب رجل فقال : بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تسكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر - يعني فرسه - وكان قدحفي في قدمته من العراق - براء من توجيهه (١)، وأنهم أضعفوا في العدد! قال قيس بن حازم - وكان مع خالد في جيشه - : كنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء، لأنه كان لا يلاءم صدره منهم شيء، ولا يبالي بمن لقي منهم لجأته عليهم .

أمر خالد القعقاع بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وكانا على مجنبتى القلب فأنشبا القتال، فبرز القعقاع وهو يرتجز .

يا ليتنى ألقاك في الطراد قبل اعترام الجحافل الورد
وأنت في حلبتك الورد

وخرج عكرمة وهو يقول :

قد علمت الجوارى أنى على مكربة أحامى

والتحتم الناس وتطارد الفرسان واقتتلوا قتالاً مريراً لم ير الناس مثله، قال الطبرى وتابعه ابن الأثير : فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول، وسألوه الخبر فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم عن أمداد، وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله وتأخير أبي عبيدة، فأبلغوه خالداً فأخبره خبر أبي بكر سره إليه، وأخبره بالذى أخبر به الجند، فقال له خالد : أحسنت قفف، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينشر له أمر الجند، فوقف شمية بن زنيم - وكان هو الرسول - مع خالد .

إيمان

وخرج جرجة وهو قائد رومي - حتى كان بين الصفين، ونادى : ليخرج إلى خالد نخرج إليه خالد، وأقام أبا عبيدة مكانه، فوقف القائد الرومى بين الصفين حتى اختلعت أعناق دابتيهما، وقد آمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة : يا خالد : أصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم؟ قال : لا، قال : فيم

قصة جرجة

(١) توجيه : حفاؤه من شدة المشى ووعورة الطريق .

سميت سيف الله ؟ قال إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال : « أنت سيف من سيوف الله ، سلمه الله على المشركين » قال جرجة : صدقتني ، ثم قال له : يا خالد ، أخبرني ألى مات دعوني ؟ قال : إلى شهادة : أن لا إله إلا الله . وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ؛ قال : فمن لم يجيبكم ؟ قال : فالجزية ونعمتهم ، قال : فإن لم يعطها ؟ قال : تؤذنه بحرب ، ثم ثقاتله ، قال : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويحسبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضعنا ، وأولنا وآخرنا ؛ فقال : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والدخر ؟ قال : نعم ، وأفضل . قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال : إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال القائل الرومي : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ، ولم تألفني ؟ قال خالد : بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لولى ما سألت عنه فقال : صدقتني ، وقلب الترس ومال مع خالد ، وقال . علمني الإسلام ، فقال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ، ثم صلى ركعتين ، وحملت الروم مع انقلاب جرجة إلى خالد ، وهم يرون أنها حاملة من قائدهم . فأزالوا المسلمين عن مواقعهم إلا الحامية ، وكان عليهم عكرمة والحارث بن هشام ، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين ، فتنادى الناس وثابوا وتراجعت الروم إلى مواقعهم ، فزحف خالد بالمسلمين على الروم حتى تصافوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرحه من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ثم أصيب جرحه ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما وصلى الناس الأولى والعصر إيماء ، وتضعض الروم .

وهند خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، وكان مقاتلهم واسع المطرد ، ضيق الهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم في مصافهم ، وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ، وأخر الناس الصلاة حتى صالوا بعد الفتح . هزيمة الروم

ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يجرجوها ، فذهبت فتفرقت في البلاد ، وأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففرضوه ، فسكنوا تما هدمهم ، حائط فاقترحموا في خندقهم فاقترحمه عليهم فعمدوا إلى الواقصة (١) حتى هوى فيها المقترون وغيرهم ، فمن صبر من المقتربين للقتال هوى به من جشعت نفسه في هوى الواحد بال عشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، قهافت في الواقصة عشرون ومائة ألف ، ثمانون ألف مقترن ، وأربعون ألف مطلق ، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل ، فكان سهم الفارس يومئذ ألف وخمسمائة ، ونجل قائد الروم « الفيقار » وتجلل معه أشرف الروم برانسهم ثم جلسوا وقالوا : لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطيع أن نرى يوم السرور ، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية ، فأصيدوا في نزلهم .

والذي نلاحظه على هذا الحديث كما ساقه أبو جعفر الطبري من طريق سيف وتابعه نبل عبقري عليه ابن الأثير أن الخبر بموت أبي بكر الصديق ، واستخلاف عمر بن الخطاب ، وعزل خالد بن الوليد عن الإمارة العامة على حند الشام ، وتولية عمله وإمارته أبا عبيدة بن الجراح ؟ وصل إلى علم خالد أول الناس ، والقتال بين المسلمين والروم على أشد ما يكون قتال بين جيشين أجمع كل جيش منهما على إقناء عدوه . فما الذي كان من خالد وهو القائد المعزول ؟ وفي يده زمام المعركة ؟ لقد تصرف خالد أحكم وأحسن تصرف ، فقد استحسن عمل الرسول الذي حمل إليه كتاب عزله في كتابه هذه الأنباء عن خاصة الناس وعامةهم ، حتى أبلغ الكتاب إليه ، فبهجه خالد في كنياته ؟ وخشى إن هو أظهر ما اشتمل عليه أن ينتشر له أمر الجند ، ويقتض نظامهم ، وتشيع فيهم الفوضى ، وهذا أمر معروف النتائج .

وسواء أكان الكتاب الذي ورد به هذا البريد باسم القائد الجديد أبي عبيدة بن الجراح

(١) الواقصة : مكان هرب باسم عين فيه ، وذكره البلاذري بالياء فقال : الواقصة : واد فيه العوارة .

وهو مانرجحه ، وتناول تسليمه لخالد نزولاً على حكم الموقف ، لأنه الأمير في نظر الذين أخذوا البريد ، فكان طبعياً أن يدفعوه إليه ، أم كان باسم القائد المعزول خالد بن الوليد ، فإن تصرف خالد ذلك التصرف الذي انتهى بالمعركة إلى نصر المسلمين نصراً مؤزراً يدل على أن هذا القائد البطل قد منح من الخصائص النفسية والقوى المعنوية قدراً لا يقدر في الحياة إلا لأفذاذ العباقرة الموهوبين ، فأى قوة نفسية هذه التي مكنت خالداً من ضبط أعصابه بعد إذ عرف إنه معزول عن الإمارة ومؤمن عليه بعد أن كان أمير ليس فوقه أمير ، والنصر بين يديه لو شاء لأدار به وجه التاريخ ؟ ! إنها قوة الإيمان وقوة العقيدة المسلمة التي لاتدع في قلب صاحبها حظاً لغير الإخلاص .

يجب لكي تقدر هذا الموقف قدره الحق أن تكون واقعيين ، ويحب أن ننظر إلى خالد على أنه رجل له طبيعة البشر ، فإذا استطاع أن يرتفع بنفسه عن مقتضيات البشرية وقد توافرت عنده أعظم دوافعها ، كان ذلك ضرباً من العبقرية المتسامية بخصائصها عن مزالق التنافس البشري الرخيص .

أما حديث « جرجة » القائد الرومى على سياقته بتفاصيله في الرواية ، فقد يكون في هذه التفاصيل شيء من الصنعة والإضافات التي لاتذهب بالقصة كلها ، بل لعله يبقى منها القدر الذي يدل على سريان الإيمان إلى القلوب في لحظات استنارتها بنور الهداية ومسمها بنفحة من نفحات الرحمة الإلهية ، ويدل على فهم القائد العبقري خالد بن الوليد لنوازع النفوس التي يقفها الشك لحظات بين الجحود والإيمان مذهولة مأخوذة تنتظر يداً رحيمة تندفعها إلى منهل اليقين .

* * *

تختلف الروايات اختلافاً واسع المدى في ترتيب وقائع الفتح الشامى ، وهى تبعاً لذلك تختلف في تعيين الوقائع التي أدارها خالد بن الوليد ، وهو أمير الأمراء ، وفي تعيين وقت عزله عن الإمارة العامة وعمله جندياً في الجيش بعد ذلك .

وسياقنا لواقعة اليرموك بالصورة التي أثبتناها طريقة فريق من المؤرخين في طليعتهم أبو جعفر الطبرى من رواية سيف وتابعه ابن الأثير ، وهى طريقة واضحة فى أن

خالد بن الوليد لم يشهد من الوقائع العظيمة في الشام وهو أمير الأمراء سوى هذه الواقعة، وأن الخبر بعزله ووفاته أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب، وتولية أبي عبيدة بن الجراح الإمارة العامة، كل ذلك جاء به البريد ومعركة اليرموك على أشدها، وانتهت هذه الأنباء إلى خالد فكنتمها حرصا على سلامة نظام الجيش وقوته حتى انتهى بالمعركة إلى نهايتها العظيمة، فأسلم زمام القيادة العامة إلى القائد الجديد أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح، وعاد خالد يعمل تحت لوائه قائد فرقة في الموضع الذي كان عليه أبو عبيدة - كما تقول بعض الروايات - وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بقدر خالد وبصره بالحرب ويمن نقيته وتجربته، فلم ينزل به عن مكانه من الرأي وتقديمه لتفريج المضايق عن المسلمين، وبقي خالد جنديا عبقرى البطولة علوى الإخلاص كما كان عبقرى القيادة سامى الإمارة، لم تفت له عزيمة، ولم يخب له رأى، فكان في حاله خالد بن الوليد سيف الله وبطل الإسلام.

طريقة أخرى
في ترتيب
الوقائع

وهناك طريقة أخرى في سياقة الوقائع لفريق آخر من المؤرخين تقدم وقعة «أجنادين» و «مرج الصفر» وحصار دمشق على اليرموك وتبعه خالد في جميع هذه الوقائع أمير الأمراء، وترى أن البريد بموت أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وتولية أبي عبيدة إنما جاء والمسلمون على حصار دمشق؛ وهذه الطريقة اختارها الديار بكرى في «تاريخ الخميس».

وتلخيص ما ذكره أن خالد بن الوليد وأبا عبيدة بن الجراح القليل في «الغزوة» فأثامها الخير أن «وردان» صاحب حمص قد جمع الجموع يريد أن يقطع شرحبيل بن حسنة، وهو بصرى، وأن جموعا من الروم قد نزلت «أجنادين» فأذلهما ذلك فتشاروا في الأمر؛ فقال أبو عبيدة أرى: «أن نسير حتى نقدم على شرحبيل قبل أن ينتهي إليه العدو الذي صمد صمده، فإذا اجتمعنا سرنا إليه حتى نلقاه».

فقال له خالد: «إن جمع الروم هذا بأجنادين، وإن نحن سرنا إلى شرحبيل تبعنا هؤلاء من قريب، ولكن أرى أن صمد^(١) صمد عظيمهم وأن نبعث إلى شرحبيل فتحذرهم

مسير العدو إليه ونأمره فيوافينا بأجنادين ، ونبعث إلى يزيد بن أبي سيفان وعمرو بن العاص فيوافيانا بأجنادين ثم نناهض عدونا » فقال له أبو عبيدة : « هذا رأى حسن فأمضه على بركة الله » وكان خالد مبارك الولاية ميمون النقية مجربا بصيرا بالحروب مظفرا .

فلما أراد الشخصوص من أرض دمشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأجنادين ، كتب نسخة واحدة إلى الأمراء قال فيها : « أما بعد فإنه قد نزل بأجنادين جمع من جموع الروم غير ذى قوة ولا عدة والله قاصمهم ، وقاطع دابرهم وجاعل دائرة السوء عليهم ، وشخصت إليكم يوم سرحت رسولى إليكم فإذا قد م عليكم فانهمضوا إلى عدوكم بأحسن عدتكم وأصح نيتكم - ضاعف الله لكم أجوركم وحط أوزاركم والسلام » ثم أرسل الكتب إلى الأمراء الثلاثة مع نفر من النبط كانوا عيوناً للمسلمين ، وكان المسلمون يرضخون لهم ، ودعا خالد رسوله إلى شرحبيل فقال له : كيف علمك بالطرق ؟ قال : كما تريد ، قال : فادفع إليه هذا الكتاب وحذره الجيش الذى ذكر لنا أنه يريد ، وخذ به وبأصحابه طريقا تعدل به عن طريق العدو الذى شخص إليه ، وتأتى به حتى تقدمه علينا بأجنادين . قال : نعم ، فخرج الرسول إلى الأمراء ، وخرج خالد وأبو عبيدة بالناس إلى أهل أجنادين . فلم يرهم إلا أهل دمشق فى آثارهم ، والحقوا بأبا عبيدة وهو فى أخريات الناس فنزل إليهم فى مائتى فارس من أصحابه فقاتلهم قتالا شديدا ، وأتى الخبر خالد وهو فى مقدمة الناس فى الفرسان والخيال ، فعطف بهم راجعا وعجل بالخيال حتى انتهى إلى أبي عبيدة وأصحابه فحمل بالخيال على الروم فانهمزوا أمامه ، وتعقبهم ثلاثة أميال حتى دخلوا دمشق فانصرف عنهم ، ومضى بالناس نحو الجابية .

وكان رسول خالد إلى شرحبيل قد أدركه وليس بينه وبين الجيش الذى سار إليه من حمص إلا مسيرة يوم وشرحبيل لا يشعر به فدفع إليه الكتاب فقام شرحبيل فى الناس فقال لهم : « أيها الناس اشخصوا إلى أميركم فإنه قد توجه إلى عدو المسلمين بأجنادين . وقد كتب إلى يأمرنى بموافاته هناك » ثم خرج بالناس حتى وافى المسلمين بأجنادين مع يزيد بن أبي سيفان وعمرو بن العاص فى جندهما ، وعاد جيش وردان الرومى بعد فشله فى اللاحاق بشرحبيل والتقى المسلمون بالروم بأجنادين وتزاحف الجمع وانقلب خالد بن الوليد

يسير في الناس لا يقر في مكان واحد وهو يقول : اتقوا الله عباد الله ، وقاتلوا في الله من كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم ولا تهابوا عدوكم ولكن أقدموا كإقدام الأسد ، وينجلى الرعب وأنتم أحرار كرام قد أوتيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ؟ ولا يهولنكم ماترون من كثرتهم فإن الله منزل رجزه وعقابه بهم . »

وكان خالد رضى الله عنه قد أمر نساء المسلمين أن يكن من وراء الناس يحرضن الرجال على القتال ، وكان من رأيه مدافعة العدو وأن يؤخر القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرياح ، وتلك الساعة هي التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب القتال فيها فأعجله الأرياح الروم فحملوا على المسلمين ورموهم بالنشاب فنادى سعيد بن زيد وكان على الحيل : يا خالد علام نستهدف هؤلاء الأعلاج وقد رشقونا بالنشاب حتى شمت الحيل ؟ فقال خالد للمسلمين : احموا رحيم الله على اسم الله فحمل وحمل معه الناس على عدوهم فما واقفوه فواقا فهزمهم الله وأباح أكتافهم للمسلمين يقتلونهم كيف شاءوا ، واستشهد من المسلمين نفر من ذوى النجدة والبأس ، وكتب خالد إلى أبي بكر بالفتح فقال : « لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد سيف الله الصوب على المشركين ، سلام عليك فاني أخبرك أيها الصديق : أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعا حجة بأجنادين وقد رفعوا صليبهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرحون حتى يفنونا أو يخرجونا من بلادهم فخرجنا واثقين بالله متوكلين على الله فطاعناهم بالرمح شيئا ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها مقدار نحر جزور ، ثم إن الله أنزل نصره وأنجز وعده ، وهزم الكافرين فقتلناهم في كل فج وشعب وغائط فالحمد لله على إعزاز دينه وإذلال عدوه ، وحسن الصنيع لأوليائه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . »

وقدوا في هذا الكتاب أبا بكر في مرضه الذي توفي فيه ، فلما قرأه أعجبه بذلك وقال « الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عيني بذلك . »

قال سهل بن سعد : وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت بالشام ، وكانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى للثنتين بقيتا منه يوم السبت نصف النهار قبل وفاة أبي بكر رضى الله عنه بأربع وعشرين ليلة .

وعن ابن اسحاق أن قائد الروم المسمى « القلقار » أو كما في ابن الأثير تبع للطبري

«القبقلار» بعث رجلا من عرب الروم وقال له : ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم ، فدخل في الناس رجل عربي لا ينسكى عليه ، فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه ، فقال له : ما وراءك ؟ فقال له : بالليل رهبان وبالنهار فرسان ولوسرق ابن ملكهم لقطعوا يده ولو زنى لرجم لإقامة الحق فيهم . فقال له القائد الرومى : لئن كنت صدقتى لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن الله يخلق بينى وبينهم فلا يصرنى عليهم ولا ينصرونهم على . ثم تراحف الناس فاقتتلوا قتالاً شديداً فاستبسل فيه المسلمون فلما رأى « القلقار » ذلك قال لقومه : لفوا رأسى بثوب . فقالوا له : لم ؟ قال : هذا يوم بئس ما أحب أبأراه . مارأيت لى من الدنيا يوماً أشد من هذا . فقتل وهو متلفف .

وقد ذكرنا نحوه هذا في وقعة اليرموك برواية الطبرى . فهل اشبه الأمر على الرواة أو تعدد الحادث ؟ قد يساعد اختلاف الأسماء هنا وهناك على ترجيح تعدد الحادث ؛ ولنا على شىء من اليقين في هذا .

ثم إن خالد أمر الناس أن يسيروا إلى دمشق فنزلها مما يلي الباب الشرقى في دير هناك على نحو ميل منها يعرف بدير خالد لتزوله به . ونزل أبو عبيدة على باب الحامية ، ونزل يزيد بن أبى سفيان على باب آخر فأحاطوا بها وحاصروها حصاراً شديداً حتى رماهم أهلها بالنشاب . ورشقوهم بالحجارة . وإذا بالخبريأتى إلى خالد أن هذا جيش رومى قد أتاكم فنهض خالد على تعبئته فقدم الأتقال والنساء وخرج معه يزيد بن أبى سفيان ووقف خالد وأبو عبيدة من وراء الناس . ثم أقبلوا نحو ذلك الجيش فإذا هو قائد رومى يدعى «دربخان» بعثه ملك الروم في عدد من أهل الباس والنجدة من جنود الروم لينغيث أهل دمشق ، فصمد المسلمون صمدهم والتقوا بهم في « مرج الصفر » سنة أربع عشرة وخرج إليهم أهل القوة من أهل دمشق وحمص فكانوا عدد أعظيماً . فلما نظر إليهم خالد عي لهم أصحابه كتميعيته يوم « أجنادين » وأمر سعيد بن زيد — وكان على الحليل — فحمل على معظم جمع الروم فانتفض حبل نظامهم وحمل المسلمون معه فهزموهم وظفروا بهم فقتلوا كل قتلة .

قال أبو أمامة : وكان بين أجنادين ومرج الصفر عشرون يوماً فحسبت ذلك فوجدته

يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام .

ثم إن المسلمين أقبلوا عودهم على بدئهم حتى نزلوا دمشق على منازلهم التي كانوا عليها في حصار دمشق . وكانوا يغزون ماحولهم من البلدان فكلما أصاب رجل منهم نقلا جاء به حتى يلقيه في القبض لا يستحل أن يأخذ منه شيئا . حتى إن الرجل ليحجىء بالكعبة الغزل والكعبة الصوف من والشعر . أو المسلة أو الإبرة فيلقها في القبض لا يستحل أن يأخذها . فسأل صاحب دمشق بعض عيونه من أعمال المسلمين وسيرتهم فوصفهم له بهذه الصفة بالأمانة ووصفهم بالصلاة بالليل وطول القيام فقال : هؤلاء رهبان بالليل أسد بالنهار . والله ما هؤلاء طاقة . ومالي في قتالهم خير . ثم راود المسلمين على الصلح . فأخذ لا يعطيهم ما يرضيهم ولا يتابعونه على ما يسأل وهو في ذلك لا يمنعه من الصلح والفراغ منه إلا أنه قد بلغه أن قيصر يجمع الجوع لحرب المسلمين وبينما هم كذلك إذ بلغ المسلمين الخبر بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وصرف خالد بن الوليد عن الإمارة وقيادة الجيوش بأبي عبيدة بن الجراح .

وهذه الطريقة التي اختارها الديار بكرى غير مستقيمة للنسج لأنها تذكر أن واقعة « مرج الصفر » كانت سنة أربع عشرة وتجعل ذلك قبل وفاة أبي بكر وهذا غلط لا ريب فيه لأن وفاة أبي بكر رضى الله تعالى عنه كانت سنة ثلاث عشرة فاما أن تكون واقعة المرج المحدث عنها بامارة خالد بن الوليد وقعت سنة ثلاث عشرة ، ويصح حينئذ أنها كانت قبل وفاة أبي بكر . وهذا هو الراجح عندنا لأن تفاصيل المعركة كما تروى في الرواية تشعرا بامارة خالد فيها وهذا قطعاً كان في حياة أبي بكر ؛ وإما أن تكون هذه الواقعة جرت في سنة أربع عشرة كما تقول الرواية . وحينئذ لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل وفاة أبي بكر رضى الله عنه .

والذي يرجح لدى البحث أن دمشق حوصرت أكثر من مرة واحدة قبل فتحها صلحا أو عنوة ، وأن واقعة في « مرج الصفر » جرت بين المسلمين والروم أكثر من مرة واحدة كانت واحدة منها بعد الحصار الأول على يد خالد بن سعيد فقتل فيها هو وأبنته ، وكانت واحدة أخرى منها على يد خالد بن الوليد وهي التي تذكر الرواية أنها كانت قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام ؛ ومن مرج الصفر توجه خالد بن الوليد إلى اليرموك فواجه

حشود الروم ، وثمة جاء الخبر بوفاة أبي بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبي عبيدة ، ثم كان حصار دمشق الذي فتحت عليه بإمرة أبي عبيدة وتدير خالد بن الوليد .

ويرشح ذلك قول الطبرى : ثم كانت « مرج الصفر » استشهد فيها خالد بن سعيد ، وعدة من المسلمين ، وقيل إن المقتول في هذه الغزوة كان إبنا لخالد بن سعيد ، وأن خالدًا انحاز حين قتل ابنه ، فوجه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام .

فهذا صريح في أن واقعة وقعت في مرج الصفر قبل أن يوجه خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام .

ثم قال أبو جعفر الطبرى : ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها ، وغارته على مصيخ بهراء وانتسافها ، فاجتمعوا بمرج راهط وبلغ ذلك خالدًا وقد خلف ثعور الروم وجنودها مما إلى العراق فصار بينهم وبين اليرموك ، صمد لهم فخرج من سوى بعد ما رجع إليها يسى بهراء فنزل الرماثين - علمين على الطريق - ثم نزل الكشب حتى صار إلى دمشق ثم مرج الصفر فلقى غسان وعليهم الحارث بن الأيهم فانتسف عسكرهم وعيالهم ونزل بالمرج أياماً وبعث بالأخماس مع بلال بن الحارث المزني ثم خرج من المرج حتى نزل قناة بصرى فكانت أول مدينة افتتحت بالشام على يد خالد فيمن معه من جنود العراق وخرج منها فوافى المسلمين بالواقصة .

فهذا أيضاً صريح في أن خالد بن الوليد صار إلى دمشق فحاصرها ثم إلى مرج الصفر ، ونزل المرج أياماً ومن المرج كتب لأبي بكر ، وأرسل إليه بالأخماس ، وأنه خرج من المرج إلى بصرى فافتتحها وخرج منها إلى اليرموك التي يقول بعض المؤرخين : إن غزوتها كانت في رجب أى من سنة ثلاث عشرة - وإذا كانت وفاة أبي بكر وقعت في جمادى الآخرة على أرجح الروايتين فمعقول أن يكون البريد الذي حمل خبر وفاة أبي بكر واستخلاف عمر وصرف خالد بن الوليد بأبي عبيدة قد استغرق هذا الأمد فيما بين واقعة مرج الصفر على يد خالد بن الوليد وواقعة اليرموك التي وصل البريد وهي لا تزال محتملة .

وقريب من مختار الديار بكرى رواية الطبرى من طريق محمد بن اسحاق قال : لما فرغ المسلمون من أجنادين ساروا إلى « نخل » من أرض الأردن وقد اجتمعت فيها

رافضة الروم والمسلمون على أمراءهم وخالد على مقدمة الناس ، ثم نهضوا إلى الروم وهم بفحل فاقبلوا فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل ، ولحقت رافضة الروم بدمشق ، فكانت فحل في ذى القعدة سنة ثلاث عشرة على ستة أشهر من خلافة عمر ، وأقام تلك الحيلة للناس عبد الرحمن بن عوف ، ثم ساروا إلى دمشق وكان عمر عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق فاقتتلوا قتالا شديدا ثم هزم الله الروم وأصاب منهم المسلمون ودخلت الروم دمشق فغلقوا أبوابها وخيم المسلمون عليها فربطوها حتى فتحت دمشق ، وأعطوا الجزية ، وقدم الكتاب على أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد ، فاستحى أبو عبيدة أن يقرىء الكتاب خالدا حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يدي خالد وكتب الكتاب باسمه .

وأبعد هذه الروايات زعم الواقدي أن واقعة اليرموك كانت سنة خمس عشرة وأنها آخر الوقائع .

ومهما يكن من أمر ترتيب هذه الوقائع تقدما وتأخيرا فإنه لا عس الحقيقة الكبرى في نصيب البطل العبقري خالد بن الوليد من فخر هذه الوقائع أميرا وقائدا وجنديا ، فالرواة الذين يروون عزل خالد في واقعة اليرموك ، ويقولون : إنها كانت أولى الوقائع الكبرى في فتوح الشام . ويقولون إن خالدا رضى الله عنه شهد ما بعدها من الوقائع قائد كتيبة أو جنديا من جنود الإسلام ، يعقدون بذابته فخر ماتم من نصر المسلمين في هذه الوقائع ، ويردونه إلى تدبيره وشجاعته .

نتيجة

يقول ابن الأثير في فتح دمشق وهو يلخص ما عند الطبري : لما هزم الله أهل اليرموك استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشر بن كعب الحيري ، وسار حتى نزل بالصر فأناه الخبر أن المنهزمين اجتمعوا بفحل ، وأناه الخبر أيضاً بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فكتب ، إلى عمر في ذلك فأجابه عمر بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام ، وبيت ملكهم ، وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بأرائهم ، وإذا فتح دمشق سار إلى فحل ، فإذا فتحت عليهم سار هو وخالد إلى حمص ، وترك سرحبيل بن حسنة وعمر بالأردن وفلسطين ، فأرسل أبو عبيدة إلى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها ، ويشق الروم الماء حول فحل فوحت الأرض فنزل عليهم المسلمون فسكان أول محصور

بالشام أهل فحل ، ثم أهل دمشق ، وبعث أبو عبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق ، وأرسل جندا آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين ، وسار أبو عبيدة وخالده فقدما على دمشق وعليها « نسطاس » فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالده على ناحية وعمر على ناحية ، وكان هرقل قريبا من حمص فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارا شديدا وقتلواهم بالزحف والمجانيق ، وجاءت خيول هرقل مغيبة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون ، وولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فصنع طعاما فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقعهم ، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالده فإنه كان لا ينام ولا ينام ولا يخفي عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية وهو معنى بما يليه قد اتخذ جبالا كهيفة السلايم وأوهاقا (١) ، فلما أمسى ذلك اليوم تهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع ابن عمرو ومذعور بن عدى وأمثلة من أصحابه ، وقالوا إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا وأقصدا الباب ، فلما وصل هو وأصحابه إلى السور وألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف وكان ذلك المكان أحسن مكان بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان من يحميه ، وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما الحال ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ، ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة ، فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا قتلها ونهبها وهذا صفحها وتسكينها فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح .

وليس ففتح دمشق وشجاعة خالد وتدييره فيه بأحق بالتسجيل من موقفه في فتح « قنسرين » ذلك الموقف الذي انتزع من عمر بن الخطاب كاملته البارعة في تقييد خالد بما يرد الحقائق إلى منابعها الأصلية من التاريخ ويهجر الزائف من الروايات الدخيلة في تاريخ الإسلام .

(١) الأوهاق . جمع مفردة وهق ، وهو الجبل يكون في آخره عدة سهلة الحل .

قال أبو جعفر الطبرى: وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم وعليهم « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها ، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق أحد ، وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد : أنهم عرب وأنهم حشروا ولم يسكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه فقال لهم خالد : إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا ، فنظروا فى أمرهم وذكروا مالتى أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا على تخريب المدينة فأخربها وأبطأت حمص وقنسرين وخنس هرقل إلى القسطنطينية ، وكتب أبو عبيدة بهذا الفتح إلى عمر وذكر له فعل خالد وكتبه لأهل قنسرين فقال عمر كلمته الخالدة : « أمر خالد نفسه . يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى »

وشهد خالد رضى الله عنه فتح بيت القدس ، وكان مع أبى عبيدة فى لقاء عمر بن الخطاب بالجابية وشهد على كتاب صلح أهل إيلياء الذى عقده عمر لهم فى قدمته على بلدهم .

الفصل الثاني عشر

عزل خالد

لماذا عزل عمر بن الخطاب جالدين الوليد

سؤال — خوالد خالد — بين الباحث والمؤرخ — مفاجأة — إعظام التاريخ عزل خالد — خالد عدل عمر — اختلاف الروايات في أسباب العزل — الرواية الأولى — نقد وتحليل — الرواية الثانية — موازنة وتمحيص — الرواية الثالثة وبهرجتها — الرواية الرابعة وتزييفها — الرواية الخامسة ونقدها — رواية راجحة .

هذا هو السؤال الذى يترأى لكل من يقرأ سيرة القائد المظفر بطل الإسلام خالد بن الوليد حتى تنتهى به إلى تلك النهاية الوداعة التى ختمت بها حياة أعظم قائد حربى فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ الحياة .

وفى الحق إنه سؤال يبدو طبيعياً ، ليس فى طاقة قارئ هذه السيرة دفعه ولا مدافعتة إلا إذا استبانت له الحقائق التاريخية فى صورتها الفصيحة بعيدة عن شوائب الروايات الواهنة وأغاليط القصص السقيمة ، مع النظر إلى مقومات شخصيتى الفاروق ، وخالد بن الوليد فى خطوطهما الأولى نظراً بريئاً من « الرتوش » التى تحاطبها الصور فتتأى بها عن هيكلها الخالد الذى لا يحول .

خوالد
خالد

أسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه سنة ثمان - على أرجح الروايات - فكان النبی صلی الله علیه وسلم لا يعدل به أحداً فيما حزه ، خرج فى غزوة « مؤتة » وهى أولى خرجاته الإسلامية - جندياً فعاد منها قائداً قد أمره المسلمون عليهم ، وأئني على تأميره النبی صلی الله علیه وسلم ، وسماه « سيف الله » وسعى عمله فى إنقاذ جيش المسلمين فتتجا على مارواه البخارى فى صحيحه .

وأمره النبی صلی الله علیه وسلم فى غزوة « الفتح » على جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار ، وأرسله أمير سرية لتعظيم « العزى » وأمير أخرى لتعظيم « اللات » وبعثه للتثبت من بنى المصطلق بعد فعلة الوليد بن عقبة ، وأمره على عامة بنى سليم فى غزوة « حنين » وسيره فى ألف رجل طليعة فى جصار ثقيف : وأرسله إلى « دومة الجندل » ففتحها وأخذ صاحبها الأكيد أسيراً ، ولما كانت غزوة « تبوك » جعله النبی صلی الله علیه وسلم على الفرسان والخيول ، وبعثه إلى « نجران » هادياً ومعلماً ، وأرسله إلى بنى جذيمة فأوقع بهم منأولافبرىء النبی صلی الله علیه وسلم من عمله ، ولم يعزله ولم يغضب عليه ، ولكنه أرضى بنى جذيمة .

وهكذا ظل خالد بن الوليد رضى الله عنه حياة النبی صلی الله علیه وسلم منذ أسلم وهو فى مكان الصدارة من جنود الإسلام لم يتزحزح عن الإمارة وقيادة الجيوش حتى

انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وهو عنه راض وبه حفي .

ثم قام بأمر المسلمين الصديق الأعظم أبو بكر فتولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففاجأته ردة العرب وهو في قلعة من المسلمين فيما بين المسجدين فشمسهم للحرب . العرب حتى يعيدهم إلى رسن الإسلام ، فعقد الألوية وعبأ الجيوش ، فكان قائده الأول في هذه الحرب الضروس خالد بن الوليد الذي هزم طليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب ، وأرهب سجاح ، وفرق جموع « أم زمل » وأوقع بني يربوع ، وقتل زعيمهم مالك بن نويرة ، فقال عنه بعض من شهد مقتله إنه أخطأ في قتله ، ولكن أبا بكر الصديق لم يعزله ، وقبل منه حجتة ، وأرضى بني يربوع ، ثم وجه أبو بكر قائده المظفر لفتح العراق ورعبلة فارس ، فتم على يديه ذلك ؛ ولما تضايق المسلمون بالشام وتكاثرت عليهم أمداد الروم ، وهاب الأمراء أن يقدموا استمدوا الصديق ، فلم ير لهذا الموقف أحد من خالد بن الوليد ينسئ به الروم وسائوس الشيطان ، فوجهه أميراً على الأمراء فحاضهم مع الرومان كما حاضها مع الفرس ، وفتح الله عليه أبواب الشام من اليرموك إلى أجنادين إلى دمشق إلى خل إلى حمص إلى المريج وإلى ما شاء الله من بلاد وأمم دخلت في الإسلام . أو كانت تحت ظله وحمايته بفضل عبقرية خالد بن الوليد .

فلماذا بدأ عمر بن الخطاب عمله في دولة الإسلام بعزل هذا القائد المظفر الذي لم تنكس له راية ولم يسقط له لواء ؟ أليس عجيباً ألا يرد هذا السؤال ؟ بل ١١

يختلف الباحثون والمؤرخون في أسباب هذا العزل ، وسبيل المؤرخ في هذا ليس من سبيل الباحث ، ولا سيما طريقة القدامى من المؤرخين التي تعتمد على سرد الروايات معزوة إلى الرواة ؛ أو إلى كتب التاريخ ، ولا تبالى أن يضرب بعض تلك الروايات وجه بعض .

بين الباحث
والمؤرخ

وليت الأمر وقف عند عزل خالد عن الإمارة العامة أو إمارة الأمراء كما سماها أبو بكر الصديق في كتابه إلى خالد ، بل ليت وقف عند عزل خالد عن قيادة كتيبة فتبقى له بعض خواص الإمارة ، بل ليت وقف عند حد إبقاء خالد جندياً مجاهداً يعمل

تحت إمرة إخوانه من الأمراء والقواد ، بل إن عزل خالد انتهى إلى إبعاده عن ساحة الجهاد العملي إبعاداً كلياً حتى مات تلك الميتة التي قدرت له وهو أبعد الناس عن الرغبة في هدوئها ووداعتها .

وأما سبيل الباحث الذي يريد أن يحقق الحوادث ليتعرف الواقع منها من المتخيل ، والصادق من المنحول ، والثابت من المصنوع ، ففيها من العسر والتكاذب ما يحوج الباحث إلى التجمل بالصبر والمصابرة ، والتوقف قبل المهاجمة ، مع التأمل والتفكير .

كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قد ولي خالد بن الوليد إمارة أمراء الشام مفاجأة فجعله القائد العام على جند الشام كله ، فتوجه خالد إلى عمله الجديد ، وأدرك المسلمين باليرموك وهم متضايقون بالروم ، وتسلم زمام القيادة ورتب جيوشه وأنشأ الحركة والتجمل زحف المسلمين بزخوف المشركين ، وتراءت للناس بشائر النصر تلمع في ثواصي المسلمين وإذا بالبريد يفجؤهم بموت أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة وتوليها أبا عبيدة بن الجراح ، وجعل خالد مكانه قائد فرقة ، ومع البريد كتاب من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب إلى القائد الجديد أبي عبيدة ابن الجراح يقول فيه : « أوصيك بتقوى الله الذي يبق ويغنى ماسواه الذي هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملت على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تثرطهم منزلاً قبل أن تستريدهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كشف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة وقد أهلك الله في، وأبلى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلك كما أهلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم » .

ثم يأمره أن يسير أهل العراق إلى عراقهم تنفيذاً لسياسة أبي بكر وأمره ، فقد قال لعمر بعد أن عهد إليه بالخلافة : « وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهل وولاة أمره وحده ، وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » وهنا يذكر أبو جعفر الطبري أن عمر بن الخطاب قال : « كان أبو بكر قد علم أنه يسوءني أن أؤمر خالداً على حرب العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره »

وهذه كلمة حق من رجل كان الحق آثر عنده من الدنيا بحدافيرها، فقد كان يشير على أبي بكر بعزله فيأبى عليه أشد الإباء ويقول : لأشيم سيفاسله الله على الكافر بن، فكان عمر يقول : أما والله لئن صير الله هذا الأمر إلى لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلم أن الله هو الذي نصر ليسا هما ؛ فلما تولى عمر الخلافة أسرع إلى عزل خالد وقال : ماصدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر لم أنفذه .

إعظام التاريخ والمؤرخون قد وضعوا قضية عزل خالد بن الوليد موضعها من التاريخ ، فسك من عزل خالد قائد عزل عن مرتبته فلم يحس له الناس بأثر ، ولم يذكر التاريخ عنه كلمة ؟ وهؤلاء جماعة من الأمراء والولاة والقادة والفرسان من أضراب سعد بن أبي وقاص ، وعمر بن العاص ، وأبي موسى الأشعري ، والمنيرة بن شعبة ، وزباد بن أبيه ، والمثنى ابن حارثة ، والبراء بن مالك عزلهم عمر بن الخطاب نفسه فلم يعقد التاريخ عزلهم قضية وإنما اكتفى بأن يشير إلى الشيء من هذا عند مناسبتة .

خالد عدل عمر أما عزل خالد بن الوليد فقد أعظمه التاريخ وراح يبحث له عن أسباب يردده إليها ، لأن خالد بن الوليد له في نظر التاريخ الإسلامي مقام ليس لأحد من أبطال الإسلام نظيره ، وقد عرفنا احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم به وتقديمه على الأجلاء من السابقين ، وأنه ما كان يعدل به أحدا من أصحابه فيما حزه .

ولقد كان أبو بكر الصديق يرى في خالد بن الوليد عدلا لعمر بن الخطاب ، وعمر هو من هو في الإسلام كله وعند أبي بكر خاصة ؛ ذكر أبو جعفر الطبري : أن أبا بكر قال في حديث جرى له في مرضه الذي توفي فيه مع عبد الرحمن بن عوف : « وددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق . فسكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله » بل إن عمر بن الخطاب نفسه كان يرى هذا الرأي في خالد ، وأنه عدله ونظيره في دولة الإسلام ، وأن أحدا من الناس لا يجزى جزاء خالد سوى عمر . روى ابن حجر في الإصابة عن الإمام مالك بن أنس قال : قال عمر لأبي بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئا إلا بأمرك ؛ فسكتب إليه بذلك . فأجابه خالد : إما أن تدعني وعملي ، والافشأ نك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله .

فقال أبو بكر : فمن يجرى عنى جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا ؛ قال : فأنت ؛ فتجهز عمر حتى أنسخ الظهر فى الدار ؛ فمضى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبى بكر ؛ فقالوا : ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ؟ ومالك عزلت خالدًا وقد كفأك ؟ قال : فيها أصنع ؟ قالوا : تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله ففعل .

يبد أن طريقة قدامى المؤرخين - كما قلنا - لا يعينها البحث فى ربط الأحداث بأسبابها اختلاف العقولة . وإنما عنايتها مصروفة إلى الرواية تسردها سردًا . والقصة تزجها إزجاء . الروايات فى ولا عليها أن تكون الرواية أو القصة صحيحة أو مولدة . ومن هنا تعددت الروايات أسباب العزل واختلفت طرائق المؤرخين فى سبب عزل خالد بن الوليد .

١ - يقول الطبرى فى حوادث السنة الثالثة عشرة . « وأما ابن اسحاق فإنه قال فى الرواية الأولى أمر عزل خالد وعزل عمر إياه . إنما نزع عمر خالدًا فى كلام كان خالد تكلم به - فيما يزعمون - ولم يزل عمر عليه ساخطًا ولأمره كارها فى زمان أبى بكر كله لوقعته بآبن نويرة . وما كان يعمل به فى حربه . فلما استخلف عمر كان أول ما تكلم به عزله . فقال : لا يلى لى عملا أبدا ؛ فكتب عمر إلى أبى عبيدة : إن خالد أكذب نفسه فهو أمير على ماهو عليه . وإن هو لم يكذب نفسه فأنت الأمير على ماهو عليه . ثم أنزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله نصفين . فلما ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد قال : أنظرنى أستشير أخفى فى أمرى . ففعل أبو عبيدة . فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد . وكانت عند الحارث بن هشام . فذكر لها ذلك . فقالت : والله لا يحبك عمر أبدا . وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك . فقبل رأسها . وقال : صدقت والله فتم على أمره . وأبى أن يكذب نفسه . فقام بلال مولى أبى بكر إلى أبى عبيدة فقال : ما أمرت به فى خالد ؟ قال أمرت أن أنزع عمامته وأقاسمه ماله ، فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا ، فقال خالد . أجل ، ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك ، فأخذ نعلًا وأعطاه نعلًا ، ثم قدم خالد على عمر المدينة حين عزله . »

ثم تابع ابن اسحاق حديثه عن خالد ولا حقه فى المدينة بعد عزله ، فقال : « كان عمر كلما مر بخالد قال . يا خالد أخرج مال الله من تحت استك ؛ فيقول والله ما عندى من مال ، فلما أكثر عليه عمر قال له خالد : يا أمير المؤمنين ؛ ما قسيمة ما أصبت

في سلطانكم؟ أربعين ألف درهم؟ فقال عمر: قد أخذت ذلك منك بأربعين ألف درهم، قال: هـ لك؟ قال: قد أخذته، ولم يكن لخاله إلا عدة ورقيق، فحسب ذلك فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فنافسه عمر ذلك، فأعطاه أربعين ألف درهم، وأخذ المال، فقيل له: يا أمير المؤمنين: لو رددت على خاله ماله؟ فقال: إنما أنا تاجر المسلمين، والله لا أردده عليه أبداً. فكان عمر يرى أنه اشتفى من خاله حين صنع به ذلك.»

تقدو تحليل

هذه رواية كثيرة التعاريج والتعوت وكأنها تنادى على نفسها بالزيف والتلفيق. ومن حق البحث أن تقف معها لنعرف مداخلها، ونكشف عن مواضع الريبة ومطازن التلفيق والزيف فيها حتى يكون في هذا النحو من النظر في روايات التاريخ منبهة للناشئة المثقفة فلا تتخدع عن عقولها بتصديق كل مادون القدامى من روايات وأقاصيص. ومحمد بن اسحاق راوى هذه الأقصوصة تكلم فيه حذاق الناقدين من صيارفة الجرح والتعديل بما يكفي لإسقاط رواياته من حساب الاعتبار والتعويل، مع ذلك فإننا نقطع النظر عنه لأن رواية التاريخ لم يقصد إليها قصد نقد الرواة فهو كغيره من رواة السير والتاريخ وقد يكون في بابه من أمثلهم، وإنما ننظر في الرواية وما اشتملت عليه لنعرف قيمتها من الواقع التاريخي.

أولاً: تزعم هذه الرواية أن عمر بن الخطاب إنما نزع خالد بن الوليد بسبب كلام تكلم به خالد، ونحن نسأل، ماذا كان الكلام الذي تكلم به خالد فاستحق به العزل من القيادة العليا لجيوش الإسلام في وقت كان النصر معقوداً بناصره؟ أفسكان ذلك الكلام كلاماً يمس الدين أو نظام الحكم؟ أم كان كلاماً يمس عمر بن الخطاب في شخصه؟ ليس في شيء من الروايات ما يبين لنا ذلك الكلام حتى يمكن النظر فيه وفيما يقتضيه، فهو أمر مجهول لا يصلح للتعويل عليه في قضية تاريخية من عظمت الأحداث في الإسلام، ولم يعرف في تاريخ خالد بن الوليد منذ دلف إلى الإسلام أنه وقف موقفاً ينكره الإسلام، ولا حفظت عنه كلمة تحدى عقيدته، ولم يعرف عنه أنه انحاز إلى جهة من الجهات التي تنازعت الخلافة وسلطان الحكم في الإسلام.

ثانياً: تقول هذه الرواية. ولم يزل عمر عليه ساخطاً ولأمره كارهاً في زمان أبي بكر كاله لوقعته بأبن نيرة، وما كان يعمل به في حربه.

وهذان سببان جديدان تذكرهما الرواية لعزل خالد ، فأما وقعة خالد بمالك بن نويرة وموقف عمر بن الخطاب منه فقد عرفت حديثه بما له وما عليه في فصل مضى . وأما ما كان يعمل به خالد في حربه فإنما يعنى به ميله إلى الاستقلال المطلق في تصرفاته في دائرة عمله وإمارته ، وهو أمر جرى أن يكون سبباً للعزل ، وستحدث عن ذلك بالتفصيل في موضعه ، والذي ننبه إليه هنا أن هذه الرواة واضحة التلقيق ، جمعت الغث إلى السمين ، والجدير بالصيحة إلى العليل السقيم .

ثالثاً : تزعم هذه الرواية : أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة يقول له : إن خالد أ كذب نفسه فهو في مكانه أمير الأمراء كما جعله أبو بكر الصديق ، وإن لم يكذب نفسه ، فهو معزول عن الإمارة ، محال إلى المحاكمة ، وأية محاكمة ؟ محاكمة من لون لم يعرفه آحاد الناس وعامتهم في الإسلام ، بله قادتهم وخاصتهم ، لا بل قائد القواد ، وبطل الإسلام ، وأمير الأمراء خالد بن الوليد ، محاكمة ليس فيها تحقيق ، وإنما هي ضرب من التنكيل والامتحان ، وأي تنكيل أشد وأفسى من أن ينتزع لواء النصر وهو يرفرف على هامة القائد المظفر ، ثم يطوح به إلى حضيض التهمة والخيانة ؟ وأي امتهمان أمض لنمس البطل من أن يقاد على سمع جنوده وبصرهم كما يقاد الجمل الخشوش . ثم تنزع عمامته عن رأسه ، ونزع العمامة عن الرأس في نظر المآثر العربية ضرب من المثلة شنيع ؟ وأي كرامة تبقى لقائد يراه جنوده في موقف كهذا يقاسم ماله بأمر أمير المؤمنين ؟ أليس هذا تسجيلاً للخيانة ؟

رابعاً : تزعم هذه الرواية : أن خالد بن الوليد استمهل أبا عبيدة حتى يستشير أخته فاطمة بنت الوليد ، فأشارت عليه بأن هذه مكيدة من عمر بن الخطاب نصب حبالها ليوقع بها خالدًا في إكذاب نفسه ثم ينزعه من عمله لأن عمر في زعم هذه الرواية يبغض خالدًا ولا يحبه أبداً ، فهو لا يريد تحقيق قضية ولا يريد معرفة حق ، ولكنه يريد نسكاية بخالد ، فهو يمتثل عليه ويمكر به حتى يكذب نفسه ثم ينزعه ، وقد صدق خالد أخته فاطمة وأمعن في تصديقها قبل رأسها وأبى أن يسكن لحيلة عمر ومكره به أن ينالا منه ، فلم يكذب نفسه .

أليس هذا طرزا من القصص الخبيث الذي يقصد به الحط من شأن الفاروق عمر ابن الخطاب في عدله الذي سار في آفاق مسير ضوء النهار مع أشعة الشمس ؟ ويقصد

به الدليل من بطل الإسلام وقائده المظفر خالد بن الوليد ؟ ثم هل لنا أن نسأل في أى شيء يكذب خالد نفسه أو لا يكذبها ؟ ألا قالت لنا هذه الرواية الزائفة عن حقيقة ذلك الشيء لنعرف ما هو ؟ وبأى الأشياء يلتحق ؟ أبا لدين أم بالدنيا ؟ وما قيمته وخطره ؟ ليس في الرواية ما يكشف عن هذه المعميات المقصود تعميتها لتوقع في الأنفس أشياء وأشياء حول أشخاص هم من أغرمفاخر الإسلام .

ومتى عرف عن خالد أنه استشار أخنأ أو أما ؟ ولكن الرواية الزائفة تريد أن توقع في الأذهان أن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ليسا كما عرفهما تاريخ الإسلام الصحيح في مكانهما من الدين ورسوخ الإيمان ، والترفع عن الشبهات ؛ بله المنكرات ، هي تريد أن تقول للناس : إن عمر بن الخطاب يبغض خالدا بغضا ينزع إلى عرق جاهلي تعرفه أسرة خالد حتى نساؤها ؛ فهو لا يريد بما صنع مع خالد — إن كان قد صنع معه شيئا — الإسلام وتنفيذ أوامره ؛ وإنما هو يريد إلى شفاء نفسه من حزازات قديمة موروثية ؛ أليس هذا من أعجيب العجب ؟ عمر بن الخطاب النموذج الأعلى لروح الإسلام بمزوجة بفضائله العليا ومقوماته الإنسانية ؛ وعناصره الاجتماعية ؛ وآدابه السامية ؛ تصوره هذه الرواية مع أعظم قائد وأشجع بطل عرفه الإسلام خالد بن الوليد بهذه الصورة التي لا تتماشك إلا على أساس أن عظيمى الإسلام فاروقه وسيده لم يكونا من هذا الإسلام كما يعرفهما المسلمون من طريق وثيق الخيار (عن الصادق الصدوق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) ومن طريق حياة عمر وخالد في الإسلام .

خامسا : تقول هذه الرواية : إن بلالا مولى أبى بكر رضى الله عنهما قام إلى خالد ونزع عمامته وقاسمه ماله ، فاستسكان خالد حتى أخذ مالا يصلح الـ بما أعطى ؛ ثم تقول : إن خالدا بعد هذا الذى صنع به قدم على عمر المدينة ؛ فهل ترك عمر خالدا بعد قدومه عليه ؟ تأبى هذه الرواية أن يتركه يستروح أنفاس الراحة ؛ ولكنها تلتقى على لسان عمر كلمة متشفية عابثة تجعلها يدنه كالملقى خالدا فتقول : كان عمر كلما مر بخالد يقول : يا خالد أخرج مال الله من تحت استك ؟ ؟ فهل عرف الناس في ألفاظ عمر بن الخطاب وكلماته وزواجره مثل هذا المحجر من القول ؟

والعجيب في هذه الرواية أنها ما حاولت أن تجعل من خالد بن الوليد إلا رجلا مستكيناً مستسلماً ، فهو قد استسكان واستسلم لبلال ينزع عنه عمامته وبقاسمه ماله ، وهو

هنا يستكين ويرد على هذه الكلمة التي تزعمها هذه الرواية على لسان عمر رداً ياباًه كثير من آحاد الناس ليس فيهم شيء من شجاعة خالد بن الوليد ، فلما أكثر عمر على خالد استقصى خالد استبراء نفسه بين يدي عمر ، فقوم على نفسه جميع ما يملك من عدة ورقيق وهما كل مال عند خالد - كما صرحت به الرواية متواضعة - بأربعين ألف درهم ، فاشتراها منه عمر بما قوم ، فلما حسبت بلغت قيمتها ثمانين ألف درهم ، فأعطى خالداً أربعين ألفاً ودفع إلى بيت مال المسلمين عدة خالد ورقيقه ، فكان بعض الناس يقول لعمر : يا أمير المؤمنين ، لو رددت إلى خالد ماله ؟ فيأبى عمر ويحتج بأنه تاجر المسلمين وقد ربح لهم في صفقة ربها فلا يرده .

وليت شعري هل وقت هذه الرواية الزائفة الملفة عند هذا الحد ، فلم تكشف العطاء عن خبث الفكرة التي صنعتها ؟ إن هذا لم يقدر لها ، بل قدر لها شيء آخر ، قدر لها أن تضع العنوان في آخر المقال ، وأن تحتم بما يفصل ما أجملت في أطوائها من أغراض ومقاصد لا تتطلب في إدراكها كثيراً من التفكير ، وهكذا تبجى نهايتها واضحة صريحة في غير لبس أو غموض فتقول : فكان عمر يرى أنه اشتق من خالد حين صنع به ذلك . أفهتتم أيها العقلاء من عمر بن الخطاب ؟ ومن خالد بن الوليد في هذه الروايات الملفة ؟ مسكين أيها التاريخ ١١ متى تقلب صفحاتك بقلم نافذ عليم ؟ ومتى تنقي من هذا الغلس والبله والتضليل ؟

والذي يظهر من نسج هذه الرواية الملفة أنها تعنى أن عزل خالد عن الإمارة العامة وعن مطلق العمل في الجيوش الإسلامية ، ومطالبته بالكذب نفسه ومقاسمته ماله ، كل ذلك كان دفعة واحدة أول خلافه عمر بن الخطاب ، وهذا مصادم بما هو ثابت من أن خالد أَرْضَى الله عنه عزل أول مرة في السنة الثالثة عشرة من إمارة الأمراء ، وقيادة عامة جيوش الإسلام بالشام ، وتولى عمله أمين الأمة أبو عبيدة في قيادة فرقته ، وبقي خالد يجاهد تحت راية أبي عبيدة بأمر عمر بن الخطاب ، حتى فتح قنسرين وأبدى في فتوحها من فنون الشجاعة وضروب السياسة ما جعل عمر بن الخطاب يقول فيه كلمته المشهورة « أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبابكر هو كان أعلم مني بالرجال » ولما تم لخالد فتح قنسرين تولى عليها ، وفي السنة السابعة عشرة أدرب هو وعياض ابن غنم فأصابا شيئاً كثيراً من الغنائم ، فأنجمعهما رواد المسكارم ، فأعطى خالد وأغدق العطاء ، فبلغ ذلك من فعله عمر بن الخطاب ، فأمر بعزله عن مطلق العمل في جيوش الإسلام . وكان خالد وعياض قد توجهوا

من الجالية مرجع عمر إلى المدينة وعلى حمص أبو عبيدة وخالد تحت رايته على قنسرين .

الرواية
الثانية

٢ — قال أبو جعفر الطبرى من رواية سيف : « وأدرب سنة سبع عشرة خالد وعياض ، فسارا فأصابا أموالا عظيمة ، ولما قفل خالد ، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجع رجال فانتجع خالد رجال من أهل الآفاق ، فكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالد بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف ، وكان عمر لا يخفى عليه شئ فى عمله ، كتب إليه من العراق بخروج من خرج ومن الشام بجائزة من أجيز فيها ، فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالدًا ويعقاه بعمامته ، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث ؟ أمن ماله ؟ أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وأعزله على كل حال ، وأضخم إليك عمله .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد : فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام البريد فقال : يا خالد ! أمن مالك أجزت بعشرة آلاف ؟ أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً ؛ فقام بلال إليه ، فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته ، وقال : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ قال ؟ لا ، بل من مالى ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم سمعه بيده ؛ ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا .

وأقام خالد متحيراً لا يدرى أم عزول أم غير معزول ، وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذى قد كان ، فكتب إليه بالإقبال ، فأتى خالدًا بأبي عبيدة فقال : رحمتك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ، فقال أبو عبيدة : إني والله ما كنت لأرورك ما وجدت لذلك بدا ، وقد علمت أن ذلك يروحك ، فرجع خالد إلى قنسرين فيخطب أهل عمله وودعهم وتجهل ، ثم أقبل إلى حمص فيخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه ، وقال : لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك فى أمرى غير مجهل يا عمر ، فقال عمر من أين هذا الثراء ؟ قال من الأنفال والسهمان ، مازاد على الستين ألفاً فلك ، فقوم عمر عروضة فعخرجت إليه عشرون ألفاً ، فأدخلها بيت المال ، ثم قال يا خالد : يا خالد والله إنك على لسكريم ، وإنك إلى لحبيب ؛ ولن تعاتبني بعد اليوم على شئ . »

هذه رواية أخرى يسوقها أبو جعفر الطبرى فى صدد الحديث عن أسباب عزل عمر خالد بن الوليد عزلا نهائيا عن العمل فى الجيوش الإسلامية قاطبة ، ونحن إذا أمعنا النظر فى هذه الرواية ازددنا يقينا بما بنينا عليه منهجنا فى تصوير رجال الإسلام وإخراج سيرتهم للناس لتكون لهم فيها القدوة الصالحة والعبرة النافعة ؛ فالميزان الذى استقام لنا هو تعرف الشخصية فى خطوطها الأولى ومقوماتها الأصلية ، ورد كل ما يرد من رواية أو قصة إلى هذه الخطوط ، وتلك المقومات ، فما كان متفقا منها مع تلك الخطوط والمقومات قبلناه ، وما لم يتفق مع شيء منها شككنا فيه حتى يظهر لنا ما يزيهه .

هما روايتان يذكرهما شيخ المؤرخين أبو جعفر الطبرى من طريقين مختلفين الإسناد والرواة ، ومختلفى الحوادث وأسلوب الأداء ؛ وقد أريناك ما فى الرواية الأولى من تلفيق وزيف يبعدان بها عن أن تكون حديثا فى سيرة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، لأنها اشتملت على الوان لا توأم الخطوط الأولى والمقومات الأصلية لهاتين الشخصيتين العظيمتين فى تاريخ الإسلام .

أما هذه الرواية الثانية فإنها تتحدث عن عزل خالد عن عمله الذى وليه وهو تحت إمرة أبى عبيدة ، وهذا هو العزل الثانى الذى أبعد به خالد بن الوليد عن الجهاد مع الجيوش الإسلامية إبعادا كاملا ، أما العزل الأول فهو العزل عن الإمارة العامة كما عرفت ، وهذا لم يتعرض له هذه الرواية .

بيد أنها ذكرت فى صدد الحديث عن أسباب العزل الثانى ما لفتته الرواية الأولى مع غيره بأسلوبها وجعلته سببا لعزل لاندري متى كان ؟ ولا عن أى عمل كان ؟ والرواية الثانية تعين وقت العزل الذى تتحدث عنه وتذكر له سببه بأسلوب لا يرددها عن حياة عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما ، فأولا : تذكر هذه الرواية أن خالد كان واليا على قنسرين تمت إمرة أبى عبيدة وأنه توغل هو وصاحبه عياض بن غنم فى أرض العدو فغنما أموالا عظيمة وبلغ الناس كثرة ما أصابا من الأموال فانتجعهما أهل الآفاق ، وكان فيمن انتجع خالد رجل من رءوس العرب هو الأشعث بن قيس زعيم كندة . فأجازه خالد بعشرة آلاف درهم .

إلى هنا ليس فى الأمر شيء يختلف مع طبيعة الوقائع والأشخاص ، فخالد وهو بطل الإسلام وريب الجهاد ، وقائد جيوش الإسلام المظفرة ، لا تستقر نفسه إلا فى وجه عدو يماله أو بلد يفتحه ، وقد أصبحت الشام فى يد المسلمين ، وعلى أرباعها وأمها مدينتها

أمرء وقادة من أنفسهم ، فعلى حمص أبو عبيدة ، وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان ، وعلى الأردن معاوية أخوه ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الأهراء عمرو بن عتبة وعلى السواحل عبدالله بن قيس وعلى قنسرين خالد بن الوليد ، فهل بما يوافق طبيعة حاله أن تطيب نفسه بالموادعه ويركن إلى الراحة ، وحسبه أنه وال على قنسرين ، ما أظن أن أحدا ممن قرأ شيئا من سيرة خالد بن الوليد ، أو عرف شيئا من حلاته هذا البطل العبرى يفهم أنه يرضى بغير الجهاد مراحا ، وهو الذى يقول : «ماليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد» فإدراك خالد وتوغله فى أرض العدو خليفة من خلائق ابن الوليد منقطوع عليها ، وظفره وغنمه عادة عودة الله إياها ، وقصد الناس له طالبين لرفده ، وقد سمعوا بما أصاب من الغنائم والأموال ، وإغداقه العطايا عليهم ، وإجازته سيدها من سادات العرب بما أنزله منزلته ، ليس فى شيء منها ما تنكره طبيعة الحياة والأشخاص .

ثانيا : تذكر هذه الرواية أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - وكان لا يخفى عليه شيء من عمله - بلغه إدراك خالد ، وإجازته الأشعث بهذا القدر العظيم من المال ، فكتب إلى القائد العام أبي عبيدة يأمره أن يحقق مع خالد فى مصدر هذا المال الذى أعطى منه الأشعث هذا العطاء الغامر ، وخالد وال من ولاية المسلمين ، يجرى عليه من سلطان الخلافة الإسلامية ما يجرى على غيره من العمال والولاة ، والخلافة الإسلامية على عهد الراشدين ، سلطان مبسوط بالعدل بين الأفراد والجماعات ، ومدرسة لتخريج نماذج من الفضائل فى صور حية متحركة ، تشبى بين الناس مثلا لتطبيق شرائع الإسلام بكيفية بروحه ومعناه .

فمن حق الخليفة الراشد أن يعرف وجه كل تصرف من تصرفات ولائه وعماله ، لأن شريعة الإسلام التى بسطت سلطانه عليهم تجعله مسئولاً عن أفعاله ، وهذا وال من ولائه أعطى رجلا واحدا لا تشفع له سابقة جهاد عطاء كان يكفى أن يقيم أود عشرات من الأسرى الإسلامية فى ذلك الزمان ، وكان يكفى أن يجهز سرية تندو مجاهدة فى سبيل الله ، فلا بد أن يسأل هذا الوالى عن مصدر هذا المال الذى تصرف فيه هذا النصف ، نعلم إن كان من مال المسلمين أفاءه الله عليهم فى جهادهم ، فلا حق للوالى أن يماز فيه ما حوله الله من سلطان يبلغ الحقوق لأربابها ؛ فإن فعل فإنه لم يؤد أمانة الولاية التى ولها ؛ وحينئذ يكون قد خلع عن نفسه ما سر به الله من سلطان .

وإن كان ذلك المال الذى أعطى منه ذلك العطاء ملكا للوالى فمن حق الخلافة الراشدة بما خولها من حق الإشراف على تخريج النماذج العليا للفضائل الإنسانية أن تمد نظرها إلى تصرفات الأفراد ، ولا سيما أفراد أراهم الإسلام للأسوة لتطبيقها على سنن الشريعة ، لا من وجهة الحظر والإباحة ، ولكن من وجهة الكمال والأكمل ، والفاضل والأفضل ، ولا يتم نموذج الفضيلة إنسانا فى الإسلام إلا إذا ترك بعض المباح خشية الوقوع فى المكروه .

فتمصرف خالد بن الوليد فى إجازته للأشعث بعشرة آلاف لا يخرج فى نظر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أن يكون واحدا من أمرين كلاهما يفوت مقصدا القدوة فى خالد ، باعتباره نموذجا أعلى للفضيلة فى الإسلام ، وذلك هو الشرط فى الولاية عند الخلافة العمرية الراشدة فلم يبق إلا أن يعزل خالد عن عمله على كل حال ، وهو عزل ليس عده مفعلة فى تاريخ ابن الخطاب بأحق من عده مفعلة فى سيرة ابن الوليد .

ثالث : ذكرت هذه الرواية قصة إقامة خالد ، ونزع قلنسوته ، وعقله بعلمته ، ولم تذكر مقاسمته ماله ، ولكنها أفرغت ذلك فى قالب يختلف معدنه عن معدن قالب الرواية الأولى ، فهذه الرواية ترى أن أبا عبيدة استقدم خالدًا وجلس للناس على المنبر وهو ساكت لا يتكلم ، وقد تولى البريد استجواب خالد فلم يجبه خالد فقام بلال وبين خالد أن أمير المؤمنين هو الذى أمر باستجوابه على الصورة التى يجب لحق السمع والطاعة أن تتحقق . فنفذ بلال الأمر وسأل خالدًا فأجاب به ، فأسرع إلى تعميمه بيديه تعظيما لحق الولاء بعد أداء حق السمع والطاعة .

وقد تسكون هذه القصة كلها دخيلة على الرواية فلم يقم خالد ، ولم تنزع عنه قلنسوته ولا عقل بعلمته ، وقد تسكون من الواقع التاريخي . وحيث أنه على شدتها لون من ألوان الزجر الذى تملكه على الناس الخلافة الراشدة ، منزعجا من البيئة التى تعطيها صورته التى يخرج بها إلى حيز التنفيذ ، وقد يخفف من شدة هذا الزجر ما أحيط به فى هذه الرواية من مظاهر التكريم للبطل العظيم ، فموقف أبى عبيدة وسكوته وتركه الأمر إلى رسول أمير المؤمنين يتولاه ، مظهر من الإكبار لم يفت خالد إدراكه ، وكأنه فى سكوته وعدم رده على أسئلة البريد يستطيع موقف قائده وأميره ، أبى عبيدة ؛ فلما

رأى أنه يضيق بهذا التحقيق ، ويقف منه موقفا سلبيا هو منتهى ما يمكن أن يبلغه من المجاملة ، سارع إلى إجابة بلال الذي كان في تصرفه مبالغة التبرية الإسلامية الفاضلة ، فهو قد رأى أن الخليفة قد أمر في أحد ولاته بأمر واجب التنفيذ ، ولكنه يرى أن الأمير العام يقف من أمر الخلافة موقف الانتظار ، والأمر جد خطير ، لأنه يتعلق بسلطان الخلافة ، فلم يطق أن بسكت ، فقام إلى خاله ونفذ فيه أمر أمير المؤمنين ، فرأى منه السمع والطاعة ، ثم عاد إليه يعظمه ويكرمه ، وكأنه يعتذر إليه بقوله : « نسمع ونطيع لولائنا ونفخ ونخدم موالينا » .

رابعة : تذكر هذه الرواية أن أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه كان مثالا كريما في تكريم قائده وأمره بالأمس وجنديه اليوم ، فقد أبت عليه مكارمه أن يسرع إلى خاله فيخبره بعزله ، وبقي خالد لا يدري من أمره شيئا ، أمعزول أم غير معزول حتى طال الأمر على أمير المؤمنين ففطن إلى ما وقع ، فكتب إلى خالد مباشرة بالإقبال عليه ، وهنا فهم خالد حقيقة ما كان ينطوى عليه قائده وأمره أمين الأمة أبو عبيدة من التعظيم له والتجافي عن إبلاغه ما يسىء إليه ويؤله ، وقد قدر خالد ذلك أحسن تقدير ، فأنى أبا عبيدة فقال له : « رحمك الله ! ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمتني أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم » وهي كلمة عاتبة عتب الصديق الذي آانس من صديقه العطف والرحمة عند محنة ليس في استطاعته دفعها عن صديقه وكأنا كبر على خالد أن يرى نفسه في موقف مما يظن به الحاجة إلى الرثاء والعطف والاسترحام ، فرد عليه الأمين أبو عبيدة ملصحا عن مدى ما بلغه استطاعته في موقفه منه بقوله : « إني والله ما كنت لأروك ما وجدت لذلك بدا » .

خامسة : تذكر هذه الرواية أن خالد أرجع إلى قنسين مقر عمله فخطب فيها مودعا وتحمل منها إلى حمص ، فخطب أهلها وودعهم ، ثم خرج إلى المدينة حتى قدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فعاتبه أجمل عتاب بقوله : « وبالله إنك في أمرى غير تجهل يا عمر » وشكا إلى جماعة المسلمين ، وهم مسيطرة العليا التي يحا لم إليها من ولنهم الأمة سلطانها ، ولقد قبل أمير المؤمنين عتاب القائد البطل أحسن قبول ، ولكنه بعد أن أتم تحقيق القضية استيفاء لحق القوام على سلطان المسلمين ، وهو أفسد من كل حق بعده ، وليس في نظر الخلافة الراشدة حق فوقه .

قال عمر لخالد : من أين هذا الثراء ؟ قال خالد : من الأنفال والسهمان ؟ وهذا السؤال وجوابه يتصلان أشد الاتصال بأصل القضية التي جرى فيها التحقيق وانتهت بعزل القائد العبقري ، فقد كان رده على سؤال بلال عن اجازة الأشعث أنها من ماله الخاص ، وبلغ ذلك عمر ، وكأنه استعظم أن يكون هذا العطاء العامر من مال يملكه ملكا خالصا أمير الجيوش الإسلامية في دولة الخلافة الراشدة ، لأنه عطاء لا يجوز به إلا ذو ثراء مذكور ؛ وخالد بن الوليد إذا كان من بيت شهر في قريش بكثرة المال وسعة الثراء ، فإن ما آل إليه من ذلك المال - إن كان - لم يكن ليعد به من أصحاب الثراء ، فلا بد إذًا من معرفة مصدر هذه الثروة الخاصة ، وصاحبها كان قائد الجيوش الإسلامية وأميرها ، وتحت يده جنود المسلمين وغنائمهم ، وما أفاء الله عليهم ؛ والخلافة الراشدة مسئولة عن بث روح الطمأنينة في نفوس الأفراد والجماعات ، على أن سلطان العدالة مبسوط على الناس أجمعين ، لا فرق في ذلك بين أمير ومأمور ، ولا بين قائد عظيم وفرد من عامة المسلمين ، وقد أجاب خالد أمير المؤمنين عن سؤاله جواب المطمئن إلى سلطان الإسلام في عدالة عمر ، وقد جعله نموذج الأول في ضرب المثل للحياة ، ولم يقل كما يقول متشعرو الاحتيال : لا يسأل المالك من أين ملك ؟ بل قال - وهو القائد المظفر - إن هذا المال من الأنفصال والسهمان ؛ ولعل خالدًا ظن أن القالة في ماله أكثر عليه ، فأراد أن يدفع هذا دفعا عمليا يقوم على نفسه جميع ما يملك بستين ألفا ، فإن زاد شيء عن ذلك فهو لبيت مال المسلمين ، فلما قوم عمر عروض خالد خرجت إليه عشرون^(١) ألفاً فأدخاها بيت المال ، فلم يرفع خالد إليها رأسه ، ولا تطلعت لها نفسه ، ولكن عمر رضى الله عنه لم يقف بخالد عند هذا الحد الذي أراح به الحق إلى مكانه ، بل التفت إليه أكرم التفاتة ، وأعتبه بأجمل أسلوب ، فقال له : « يا خالد والله إنك على لكرم ، وإنك إلى لخبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » وليس في استطاعة أحد أن يزعم أن عمر تملق خالدًا بهذه الكلمة الفاصلة ، لأن عمر هو عمر بن الخطاب ، وليس عمرًا آخر ، وابن الخطاب إذا قال كلمة كان كل معنى تحت كل حرف منها مقصودا له ،

(١) لعل هذه الزيادة جاءت نتيجة لتعظيم الناس آثار خالد فتناقصوها في الشراء فزادت أمثانها ، على قيمتها في التعامل . كما يحدث دائما في آثار العظماء .

يريد أن يفهمه الناس عنه ، وهذه الكلمة مدحضة لكثير من الروايات الزائفة في قصة عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد .

الرواية الثالثة ٣ — قال ابن عساكر في سبب عزل عمر خالد : إنهما تسارعا وها غلامان وبهرجتا فسكر خالد ساق عمر ، فما زال بينهما البغض حتى تولى عمر فعزله .

هذه رواية نذكرها دليلا على مبلغ تفاهة القصص الذين يتعلقون بالسخر ، ثم يحملونه على التاريخ فيجري على السنة المؤرخين وفي كتبهم ، وإلا فما قيمة هذه الأفضوصة حتى يذكرها مؤرخ عظيم كابن عساكر ، فهل من المعقول أن يظل أثر لعبة بين طفلين في الجاهلية بعد أن أكرمهما الله بالإسلام ، فكان أحدهما ثاني اثنين في الإسلام كله بعد رسول الله ﷺ ، وكان الآخر منهما أعظم ما أخرج الإسلام كله من قواد الحروب والجهاد في سبيل الله ، فينتهي بهما وها في ذروة الحياة ليس فوقهما في مكانهما أحد إلى هذا الصغار الذي يأنف منه آحاد الناس ؟ هذا كلام فارغ ما كان ينبغي أن يسطر ، ولكننا أردنا بذكره أن نبه على ما حملته التاريخ من أوزار هو في حاجة إلى أن تطا عنه حتى لا تضيق فيما بينها الحقائق .

الرواية الرابعة ٤ — قال ابن الأثير تحت عنوان «عزل خالد بن الوليد» بعد أن ذكر قصة إدراجه هو وعياض بن غنم : « ودخل خالد الحمام فتدلك بغسل فيه خمر فسكتب إليه عمر : بلغني أنك تدلك بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم ؛ فسكتب إليه خالد : إنا فتنناها فعادت غسولا غير خمر ، فسكتب إليه عمر : إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء فلا أما تكلم الله عليه » .

وسياق ابن الأثير لهذه القصة تحت العنوان المتقدم يفيد أنه يراها سببا من أسباب عزل خالد ، وهو في ذلك قد خالف أصله الطبري في سياقته وبعض ألفاظه ، فالطبري ذكر هذه القصة بعيدة عن عنوان العزل وأسبابه ، فهي عنده ليست من أسباب العزل مطلقا ، بل ربما كان في عبارته ما يفيد أنها لم تتصل بالعزل من قرب أو بعد ، قال أبو جعفر : وبلغ عمر أن خالد دخل الحمام فتدلك بعد النورة بشخين عصير معجون بخمر ، فسكتب إليه : « بلغني أنك تدلك بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه كما

حرم ظاهر الإثم وباطنه ، وقد حرم مس الحجر إلا أن تغسل كما حرم شربها فلا تسوها
أجسادكم فإنها نجس ، وإن فعلتم فلا تعودوا » ، فكتب إليه خالد « إنا قتلناها فعادت
غسولا غير حمر » فكتب إليه عمر : « إني أظن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء فلا أمانكم
الله عليه » فهذا واضح في أن عمر ألقى إلى خالد ما بلغه ، وذكره بحكم الشريعة في الحجر ،
ونهى خالدًا عن العود إن كان قد وقع منه ما بلغه عنه ، وذاد خالد عن نفسه بأنه قتل
الحجر فأفسد خمريتها حتى عادت غسولا غير حمر ، فلم يبق حرج في استعمالها تدليسا ،
وكأنما رأى عمر أن في هذا الرد شيئا من صلابة الرأي فرد على خالد بأن هذه نحيضة
معروفة في آل المغيرة يسأل الله أن يمنحها خالدًا فلا يموت عليها ، فأين في ذلك حديث
العزل ؟ وهي بعد قصة تعوزها الحجة على صدقها .

٥ — قال أبو جعفر الطبري : كتب عمر إلى الأمصار : إني لم أعزل خالدًا عن
مسخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به ففنت أن يوكوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت
أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا يعرض فتنه » وقد ذكر أبو جعفر نحو
هذا في حديث قنسرين ، فقال : « ولما بلغ عمر ذلك — أي عمل خالد في فتح قنسرين
قال : « أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني » وقد كان عزله
والثني ، وقال : إني لم أعزلهما عن رية ، ولكن الناس عظموها فخشيت أن
يوكوا إليهما » فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه .

وهاتان الروايتان تتفقان في أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عزل خالدًا عن
عمله وبين للناس سبب ذلك بأنه رأى الناس فتنوا بخالد تعظيما له ، يخاف عليهم الفتنه
فيه وأن يوكوا إليه ويبتلوا به فيغير الله ما بهم من النصر والظفر على أعدائهم ، فأحب
عمر أن يثبت عقيدة المؤمنين في الله تعالى ، فيعلموا أن خالدًا رضى الله عنه إنما هو رجل
صنعه الإسلام الذي صنع غيره ، فإذا لم يكن خالد وكان الإيمان الراسخ في جند الإسلام
تحت إمرة من كانوا من القواد والأبطال كان النصر والظفر على الأعداء بحالها ، فالله
تعالى هو الذي يؤيد جنده وينزل النصر عليهم سواء أكانوا تحت راية خالد وقيادته أم
كانوا تحت راية غيره من أبطال الإسلام .

وتختلف الروايتان في أمور :

أولاً : في طريقيهما إسناداً ، فالرواية الأولى من طريق شعيب عن سيف عن عبد الله بن المستور عن أبيه عن عدى بن سهل ؛ والرواية الثانية من طريق أبي عثمان وجارية .

ثانياً : الرواية الأولى تخص خالدًا ولا تذكر معه غيره ، والرواية الثانية تذكر مع خالد قائدًا آخر ، هو المثنى بن حارثة الشيباني صاحب الجولة الأولى في فتح العراق ، وترى أن فتنة الناس التي خشبها عمر كانت بهما ، لأن الناس عظموها فزلهما لا عن ريبة ، ولكن تثبتنا لقوة الإيمان في أنفس المؤمنين .

ثالثاً : تقول الرواية الأولى . إن عمر كتب بذلك إلى الأمصار ، والرواية الثانية لا تذكر الكتابة إلى الأمصار ، وإنما تقول : قال . إني لم أعزلهما عن ريبة .

رابعاً : تنفي الرواية الأولى أن يكون سبب العزل سخطاً من الخلافة العمرية على القائد البطل ، وتنفي أن يكون سبب العزل خيانة نسبت إليه ، بل ترى أن سبب العزل فتنة الناس بخالد ، شفاف عمر أن يوكوا إليه ويبلوا به فاحب أن يعلم الناس أن الله هو الصانع حق لا يكونوا معرضين للفتنة بشخصية القائد مما قد يؤدي إلى ضعف النفوس وفتورها في الجهاد وملاقاة الأعداء اتسكالا على أن النصر معقود بنصية خالد وهو قائدهم ؛ وقد يؤدي افتتان الناس إلى منفذ للشيطان يصل به إلى بعض النفوس البائرة أو التي تثور إذا تحركت عندها عوامل خفية عند أدنى المناسبات فيكون الخطر على الدولة ونظامها . وتنفي الرواية الثانية أن يكون سبب العزل ريبة في القائد من العظميين وترى أن سبب العزل تعظيم الناس للقائدين ، وخشية عمر أن يوكوا إليهما .

فهل لنا أن نقول : إن هذا الاختلاف يفيد تكرار هذه القصة وهذا يتمشى مع تكرار العزل كما دلت عليه الروايات الثابتة ، وعلى ذلك تكون الرواية الأولى من هاتين الروايتين أنسب بالعزل الأخير الذي أعقبه خالد عن الجيوش الإسلامية إطلاقاً . والرواية الثانية تكون أنسب بالعزل الأول الذي كان عن الإمارة العامة .

وقد يؤيد هذا متابعة الطبري للرواية الأولى من طريق سيف عن مبشر عن سالم قال : لما قدم خالد على عمر قال عمر متمثلاً :

صنعت ولم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله صانع

فأغرمه شيئاً ثم عوضه ؛ وكتب فيه إلى الناس بهذا الكتاب ليغذره وليبصرهم . فإن حديث الأغرام كان بعد إدراج خالد ، وإجازته الأشعث بعشرة آلاف ؛ وذلك في السنة السابعة عشرة .

وقد ذكرت الرواية الأولى ابن الأثير في ضمن ما ذكره تحت عنوان « عزل خالد ابن الوليد » فقال : وكتب عمر إلى الأمصار : « وإني لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانة ولكن الناس نخموه وفتنوا به خفت أن يوكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وإلا يكونوا بعرض فتنة » وعوضه عما أخذ منه .

٦ - قال ابن حجر في الإصابة : وكان سبب عمر عزل خالدًا ما ذكره الزبير بن بكار رواية راجحة قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً ، وكان فيه تقدم على أبي بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته فذكره ذلك أبو بكر ، وعرض الدية على متمم بن نويرة ، وأمر خالدًا بطلاق امرأة مالك ، ولم ير أن يعزله .

وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد ، وكان أثيراً عند أبي بكر بعثه إلى طليحة فهزم طليحة ومن معه ، ثم مضى إلى مسيلمة فقتل الله مسيلمة .

ثم ذكر الزبير بن بكار أن عمر قال لأبي بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئاً إلا بأمرك ، فكتب أبو بكر بذلك إلى خالد ، فأجابه : أما أن تدعى وعمل وإلا فشأنك بعملك ، فأشار عليه عمر بعزله . . . فلما ولي عمر كتب إلى خالد : أن لا تعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أتفده فعزله ، ثم كان يدعو إلى أن يعمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما شاء ، فيأبى عمر .

قال الزبير : ولما حضرت خالدًا الوفاة أوصى إلى عمر فتولى عمر وصيته ، وسمع راجزاً يذكر خالدًا ، فقال : رحم الله خالدًا ، فقال له طلحة بن عبيد الله :

لا أعرفك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

(م ١٨ — خالد ابن الوليد)

فقال عمر : إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال .

وروى البخارى في تاريخه من طريق ناشرة بن سمى قال : خطب عمر واعتذر من عزل جالد ، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : عزلت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لما دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنك قريب القرابة حديث السن معضوب لابن عمك .

ورواية الإصابة هذه تفيد أن سبب العزل يرجع إلى ما كان في خلق خالد وسياسته من التقدم والاستقلال ، بفعله أموراً لا يراها أبو بكر نحو قتله مالك بن نويرة ونسكاحه امرأته وتصرفه في المال بقسمه في أهل الغنائم دون أن يرفع حساباً إلى الخليفة ، وأن عمر كان يسكر على خالد هذا الاستقلال المطلق في تصرفاته ويشير على أبي بكر بعزله ، فلم ير أبو بكر عزل خالد لأنه لم يجد في الناس من يجرى جزاء سوى عمر وهو في حاجة إليه يبقى إلى جانبه ، يعينه ويؤازره .

فلما تولى عمر الخلافة رأى من الحق عليه أن يعزل خالد لما كان يرى أن يعزله لأجله أبو بكر أو يعدل خالد عن سياسته الاستقلالية ، فلا يعطى شاة ولا يبرأ إلا بأمر الخليفة ، فأبى خالد إلا أن يدعه وعمله على ما كان عليه في عهد أبي بكر ، فرأى عمر أنه لم يصدق الله إن كان قد أشار على أبي بكر بعزل خالد إن لم يتيقن بالرجوع في أمر المال إلى رأى الخليفة ، ثم لا يعزله هو وقد أصبح صاحب السلطان ، فعزله لهذا ؛ ثم كان يدعوه إلى أن يوليه فيأبى خالد إلا على ما كان عليه من الاستقلال المطلق ، فيأبى عمر إلا أن يرجع في أمر المال إلى الخليفة ، ويؤكد هذا قول عمر في رده على طلحة بن عبيد الله : ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع في المال .

وقد اشتملت هذه الرواية على أمثل ما يقال في هذا الباب ، وهو حديث البخارى في التاريخ . وإذا كان مد أجل فيه اعتذار عمر فإن الرواية التي تذكر أن عمر كتب إلى الأمصار أنه لم يعزل جالد عن سخطه ولا خيانة هي التي يحمل عليها هذا الإجمال .

وليس معنى اعتذار عمر أنه رأى خطأ في عمله فاعتذر عنه ، وإنما معناه أن عمر رضى الله عنه كان يقدر أكمل تقدير ما لهذا الحادث الجليل الذي ابتداء به عمله في الدولة

الإسلامية من أثر في نفوس المسلمين ، ولا سيما أولئك الذين جاهدوا تحت لواء خالد
رضى الله عنه ، فقادهم من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح ، فأراد أمير المؤمنين عمر
أن يذكر للناس وجه سياسته وتصرفه في هذا الحادث حتى تطمئن قلوبهم ويفيئوا من
غمرة إعظام الأشخاص والأتكال عليهم مهما بلغوا من العظمة إلى اليقين بالله تعالى ،
وأنه هو الصانع وما الأشخاص والأشياء إلا مظاهر لصنعه وتديره وآثار قدرته وحكمته .

تلك هي أهم الروايات التي تداولها المؤرخون خلفاً عن سلف ، وإليها تنتهي أسباب
عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد رضي الله عنهما .

الفصل الثالث عشر

رأى الدكتور هيكل في عزل خالد وبوإعشة

عرض وتحليل ونقد

هيكـل وأثر البحث الحديث في الناشئة - أثر الأفكار الغريبة في فهم الإسلام وتاريخه - إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة - تزييد في التاريخ - نقد وتزييف - غصبة أبي بكر على خالد وسبها - تعقيب غير موفق - مجانة نواسية لالتحسب في تحقيق التاريخ - أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب في تصوير هيكل - إلحاح في أقصوصة ابن نويرة - منطق مدخول - « الغاية تبرر الوسيلة » سياسة عمرية في نظر هيكل - أحقاد جاهلية حركت عمر نحو خالد في رأى هيكل - اضطراب البحث - هيكل يقرر أن عمر بن الخطاب تأثر بشعوره الخاص نحو خالد - عود إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » عمر بن الخطاب يتملق الرأى العام في تصوير هيكل - هيكل يشك في صدق حزن عمر على خالد .

رأينا قبل أن مجرر رأينا في قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن اليد أن نعرض هيكل وأثر إلى ما كتبه في هذه القضية التاريخية باحث معاصر له مكانة خاصة عند مثقفي هذا الجيل البحث الحديث في الشرق العربي وبلدان الإسلام، وآرائه في البحث تأثير على أفكار المتعلمين، ولها سيرورة مع الأثر إلى كل عقل يشدو حقائق التاريخ الإسلامي مصوغة في أسلوب يلائم ذوق الناشئة من الجيل الجديد .

وفي الحق إنني لأحس إحساساً قوياً يأتري هذا الاتجاه الإسلامي في البحث من كبار باحثينا عند ناشئتنا التي كانت ولا تزال في حاجة ماسة إلى منية قوى جذاب ينمها إلى تاريخ الإسلام ، أشخصه وحوادثه ، ويوجهها إلى النظر فيه لتجد بين صفحاته من أعلام الدنيا وعباقره الحياة وكبريات الحوادث والأحداث الإسلامية ما هو جدير بالدرس والبحث لتستبين من أطوائه أبيع العبر وأهدى السبل ، ولتعلم أن للإسلام أعلامه وعباقرته وأن لتاريخه آياته وعبره ، فلا تعيش في أحضانه بوجدان لا يحسه وضمير لا يشعر به وعقل لا يعرفه وأرواح تنكره .

بيد أن هذا الإحساس ينهد معه إحساس آخر فيه شيء من الأسف : والألم ، ذلك أثر الأفكار أن بعض هذه البحوث تستوحى باحثي العرب في فهم مسائل الإسلام ، وتأخذ الإسلام العربية في فهم عن غير مصادره وتصوغه في غير أسلوبه ، أو هي بعبارة أخرى تسلك مسلك الاستعمار الإسلام الإقصادي الذي يأخذ الخامات من أرضنا وبلادنا إلى أرضه وبلاده ، ثم نستردها منه وقد حاكها على منواله وصبغها بأصباغه ثم طبع عليها بخاتمه ، فكانت شيئاً حراً خديداً علينا ، لا تعرفه طبيعتنا ولا تستسيغه عقولنا ، إلى أن نجرده من كل ما طرأ عليه بعيداً عن بيئتنا .

ومن هنا يتضح خطر الاستشراق والمستشرقين ، رسوء أثر الاستغراب والمستغربين على عقول الناشئة من شباب الإسلام وأبناء المسلمين . وهذا الخطر كامن في كثير من هذه البحوث التي أحسنت - قاصدة أو غير قاصدة - فأخذت بأعضاء الشباب إلى النظر في تاريخ الإسلام ، وأسأت لأنها أرت هذا الشباب الإسلام بأسلوب وطرائق غريبة عن

الإسلام فكان من اللازم أن تجرد أقلام إسلامية المظهر والخبر تمشي إلى هذه البحوث بالنقد المعص الذي يرد الحقائق إلى أصولها ، ويترك الأصابع الأجنبية وما يتصل بها مجردة في أيدي أصحابها حتى يستطيع الشباب الإسلامي فهم الإسلام بروح الإسلام ، وبأسلوبه المتنوع من طبيعته وبيئته .

ومن عجب أمر هذه البحوث المطعمة «بميكروب» الفكر الغربي في دراسة تاريخ الإسلام أنها تأخذ طريقها في يسر وسرعة إلى أيدي الناس في كتب ومقالات وإذاعات وأحاديث تجر على جامعها مغنم فادحة ، وتعود على العلم والإسلام وأبنائه بمفاسد فاضحة ، ثم لا تجد من بين علماء الإسلام وحملة أقلامه من ينهض ليكشف عن سوءة هذا الاتجاه الخطير على أفكار الناشئة الا قليلا ممن عصمة الله ووفقه .

ولست أدري ما سبب هذا التعامى ؟ أهو الكسل البليد عن القراءة والتعمق فيها ؟ ولكن هذه الكتب تأخذ طريقها إلى مكتبات البيوت والمدارس والمعاهد ؛ أف يكون افتتاح هذه الكتب في تلك المكتبات لجرد الزينة والتجميل ؟ أم هو لون من النفاق العلمي يجامل به هؤلاء الدين وسمت تلك الكتب بأسمائهم ، وهم من أولى الحلول والطول — كانوا — في دنيانا اللعوب .

قد يكون هذا أو ذاك وليس أحدهما بأرجح في ميزان الشر والنكر من صاحبه !

عرض الدكتور « محمد حسين هيكل » لهذه القضية ، قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وأسبابها في كتابيه « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » عرضا مجملا في كتابه الأول ومفصلا بعض التفصيل في كتابه الثاني ، وقد ذهب فيها مذهبا نرى — ونحن بصدد دراسة خالد — أنه لا يحسن السكوت عليه ، بل ان حق العلم والتاريخ وحق الإسلام يوجبان التنبيه على ما فيه من أمور ، بعضها يتصل بجوهر الموضوع ، وبعضها من قبيل « الرنوش » والأصباغ والزخرف الذي يستهوى نفوسا لم تعمق في دراسة الإسلام وتاريخه ، وحياة رجالاته الأولين .

يتكئ الدكتور هيكل في تحقيق أسباب عزل خالد على أقصوصة مالك بن نويرة إنكساء هيكل وزواج خالد امرأته بعد قتله ، وفي هذا الصدد يحاول الدكتور أن يبرز قصة مالك في على أقصوصة أسلوب شعري ، إذا حاز إعجاب الشعراء والقصاص من التأديبين وذوى العواطف مالك بن نويرة الجاحمة ، فليس بمستطيع أن ينال رضا الواقع التاريخي الذى يجب أن يكون له المكان الأول في كتابة سيرة رجالات الإسلام ، وكأنا شعر الدكتور بهذا ونحوه ، فحاول أن يرى قارئه أنه لا يقف عند هذا الأسلوب ، فهو في كتابه «الصدى أبو بكر» بعد أن ذكر عبارة ابن خلكان في الحديث الذى دار بين خالد بن الوليد ، ومالك بن نويرة ، وفيه يراد مالك خالد ، ويقول له : فقد كان صاحبك يقول ذلك - يعنى النبي صلى الله عليه وسلم - فيقول له خالد : أو ما تراه لك صاحباً ؟ والله لقد هممت بقتلك ؟ فقال مالك : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ فقال خالد : والله لأقتلنك .

يقول الدكتور هيكل : يرجح بعضهم هذه الرواية على غيرها ، على أن هؤلاء الذين يرجحونها يرونها ناقصة ، ويرون أنها إن لم تكمل ناقصة تصير ابن الوليد في أمر «قرة بن هبيرة» و «الفعاءة السلى» و «أبو شجرة» وأمثالهم ، فهو قد بعث هؤلاء إلى أبي بكر ليرى فيهم رأيهم ؛ ولم يكن مالك بن نويرة أعظم من أيهم إنما ، ولا أكبر جريرة . . . وتتمم القصة في رأيهم أن خالدًا تزوج «أم تميم» زوجة مالك في يوم مقتله ، وقبل أن يحفف التراب دمه ، مخالفًا بذلك كل تقاليد العرب^(١) وهم يرون أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب ذلك القتل ؛ ولعلمهم في ذلك على حق ، ولعلمهم مخطئون .

ومن حق البحث أن يتساءل في هدوء هامس ؛ من يكون هؤلاء الذين رأوا أن هذه الرواية ناقصة بعد ترجيحها ؟ وكيف كان في رأيهم - إن كان لهم وجود - أن تتمم القصة هو زواج خالد من امرأة مالك ؟ وكيف أثبتوا أن هذا الزواج - بهذا العنوان ، عنوان زواج خا - كان في يوم مقتل مالك ، وقبل أن يحفف دمه التراب ؟ وأنى لهم أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته لو لم يقرضوا أن بطل الإسلام خالد بن

(١) لو كان السكاتب يكتب بروح تفهم الإسلام وتعتقده لقال : مخالفًا بذلك كل نصوص الشريعة الإسلامية في تحميم عدة المتوفى عنها زوجها بنس القرآن الكريم ؟ !

الوليد من طراز هذا الشباب المتفاني الذي يحتال على الأرض لتلقط الشهوات الرخيصة التافهة ، لا يشغله جد في أمر ، ولا يردعه دين عن موبقة ؟ وكيف مع ترجيحهم الرواية التي تنادي بفكر مالك بن نويرة بنفيه النبوة عن رسول الله ﷺ جعلوا هذا الزواج من امرأة هذا المرتد سبب ذلك القتل ؟ أفلا كان يكفي عند هؤلاء كفر مالك مرتدا في الرواية المرجحة عندهم سببا لمقتله ؟

قديبدو أنه ليس هناك أحد من الباحثين سوى الدكتور هيكل وأضرابه من تلاميذ المستشرقين يرى أن هذه الرواية التي حكها ابن خلكان ناقصة ؟ وقد يبدو أنه ليس هناك أحد من القضاة سوى نواصي الأدباء رأى أن تمتع هذه الرواية هو زواج امرأة مالك وأن هذا الزواج هو سبب ذلك القتل ، ولو كان للمنطق حكم على أقلام هؤلاء الباحثين لكانت النتيجة أن يقول من رجح هذه الرواية : إن خالد قتل مالك لأنه فهم منه عند محاولته الحديث البراءة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس له بصاحب ، فراه خالد فأكد مالك عقيدته فلم يبق لدى خالد شك في رذته وكفره ، فقتله ، ثم تزوج امرأته بعد تمام عدتها زواجا شرعيا ؟ فقامت عند بعض الناس شبهة في هذا الزواج الذي أقدم عليه خالد وكان معينا عند العرب ، وحديثا يكون كل ذنب خالد عند هؤلاء أنه لم يحفل بعبادات الجاهلية ؟ ورأى أن له أسوة في رسول الله ﷺ ، فيما ثبت ثبوتها قطعا من أنه قتل زوج صفيية بنت حبي وتزوج بها ، فأصبحت من الأمهات المؤمنين .

غبضة أبي بكر على خالد وسبها
وليس صحيحا أن أبا بكر الصديق غضب على خالد في هذا الزواج لتعاير العرب به وكرهتها له ، فما كان أبو بكر - وهو سيد المسلمين علما وفضلا وديانة - بالذي يحفل بأمر الجاهلية وعادات العرب . وهو يعلم أن رسول الله ﷺ خالف تلك العادة وهدمها ، وإنما غضب أبو بكر على قائده في زواجه من امرأة مالك بن نويرة لأنه كان يرى أن في هذا الزواج مشغلة للقائد عن عظام الأمور التي يتطلبها موقف المسلمين في ذلك الحين ولما تتكشف حال المسلمين من أعدائهم المتربصين ، وهو لون من السياسة كشف عنه أبو بكر عند زواج خالد بينت مجاعة بن مراة الخنفي بعد انتصار خالد في حرب اليمامة فعتب عليه أبو بكر ولأمله على هذا الزواج ، ودفع خالد عن نفسه هذا اللوم ولم يعتب الخليفة .

ثم ماقيمة هذا التعقيب الذى عقب به الدكتور هيكل ، وماذا يقصد منه ؟ أيقصد تعقيب غير موفق ليتزوج من امرأته دون أن يكون مالك مستحقا للقتل بكفره فى نظر خالد ، وأن عمر ابن الخطاب عزل خالد بسبب هذا القتل ؟ وإذا جاز هذا فماذا أبقى الدكتور هيكل لخالد بن الوليد من حرمت الإسلام ، وهو أحد أعلام الصحابة ، وسيف الله وبطل الإسلام ؟

وهل كان عزل خالد عن إمارة الجيش كفاء هذه الجريمة النكراء ؟ أو أن عمر ابن الخطاب جبن فراجع عن تنفيذ ما توجبه الشريعة ، وهو بمقتضى منصب الخلافة القوام عليها ؟

وماذا يقصد الدكتور هيكل من إيراد كلام اليعقوبى وكلام صاحب الأغاني ، وهو مجانة نواسية كلام سبخيف لا ينبغى لباحث يؤرخ لعباقرة الإسلام ورجالاته أن يعول عليه ، فهو فوق لا تحسب فى أنه لا يعتمد على أساس صحيح يصور خالد بن الوليد - وهو من أعظم رجالات الإسلام - تحقيق التاريخ فى صورة من لا يبالي بسفك الدماء الحرام فى سبيل شهواته ولذائذه ؟ ألا نرى إلى حديث الهوى والساقين فى عبارة الأغاني ؟ ولا يستطيع الدكتور هيكل أن يتفلسف من هذه الورطة بقوله بعد سوقه لعبارتى اليعقوبى وأبى الفرج الأصفهاني : « وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعد صورا أذنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ » وقوله : « لسنا نقف عند ما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل « لأن ذلك ينهار انهيارا تاما بقوله : « ولكن الثابت الذى لا ريب فيه أن لىلى أعجبت خالدًا ، وأنه لذلك أمسكها من بعد ، ولم يسرحها مع ما جره عليه زواجها من متاعب » .

أفليس هذا إمعانا فى النواسية الماحنة بتصوير بطل الإسلام خالد بن الوليد فى الصورة التى اختارها له النواسيون من أضراب أبى الفرج ورواته ؟ ومن أين استقى الدكتور هيكل هذا الثابت الذى لا ريب فيه ؟ أليس عمدته فى ذلك كتاب الأغاني ومن نقل عنه من ضعفاء المؤرخين ؟ وما يؤكد تورط الدكتور هيكل فى أسر هذا الاتجاه النواسى الخليلع أنه آخر ما رآه صورة أذنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ - عن حديث الإعجاب والهوى وجمال السيقان فى روايتى اليعقوبى وصاحب الأغاني ،

وهذا السياق يقيد طبعاً أن الإعجاب والهوى وحسن الساقين من الوقائع التاريخية في هذا الحادث ، وليست من الصور التي نسجتها الروايات التي هي أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ ؛ فليقل لنا الدكتور هيكل ماهو السبب في تأخير هذه العبارة ، وفصلها بعنوان خاص ؟

نأوبكر وعمر لا ، بل إن الدكتور هيكل أصر إصراراً عارماً على أن يرسخ في أذهان قرائه إن ابن الخطاب سبب عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد هو قتله مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ، وهو في سبيل هذا الإصرار العارم يرد نصاقطعاً كتب به عمر بن الخطاب إلى الأمصار ، وخطب به الناس معتذراً إليهم ومبيناً وجه صنيعه مع بطل الإسلام ، وفي ذلك يقول الدكتور : « وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة فكان جواب عمر : ما عزلتك لريبة فيك ، ولم يكن افتتن الناس بك ، نخشيت أن تفتتن بالناس ؛ وهذه حجة لها قيمتها ؛ لكن إجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقي متأثراً برأيه في موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ، وأن هذا الرأي كان له أثره من بعد في عزل خالد » .

هذا كلام الدكتور هيكل بنصه وفهوه ؛ والقارىء لا يحتاج إلى كثير من الدكاء ليفهم منه أن الأمر لا يخرج عن أن يكون عمر في كلمته التي يرد بها على عتاب خالد غير جاد فيها ، بل قصد إلى نفاق خالد ومخادعته ، أو هو لا يقصد منها إلى معنى يفهمه العفلاء ، ولعل الدكتور رعى إلى أكثر من ذلك ، لأنه يذكر أن إجماع المؤرخين منعقد على أنه كانت في نفس عمر ريبة جاحجة في خالد ، تطعنه في دينه ورجوليته وبطولته ومروءته ، فعمراً في رأى الدكتور هيكل غير صادق في كلمته ، وأنه قاطها وهو يضممر في نفسه غير معناها ، ولا ينقذ الدكتور هيكل من هذا التورط قوله عقب كلمة عمر : « وهذه حجة لها قيمتها » لأن الاستدراك عليها لا يترك مجالاً للإلتقاء ، وينادى بأن هذه السكامة وقعت هكذا بين عبارات الدكتور لغرض لم تستطع أن تؤدي إليه ، وهذا الاتجاه في تصوير المسألة هو رأى الدكتور هيكل صراحة في عمر وموقعه من هذه القضية ، فهو يقول : « الرأى عندى في هذا الخلاف - يقصد إلى خلاف أبي بكر وعمر في شأن خالد - أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن تتبع في هذا الموقف ، وهو اختلاف يتفق وطبائع

الرجلين أبي بكر وعمر ، أما عمر وكان مثال العدل الصارم فكان يرى أن خالد اعدا على امرىء مسلم وزنا على امرأته قبل انقضاء عدتها ؛ فلا يصح بقاؤه في الجيش حتى لا يعود لئلها ، فيفسد أمر المسلمين ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ، ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى ، ولو صح أنه تأول فأخطأ في أمر مالك ، وهذا مالا يجيزه عمر — فحسبه ماصنع مع زوجته ليقام عليه الحد .

وليت الأمر في تصوير الدكتور هيكل وقف به عندهذا الحد ، ولكنه تخطى عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق ، فجعله رجلا لا يبالي بإقامة حدود الله تعالى ، بل جعله رجلا يهدر كرامه الشريعة الإسلامية ، ويبعث بمحدودها ، فهو — في نظر هيكل — يرى أن تطبيق الشريعة لا يتناول النوابيع والعطاء ، وإنما يطبق على العامة والدعاء ، ويقول في ذلك : « أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه مثل هذه الأمور — أى قتل المسلمين عدوانا وظلما وغضب زوجاتهم — وزن ، ومقتل رجل أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ والخطر يحيط بالدولة كلها .؟ وما الزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها — على خلاف نص القرآن — إذا وقع من فاحش غزا فحق له بحكم العزوان تكون له سببا ، يصبحن ملك يمينه !! إن التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابيع والعطاء من أمثال خالد ، أفمن أجل مقتل مالك بن نويرة ، أم من أجل ليلى الجيلة التي فتنت خالدا يعزل خالد ؟ »

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رجلا لم تعرف الحياة في تاريخها مثلها سموا وجلالا في اتباع الأنبياء والمرسلين ، فهما المعجزة الكبرى بعد القرآن الكريم للإسلام ، وترتية نبي الإسلام للرجال ونخريهم نماذج لمظاهر الوجود العليا ، يصورها الدكتور هيكل به — هذه الصورة التي نقلناها للقارىء ، فماذا بقي لهما في صفحات الفضائل الإنسانية ؟ أملك « الرتوش » التشريعية التي تنساب لغير معنى في العبارات الرقراقة ، والأساليب المحبرة ؟ ؟

وإن كل فضيلة وراء هذا التصور تنتهى إلى رذيلة ؛ أفكان هذا مقصودا للدكتور

أم كان من جموح القلم حين يفقد الكاتب السيطرة على أعصابه وتفكيره ؟ لعل الذين يفهمون هذا من صنيع الدكتور على حق ، ولعلهم تخطئون !

ولترك كتاب « الصديق أبو بكر » ونمض إلى كتاب « الفاروق عمر » فلعله ألصق بالموضوع ، ولعل الدكتور هيكل كان فيه أصرح وأنطق بما يعتقد في هذه القضية ، وأحب أن أنبه إلى أن الأسلوب الشعري أشيع وأظهر في كتاب عمر منه في كتاب أبي بكر ، ولعل ذلك كان عن قصد من الدكتور ، ولعله كان من غير قصد ، وحسن الظن يقتضينا القول بأن كتاب « عمر » عاجل بعض الفتنايا الإسلامية الخطيرة التي لا تواتيها الصراحة إلا ملفوفة في عبارات شعرية يتخفف بها الأسلوب من أثقال الريبة والتوجس .

لقد أريناك أن الدكتور هيكل كان يقبض بكلماته يديه على حديث الهوى في رواية النوايسين ، ويرى فيه مفتاح قضية عزل خالد بن الوليد ، ولم نسكن متعجنين في ذلك ، ولكننا كنا أمام عبارات وانحط في غرضها ومرماها فأثبتناها بصورتها التي وضعها عليها كاتبها ، وهذا كتاب « الفاروق عمر » يسعفنا بما يزيد في براءتنا من ممة النجفي على رجل يعد في طليعة كتاب الشرق المعاصرين ، ومن حق البحث الذي يكتبه في الموضوعات الإسلامية وكتبه في تصوير حياة عظماء التاريخ الإسلامي على أهل العلم أن يجيلوا فيها النظر الناقد ، وأن يذيعوا هذا النقد بين شباب الإسلام ما أمكنهم الفرصة لنكون وقاية ، عسى أن يتسرب إلى عقولهم الغنضة وأندتهم النسافية .

إلحاح في قصة مالك ابن نورة
في كتاب « الصديق أبو بكر » اعتمد الدكتور هيكل في بيان سبب عزل خالد على قصة مالك بن نورة وزواج خالد من امرأته ، وروى هناك قصة النوايسين التي تجعل من خالد رضى الله عنه مدنفا تيمم العشق وأضناه الغرام بليلي امرأة مالك بن نورة التي كان يهاها - في زعم النوايسين - في الجاهلية ، ورشح الدكتور ذلك بأحدوثه جمال ساقها التي جاءت على لسان أحد الخلاء من رواة أبي الفرج في أغانيه ، وفي كتاب « الفاروق عمر » يذكر الدكتور هيكل حديث الهوى والغرام غير مسند إلى كتاب الأغاني أو غيره - ولهذا الصنيع اسم خاص عند علمائنا فيقول الدكتور : « غضب أبو قتادة الأنصاري لقتل مالك بن نورة بعد ما أظهر إسلامه ، وظن أنها حيلة من خالد

ليتزوج ليلي الجميلة ، وكان يقال إنه يهواها في الجاهلية » ثم يصور موقف عمر من خالد بعد أن زجر أبو بكر أبا قتادة وردّه إلى قائده جنديا يسمع ويطيع ، وبعد أن حسم أبو بكر إلحاح عمر بكلمته القاطعة لا يا عمر !! ما كنت لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، بقوله « فقد كان عمر ثائراً بخالد ثورة جعلته يبالغ في النيل منه فيجمع من حوله متهماً وأبا قتادة ومن لف لفهما ، ويستنشد متمماً شعره في رثاء مالك ، ويظهر الرضا عنه وعما يقول . وكيف لعمر أن تطيب نفسه فيسكت عن رجل قتل أمراً مسلماً ونزاً على امرأته فوجب رجمه » وقوله : لم يتزحزح عمر عن رأيه فيما صنع خالد ، وفي وجوب عزله ، وكان لهذا الإصرار أثره من بعد ، حين تولى عمر إمارة المسلمين فقد عزل خالدًا عن إدارة الجيش أول ما تولى ، ثم عزله من بعد ذلك عن عمله في الجيش كله » .

هذا منطق العقل ؟ أم منطق العاطفة التي تهوى الاستشراق والمستشرقين ؟ أم هو منطق الحرية الفكرية والتحليل العلمي كما يفهمه فريق من الباحثين والكتاب المعاصرين في هذا الشرق المسكين ؟ .

عمر بن الخطاب يرى - كما تزعم بعض الروايات التي رخصها الدكتور هيكل - أن خالد بن الوليد قتل رجلاً مسلماً محرم الدم لأخبط غرض ، ونزاً على امرأته التي كان يهواها في الجاهلية ، أو التي أعجب خالد بحسن ساقها كما يزعمه خلعاء النواسين ، ويطلب عمر من الخليفة أبي بكر الصديق في إلحاح صارم أن يقتل خالدًا قصاصاً بمالك ، أو يرميه حداً للزنا بامرأته ، فيهدر الخليفة حدود الله ويعطل أحكام الشريعة ثم يتولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر ويصبح سلطان الإسلام والمسلمين بين يديه ، فيكتفى من خالد صاحب تلك الآثام والجرائم التي أقامت عمر وأقعدته - في زعم روايات مريضة رخصها الدكتور هيكل - على عهد أبي بكر ثم لا يصنع عمر بعد ذلك كما شئت إلا أن يعزل خالدًا عن الإمارة ؟ ثم عن الجندية العامة في الجيش كله ؟ .

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

فأين ما كان يطالب به عمر أبو بكر من إقامته الحد على خالد قصاصاً أو رجماً وما الذي جعل عمر - وهو من هو - يسكت على نفسه في أمر لم يرض أن يسكت عنه

لأبي بكر ؟ ولكن لاعتجب أن يكون عمر بن الخطاب هكذا في رأى الدكتور هيكل لأن عمر يقول للناس ويكتب إلى الأمصار الإسلامية مبينا في صراحة لاليس فيها : إن السبب في عزله خالد لا يرجع إلى ريبة في خالد ، ولكنه عزله لأنه رأى الناس افتتنوا به فحشى أن يوكلوا إليه ؛ فيقول الدكتور هيكل برد على عمر بن الخطاب : لا ، يا أمير المؤمنين ، فإن إجماع المؤرخين منعقد على أنك عزلت خالد لأنه قتل اورأمسلما ، ونزاعلى امرأته التى يقال : إنه كان يهواها فى الجاهلية .

هذا لون من ألوان المنطق العلمى الذى تجرى عليه كتب الدكتور هيكل فى البحوث الإسلامية . أفكنا مخطئين أو متعجبين حينما قلنا إنه يجب التنبيه على هذا النحو من أساليب البحث ليكون قارئه على بصيرة من أمرهم وأمره ، وعمدة هذا اللون من منطق الدكتور هيكل إهدار كل رواية تاريخية تبرز أدب الإسلام فى نماذجه الإنسانية الحمية من رجالاته الدين رباهم فى مدرسة النبوة تربية ترتفع بهم عن وصمات الأخلاق تحشا بالكارم وتكرما عن الشبهات .

وهناك لون آخر من المنطق يسرى فى كتاب « الفاروق عمر » نرى من حق البحث أن نعرض له ؛ وعمدة هذا اللون تسقط الروايات التى تجعل من عطاء الإسلام وعباقرته جماعة من الناس تعيش فى ظل مبدأ لا يقيم وزنا للقيم الخلقية ورقابة التضمير ذلك هو مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » فعمر بن الخطاب عظيم العطاء فى الإسلام بعد أبى ، يثور فى ظل الإسلام نبعقري الإسلام وبطل أبطاله خالد بن الوليد ، فيسقط له هئات يحصيا عليه ، ويطالب بأنزال أشد العقوبات به ، ويحرص الخليفة على قتله أو رجمه ؛ ثم يعزله عن إمارة الجيوش الإسلامية لإحزن وأحقاد جاهلية ؛ فأى قيمة لهذا الإسلام أمام هذا المنطق الهيكلى أعظم من أنه كان وسيلة مكنت عمر بن الخطاب من السكيد لخصمه فى الجاهلية خالد بن الوليد ؟ وأى قيمة للأخلاق والفضائل أمام هذا المنطق « العصرى » اذا حات دون اشباع أحقاد الجاهلية واحنها فى ظل هذا الإسلام ؟

« الغاية تبرر
الوسيلة »
سياسة عمرية
فى نظر هيكل

يقول الدكتور في هذا اللون من المنطق : « برى بعضهم عجباً أن يثور عمر بن خالد كل هذه الثورة ، وخالد خال عمر ، وخالد سيف الله ، وناصر دينه ، وقد يزيل من هذا العجب ما يرويه بعض المؤرخين من أن عمر كان سىء الرأى فى خالد من قبل إسلامه ، وكان سىء الرأى فيه حياته » وهنا ساق الدكتور فى الهامش كلمة لليعقوبى ذكرها فى تاريخه يقول فيها : « كان عمر سىء الرأى فى خالد لقول كان قاله فى عمر » وكأنما أدركت الدكتور بقية من الحياء العلمى حجزته أن يدون هذه السكامة الفارغة فى صلب الكتاب ، ولكنها لا بد أن تذكر لأنها تغض من العظمة العمرية السامقة ، وليكن ذكرها فى الهامش ، ولعل هذه الكلمة التى لا تدل ألفاظها على معنى فى موضوعها ، والتى تلقفها اليعقوبى من رواية لمحمد بن إسحاق صاحب المغازى هى التى يعينها الدكتور هيكل بقوله : « ما يرويه بعض المؤرخين » ، وفى الإبهام إيهام ، وعلى هذه الكلمة بنى الدكتور ذلك الحكم القاطع بأن عمر بن الخطاب كان سىء الرأى فى خالد قبل إسلامه ، وظل سىء الرأى فيه حياته ، والدكتور يؤكد ذلك فى غير تحفظ بقوله : ومهما يكن من شىء فالثابت أن ابن الخطاب لم يحب خالداً » وإن كان عمر نفسه وعينه يقول لخالد - فيما رواه الدكتور ورضيه - حين عاتبه : « والله يا خالد إنك على لكريم ، وإنك إلى الحبيب » وماذا على الدكتور هيكل إذا قال يرد على عمر بن الخطاب : لا ، يا أمير المؤمنين . ليس صحيحاً أن خالداً عليك كريم ، وليس صدقاً أن خالداً إليك حبيب ، فإن الثابت - على رغم قولك أنك لم تحب خالداً ، وأن بعض المؤرخين - اليعقوبى أو غيره - قال إنك سىء الرأى فى خالد . . .

ومن عجيب التحليل العلمى « العصرى » أن تكون عبارة اليعقوبى - كما نقلها الدكتور هيكل - مطلقة مجملة يفصلها هيكل كما يشاء ويهوى ، ليجعل سوء رأى عمر فى خالد راجعاً إلى ما قيل الإسلام ، أى إلى إحن واحتقاد جاهلية موروثة . وهنا يصعق « الاستشراق » بكلمات يديه إعجاباً بما أثمر وأنبغ ، فقد نجح أحد تلاميذه فى هدم قاعدة « أثر الإسلام فى تهذيب النفس » لأن عمر بن الخطاب وهو التلميذ الأول فى حساب التاريخ الإسلامى تسكيفا بأداب الإسلام ، قد ثبت أنه عاش فى ظل هذا الإسلام على إحن الجاهلية واحتقادها . . .

ويتابع الدكتور هيكل هذا الاتجاه فيقول : « لقد عرف الناس جميعاً سوء رأى عمر فى خالد بن الوليد ، وحرصه فى حادث بن نويره على أن يقيد أبو بكر منه ، (م ١٩ - خالد ابن الوليد)

ولم يتغير رأى عمر في خالد من بعد هذا الحادث » ويقول : « يتساءل الناس إلى يومنا هذا عن السر في عزل عمر خالدا ... أحقا أن مقتل مالك بن نويرة وتزوج خالد من امرأته بقي له من الأثر في نفس عمر ما حملته على هذا التصرف ، أم خشى عمر أن يفتتن خالد بالناس كما افتتنوا به لانتصاره المتصل في الحرب ، وقد يجر افتتاحه على الدولة سرا . يرى بعضهم هذا الرأى الأخير ، ويذكرون أن خالدا رجع إلى المدينة يسأل عمر عن ما حملته على عزله فأجابه : « ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس ، خشيت أن تفتتن بالناس » قال الدكتور : « وهذه رواية لا سند لها ، فالثابت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة بعد عزله وأنة بقي بالشام يتابع غزواته بإمرة أبي عبيدة حتى عزله عمر عن كل عمله بالجيش في السنة السابعة عشرة من الهجرة ، ولا حسب كذلك أن مقتل مالك ابن نويرة كان سبب العزل ، وعندى - الدكتور هيكل - أن عمر إنما عزل خالدا لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة قبل خلافة عمر ولا أثناءها . »

اضطراب في
البحث

أحب لقارىء هذا البحث أن يكون أقوى ذاكرة ممن جمع معلومات كتابى « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » لأن قوة الذاكرة قد تعيننا على أن نضع يدنا على مقدار العناية بالبحث في هذين الكتابين ونعرف قيمتها من الصدق العلمى ، ونذكر ما بين الكتابين من اتفاق أو اختلاف في الموضوع الواحد ، فالدكتور هيكل ينفي في كتاب « الفاروق عمر » أن يكون مقتل مالك بن نويرة سببا في عزل خالد ، ويرى أن رواية اعتذار عمر عن عزل خالد بقوله لخالد ، « ما عزلتك لريبة فيك » لا سند لها ، لأن الثابت في نظر هيكل أن خالد لم يذهب إلى المدينة بعد عزله .

والدكتور هيكل عينه ونفسه يثبت في كتاب « الصديق أبو بكر » أن مقتل مالك ابن نويرة وزواج خالد من امرأته كان سببا في عزله بإجماع المؤرخين - في نظره طبعا - والدكتور هيكل عينه ونفسه أيضا في كتاب « الصديق أبو بكر » يجعل كلمة عمر التى اعتذر بها إلى خالد في قوله : « ما عزلتك لريبة فيك » حجة لما قيمتها الرواية لا سند لها وأما حديث ذهاب خالد إلى المدينة ولقائه عمر ومعاتبته واعتذار عمر فقد رواه جمع من المؤرخين الأثبات ، وقد ستنا رواياتهم فيما قدمنا من حديث ، وبعض الرواة عين وقت ذهاب خالد إلى المدينة ، فجعله بعد عزله عن عمله كله بالجيش وهو العزل الثانى ، وكان قدومه إلى المدينة بطلب من عمر ، فأنى يستقيم للدكتور هيكل قوله : « فالثابت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة » .

أهكذا يهجم العلماء على العلم والتاريخ ؟ .

لا ، بل إن الدكتور هيكل يثبت في كتاب « الفاروق عمر » ذهاب خالد إلى المدينة ، فيقول فيه : « بينما كان ذلك بجري يحمص كان عمر ينتظر بالمدينة مقدم خالد عليه معزولا عن عمله ... فلما طال به الانتظار وأبطأ خالد عليه ظن الذي كان وأدرك أن أبا عبيدة في لينه وتودده وتواضعه قدر ما ينزل بنفس خالد من الهم إذ يعرف المصير الذي أراد له أمير المؤمنين ... فكتب إلى خالد يستقدمه ... لم يبق لخالد إلا أن يرجع إلى المدينة معزولا يلقي أمير المؤمنين ، فخرج يريد قسرين ... فلما بلغها كظم غيظه وتجمّل وخطب أهل عمله ، وذكر مجيدفعاله معهم ولم يذكر عمر لهم بسوء ، ثم ودعهم وعاد بأهله ومتاعه إلى حمص فخطب أهلها وودعهم وفصل عنهم منصرفا إلى المدينة ، فلما بلغها ولقي أصحابه بها ألقي أمر عمر فيه قد سبقه اليهم ... ثم انه لقي عمر فقال له : « لقد شكوتك إلى المسامين وبالله انك في أمرى غير مجمل يا عمر » .. ولعل عمر إنما قسا على خالد وبالع في القسوة عليه بعد عوده إلى المدينة معزولا ، لأنه رأى جماعة من المتعصبين لخالد يحاولون إثارة الفتنة « هذا كلام الدكتور هيكل .

أفبعد هذا يأسدنة العلم وغطارفة البحث الحر يبقى صحيحا قول الدكتور هيكل :
« فالتأيت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة » ؟ ؟

أفبعد هذا يازعماء التحليل العلمى يبقى قول عمر لخالد : ما عزلت لك لربة فيك . رواية لا سند لها ؟ . أم يجب أن يقال : فالتأيت أن بعض الباحثين لم يثبت في بحثه ، خلط وأثبت مانقى ، ونفى ما أثبت في موضوع واحد ، ومسألة واحدة . . وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على ما يسود هذه السكتب « المنحمة » وعلى مقدار ما فيها من ضحالة البحث وتفاهة ما يزعمونه تحقيقا علميا وبحثا عن وقائع التاريخ .

والدكتور هيكل يقول في كتاب « الفاروق عمر » : « وعندى أن عمر إنما عزل خالدا لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة » والدكتور هيكل يقول في كتاب « الصديق أبو بكر » : « الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافا فى السياسة ... أما عمر — وكان مثال العدل الصارم — فكان يرى أن خالدا عدلى امرئ مسلم ، وزاعلى امرأته قبل انقضاء عدتها فلا يصح بقاؤه فى قيادة الجيش » .

أفرايت إلى موازين العلم والتاريخ التي تكتب بها حياة عباقرة الإسلام؟ وقد شرح الدكتور هيكل « الثقة » التي لم تكن قائمة بين عمر وخالده ، فأدى ذلك إلى أن يعزل عمر خالدا عن العمل في جيوش المسلمين ، شرحا رجوع بها حديث سوء رأى عمر في خالد وقد أريناك خبيء أمره والدكتور هيكل يؤكد ذلك باعتراض يفترضه فيصوره في قوله : « إن الخليفة لا يلي الدولة لحسابه ، بل لحساب المسلمين جميعا ، فكان من الواجب لذلك على عمر أن ينسئ ما بينه وبين خالد » . أفهمتم هذا الدرس الذي يلقيه محمد حسين هيكل على عمر بن الخطاب ليعرفه الواجب عليه في سياسة الدولة ؟ ؟ أولى لك يادكتور فأولى ، ثم أولى لك فأولى . ومن غيرك لها . . ؟ ؟

وهذا الذي كان بين عمر وخالده ، وكان يجب على عمر — وقد أصبح خليفة للمسلمين أن ينساه ، هو أحقاد جاهلية ، وإحن شخصية في زعم رواية ميتة ارتضاها الدكتور هيكل ، وبنى عليها حكمه القاطع بأنها كانت سببا في عزل عمر خالدا .

ولكن الدكتور هيكل لا يرضيه إلا أن يكون حفيا بعمر بن الخطاب ، يلتبس له
أن عمر بن
الخطاب تأثر
بشعوره
الخاص بنحو
خالد
هيكلي يقرر
أن عمر بن
الخطاب تأثر
بشعوره
الخاص بنحو
خالد

ولكن الدكتور هيكل لا يرضيه إلا أن يكون حفيا بعمر بن الخطاب ، يلتبس له
المعاذير في فلسفة الحياة وشاعرية الأسلوب ، فيقول : « وهذا الاعتراض له وجهته
— ولكن في المنطق النظرى — وهذه الوجهة تتضاءل كل التضائل أمام الواقع من أمر
هذه الحياة ، فنحن معشر هذا الناس — وعمر بن الخطاب واحد من هذا الناس
طبعاً — لا نتصرف في شئون الحياة بعقولنا وحدها ، بل إن لعواطفنا علينا سلطاناً
أى سلطان » .

وهكذا راح الدكتور يبسط نظريته هذه في أسلوب شاعرى يلف المعانى لفائهم
ينفلت منها انفلات الرقطاء من مضايق الأحجار إلى النتيجة المتصودة فيقول : « ولا ريب
أن قد تأثر عمر بشعوره نحو خالد ، وامله كذلك قد ظن أن خالدا حسده على
الخلافه » ؟

أفرايتم إلى التحليل العلمى والتحقيق التاريخى في مؤلفات الباحثين المعاصرين ؟ هذا
التحليل ، وذلك التحقيق الذى سدها ولحمته هدم ما بناه الإسلام من شخصيات فارعة
العظمة ، وتشكيك الناس في حقائق التاريخ التى تصور عظماء الإسلام في حقيقة تم العليا
من الحياة .

لكن الحق يأبى أن يظل ملفوفاً في دثار الأباطيل ، فهذا هو الدكتور هيكل عينه يقول في كتاب « الفاروق عمر » : « وكان العدل في فطرة عمر منذ نشأته ، ثم نمت فكرة العدل في نفسه حتى بلغت السكال ، لأنه سما بعقله وقلبه فوق شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها عليه سلطاناً » فأيهما نصدق ؟ أنصدق الدكتور هيكل الذي يقرر أن عمر ابن الخطاب تأثر شعوره فلم يقيم للعقل ولا للعدل وزناً ، بل تعسف مع بطل الإسلام وسيف الله تصرفاً أملت شهوات هذه الحياة الدنيا ؟ أم نصدق الدكتور هيكل الذي يقرر وقائع التاريخ الصحيحة ، فيجري على قلمه بقصد أو بغير قصد : أن عمر سما بعقله وقلبه على شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها سلطاناً عليه ؟ !

إلى هنا كان الدكتور هيكل قد بلغ المدى الذي كان يريد أن يبلغه ، وهو أن عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد إنما كان إرضاءً لشهوة نفسه وحقد شخصي ، يضرب بعروقه إلى ثرى الجاهلية الجاهلاء : وقد ظل عمر حياته يتسقط لخالد الأخطاء التوافه وهنات المهنات ، ويتلمس له السقطات ، ويحصى عليه السيئات ، فيرمية بقتل امرئ مسلم حرام الدم ، ويرميه بنزوه على امرأته ، ويطالب بالقصاص منه أو رحمه ، وإذا لم يظفر بكيد خالد على يدي أبي بكر ، فليكن أول عمل له في دولة الإسلام عزل خالد عن إمارة الجيوش الإسلامية ؟ بل عزله عن الجندية في تلك الجيوش التي قادها من نصر إلى نصر ، وإنما يصنع عمر ذلك الصنيع ببطل الإسلام سيف الله خالد بن الوليد لأن عمر واحد من هذا الناس الذين لعواظهم عليهم سلطان يقسمهم على أن يهددوها قواعد العدل والصدق والمروءة والرجولية ومقتضيات الخلق الكريم ، بله الدين ، ودين الإسلام وشرائعه .

لو كان هؤلاء الباحثون يكتبون بروح إسلامية لقالوا في سماعة ويسر إن لعمر ابن الخطاب سياسة معروفة في عزل الولاة والأمراء ، اختطها في خلافته ، فقد عزل جماعة من الولاة والأمراء بعد أن حاكمهم ، لأن عمر كان يحرص على تركيز السلطة كلها في يديه ، ويجب من أمرائه أن يرجعوا إليه في الصغير والكبير والقليل والكثير فأبى عليه خالد ذلك فعزله .

ولكن الدكتور هيكل يأبى أن برد عزل خالد إلى هذه الخطوة في سياسة الحكم، بل يحب أن يكون مرده سوء رأى عمر في خالد وفقدان الثقة الذي يجعل عمر ينسى العقل والدين والمروءة فيتصرف نحو خالد تحت تأثير العواطف الخاقدة وسلطانها والإحزن الموروثة ونزواتها، ولا يفوت الدكتور أن يحتم نتيجة هذه السكامة المدافعة « وبذلك تكشف السر في عزل خالد وتكشف مكان هذا السر من نفس عمر » .

لم يشأ الدكتور هيكل أن تكون عبقرية عمر بن الخطاب بلونها الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نعتها بها ، ولا بالمعنى الذي عرفه الإسلام في عليا الفضائل ورفيع الأخلاق إذا تكاملت في رجل ، ولا بالمعنى الذي أراد المسلمون وعرفوه واقعا مشهودا في تكيف عمر بروح الإسلام حسا ومعنى ، ولا بصورتها التي اتفق الناس عليها في الشرق والغرب من عدل في الحكم وحكمة في السياسة كانت تستهدف روح الإسلام مما جعلها مغرب المثل في اقتدار هذا الدين القيم على صنع النماذج الحية للفضائل الإنسانية في شخصيات الرجال .

ولكن الدكتور هيكل شاء أن يضيف على عمر بن الخطاب لونا من العبقرية إن لا يكن الإسلام يعرفه فإن الحياة غير الإسلامية تعرفه لعظماؤها ، فهو لون ينظم عمر في سلمك هؤلاء الغطارفة الذين تدوى بأسمائهم أرجاء الفضاء وآفاق الأرض من ساسة «قرنهم» العشرين ، أو ليس من الوسائل التي تذرع بها هؤلاء الساسة في كسب الزأي العام إلى جانبهم أن يذيعوا في الناس إذاعة لاتعبر تعبيرا صادقا عن آرائهم في بعض الأحداث والحوادث خشية أن يثور الناس على تلك الآراء ؟ أو إرادة تسكين الحواطر وتهذبة النفوس ، فكانوا بذلك عبقرين وعظماء ؟؟ فحسب عمر بن الخطاب عظماء الإسلام أن يجد كاتباً عصرياً يجعله ندا لسائس سواس الإنجليز أو الأمريكان أو حتى البلاشفة ولا عليه أن يعيش كما عاشوا في ظل حياة من الكذب والنفاق والخداع ، وكانوا بعد ذلك عباقرة عظماء ١١ .

عودالى مبدأ
« الغاية تبرر
الوسيلة »
لقد كان لعمر بن الخطاب — في رأى الدكتور هيكل — من هذه العبقرية « المناققة »
حظوا أى حظ ، وإذا شئت أن تزداد علما يخط عمر من هذه العبقرية فاسمع الى الدكتور
هيكل يقول في فصل عقده تحت عنوان « مصير خالد بعد اخضاع الشام » من كتاب

« الفاروق عمر » : « واطمأن عمر اذ برت يمينه ألا يلى له خالد عملاً أبداً؟ ثم لم تثر لعزل خالد عاصفة ، ولم يعلو خالد أحداً على اثارها ، فغلب جانب البرية جانب الشدة والبأس ، فأذاع في الأمصار « انى لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به نخفت أن يوكلوا اليه ، ويبتلوا به ، فأجبت أن يعلموا أن الله هو الصانع ؛ وألا يكونوا بغير فتنة » قال الدكتور هيكل معقبا : « أفتعبر هذه الإذاعة تعبيراً صادقا عن رأى عمر في خالد ، وتشهد أنه اقتنع بأن الرجل لم يرتكب ثم الحيانة ، ولا اثم الإسراف حين أجاز الأشعث بعشرة آلاف ؟ أم اذاغه سياسية قصد بها ابن الخطاب الى تسكين الحواطر التي لامرت لما أصاب سيف الله تعصبا له واعجابا به وخشية أن يجرى عمر في سياسته على تغليب الهوى والأخذ بالظنة في أمر بناء « الامبراطورية » الناشئة ؟ أغلب الظن أنها كانت اذاعة سياسية أريد بها الاعتذار عن أمر أو شك حين وقوعه أن يحدث حدثا » .

هذا نص كلام الدكتور هيكل ، ولو أردنا أن نضع النقاط تحت الحروف أو فوقها لكان معنى كلام الدكتور الذى لامعنى له سواء ، أن عمر بن الخطاب أذاع في الناس كلاما لم يقصد الصدق فيه ، وعند علماء الأخلاق قدر عظيم من النعوت والأوصاف التي تنطبق على صاحب هذا الخلق في الناس ، فهل الى ذلك قصد مؤلف كتاب « الفاروق عمر » ؟ . لعل من يفهمون ذلك من كلام الدكتور على حق فيما يفهمون ، ولعلهم مخطئون ؟ . واسكنهم ان أخطأوا وأمنعوا في الخطأ فلن يكونوا مخطئين حين يفهمون أن الدكتور هيكل وأضرابه لا يفهمون الإسلام بروح الإسلام ، وإنما يكتبون عن الإسلام بأقلام غريبه عن الإسلام أو على الأقل يكتبون بروح تتعبد بتقليد أساتذتهم المستشرقين . ألا ترى الى هذا اللفظ الضخم الذى اجتلبه الدكتور هيكل من الغرب ليزين به سيرة عمر بن الخطاب اذ يسمى الدولة في عهده ، وهو الخليفة الثانى في الإسلام « الامبراطورية » الناشئة ؟ والقارىء المسلم لابد أن يجفل لسماح هذا الوصف ، لانعرايته على لغة الإسلام ، بل لانعرايته على حقيقة الإسلام كما يعرفها ذوو العلم من المسلمين الأحرار ، ولكن السطحيين من أغرار المسلمين . والمتعمقين في الاستشراق من عبيد

التقليد العربي يهشون لهذا الوصف . ويرون أنه إبداع في التعبير الفخم المفخم لشأن الدولة في شخص « إمبراطورها » عمر بن الخطاب .

ونعود إلى كلام الدكتور هيكل انجدة يذكر بقصد أو بغير قصد في شيء من الصراحة السهوانة أنه يعتمد ويصحح رواية اعتذار عمر عن عزله خالدا وإذاعته في الأمصار أنه لم يعزله لريية أو خيانة ، وكان قد سبق له أنه قال : إنها رواية لاسند لها . وهكذا يكون التحقيق العلمي في وقائع التاريخ ؟ !

ويمضي الدكتور هيكل في هذا اللون من منطقة « العصري » فيشكك في كل رواية تاريخية تحمل معنى كريما في تصرف من تصرفات عمر بن الخطاب نحو خالد بن الوليد فلم يرض الدكتور لقلمة أن تفلت منه بمنجى عن الشك والتشكيك روايات تحكي أن عمر بن الخطاب حزن لموت خالد ، وخالد قريب لعمر قرابة دانية فهو ابن عم أمه على التحقيق وخاله في عرف الناس ، وخالد بعد ذلك سيف الله وبطل الإسلام ، يقول فيه عمر نفسه : « إنه كان ليحب الشرف وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرا ضالمت الله » ويقول فيه : « كان والله سدادا لنحوال العدو ، ميمون النقية » فيقول له على : فلم عزله ؟ فيقول عمر : ندمت على ما كان مني . ويسمع عمر أم حالد تندبه بقولها :

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كت وجوه الرجال

فيقول لها صدقت ، والله إنه لكان كذلك . ويقول فيه : « على مثله تبسكي البواكي » .

ولكن الدكتور هيكل بعد أن يستعرض هذه العبارات الدامعة الدامية الصادقة في حزنها يقول : « أفكان عمر صادق الحزن على خالد حين خرج عن مألوف رأيه فترك نسوة قريش يندبنه ، ثم أظهر الندم على عزله ، وقال فيه كل ما قال ؟ أم اقتضته مروءته أن يكون مجحلا مع ابن خاله في مماله ، ولم يكن مجحلا معه في حياته ، فترك للنسوة يبكين لعل في البكاء ما يخفف لوعتهن ، وقال ما قال ليعزى به بنى خالد وأهله ، والله أعلم بالسرائر » .

يا قوم إلا تكونوا تتقون الله فاتقوا المروءة ، وإلا تسكن مروءة فاتقوا الشيطان . ثم ألا بقية من حياء ؟ عمر بن الخطاب المحسود من أجله الإسلام يقوم في عسده الأبطال

كلمات باكية يصف بها بعض حزنه فيأتى « محمد حسين هيكل » ليشكك في حزنه ، ويشكك في صدقه ؟

هذا فى الحق بلاء من البلاء . .

الحق أن قارئ كتاب « الفاروق عمر » يخرج من قراءته بصورة لعمر بن الخطاب عبقرى الاسلام وفاروقه وثانى خلفائه الراشدين ، جديدة كل الجدة على معارف المسلمين التاريخية ، تنسكرها عقولهم وتنفر منها قلوبهم ، فهل الى هذا النشاز من الحديث قصد الدكتور هيكل ؟ وهل الى هذا النسكر من لغو القول أراد ؟ لعل من يفهم هذا على حق ولعلمهم مخطئون .

ولسنا ندرى ما الذى جعل عمر بن الخطاب يشغل مكانه الممتاز من نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتل مكانه الخطير فى دنيا الإسلام وفى تاريخه ، ويتبوأ مكانه العظيم فى قلوب المسلمين منذ دخل فى الإسلام الى يوم الناس هذا والى أن تقوم الساعة ، اذا كان - فى تصوير الدكتور هيكل - لا يعرف الصدق حتى فى مقام الموت الذى يسمو بمن مات الى مقام السيرة المبرأة عن الشبهة والخطأ ؟ . وأية فضيلة من الفضائل الإنسانية به الفضائل الإسلامية تبقى بعد ذلك صادقة الوجود فى شخصية عمر بن الخطاب الذى يصوره للناس مؤلف كتاب « الفاروق عمر » ؟ ؟ .

الى هنا ونغض من عنان القلم ليقف ، فليس من قصدنا أن نتعرض الآن لغير قضية عزل خالد فى كتابى الدكتور هيكل . وأسلوبه فىهما نموذج للطرائق التى عالج بها الدكتور هيكل القضايا الإسلامية فى كتبه التى نعتقد أنها من وجهة النظر الاسلامى فى حاجة الى نظرات فاحصة ومحصنة ، وفى ظننا أننا قد استطعنا بهذا العوض لقضية العزل أن نضع فى يد القارئ ما يردده عن الاندفاع وراء الأسلوب الشعرى مأخوذاً بحال التعبير . وسبحات الحيال عن حقائق الحوادث من وقائع التاريخ ، وبذلك نكشف السر فى اتجاه الدكتور هيكل ، ذلك الاتجاه فى تصوير قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، ونكشف مكان هذا السر من نفس مؤلف كتابى « الصديق أبو بكر » « والفاروق عمر » ونحن فى طريقنا الى جولة محتسبة فى كتاب « حياة محمد » للدكتور الأديب .

الفصل الرابع عشر

تحرير قصة عزل خالد

، تحقيق أسبابه

العزل عن الإمارة العامة - بين عمر وأبي عبيدة - بين خالد وأبي عبيدة - العزل،
عن الجندية إطلاقاً - تحرير وضع القصة - ليس لقصة ابن نورة مدخل في العزل -
تزييف أبطولة الحقد الجاهلي - رأى للأستاذ العقاد - الأسباب الجدية للعزل - حق
الحاكم على ولاته - سياسة عمر وأبي بكر - ليست الحوادث أكبر من عقولنا -
صلابة الطبع عند عمر وعند خالد - افتراق في السلوك والأعمال اصطدام بين
طبعين - وقف الطبيعة الخالدية ضرورة سياسية - حقيقة دوافع العزل - فتح الباب
أمام الكماليات - بدء التصادم بين عمر وخالد - خالد يأبى أن تقيد حريته في دائرة
عمله - تقدير عمر لعبقرية خالد - طبيعة لا تغالب - العزل الثاني وأثره - اعتذار
عمر - سياسة عمرية عامة - تسامى العبقريات عن الصغائر - عظمة خالدية - مظاهر
الولاء بين عمر وخالد .

عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد مرتين - المرة الأولى عزله عن القيادة العامة والإمارة الأمراء بالشام ، وكانت هذه المرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة غداة تولي عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق ، وكان الكتاب بهذا العزو أول كتاب كتبه عمر مستهلا به عمله في سياسة الدولة ، وولى مكان خالد أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح .

وكان أبو عبيدة حبيبا إلى عمر قريبا إلى طباعه وخلائقه المكسوبة ولا سيما بين عمر خليفة التخشن والزهادة في الدنيا والتجافي عن مظاهرها ، وهي أظهر خلائق عمر والإسلامية التي نبعث منها عظمتها في العدل والسياسة ، واستطارت جهارته في الحق قولا وعملا ، وأمر أمير المؤمنين عمر قائده أبا عبيدة أن يسرح جند العراق الذين قدموا إلى الشام في حملة خالد إلى عراقهم تنفيذا لوصية أبي بكر قبل وفاته ، وأمر ، أن يحتبس منهم من يحتاج إليه ، وقال له : وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى لك عنه .

وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بحق خالد وأعظمهم تقديرًا لعبقريته وفصل عقله وشجاعته وكان به حفيّا ، فقد أخفى عليه كتاب عزله لإجلاله أن يدخل عليه ما يسيؤه ويروعه حتى علم به خالد من غيره فعاتبه على ذلك .

وكان خالد يعظم أبا عبيدة ويعرف له فضله وسابقته ، وزفعة مكانه في الإسلام . روى الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير قال : استعمل عمر أبا عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد ، فقال خالد : بعث عليكم أمين هذه الأمة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ، فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خالد سيف من سيوف الله . بفم فتي العشرة » . ولما ولى أبو بكر رضي الله عنه خالدًا على جيوش الشام شق عليه فراق العراق وكانوا هابوه هيئة شديدة وكان إذا نزل يقوم عذابا من عذاب الله عليهم وليثا من الليث . فلما قرأ كتاب أبي بكر ورأى أنه ولده على أبي عبيد ، وعلى الشام تسخى بنفسه وقال : أما إذ ولّاني أبي عبيدة فإن في الشام من العراق خلفا . وكتب إلى أبي عبيدة من بين الأمراء تمييزا له كتابا يعلمه بأمر أبي بكر له أن يقوم على جند الشام ويتولى أمرهم ، فكان مما قاله خالد في كتابه لأبي عبيدة : « فأنت على حالك التي كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا تقطع أمر راونك ، فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك » .

وكان أبو بكر قد كتب إلى أبي عبيدة يخبره بإمارة خالد عليه وعلى الأمراء الذين معه ، وأمره بالسمع والطاعة لأمره ، وقال له : فإن لم أبعثه عليك ألا تكون خيرا منه عندي ، وأمره بالسمع والطاعة لأمره ، وقال له : فإن لم أبعثه عليك ألا تكون خيرا منه عندي ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك . فقابل ذلك أبو عبيدة بالغبطة والابتهاج ، وشكر لأبي بكر صنيعه وجزاه الخير وهتف بحيا القائد العبقري بطل الإسلام خالد بن الوليد .

وقد ظل هذا الود القائم على التقدير الصادق والاحترام والثقة متبادلا بين القائدين العظيمين لم تكدره شوائب الأثرة التي تصطدم بين المتنافسين على النعظم ببعضها الرياسة وسلطان الإمارة . بل زاده الايثار الصادق الذي قامت عليه صداقتها قوة ورسوخاً .

ومن الشواهد على هذه الروح العالية ماروى أن أبا عبيدة دفع كتاب نوليته وعزل خالد إلى خالد بعد وصوله إليه بنحو عشرين يوما : فلما قرأه خالداً عظم ذلك فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال له : يغفر الله لك : أتألك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟ فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنت لأكثر عليك حزنك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك ان شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وان ما ترى مسييراً إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن اخوان وقوام بأمر الله عز وجل ، وما يضير الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناها إلى الفتنة وأوقعه في الخطيئة لما تعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل ، وقليل ما هم .

العزل، عن
الجنديّة اطلاقاً « قنسرين » فولاه أبو عبيدة عليها ، وكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الفتح وبلاء خالد فيه ، فقال عمر قوله المشهورة : « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو . كان أعلم بالرجال مني » .

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان من قول عمر : « أمر خالد نفسه » أن خالداً اقتحم إلى هذا الفتح اقتحاماً دون أن تكون هناك خطة موضوعة تحت سمع وبصر القائد العام أبي عبيدة . وهذا بعيد جداً أن يكون من خالد وأن يقبله أبو عبيدة ويرضى به ، وإنما يريد عمر رضي الله عنه : أن خالداً فيما أتى به من أغاني الشجاعة وضروب

البطولة قد وضع نفسه في موضعها الذي ألفتها في المواقع الخطيرة من الاقدام والمخاطرة ، ولم ينزل به عن خوالده ألا يكون أمير الأمراء ، وقائدا ليس عليه أمير ، ومن هنا كانت خصيصة أبي بكر في أعليته بخصائص الرجال .

وكأنما يعنى عمر بذلك أن استمسك أبي بكر بخالد وعدم موافقته على عزله برغم الالحاح عليه إنما كان عن يقين في مقدرة خالد وعبقريته العسكرية التي لا يغنى عنها فيها إلا آحاد الأفاضل من أبطال الأمم ، وخالد هو خالد في عبقريته وبطولته ، سواء أكان أميرا أم جنديا يعمل تحت راية الأمراء ، فتأثيره حق يفرضه الموقف لخصائصه التي لا تتغير بتغيير العنوان .

وفي « قنشرين » جاء العزل الثاني لخالد ، وذلك في السنة السابعة عشرة ، فقد بلغ أمير المؤمنين أن خالدا وعياض بن غنم أدربا في بلاد الروم وتوغلا في دروبها ورجعا بغنائم عظيمة ، وأن خالدا أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف ، فكتب أمير المؤمنين إلى قائده العام أبي عبيدة يأمره بالتحقيق مع خالد في مصدر المال الذي أجاز منه الأشعث تلك الاجازة الغامرة ، وعزله عن العمل في الجيش إطلاقا ، واستقدمه إلى المدينة .

أخذ أبو عبيدة كتاب أمير المؤمنين فتعير في الأمر ، لحرصه أشد الحرص على أن لا يحزن خالدا أو يسيء إليه ، ولحرصه أشد الحرص على تحقيق واجب السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين ، فروى ثم رأى أن حق الطاعة أكد من حق خالد في مودته وصادق جهاده ، ولا سيما بعد محنة العزل الأول فقد رأى منه أنبل وأشرف ما تنطوى عليه نفس إنسانية من كريم الخلاق ، ورأى منه أصدق آيات الشجاعة وأروع مظاهر العقريّة ، فلم تضعف نفسه ولم تفتر عزيمته وقد أصبح قائدا فرقة بعد أن كان أمير الأمراء .

ولكن أبا عبيدة لم يكن أقل نبلا وكرما من خالد . فقد كان في موقفه هذا حفيّا بخالد أبلغ ما تكون الحفاوة ، معظما له أرفع ما يكون التعظيم . لم يرض أن يلى التحقيق مع خالد بل جلس للناس على المنبر ، واستدعى خالدا ، وترك يريد الخلافة يتولى التحقيق وترك بلالا مولى أبي بكر يقوم بالتنفيذ ، وانتهى الأمر ببرادة خالد أن يكون مد يده إلى غنائم المسلمين فأجاز منها بعشرة آلاف ، ثم ترحل خالد إلى المدينة فودع أهل عمله ،

وقدم على أمير المؤمنين وعاتبه أجل عتاب ، فأعتهبه عمر أكرم إعتاب وقال له : « والله يا خالد انك على لكريم وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » .

تحرير وضع
القصة

هذه هي وقائع التاريخ التي لا تختلف فيها رواية عن رواية ، ولا يمارى فيها باحث استشرق أو استغرب ، وعلى ضوءها في بساطتها بعيدة عن « الروش » وشاعرية الأساليب يجب أن يجرى البحث عن أسباب عزل عمر خالد أو لاثانيا ، ليعلم الناس حقيقة الدوافع العليا في تصرفات رجل كان الحقيقة الكبرى في معجزات التكوين الانساني مكيها بروح الاسلام ، ذلك الفعل لا يقدر أنفه ، الفاروق عمر بن الخطاب ، أول حاكم في الإسلام جعل الشريعة الإسلامية عملاً في واقع الحياة ، كان هو نفسه نموذجاً الأعلى في أمثلة التطبيق وشواهد التكيف . وإذا أردنا أن نحرر قضية العزل في وضعها الصحيح جاءت على هذه الصورة :

أولاً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائد جيوش الشام خالد بن الوليد عن الإمارة العامة لتلك الجيوش ، وأنزله إلى مرتبة قائد فرقة ، فعمل تحت إمرة القائد الجديد أبي عبيدة بن الجراح زهاء أربع سنوات .

ثانياً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد قواد الكتائب خالد بن الوليد عن عمله في الجيش كله ، وحاكمه في تصرف من المالية .

فما ذلك العزل أولاً وثانياً ؟

وما أثر ذلك في نفس الرجلين العظيمين ؟

ليس من العقول بداهة أن يكون سبب العزل الأول مازعمه بعض الرواة وتهالك عليه بعض الباحثين من قصة مالك بن نويرة ، وزواج خالد امرأته لأمرين :

ليس لقصة
ابن نويرة
مدخل في
العزل

الأول : أننا زيفنا الروايات التي تعزو إلى عمر بن الخطاب مقاولات في هذه القصة لا تتفق مطلقاً مع واقع التاريخ ، ولا تتفق كذلك مع أخلاق الرجلين العظيمين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد .

الثاني : أن ذلك — على الصورة المزعومة معزوة إلى عمر — لو كان هو السبب أو بعض السبب الذي حمل عمر على عزل خالد لما كان هناك وجه مطلقاً في إبقاء خالد أمير فرقة في

الجيش ، كان يقوم بأمرها أعظم القواد بعد خالد ، وكان هو الذى خلف خالدًا فى الإمارة العامة ، بل كان الواجب يقضى بعزل خالد عزلًا نهائياً عن الجيش كله ، ثم إقادته بمالك بن نويرة ، أو رجهه لزوجته على امرأته

وإذا كانت إقامة الحد على وجهيه فد فانت بحكم أي بكر وتأوله لفعل ، خالد فالذى لا يفهم ولا يعقل هو عزل عمر بن الخطاب صاحب تلك المقالات المزعومة خالد ابن الوليد صاحب تلك الأفاعيل المزعومة أيضا ، عزلا جزئيا بتزيله من منصب الإمارة العامة فقط ، وإبقائه عاملا فى الجيش ، بل أميرا من أمرائه ، وقائدا من قواده ، وعمر — فى زعم ضعفة الرواة ونواسى الباحثين — يتهم خالدًا فى دينه وأخلاقه ومروءته ورجوليته بتلك التهمة الخطيرة ، وهى قتله رجلا مسلما معصوم الدم لينزو على امرأته ، فلا يصلح لحل شرف الجندية فى جيوش الإسلام ، به منصب الإمارة فيها ، لأن صاحب هذا الخلق لا يؤمن على دم أو عرض أو مال .

وهذه الروايات السقيمة المهلهلة التى هلّل بها بعض الباحثين تنسب إلى عمر بن الخطاب أقوالا توعدها خالدًا إذا صار إليه أمر الخلافة ، وها هو ذا يصبح خليفة المسلمين ، بيده سلطان الإسلام ، يقضى به ما يشاء على من شاء ، فلا ترفع بالإنكار عليه رأس ، ولا تطرف به عين ، فأين ذهبت تلك الإيعادات الموعدة ، والأقاويل المهددة ؟ أيجوز فى زعم هؤلاء أن ين عز عمر بن الخطاب ، وهو من هو فى الجاهلية والإسلام ، بالجبن عن إقصاء خالد وعزله عزلا كليا مادام يتهمه بتلك التهمة الخطيرة ؟ وهذا العزل الكلى أدنى ما يستوجب الحق والعدل ، لو صحت تلك التهمة على خالد ، أو لو صح اعتقاد عمر صحتها ؟ أم يقول هؤلاء : إن عمر بن الخطاب كانت له قبل أن يلى الخلافة سياسية فى فهم الدين وتطبيق الشريعة ومعاملة الأشخاص ، والحكم على الأشياء ، نسيها أو تناساها بعد أن أصبح خليفة المسلمين ؟ لم لا ؟ أفليس كذلك يصنع الحكام والوزراء فى الشرق والغرب فى هذا العصر التقدمى ؟ بل ؛ أوليس عمر واحد من هذا الناس الذين لعواظهم سلطان عليهم يغلب على عقولهم فى تصرفاتهم فى شئون الحياة ، ولو كانت تلك التصرفات لحساب المسلمين — كما يقول بعض الباحثين ؟

(م ٢٠ — خالد بن الوليد)

وقدم على أمير المؤمنين وعاتبه أوجل عتاب ، فأعته عمر أكرم إعتاب وقال له : « والله ياخاله انك على لكريم وإنك إلى الحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء » .

تحرير وضع
القصة

هذه هي وقائع التاريخ التي لا تختلف فيها رواية عن رواية ، ولا يمارى فيها باحث استشرق أو استغرب ، وعلى ضوءها في بساطتها بعيدة عن « الرتوش » وشاعرية الأساليب يجب أن يجرى البحث عن أسباب عزل عمر خالداً أولاً وثانياً ، ليعلم الناس حقيقة الدوافع العليا في تصرفات رجل كان الحقيقة الكبرى في معجزات التكوين الانساني مكيها بروح الاسلام ، ذلك الفحل لا يقدر أنفه ، الفاروق عمر بن الخطاب ، أول حاكم في الإسلام جعل الشريعة الإسلامية عملاً في واقع الحياة ، كان هو نفسه نموذجاً الأعلى في أمثلة التطبيق وشواهد التكيف . وإذا أردنا أن نحرر قضية العزل في وضعها الصحيح جاءت على هذه الصورة :

أولاً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائد جيوش الشام خالد بن الوليد عن الإمارة العامة لتلك الجيوش ، وأزله إلى مرتبة قائد فرقة ، فعمل تحت إمرة القائد الجديد أبي عبيدة بن الجراح زهاء أربع سنوات .

ثانياً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد قواد الكتائب خالد بن الوليد عن عمله في الجيش كله ، وحاكمه في تصرف من المالية .

فما ذلك العزل أولاً وثانياً ؟

وما أثر ذلك في نفس الرجلين العظيمين ؟

ليس من المعقول بداهة أن يكون سبب العزل الأول ما زعمه بعض الرواة وتهالك عليه بعض الباحثين من قصة مالك بن نويرة ، وزواج خالد امرأته لأمرين :

ليس لقصة
ابن نويرة
مدخل في
العزل

الأول : أننا زيفنا الروايات التي تعزو إلى عمر بن الخطاب مقاولات في هذه القصة لا تتفق مطلقاً مع واقع التاريخ ، ولا تتفق كذلك مع أخلاق الرجلين العظيمين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد .

الثاني : أن ذلك — على الصورة المزعومة معزوة إلى عمر — لو كان هو السبب أو بعض السبب الذي حمل عمر على عزل خالد لما كان هناك وجه مطلقاً في إبقاء خالد أمير فرقة في

الجيش ، كان يقوم بأمرها أعظم القواد بعد خالد ، وكان هو الذى خلف خالدًا فى الإمارة العامة ، بل كان الواجب يقضى بعزل خالد عن لانهائيا عن الجيش كله ، ثم إقادته بمالك بن نيرة ، أو رجه لزوه على امرأته

وإذا كانت إقامة الحد على وجهيه قد فاتت بحكم أي بكر وتأوله لفعل ، خالد فالذى لا يفهم ولا يعقل هو عزل عمر بن الخطاب صاحب تلك المقالات المزعومة خالد ابن الوليد صاحب تلك الأفاعيل المزعومة أيضا ، عزلا جزئيا بتزيله من منصب الإمارة العامة فقط ، وإبقائه عاملا فى الجيش ، بل أميرا من أمرائه ، وقائدا من قواده ، وعمر — فى زعم ضعفة الرواة ونواسى الباحثين — يتهم خالدًا فى دينه وأخلاقه ومروءته ورجوليته بتلك التهمة الخطيرة ، وهى قتله رجلا مسالما معصوم الدم لينزو على امرأته ، فلا يصلح لمل شرف الجنديّة فى جيوش الإسلام ، بله منصب الإمارة فيها ، لأن صاحب هذا الخلق لا يؤمن على دم أو عرض أو مال .

وهذه الروايات السقيمة المهلهلة التى هلل بها بعض الباحثين تنسب إلى عمر بن الخطاب أقوالا توعدها خالدًا إذا صار إليه أمر الخلافة ، وهما هو ذا يصبح خليفة المسلمين ، بيده سلطان الإسلام ، يقضى به ما يشاء على من شاء ، فلا ترفع بالإنكار عليه رأس ، ولا تطرف به عين ، فأين ذهبت تلك الإيعادات المرعدة ، والأقاويل المهددة؟ أيجوز فى زعم هؤلاء أن يزن عمر بن الخطاب ، وهو من هو فى الجاهلية والإسلام ، بالجن عن إقصاء خالد وعزله عزلا كليا مادام يتهمه بتلك التهمة الخطيرة؟ وهذا العزل الكلى أدنى ما يستوجب الحق والعدل ، لو صحت تلك التهمة على خالد ، أو لو صح اعتقاد عمر صحتها ؟ أم يقول هؤلاء : إن عمر بن الخطاب كانت له قبل أن يلى الخلافة سياسية فى فهم الدين وتطبيق الشريعة ومعاملة الأشخاص ، والحكم على الأشياء ، نسيها وتناساها بعد أن أصبح خليفة المسلمين ؟ لم لا ؟ أفليس كذلك يصنع الحكام والوزراء فى الشرق والغرب فى هذا العصر التقدمى ؟ بل ؛ أوليس عمر واحدا من هذا الناس الذين لعواطفهم سلطان عليهم يغلب على عقولهم فى تصرفاتهم فى شئون الحياة ، ولو كانت تلك التصرفات لحساب المسلمين — كما يقول بعض الباحثين ؟

(م ٢٠ — خالد بن الوليد)

أم الأمر لا هذا ولا ذاك ، ولكنها روايات زائفة صنعها أعداء الإسلام وتلقاها
ضعفاء الرواة ، وقبلها من تلقوا تاريخ الإسلام بعيدا عن روح الإسلام ومصادر
الإسلام ؟

تزييف
أبطلولة
الحقد الجاهلي

وإذا كان باطلا من الباطل أن يكون مقتل مالك بن نويرة وما يستتبعه من مسخف
نواصي له مدخل أى مدخل فى أسباب العزل الأول أى عزل خالد عن الإمارة العامة ،
فأشد منه إيغالا فى الزيف والعيث ما زعمته بعض الروايات وفرط حبه بعض الباحثين
من رد أسباب العزل إلى حقد قديم وضغائن جاهلية ، سواء أكان مردها - فى زعم
رواتها ومقلديهم - تلك الأقصوصة الصبائية فى اضطراع عمر وخالد وهما طفلان يلعبان
مع لداتهما من الأطفال ، أم كان مردها إحنا أسرية وأحقادا قبلية . لأن ذلك بطله
ما يبطل مدخلة مالك بن نويرة وزواج امرأته فى أسباب العزل .

وإلا فهل قال لنا أصحاب نظرية الحقد الجاهلي بين عمر بن الخطاب وخالد بن
الوليد لماذا أبقي عمر على خالد قائدا فى قواد الجيوش الإسلامية ، وأميرا من أمرائها
وهو يحقد عليه حقدا موروثا منذ الجاهلية ، وقد واثته الفرصة أحسن ما تكون
ليضرب خصمه القديم ضربة تشفى نفسه من أحقادها ؟ لعلمهم يقولون : إن عمر ذهب
فى ذلك مذهب كبار السامة بعيدى النظر وعميقى الغور فى الدهاء ، فهو يعلم مكانة
خالد فى الجيش فلم يهجم على عزله نهائيا ليبعده عن العمل إطلافا ، خشية ثورة الجيش
انتصارا لقائده العبقري سيف الله خالد بن الوليد ، ولما كان الدكتور هينكل يتبرع بالرد
على هؤلاء فيقول : « إن خالد لم يحقق ما ندمه أبو بكر لتعديته » ، وإذن فهو لا يزال
فى غمرة الامتحان فلا ثورة تخفى ، بل يقول الدكتور هيكل : « إن عمر عزل خالد
فى موقف لا يظلمه فيه من يأمر بعزله » أفلا كان هذا الموقف أنسب بالعزل النهائى مادام
الباعث على العزل أحقادا جاهلية وسوء رأى لا يتصل بالإسلام من قريب أو بعيد ؟

رأى للاستاذ
العقاد
يقول صاحب « عبقرية خالد » : « وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل
خالد لضغينة فى نفس عمر أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء ؛ أولغير
سبب من تلك الأسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة .

« وأسخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم كما سبق وهم بعض المؤرخين أن

عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة ، مرجعها إلى الصراع بينها في أيام الصبا وأن خالدا صرع عمر وكسر ساقه ، فلم يزل بقية حياته واجدا عليه ، وأجهل الناس بأخلاق عمر من يجمع به الوهم إلى ظن من هذه الظنون .

« فليس بين رجال التاريخ من هو أصعب مخطئة من عمر بن الخطاب ؛ لأنه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسبا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس في نفسه نية ذحل أو ثار قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ، ولا يُعجل به خوفا من خدعة نفسه وتضليل هواه . »

ويقول في كتاب «عبرية عمر» : « على هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتبس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل ، وقل في محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين . »

« ففي جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة في موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادة كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضي الله عنه . »

« ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذا عن خطته مع جميع القادة والولاة لأن الذي صنعه فيها عمر هو الذي كان ينتظرا أن يصنعه سواء كان القائد خالدا أو كان رجلا غيره . . . وهذا الذي ينفي الشذوذ والحيف ، أو ينفي المعاملة الخاصة التي تكيّل للناس بكيلين ، وتزن بميزانين ، وتنظر إليهم بنظرين مختلفين . »

« عزل عمر خالدا وهو سيف الاسلام وبطل الجزيرة والشام ، وإذا كان لابد لخالد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب . . . هو على قدر عزله بلا مراء وهو قدر كبير . »

« فقال أناس : منافسة الند للند ، والشبيه للشبيه ، وقال أناس : عزله لغير خطأ أتاه ، وقال أناس إنها ترة قديمة ، ولولاها ما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله ، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده . »

« والدبن ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى

حدهم ، لأن المشابهة بين عمر وخاله كانت مشابهة خلق ، وخلق ، توحى الظن بالتنافس والملاحظة ، وكانت مشابهة خاله لعمر في خلقته تلتبس على بعض الناس ، فيكلمون عمر وهم يحسبون خاله بن الوليد .

« فمن شاء أن يخطب بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته ، وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضيقه الأولى ، وكتب إلى الأمصار يرثه من الحياة ، ويعلمهم » أنه لم يعزله لسخطه ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به « ... قال : « فخشيت أن يوكلوا به ويتولوا فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » ولما سأله خاله في ذلك قال له ؟ « إن الناس فتنوا بك فخشيت أن تفتن بالناس »

« فمن شاء أن يخطب بالظن هنا فليخطب ماشاء ، وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه ، ويوقن أن عمر لم يحاسب خاله بميزان غير الذي حاسب به جميع القادة والولاة ، وإن المدعى الحق أن يبقيه في الولاية والقيادة بعد ما أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين » .

وهذا كلام جيد جدا ، يقوم على تحقيق في البحث ودراسة الشخصيات من طريق تعرف خصائصها الثابتة حتى تكون تلك الخصائص ميزانا صادقا لنقد الروايات المتضاربة ، ومن ثم يكون الباحث بمنجاة من الحيرة في التصويب والتزيف ، ويكون أيضا أقرب إلى العصمة عن الانزلاق إلى تلقف الأقاصيص والروايات التي قد توافق هوى خفيا في النفس ، وإن كانت تخالف وقائع التاريخ . وخاصة هذا المنهج في نظرنا استقراء مقومات الشخصية عن طريق واقعها التاريخي ، والموازنة بين الروايات على أساس تلك المقومات ، ولا يتم الاستقراء والموازنة إلا بعد الإحاطة بجميع ماردده التاريخ حول تلك الشخصية في سيرتها من الحياة ، وهو منهج في دراسة الشخصيات يعطيك الحقائق التاريخية من أقرب طرائقها ، حتى ليخيل إليك قبل التأمل أن البحث يعوزه الاستقصاء الروائي ، ولو كانت النتيجة لا تتغير . وهو منهج - كما فهمناه - يزيدنا إيمانا بما أسسنا عليه طريقتنا في هذه البحوث .

وإذا انتهى البحث إلى إقصاء قصة مالك بن نويرة ولواحتها من الهذر
النواصي ، وكذلك إقصاء قصة الحقد الجاهلي عن أن تكون واحدة منها لها مدخل
من قريب أو بعيد في أسباب عزل عمر خالد فلنبحث عن الأسباب الجدية التي أدت
إلى ذلك العزل ، ومن هنا يتصل الكلام في العزل الأول بالكلام في العزل الثاني ،
ويصبحا أمام البحث حادثاً واحداً ظهر في صورتين .

كان من اليسير أن نقول إن من حق كل حاكم جديد يقوم بأعباء الحكم في أمة من
الأمم ألا يلزم بالعمل مع عمال سلفه في الحكم ، وألا يلتزم نظمه وطرأته في الحكم ،
مادام قائماً في حكمه على حدود النصوص التي لا مدخل للاجتهاد فيها ، لأن لكل حاكم
عقلاً وتفكيراً وتوجهاً ، وتقديراً للأمر ، وفهماً للحوادث والأشياء ، ووزناً
للأشخاص ، يختلف كثيراً أو قليلاً عن حظ سلفه من هذه الأمور ، وهذا الاختلاف
بين الحاكمين في سياسة الحكم ، له يد كبرى فيما يطرأ على الأمم من تقابلات، وماعربها
من أطوار اجتماعية ، تنقلها من مرحلة في التاريخ السياسي والاجتماعي إلى مرحلة
أخرى ، تعلو بها أو تسفل تبعاً لروح الحاكم واستعداد الأمة إلى أن تبلغ مداها المقدرها
في الحياة ، ثم يعتريها الفناء على صورة من الصور التي تجدد بها الجماعات والأمم .

تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر الصديق ، وهما من طبيعتين مختلفتين
في خصائص الحاكمين ، تمثل كل طبيعة منهما لونا من السلطان والحكم في سياسة
الأمة ، ولكنه لون لا يخرج بصاحبه عن طبيعة الإسلام وروحه كما فهمه ورآه وسمعه
تطبيقاً عملياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر الطبري : أن أبا بكر دعا في مرضه الذي توفي فيه عبد الرحمن بن عوف ، وقال له :
أخبرني عن عمر بن الخطاب ؟ قال عبد الرحمن : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلمنا
به ، قال أبو بكر : وإن ؟ قال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه من
رجل ، ولكن فيه غلظة ، قال أبو بكر : ذلك لأنه يراني رقيقاً « وهذا تصوير دقيق
صادق لاختلاف طبيعتي الخليفتين ، وكانت مظاهر اختلافهما تبدو في حياة النبي
صلى الله عليه وسلم فيحسم الأمر بما يريه الله تعالى ، ومن أوضح شواهد موقف الشيخين في
قصة أسرى بدر ، وموقفهما في صلح الحديبية . ذكر القرطبي من رواية يزيد بن هارون
عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم .

بدرجىء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ؟ استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وقتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الخطب فأضرمه عليهم ، فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحلك ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئا ؛ فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضى الله عنه ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ؛ وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تسكون ألين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال حتى تسكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » .

ولما تولى أبو بكر الخلافة وأصبح في يده حكم الأمة وسياستها وازره عمر أصدق المؤازرة ، ولكنه كان يختلف معه في بعض الأمور فيرجع إليه أبو بكر تارة وتارة ، ويرده إلى سلطان الحكم مرة ومرة ؛ اختلفا في قتال المرتدين ، فسكان أبو بكر يوجبه ويتشدد فيه ، وكان عمر لاهيا ، فردّه أبو بكر إلى رأيه في حزم وقوة ، وكان من أظهر مواضع اختلافهما مدى السلطة التي تعطى للعالم والولاة والقواد في الأنحاء التي يكونون عليها حاكمين باسم الخلافة . فأبو بكر كان من سنته مع عماله وأمرائه عماله أن يترك لهم حرية التصرف كاملة في حدود النظام العام للدولة ومشروطا بذلك بتحقيق العدل كاملا بين الأفراد والجماعات ، ثم لا يبالي أن يكون لواء العدل منشورا بيده أو بيد عماله وولائته ، فلو إلى حق يستمد من سلطان الخلافة في تدبير أمر ولايته دون رجوع في الجزئيات إلى أمر الخليفة ، وكان أبو بكر لا يرى أن يكسر على الولاة سلطانهم في مال أو غيره مادام العدل قائما في رعيتهم .

وأما عمر بن الخطاب فكان يرى أنه يجب على الخليفة أن يحدد لأمرائه وولاته طريقة سيرهم في حكم ولاياتهم ، ويحكم عليهم أن يردوا إليه ما يحدث حتى يكون هو الذي ينظر فيه ثم يأمرهم بأمره ، وعليهم التنفيذ ، لأنه يرى أن الخليفة مسئول عن عمله وعن عمل وولاته في الرعية مسئوليّة لا يرفعها عنه أنه اجتهد في اختيار الوالي . فلما تولى الخلافة خطب الناس ، فقال : « إن الله ابتلاكم بي ، وابتلاني بكم ، وأبقاني بعد صاحبي فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيلبي أحد دوني ، ولا يغيب عني فإا لو افية عن الجزء والأمانة ، ولئن أحسنوا - الولاية - لأحسن إليهم ، ولئن أساءوا لأنسكن بهم » وكان يقول : لو أن عناقا بشرط العراق ضاعت لحسبت أني مسئول عنها ، وكان يقول . أيما عامل لى ظلم أحدا وبلغتني مظلمته فلم أعيرها فأنا ظلمته ، ويقول . أرايتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما على ؟ قالوا : نعم قال . لا ، حتى أنظر في عمله ، أعمل بما أمرته أم لا ؟

ثم نظر عمر فرأى عمال أبي بكر وأمرأه يسرون على السيرة التي عودهم إياها أبو بكر من الاستقلال في الرأي وحرية التصرف فيما تحت أيديهم من عمل الدولة وأموالها ، فأراد أن يكلمهم ، ويعدل بهم إلى سيرته ومذهبه ، فرضى بعضهم وأبى آخرون ، وكان ممن أبى عليه ذلك خالد بن الوليد .

روى ابن حجر في الإصابة عن مالك بن أنس . أن عمر لما ولي الخلافة كتب إلى خالد ألا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك ، فقال عمر : ماصدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه ، فعزله ، ثم كان يدعو إلى العمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ماشاء فيأبى عليه .

فعزل عمر خالدًا من وجهة سياسة الحكم وحق الحاكم في تصريف شؤون الدولة ومسئوليته عنها ، طبعى يقع كل يوم مثله في الحياة . ولا يدور فيه شيء غريب يحتاج إلى بيان أسباب تجاذبها روايات وآراء وميول وأهواء ونزعات . فعمر بن الخطاب خليفة المسلمين في عصر كان الناس فيه ناسا لا زوالون يستروحون روح النبوة . له من الحقوق الأوليّة أن يختار من الولاية والقادة من ينسجم معه في سياسته ومذهبه في الحكم ليعمل في سلطانه مادامت الأمة غنية بالكفايات الراجعة . فليس لعامل ولا قائد أن يتأبد في

منصبه ، ولا سيما إذا اختلفت مناهج السياسة بين الحاكم والولاة ، ما كان هناك من ينفى غناؤه ويجزى عنه .

وقد أثبت الواقع التاريخي أن عمر رضى الله عنه كان موقفاً أتم التوفيق وقد نجح في سياسته هذه نجاحاً منقطع النظير ، فعزل وولى ، فلم يكن من ولاه أقل كفاية بمن عزله ، ومرد ذلك لروح التربية الإسلامية التي قامت على أن تضمن دائماً للأمة رصيда مذخوراً من البطولة والكفاية السياسية الفاضلة . وكان يسير على البحث أن يذهب في قصة عزل خاله هذا المذهب ولكن التاريخ شاء وشاء معه ميل في بعض الناس أن ينظر لهذه القصة نظراً يبعد بها عن البساطة والبهر ؛ ويدخل بها في مضائق « التعليل » الذي لا يرضى بتبرئة عمر إلا بتأثيم خاله ، ولا بتبرئة خاله إلا بتأثيم عمر ، كأنما التأثيم ضربة لازب لواحد من الرجلين العبقريين .

ولسنا ندري ما الذي يضير الحياة إذا انتهى البحث بالرجلين العظيمين إلى مكانهما من السمو والعبقرية ؟ لاشيء سوى أن البحث حينئذ لا يكون — في نظر تلامذة الاستشراف — بحثاً « حديثاً » مشمولاً برعاية « الحرية الفكرية » . وأهون بذلك — عندنا — داهبا مع همسات النساء أو لفحات السهام إذا بلغ بنا البحث مستقره من اليقين .

ليست الحوادث أكبر من عقولنا
فليمض البحث في طريقه ، ولينظر إلى عزل خاله كحادث يجب أن يوضع موضع المحاكمة ، وليناعد من تفكيرنا أننا أصغر من أن نحكم بين فدى العبقرية الإسلامية عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ؛ لأننا في الحق إنما نحكم على حادث من حوادث التاريخ ولا نحاكم عمر ولا خاله ؛ ولأنه لا يضير عمر ولا يضير خاله أن يكشف البحث عن وجه الحق في حادث يرتبط بهما ، وإنما يضيرنا نحن ويضير التاريخ معنا أن نسبنا عن الحادث التاريخي تتجاذبه الأهواء والروايات الزائفة كما يضيرنا ويضير التاريخ معنا أن نخطيء في تقدير عمر وخالد . فالحادث كيهما كان ليس أكبر من تفكيرنا ، لأن إسلامنا الذي هو مادة الفكر للشخصية الإسلامية ، فتح للعقل البشري أبواب البحث في الوجود كله على مصاريحها ، ولا شك أن الوجود أعظم من الحوادث والأشخاص . بل

إن الإسلام رقى بالعقل البشرى إلى معارج أسمى من هذا الوجود المنظور ، رقى به إلى النظر في جلال الله وصفاته القدسية .

فالذين يقفون بالعقل الإسلامى عند سفح الحوادث التاريخية استكبارا للشخصيات المرتبطة بها يغلطون ، فيخلطون بين الحوادث والناس ؛ وينزلون بذلك العقل عن منزلته ولا يقدرونه حق قدره ، بل هم يخطئون في فهم روح الإسلام بوضعهم حوادثه التاريخية وأشخاصه موضع القداسة التقليدية التى تحثى البحث وتفرق من النقد ، وهذا طرف في الاتجاه ليس بأقل خطرا من الطرف الآخر الذى لا يرى أن يرفع حادثاً أو شخصاً عن مزالق التأثيم والتجريح ، وليس هذا ولا ذاك من النصفة في البحث المستقيم .

كان بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد تقارب شديد في الطبائع الأصلية الثابتة ، وكان بينهما اختلاف شديد في الأخلاق المكتسوبة ، فيجمعهما الصلابة ، والأيدى الطبع المركز ، ويفرق بينهما السلوك في الحياة .

صلابة الطبع
عند عمر
وخالد

وصلابة الطبع عند عمر تجلت في مواقف عديدة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تجلت في موقفه من الإسرار بالدعوة ، وفي طريقة إعلان إسلامه للملأ من قريش وفي الطريقة التى هاجر بها من مكة إلى المدينة ، وفي موقفه من أسارى بدر ورأيه فيهم ، وفي موقفه من النبي صلى الله عليه وسلم وقد تهيأ للصلاة على عبد الله بن أبي بن سلول ، وفي موقفه من صلح الحديبية وحديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مع أبي بكر في شأن هذا الصلح حتى قال عمر نفسه : ما زلت أصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ . مخافة كلامى الذى تكلمت به .

وتجلت صلابة طبعه في موقفه من أمهات المؤمنين وكن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبن إليه ويكثرن عليه في النفقة وزينة الحياة الدنيا . وفي موقفه في بيعة أبي بكر من الأنصار وبني هاشم وفيهم على وبجانبه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

في كل موقف من هذه المواقف مثل من أمثلة الطبع الصليب والأيدى الذى لا يلين عند عمر . وقصة إسلامه مثل كامل يجمع بين مثلين في تصوير صلابة الطبع . مثل

في مبدئها يصور عمر في جاهليته المتعطرسة . ومثل في نهايتها يصوره في إسلامه الشامخ
بعزة الإيمان وقوة الاعتداد بالعقيدة التي دان لها بقلبه وعقله وروحه وجسمه .

وقد كان هذا الخلق في عمر معروفا مشهورا حتى قال طلحة بن عبيد الله لأبي بكر
حين عهد إلى عمر : استخلفت على الناس عمر . وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت
معه . فكيف به إذا خلا بهم ؟ .

ووصفه عبد الرحمن بن عوف حين سأله أبو بكر عنه فقال : هو والله أفضل من
رأيت فيه من رجل . ولكن فيه غلظة . وكان عمر نفسه يئس هذا الشعور نحوه من
الناس . فكان يقول على ملتئم : اللهم إني غليظ ندي . وبلغ من هيبة الناس له أن
الرجال تفرقوا عن مجالسهم بالأفنية لما تولى الخلافة حتى ينظروا ما يكون من أمره ،
فخطب الناس فقال : « بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان
عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا . ثم اشتد علينا وأبو بكر
والينا دونه . فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . فقد كنت
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكنت عبده وخادمه . وكان من لا يبلغ أحد صفته
من اللين والرحمة . وكان كما قال الله « بالؤمنين رءوفا رحما » فكنت بين يديه سيفا
مساولا حتى يغمدني أو يدعني فأمنني . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك
حتى توفاه الله وهو عني راض . والحمد لله على ذلك كثيرا . وأنا به أسعد . ثم ولي أمر
المسلمين أبو بكر فكان من لا يذكرون دعوته وكرمه وإنيته فكنت خادمه وعونه .
أخلط شدتي بليته . فأكون سيفا مساولا حتى يغمدني أو يدعني فأمنني . فلم أزل معه
كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيرا . وأنا به أسعد .
ثم إني وابت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت . ولكنكم إنما
تكون على أهل الظلم والعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا
ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع حده
على الأرض وأضع قدمي على الحد الآخر حتى يذعن بالحق . وإني بعد شدتي في تلك أضع
شدتي على الأرض لأهل العفاف والكفاف » .

أما صلابة الطبع وقوة الأيد عند خالد بن الوليد . فقد كانت حياته كلها مثلا واحدا لها

فهو رجل نهد على الحرب لم يفارقها في جاهلية أو إسلام . شب وفي يده أعنة الخيل . وقيادة الجند ، ألقت نفسه القتل والقتال في الهجوم والدفاع وألقت نفسه الدماء تسيل . والرهوس عن الأعناق تمل . وهو الذي يقول لما رأى صبرا هله « أليس » وشدة كلهم في حربه : « اللهم إن لك على إن منعنا أكتافهم ألا استبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » ولما نزل أهل « قنسرين » على رأيه - وكانوا قد اعتاصوا عليه وتأبوا - فظابوا منه الصالح . أباه عليهم إلا على إخبار مدينتهم فأخربها ولما أمره أبو بكر بالتوقف عن الهجوم . وهو في الحيرة . ليستجهم جنده ويدبر أمر مافتح من البلاد . ويحمى ظهره . أقام سنة لا يقاتل . فقال . ألا إنها سنة كأنها سنة نساء .

وقد فرقت الحياة بين عمر وخالد في السلوك والأعمال .

فعمر بن الخطاب كان مع النبي ﷺ وزيرا ومشيرا . وكان مع أبي بكر سندا افتراق في . ومعينا . ثم كان بعده خليفة يرعى أمور المسلمين ويسوسهم بإسطة الله . فهو رجل السلوك والسياسة وتفكير

أما خالد فسلكه في الحياة وعمله فيها لم يختلفا في شيء عن طبعه الأصيل . فقد ظل حياته في الإسلام كما كان في الجاهلية قائدا عسكريا . يحوض الغمرات ويقتحم الميادين يقاتل ويقتل . وهي حياة تتجاوب مع ماله من طبع صليب وخلق أيد . ينفر من القيود . ويميل إلى الحرية . ولم يعود أن يؤمر فيطيع . ولكنه تعود أن يأمر فيطاع . يقوم أمره على السرعة الحاسمة والضربة القاصمة . لا يتلبث للعقبات يدورها أو يحاول التفادي منها ولكنه يواجهها مواجهة المحارب حتى يهزمها . صريح صراحة يحسبها من لم يرزه جفوة وغلطة . تزدنيه الشدائد وتطربه . ويحرص على الموت في مظانه ويطلبه يصف نفسه ويذكر أحب شيء إليه في الحياة فيقول : « ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب . أو أبشر فيها بغلام . أحب إلى من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح فيها العدو . فعليكم بالجهاد » .

وهو إذ يعزم السير إلى مالك بن نويرة بالبطاح بعد فراغه من أسد وغطفان . وتتوقف الأنصار عن متابعتة . وهم كنيبة الإسلام في الصبر عند اللقاء لا يشده توقفهم

من عزمته . ولكنه يمضى قدما فيقولون له : ما بهذا عهد إلينا الخليفة . بل عهد إلينا إن نحن فرغنا من البراحة واستبرأنا القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا . فيجيبهم جوابا يترعه من طبعه الأصيل في تقديس الاستقلال في الرأي وحرية التصرف فيقول : « إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى . وأنا الأمير . وإلى تلتى الأخبار . ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فأتني لم أعلمه حتى انتهزها . وكذلك لو أبلغنا بأمر ليس منه عهد إلينا به لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به » وفي خطبته التي جمع بها الأمراء يوم اليرموك تحت لوائه لون من ألوان ذلك الطبع الأصيل .

أما سلوك عمر في حياته فكان يتطلب منه طبيعته الصليبية . فوجه ذلك إلى قهر رغائبه من الحياة الدنيا وزينتها . واشتد في ذلك بما يناسب ما انتهى إليه أمره من تهوئه أرفع مكان في الإسلام ينو إليه أعظم أملا في تاريخ الحياة . فكان يرى أنه المثل الأعلى في الناس به . ولو خاض غمرات الدنيا لخاض وراء الناس . فملك أمره . وساس نفسه قبل أن يسوس الناس . وكان يرى أن يكون ولانه وأمرؤه في أقطار الإسلام على مستته زهادة في الدنيا وتجاوفا عن زخارفها . وكان يقول لهم : « يا معشر الأمراء : إن هذا المال لو رأينا أنه يحل لنا لأحللناه لكم . فأما إذ لم يحل لنا وظلفنا (١) أنفسنا عنه فاطلقوا عنه أنفسكم » فكان حريصا أشد الحرص على تعرف أحوالهم والاطلاع على تصرفاتهم اطلاعا كاملا وتقييدهم بأوامره .

وليس من شك في أن للبيئة الخاصة . أي البيت والأسرة . أثراني سلوك كل من عمر وخالده . فعمر بن الخطاب لم ينهد في بيت ثراء وسعة في الرزق وكثرة في المال . بل شب على التقشف وخشونة العيش . فلما بلغ في الإسلام ما بلغ راض نفسه على أشد مما كان عليه في بيئته الخاصة . بيته وأسرته . استجابة لمقتضيات منصبه من الناس به باعتباره مثلا أعلى للفضيلة الإسلامية .

(١) ظائف نفسه : منها .

أما خالد فقد نهّد في بيئة يكتنفها ثراء المال وعز الجاه ، وهما من أهم أسباب الاعتداد بالنفس الذي يبدو لأول نظرة أنه لون من ألوان الزهو والخيلاء ، ينال المتعة من أدنى سبلها ، فلما بلغ في الإسلام ما بلغ لم يجد ما يمنعه وهو في مكانه من الإسلام أن يستجيب للمتعة إذا رضى عنها الإسلام وقرت بهاعين شريعته ، فإذا انضم هذا إلى خصائص خالد الذاتية عرفنا مقدار ما بين الرجلين العظيمين من تباعد في وسائل الاتفاق .

وأدنى ما بينهما في التثيل أن عمر بن الخطاب يمنع نفسه طعاماً شهياً ليس فيه أدنى شبهة مخافة أن يقال له يوم القيامة « أذهبتكم طبيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . وخالد بن الوليد لا يبالي أن يدخل الحمام فيتدلك بغسل فيه خمر فتتها وأذهب خمريتها ، أو أن يعرس بنت مجاعة بن مرارة الحنفي ، وجراحه لا تزال تنطف دما من سيوف قومها .

ومن هنا بدأت طلائع الافتراق بين عمر وخالد ، لأن طبيعة خالد العسكرية ظلت اصطدام بين طبيعتين على صلابتها وإلفها للاستقلال الكامل وحرية التصرف في عمله الذي أسند إليه ، وعمر لا يرضيه ذلك استجابة لطبيعته وسلوكه في الحياة ، فكان اصطدامهما أشبه باصدام الحديد بالحديد ، لأنه اصطدام طبيعتين من نوع واحد اتجهتا في الحياة اتجاهاً مختلفاً ، فأرادت كل طبيعة منهما الاحتفاظ بخصائصها ، وقد كانا في مكانين من الدولة ليس فوقهما مكان ، فعمر خليفة المسلمين وخالد قائد جيوش المسلمين ، فلا مفر إذاً من أن تقف إحدى الطبيعتين عن سيرها ليفرغ الأفق للأخرى حتى تأخذ بحملها الحيوى في النهوض بالأمة .

وكان طبيعياً بمقتضى منصبى الرجلين العظيمين أن تقف الطبيعة الخالدية لتترك المجال وقف الطبيعة للقاروق ، لأن خالد كان قد بلغ مداه في مكانه من الدولة ؟ أما عمر فكان قد بدأ أشواطه ، ولما يبلغ المدى المقدر له في مكانه من الدولة ، ومن عجائب التوفيق في تاريخ هذه الأمة أن عمر بن الخطاب لم يعوض في مكانه إذ خلا منه ، ولكن خالد لم يفرغ مكانه من مثله أيام عمر ، وكأنما كانت عبقرية خالد الغامرة حجاباً انسدل دون عبقریات فياضة بالبطولة ، حتى إذا وقفها ابن الخطاب وهى مستولية على الغاية القصوى في العظمة انكشف الحجاب وتراءت شمائل في القيادة العسكرية لعديد من أبطال الإسلام ، كانوا كلهم خالد بن الوليد في قوته وبطشه وظفره ويمن بقيته .

حقيقة دواع العزل
خفيمة المسألة في دوافع عزل عمر خالد أن طبع الرجاين العظيمين كانت من نوع يعسر معه أن تستجيب إحداها للآخرى ، وليس هناك شك ولا تخون ولا سوء رأى ، ولا ضغائن جاهلية ، ولا اتهام بانتهاك حرمة الشريعة ، وشرائع الحق والعدل والتقوى ، وإنما هناك قوة مهيمنة بسطت الخلافة الراشدة سلطانها على الأمة الإسلامية في شخص عمر بن الخطاب ؛ صادفت هذه القوة أمامها قوة أخرى مهيمنة بسطت الوقائع المظلمة سلطانها على الأمة الإسلامية في شخص خالد بن الوليد ، وحق الخلافة في بسط سلطانها مستمد من الأمة بوحى الدين والشريعة ، وحق القيادة الظاهرة في بسط سلطانها مستمد من الوقائع في ميادين القتال ، والأمة قد استوتحت دينها وشرعيتها فتمتحت حق السيطرة عليها بسلطان الخلافة الراشدة لعمر بن الخطاب ، وهذا حق لا يتعدد ، فليس من الجائز أن تمنح هذا الحق لغير عمر مادامت يد عمر مبهسولة به في كفاية وغناء ، بيد أن حق الوقائع المظلمة في منح السيطرة للقيادة الناجحة حق يتعدد بعدد الكفائات والاستعداد ، أو هو حق يجب أن يتعدد ، ويأبى التفرد عند الأمم الناهضة ، فالأمة الحية الناهضة تتسع لعشرات الأبطال من الفؤاد ذوى الوقائع الظاهرة ، ولست أزال اتسع لغير خليفة واحد يسوس أمرها بميزان واحد من العدل .

فتح الباب
أمم
الكفايات
وإذا كان خالد بن الوليد قوة باهرة من الكفاية والغناء في باب البطولة والقيادة العسكرية ، فليس من الخير لأمة ناشئة ناهضة أن توكل إلى كفاية رجل وغنايه مهما بلغ من العبقرية ، بل الخير كل الخير أن يفتح الباب لغيره من أهل الكفايات والغناء حتى يكون للأمة رصيد من البطولة تنفق منه عند الحاجة .

وقد يتساءل البحث أليس من الخير للأمة أن تتجمع لها هذه الكفايات في العمل متياسرة لتكون نتائج أعمالها في سواد عظمتها مجتمعة ؟

قلنا نعم ، إذا أمن الاصطدام بين القوى المسيطرة على مقومات الدولة ، والعاملات على تشييد صرح الإسلام ، ولكن الاصطدام وقع بين أعلى قوتين في الدولة ، قوة الخلافة والحكم ممثلة في الطبيعة العمرية ، وقوة القيادة العسكرية ممثلة في الطبيعة الحالدية ، وما من شك في أن هذا الاصطدام بين هاتين القوتين لو مد في حبله لأدى إلى كارثة لا يعلم مدى ما تصيب من كيان الأمة ونظام الدولة إلا الله تعالى ، فسكان من الخير والمصلحة تنحى إحدى الكفايات عن مكانها ليتخرج في ميدانها أفرانها .

وقد بدأ التصادم بين عمر وخالد في خلافة أبي بكر ، لأن عمر - وكان وزير أبي بكر - كان يريد أن يطبق سياسته المستمدة من طبيعته في سلطان أبي بكر ، ولا تقصد - طبعاً - هنا إلى شيء مما تناقلته روايات زائفة محمولا على لسان عمر في قصة مالك ابن نورة ، ولا إلى ما تخيله النوايسون في أقصوصة زواج خالد بامرأة مالك بعد قتله بكفره وإلحاده - وإنما نقصد إلى ما هو ثابت في روايات هي أرجح عندنا ميزانا ، لأنها لا يخرج بالخلاف بين الرجلين العظيمين عن حقيقة الجدیه إلى ضرب من السخف الصبيانى أو عبث الفارغين من أرباب البطالة المترفين ، بل هي روايات ترد الخلاف بينهما إلى خلاف بين طبيعتين قويتين ، وقوتين عظيمتين مما يلائم حياة عمر وحياة خالد في خطوطهما الأصلية الثابتة الخالدة .

قال ابن حجر في الإصابة : وكان سبب عزل عمر خالد ما ذكره الزبير بن بكار قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبي بكر حسابا ، وكان فيه تقدم على أبي بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ؛ أقدم على قتل مالك بن نورة ونكح امرأته ، فذكره ذلك أبو بكر ، وعرض الديعة على متمم بن نورة ، وأمر خالد بطلاق امرأة مالك ، ولم ير أن يعزله ؛ وكان عمر ينسکر هذا وشبهه على خالد .

فالدعي كرهه عمر من خالد هو قسم المال في أهل الغنائم ، دون أن يرفع إلى الخليفة حساباً بما صنع ، وأنه كان يفعل أشياء لا يراها الخليفة ، مثل قتل مالك بن نورة وزواجه بامرأته ، وقد أسلفنا وجه ما صنع أبو بكر في مؤاساة متمم أخى مالك بإعطائه شيئاً من قبيل الترضية ، وتسمية ذلك في عبارات الرواة دية توسعة في اللفظ ، وفي أمر أبي بكر خالد بطلاق امرأة مالك إقرار لصحة هذا الزواج ، وإلا فما معنى الطلاق لو لم يسبقه زواج صحيح ؟ وما معنى إقرار صحة الزواج لو لم يكن قتل مالك في نظر الخليفة - على الأقل - لا تأثم فيه على خالد ؟ وإنما أمر أبو بكر خالد بطلاق امرأة مالك تأديباً وزجراً له على تقدمه في أمور لها منافذ من التأويل .

فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة وأصبح مسئولاً عن كل حركة في الدولة خالد يأبى أن الإسلامية كتب إلى خالد يأمره ألا يتصرف في شيء من المال قل أو أكثر إلا بأمره وإذنه ، تفيد حريته في فرد عليه خالد أمره وجعل حريته عدل منصبه ، وكتب إليه بمثل ما كتب إلى دائرة عمله

أبي بكر : إما أن يدعه وعمله مطلق اليد ، مستقل الرأي ، حر التصرف في دائرة عمله ، وإلا فشأنه وعمله يولى عليه من يشاء ، فأبى عليه عمر ، وقال : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنفذه ، فعزله عن الإمارة العامة ، وجعله أميراً على فرقة أكبر القواد وأمثلة الأمراء وقائد القواد .

وقد عرف الناس ما بين عمر وأبي عبيدة من انسجام كامل في السلوك والأخلاق المكسوبة ، على ما بينهما من اختلاف في الطبع الأصيل ، لأن أبا عبيدة كان من لون الطبيعة الصديقية لنا ورحمة ، ودعة ودماثة ، وهذا الاختلاف كان عوناً على الانسجام في السلوك والأعمال ، فقد كان أبو عبيدة رجل سلم وتسليم ، مالم تنتهك حرمت الله ، لا يبالي الدنيا وسلطانها وزخارفها ، ومن ثم كان عمر شديد الإعجاب به والحب له .

تقدير عمر وفي هذا التصرف من عمر حكمة سياسية عظيمة نعتقد أنه قصد إليها ؛ ذلك أنه لعنبرية خالد أظهر بهذا التصرف الحكيم تقديره الصادق لعنبرية خالد الحربية ، ولا شك أن عمر في منصب الخلافة إنما يعمل لحساب المصلحة العامة التي تستهدف خير الإسلام والمسلمين ، وأظهر خلائق عمر بن الخطاب العملية التي انفرد بها في التاريخ أنه جعل من شخصه وأسرته « وسيلة إيضاح » لتحقيق المصلحة العامة في نصوص الشريعة الإسلامية من وجهة التطبيق العملي .

والمصلحة العامة التي استهدفها عمر هي التي جعلته يقف بعزل خالد عند عزله عن الإمارة العامة ، ويترك له مجال العمل — فيما هو من خصائص عبقريته — متسعاً . لأن الباعث الحلق على العزل هو تجنب اصطدام القوتين الأساسيتين في نظام الدولة بالحد من حرية خالد ، وخاصة في التصرف المالي ، وكان أهم الأعمال عند عمر ، فيكتميه أن يعمل فوقه أمير يرجع إليه ، فالعله بذلك يضمن عدم اندفاعه فيما لا يوافق سياسة الخلافة الجديدة .

وفي استمرار خالد يعمل قائداً تحت لواء أبي عبيدة وإمرته زهاء أربع سنوات بالروح التي كان يعمل بها وهو أمير الأمراء ، فتبلغ عمر عجائبه ومعجزات شجاعته فيثني عليه ويقرظه أبلغ تقرير ، ويمجده أعظم تمجيد ، أوضح دليل وأبلغه على أن عمر

رضى الله عنه ، إنما قصد بتنحية خالد عن الإمارة العامة الحد من طبيعته الفوارة المندفعة ليسجّم معه في سياسته العامة في وقت بدأت تستقر فيه معالم الدولة ، فهي في حاجة إلى أناة مسالمة ، فإن لم تغن أغنت عنها كتائب الأبطال من جند الإسلام .

ولذلك لم تحدث تلك التنحية أثراً في نفوس المسلمين ، ولم يرفع أحداً رأسه بإنكارها والاحتجاج عليها ، لأنهم رأوها عملاً من أعمال الخلافة التي تقصد منها إلى حفظ التوازن بين القوى العاملة في بناء الدولة ، ولم يروا فيها عملاً يقصد إلى الخط من شأن القائد البطل خالد بن الوليد ، ولا إلى حرمان جيوش المسلمين من عبقريته الجياشة المظفرة لأن خالد لا يزال في مكانه من ميدان الجهاد ، وهو إذا كان « رسمياً » قد وضع تحت إمرة أبي عبيدة فإن ذلك لم يغير من مكانه في إدارة دفة الحرب ، فأبو عبيدة يعرف قدره ، فكان لا يخطو إلا برأيه ، وكان عمر نفسه حريصاً على أن يقف أبو عبيدة من خالد موقف التقدير لعبقريته ، فقد أمره أن يحبس خالد عن الرجوع إلى العراق مع جنده الذين وفدوا معه ، لإغاثة جند الشام ، وقال له : « إنه لا غنى بك عنه »

ولم يكتف عمر بذلك ، بل كان يرى أن يلزم خالد أبا عبيدة ، فيكون معه أينما توجه ؛ ذكر أبو جعفر الطبري : أن أبا عبيدة كتب إلى عمر يستشيرهُ أياً بدأ بالهجوم على « فحل » وفيها جموع المنهزمين من الروم ، أم يبدأ بدمشق وقد أمدها هرقل بمدد من أهل حمص ؟ فكتب إليه عمر يقول : « أما بعد فابعدوا بدمشق ، فانهبوا لها ، فإنها حصن الشام ، وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل « فحل » بخيل تكون بإزائهم في تمورهم ؛ فإن فتحها الله عليكم قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على « فحل » فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شرحبيل وعمرا ، وأخلفهما بالأردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته » . فهذا الحرص من عمر بن الخطاب على أن يكون خالد إلى جانب أبي عبيدة يلزمه من بين الأمراء ، وأبو عبيدة هو القائد العام وتحت (م ٢١ — خالد بن الوليد)

لوائه القوة العظمى في جيوش الشام دليل قاطع على سمو المكانة التي يحتلها خالد بن الوليد في تقدير عمر ووزنه .

طبيعة
لاتغالب

بيد أن طبيعة خالد العسكرية لم تسكن إلى روح الهدوء التي ساد بها أبو عبيدة الجيوش الإسلامية ، فقد كثر في عهده الصلح والمسالمة . وقلت عنوة الفتوحات والمغالبه ، فانهز خالد فرصة ولايته على « قنسرين » - وكان فتحها إحدى معجزاته الحربية ، وكانت كلمة عمر التي قرظه بها حين أبلغه أبو عبيدة بشأن خالد في فتحها قدمشت إلى مسامعه ، ورأى فيها شهادة من عمر بفضل أبي بكر في موقفه من خالد « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال » - فعاد إليه طموحه ، وجاشت نفسه بغوارب البطولة ، فخرج هو وعياض بن غنم في سائفة فأوغلوا في دروب الروم ، وغنموا غنائم كثيرة عادوا بها إلى ولايتهم ، فانتجعهم طلاب الجدى ورواد الجود ، فأعطى خالد فأغدق ، وكان ممن غمره خالد بعطاءه الأشعث بن قيس الكندي ، أجازة بعشرة آلاف درهم ، فبلغ أمر هذا العطاء عمر بن الخطاب - وكان لا يخفى عليه شيء من أمر الناس - فأعظمه ورأى فيه مظهرا من طبع خالد الأصيل ، وجنوحا إلى ما كان يكره منه من التقدم وحرية التصرف في المال ، والاندفاع بالمسلمين في الإدراب ، وتبين لعمر أن ما صنع مع خالد من العزل عن القيادة العامة لم يكن حاسما لأمره وعاد الأمر كما بدأ ، فهل من المصاحبة العامة أن يسكت عمر بن الخطاب ، فيتجدد ما كان يخشاه من اصطدام بعدما أقر في الأمة سياسته وأثرب الناس مذهبه في الحسم ، والنزيمه أمراؤه وولاته .

رأى عمر أنه ليس من المصلحة في شيء أن يسكت على تصرف خالد ، وأنه لا بد له من حسم الأمر بصورة قاطعة تقف بخالد موقفا ينأى به عن مباشرة عمل يعرضه للاضطدام بالسياسة العامة في الدولة ، وتسكون زجرا عاما يمشى في الناس فيه يحسبون مثله حسابا .

العزل الثاني أصدر عمر أمره بعزل خالد نهائيا عن العمل في الجيش كله ، ولم يكتف بذلك بل أمر بمحاكمة خالد والتحقيق معه ، واستقدمه إلى المدينة ، وهذا هو العزل الثاني ،

وهو يحمل معه سببه صريحاً ، وتمت المحاكمة والتحقيق ، وقد ناقشنا الشكل الذي قالت الروايات إن المحاكمة جرت عليه ، وهو شكل إن صح فتأويله ما عرف في طبع عمر ، وأغلب الظن أن عمر رأى أن خالداً في قوة رجوليته أقوى على احتمال شدته الزاجرة من غيره ، فضر به للناس مثلاً حتى لا تحدثهم أنفسهم بمخالفة السياسة العامة التي وضعها وسارت عليها الخلافة العمرية لنظام الدولة الإسلامية الناشئة .

وهذا العزل النائي هو الذي تحركت له بعض النفوس بالعطف على خالد والإشفاق اعتذار عمر على جيوش الإسلام ، وقد أبعد عنها قائدها المظفر سيف الله خالد بن الوليد ، وأحس عمر هذه الحركة ، فأراد أن يبين للناس الدوافع التي حملته على هذا التصرف مع خالد ، فكتب إلى الأمصار ما خطب به الناس فقال : « إني لم أعزل خالداً عن سخطه ، ولا خيانه ، ولكن الناس فتنوا به خفت أن يوكالوا إليه ويتولوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولما قال له طلحة بن عبيد الله : مالك عزلت خالداً ؟ قال له : ما عتبت على خالد إلا في المال ؛ وخطب الناس فقال : « إني أعتذر إليكم من عزل خالد بن الوليد ، فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة » .

والتأمل في اعتذار عمر وتصرف خالد في المال ، يرى لخالد وهو في موقفه الحربي أصدق العذر وأقومه ، لأنه قائد يحرص على النصر بكل ما يستطيع من بذل في الأنفس أو المال ، وما قيمة المال إذا كان ثمناً للنصر ؟ وخالد وهو يباشر الحرب يعلم أن فيمن معه من ذوى البأس من لم تسكن له كبير نية في الجهاد ولم تخلص نيته لمحض ثواب الله ، فهذا في حاجة إلى ما يقوى عزيمته ، ، ويشير حماسه من هذا المال ، ولم تشرع الأنفال واختصاص المقاتلين في الجهاد بسلب المقتولين مهما عظم قدره إلا لمثل هؤلاء ، فكان خالد يعطى ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان على هذا الأساس التقييم وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى من غنائم الحرب ذا البأس ، وذا الشرف وذا اللسان ، ولما رجع من حنين ظافراً أعطى الطلقاء من رءوس قریش ، وأعطى أشرف الأعراب من أضراب الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، والعباس بن مرداس وغيرهم مائة ، مائة ، وخمسين ، وخمسين وترك سادة المسلمين من المهاجرين والأنصار .

وكانما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرى أن الإسلام قد استقر وضرب بجرانه فلا حاجة به إلى تألف الناس بالدنيا فليوكل الناس إلى إيمانهم وضأثرهم حتى تؤدي التربية الإسلامية رسالتها وتحدث أثرها في تخريج نماذج للفضيلة في أرقى معانيها .

سياسة عمر
عامة
كانت هذه السياسة هي سياسة عمر مع ولاته وأمرائه عامة لم ينفرد بها خالد بن الوليد ؛ ولكن التاريخ - كما قلنا - أفرد به فصل منه إعظاما له .

وقد ورد أن عمر أشرك المثنى بن حارثة الشيباني مع خالد بن الوليد في سبب واحد لعزلهما ؛ روى ابن عساکر : أن عمر رضى الله عنه كان يقول قبل خلافته : « أما والله لئن صير الله هذا الأمر إلى لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعاين أن الله هو الذي نصر ، ليساها » . وكذلك عزل زياد بن أبيه ، واعتذر بنحو عذره في عزل خالد والمثنى ؛ قال ابن الأثير في أسد الغابة : لما عزل عمر زيادا قال له : يا أمير المؤمنين ! أخبر الناس أنك لم تعزلي لحزاية ؛ فقال عمر : « ما عزلتك لحزاية ، ولكني كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك » . وعزل المغيرة ابن شعبه عن كتابة أبي موسى الأشعري ، فقال له المغيرة : أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « لا عن واحدة منهما ، ولكني كرهت أن أحمل فضل عقلك على العامة » .

وهذا المذهب في تربية الأمم من أحكم المذاهب وأفضلها ، فإن الأمة إذا وكت إلى عبقرية فرد أو أفراد ، وحملها الراعى على فضل عقل بعض أبنائها ماتت فيها جذوة التنافس ، وارتاحت إلى الكسل والتواكل ، وضعفت عن سلسلة العبقرية وفضل العقل ؛ وهذا أمر مشهود محسوس في واقعنا من الحياة حتى أصبح من أكبر عيوب الشرق أن زعماءه وقادة الإصلاح فيه لا يعنون بتدريب من يخلفهم في مراكزهم ، ويركزون جهودهم حول أشخاصهم ، وإن جادت الحياة بأحد من ذوى الاستعداد الفكرى الرفيع من طينة غير طينة الزعماء والقادة تنسك لهم هؤلاء ، وأبوا عليهم تسديدهم وإرشادهم وتشجيعهم ، حتى إذا فقدت الأمة قاداتها تولى أمرها من ليس هناك .

أما أثر هذا الحادث في نفسى الرجلين العظيمين :عمر بن الخطاب و خالد بن الوليد
فكان نفعه من نفحات التربية الإسلامية التى جعلت من رجال الصدر الأول مدرسة
لنخرج نماذج حية للفضائل الإنسانية فى مثلها العليا .
تسمى
العقريات
عن الصنائع

تلقى خالد رضى الله عنه أمر العزل الأول راضياً أحسن ما يكون الرضا ، وسلم
الأمر إلى القائد الجديد أجل ما يكون التسليم ، وعمل تحت إمرته نحواً من أربع
سنوات ، فلم يعرف عنه أنه اختلف عليه مرة واحدة .

ولا ينكر فضل أبى عبيدة وسمو أخلاقه فى تخفيف وقع الحادث على خالد ، فقد
كان لحفاوته به وعرفانه لقدره ، وملازمة صحبته ، والأخذ بمشورته وإعظامه لآرائه
وتقديمه فى الوقائع التى حدثت بعد إمارته الجديدة ، أحسن الأثر فى صفاء قلبه صفاء جعله
يصنع من معجزات العبقريّة والشجاعة ، ويظهر من براعة التفكير والسياسة ما أربى
على عجايبه وهو أمير الأمراء ، وعمله فى فتح دمشق وقنسرين وفحل شاهد صدق على
روحه السامية التى قابل بها حادث العزل ، وكان فى حاله سيف الله خالد بن الوليد .

أما العزل الثانى فقد تلقاه خالد فى رضاء أسيف ، وأسف خالد لم يكن على فائت
من سلطان الدنيا ، ولو كان أسف خالد على عظمة زائلة لكان موضع ذلك الأسف
العزل الأول ، وقد ثبت أن سلوك خالد يوم العزل الأول يقطع بأنه لم يأسف على شيء ،
لأنه يبقائه جندياً يصول فى مجال عبقريته قد بقى له كل شيء يحرص عليه فى هذه الحياة .

وإنما كان أسفه على حرمانه من ميادين الجهاد ، وهى مطارح آماله ومسارح
عبقريته ، ومظاهر طموحه ، فهو رجل حبيب إليه الحرب حباً لم يترك عنده موضعاً
للذة فى سواها ، فهى قرّة عينه ، ومضمار أنسه ، وملهى نفسه ، فمن حقه أن يأسف
وأن يحزن إذ يرى أنه أبعد عنها فلا يشهدّها ولا تشهدّه ، ومن حقه أن يأسف إذ
يرى ثمرات عبقريته وهى يانعة يتعهدّها غيره ، وهو منها بمكان لا يرضيه العباقرّة
من أبطال الجهاد وعشاق الحروب .

يؤمن التاريخ إيماناً لا ريبه فيه أن خالد بن الوليد كان يوم عزله قد بلغ قمة العظمة
التي ليس فوقها إلا مثاله من العباقرّة مكان ، وأنه بلغ من قلوب المسلمين ومحبتهم وتعظيمهم
مكاناً جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلن إلى الناس أنه يخشى عليهم الفتنة به ،
عظمة خالدية

وبلغ من قلوب أعدائه أن كان ينصر عليهم بالرعب منه ، ورجل هذا شأنه كان يستطيع لو قال برأسه هكذا لأشعل نار الثورة في كل مكان يذكر فيه اسمه من أقطار الإسلام والمسلمين ، لكن خالد بن الوليد رجل ملاء الإيمان قلبه ، وامتزجت روح الإسلام بلحمه ودمه ، واستنارت روحه بنور النبوة وهدىها ، فهو منذ آمن بالله ورسوله شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . فكان جندياً من جنود الإسلام أثبت عليه طبيعة الجندي ووجه العميق للإسلام أن يكون سبباً لوقف تياره المندفع بالفتوحات التي كان قطب رحاها ، وقائد قواها وبطل أبطالها .

عزل عمر خالد في المرة الثانية ، واستقدمه إلى المدينة ، فخطب خالد أهل عمله مودعاً ، فكان أقصى ما سمحت به نفسه في إظهار أسفه على هذا العزل الذي فرق بين القائد وجنوده أن قال للناس : « إن أمير المؤمنين استعملني على الشام حتى إذا كانت بثنية^(١) وعسلاً عزلني » فقام إليه رجل فقال : اصبر أيها الأمير ، فإنها الفتنة . فقال خالد : « أما وابن الخطاب حتى فلا » وهذا لون من الإيمان القاهر الغلاب ، لم يرزقه إلا المصطفون من أخصاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : فأية قوة روحية سيطرت على أعصاب خالد في هذا الموقف الخطير ؟ وأي إلهام ألقى على لسان خالد ذلك الرد الهادئ الحكيم ؟

إنها قوة الإيمان ، ووحى الإيمان بعظمة الإسلام الذي يسمو بصاحبه إلى آفاق لا يحسب فيها للأشخاص والأشياء حساب ، أدانق لاتعرف الغل ولا الضيعة ، واسكنها مشارق للإخاء والمحبة والإخلاص ، فالأشخاص فانية . والأشياء زائلة ، والحوادث منقضية ، والإسلام خالد لا يزول .

سكن الناس وهدأت نفوسهم بعد أن سمعوا كلمة خالد في توطيد قواعد الخلافة العمريه ، وعرفوا أن قائدهم المعزول وليس من طراز الرجال الذين يبنون عروش عظامهم من أشلاء الفتن والثورات الهدامة ، وإنما هو طراز في الرجال من أولئك العباقرة الذين

(١) البثنية . الأرض السهلة اللينة . قال في لسان العرب : وقول خالد بن الوليد لما عزله عمر عن الشام حين خطب الناس فقال : لمن عمر استعملني على الشام وهو له مهم ، فلما ألقى الشام بوائيه وصار بثنية وعسلاً عزلني واستعمل غيره : فيه لولان ، قيل البثنية حنطة منسوبة إلى بلد معروفه بالشام ... والآخر أنه أراد البثنية الناعمة من الرملة اللينة . أي سكن وذميت وشوكت ،

خلقوا للبناء والتشديد ، فإن أرادتهم الحياة على هدم ما بنوا تساموا بأنفسهم أن يذللها
الغرور المفتون .

نحمل خالد إلى المدينة فقدمها حتى لقي أمير المؤمنين ، فعاتبه عتاب الأسيف ، فقال
له : « لقد شكوتك إلى المسامين ، وبالله إنك في أمرى غير مجمل يا عمر » فأعته أمير
المؤمنين أحسن إعتاب واكمه ، فقال له : « والله يا خالد إنك على لكرم ، وإنك
إلى حبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً » .

وفي الطبرى : أن خالداً لما قدم على عمر قال عمر متمثلاً :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله صانع

وحسبنا في إخلاص عمر لخالد ومحبه له وتقديره لكفاءته ماورد في حديث الثوري ، مظاهر الحب
وقد قيل لعمر : استخلف ، فقال : ولو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته ، ثم قدمت
على ربي ؛ فقال لي : من استخلفت على أمة محمد ؟ اقلعت : سمعت عبدك وخليفك يقول :
خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين .

ولما بلغ عمر موت خالد قال : « قد ثلم في الإسلام ثلثة لا ترتق ، وليته بقي ما بقي في
الحى حجير ، كان والله سداداً لنحو العدا ، ميمون النقية » وروى ابن عساکر :
أن هشام البختری دخل على عمر في ناس من بنى مخزوم ، وكان هشام شاعراً ، فقال له
عمر : أنشدني ما قلت في خالد ، فلما أنشده قال له : قصرت في الثناء على أبي سليمان
رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لتعرضاً لقلت
الله ثم تمثل بقول بعض الشعراء :

فقل الذي يبقى خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

فما عيش من قد عاش بعدى بنافعي ولاموت من قد مات يوماً بمخلد

رحم الله أبا سليمان ! ما عند الله خير له مما كان فيه ، ولقد مات فقيداً وعاش حميداً ،
ولكن الدهر ليس بمائل (١) .

(١) ليس بمائل : أى ليس بتارك أحداً يخلد في هذه الدنيا ، فهو من الإقالة في المعنى ، مادته :
قاله قايلاً ، قال في اللسان : وحكى اللحياني أن قلته لغة ضعيفة .

هذا موقف عمر من خالد بعد عزله عن العمل في جيوش الإسلام ، وهو موقف غنى عن كل تعليق ، أما موقف خالد من عمر فقد سقنا كثيراً من دلائل شرفه ونبله وإخلاصه ، وحسبنا أن نختتم هذا الفصل بمحدث يرويه ابن عساكر ، وفيه يبسط خالد بن الوليد نفسه حجة عمر بن الخطاب في عزله بأبلغ بيان وأوضح معذرة ، قال : « دخل أبو الدرداء على خالد في مرضه الذي مات منه ، فقال له خالد : يا أبا الدرداء ، لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها ؛ فقال أبو الدرداء : وأنا والله أرى ذلك ، فقال خالد : « قد وجدت عليه في نفسى في أمور لما تدبرتها في مرضى هذا ، وحضرنى من الله حاضر عرفت ان عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، كنت وجدت عليه في نفسى حين بعث إلى من يقاسمى مالى حتى أخذ فرد نعل ، وأخذت فرد نعل ، فرأيت أنه فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد بدرآ ، وكان يغلظ علىّ وكانت غلظته على غيرى نحوآ من غلظته علىّ ، وكنت أدل عليه بقراءة رأيته لا يبالى قريبآ ولا لوم لائم في غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكسر على عنده ، وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت في حرب ومكايده ، وكنت شاهداً وكان غائبآ ، فكنت أعطى على ذلك فخاله ذلك من أمرى » .

فهل رأى الناس احتجاجاً أفضل وأبين من هذا ؟

ولم يكنف خالد بذلك في إخلاصه لعمر ، بل ختم حياته بالوصية إلى عمر فقال : « وقد جعلت وصيقي وتركى وإفاد عهدي إلى عمر بن الخطاب » .

نهاية عبقرى

يستشعر الباحث فى سيرة خالد بن الوليد قوة خفية فى حياة هذا البطل العظيم أرفع فى معناها الدافع من القوى المشهودة فيه كعبقرى من عبادة التاريخ ، فهو رجل عسكرى من الطراز الأول فى العبقرية العسكرية له جميع خصائصها ومزاياها .

فإذا ذكر التاريخ العسكرى بطولة الإسكندر وهانيبال ونابليون مثلاً للنبوغ الحربى المظفر جاء اسم خالد بن الوليد فى السطر الأول من صفحة العبقرية العسكرية على أنه كلمة الإعجاز المنزلة من سماء الأمة العربية لتحدى الطبائع فى أجناس البشرية .

وسيرة خالد بن الوليد كتاب من أسلوب الإسلام ومنطقة فى تربية الرجال ، يجب أن تتعبد الأمة الإسلامية فى شق أقطارها بآياته وسوره فى هذا العصر الذى لا يعرف لتغير القوة معنى فى هذه الحياة .

والتعبد بسير الأبطال ضرب من إعادة الحياة إليهم فى أشباههم من سلالة دمائهم ، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تحيا حياة كريمة فعليها أن تتطهر من دنس الضعف والاستضعاف فى صورته كلها ، ولا سيما تلك الصورة الخبيثة التى تغلف لها فى أغلفة «التسامح» على أسنة العبيد وربائب الاستعباد من المزورين على طبيعة الإسلام وتاريخه فى اللبس الجغرافى الدعى ، ولتدخل بعد هذا التطهر إلى محراب البطولة ، ويدها كتاب « خالد بن الوليد » على طرته قول الله تعالى «فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »

عدل وقوة هما جماع سياسة الإسلام ١١

فى سيرة خالد بن الوليد أمران ؛ أمر ينبع من الطبع العربى كخصيصة على امتياز هذا المجلس من البشر فى ولادة البطولة المقدمة ، ومثل خالد فى هذا مثل غيره من

أبطال التاريخ العربى قبل الإسلام ، وسواء فى ذلك التاريخ الأسطورى فى نحو سيرة « عنتر » العيسى وأضرابه ، والتاريخ الواقعى فى نحو سيرة عمرو بن ود العامرى وأقرانه من فوارس الشجعان .

والأمر الثانى فى سيرة خالد ينبع من طبيعة الإسلام ، وروحه وتربيته ، الإسلام فى نصاعته وقوته كما فهمه أبو بكر الصديق غيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تألبت عليه العرب قاطبة مرتدين عن دين الله ؛ وكما فهمه عمر بن الخطأ عملاً فى حياة الناس الواقعية ، يسود حركاتهم وسكناتهم ، ويدخل معهم فى بيوتهم ، ويصنع لهم صناعات الأمور وكبارها ، فإذا خرجوا به نماذج فى أشخاصهم إلى حياة الناس كانوا به مثلاً بأوضاعهم المختلفة فى شئون الحياة على خلائقه وآدابه التى يريد أن تكون عليها أمتة فى عالمها الواقعى .

لا الإسلام الذى وجهته الفتن العاصفة على مشيئتها أو مشيئة المائتين المقتولين من أحلاسها بعد عهد الخلفاء الراشدين .

ولا الإسلام الذى اتخذ المستبدون أداة إذلال للأمة ، وإفساد لأخلاقها ومسوخ لطبيعتها .

ولا الإسلام الذى ادعاه مفرطحو الرءوس ، عراض الأكام والجيوب ، فجعلوه ذريعة للتزهل الأبله والنفاق الدليل .

فهم خالد الإسلام ذلك الفهم العميق دون تفلسف أو شطح فى التأويل . ولكنهم كانت الفطرة الصافية والطبيعة القوية ، والبطولة الجريئة من أعظم وسائله ، فكان نموذجاً للعبقريّة فريداً فى خصائصه المكسوبة التى وجهته فى وقائعه الإسلامية ، ومن هنا كانت الميزة العظمى لخالد على أقرانه من أبطال التاريخ العربى قبل الإسلام ، فكثير منهم واجه من الوقائع مثل ما واجه خالد ، ولكنهم لم يظفروا بمثل ما ظفر خالد ، وكثير منهم لهم عواقب وعقبات فلم يخلصوا منها بمثل ما خلاص خالد .

وليس من الحق أن يزعم زاعم أن خالد كان أقواهم بنية ، وأصلبهم عوداً ، وأشجعهم جناناً وأجرأهم إقداماً ، فكل ذلك كان لأوثاك منه حفظ لا يقل — إن لم يزد —

عن حظ خالد ، ولأبطال الأساطير تصوير من صنع الخيال .

وإنما امتاز خالد على أقرانه بتقصه روح الإسلام من وجهها القاهر الغلاب منذ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفث في روعه يوم إسلامه وحى البطولة الإسلامية ، فلم يعدل به فيما حربه أحداً من أصحابه ، وهناك آمن خالد بالله ورسوله إيماناً سما به عن الحياة ، فما كان يكثر شيء فيها أو يأسى على فائت منها ، فكان مبدؤه الذي عاش في إسلامه عليه تلك السكامة الخالدة التي ألقى بها إلى جنوده في موقف لا يقفه ولا يقدم عليه إلا خالد بن الوليد في إسلامه : « إن المسلم لا يبنى له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله له » .

وعلى هذا المبدأ ، وبهذه العقيدة كان خالد يخوض وقائع الجهاد مثلاً مضروباً لجنده ، فلم تنكس له راية ، ولا سقط له لواء ، ولا عرف الهزيمة منذ كان قائداً مستقلاً ، وعلى هذا المبدأ وبهذه العقيدة ودع خالد جنده وودع ميادين الجهاد يوم عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن عمله في الجيش كله إلى حيث يحتم كتاب حياته بفصل من الإعجاز لا يوحى به إلهاماً إلا لمن كان على إيمان خالد وثقته في الله تعالى ، وصادق حبه للإسلام .

إيمان يذهب بخالد في التضحية والإيثار مذهبا لم تعرزه الحياة لغيره من الأبطال ، إيمان يسوقه إلى نهاية تنكرها حياته ، وينكرها هو على نفسه ، فهو قد اقتحم وخطر ، وقاتل وقتل ، وإذا به يودع المدينة عائداً إلى حصص - على أرجح الروايات - مرابطاً بها أكثر من أربع سنوات ، ثم يأتيه الموت وهو على فراشه ، فيبكي ؛ إلى وربى إن البطل خالد بن الوليد يبكي ساعة حضرته الوفاة؟ أم تبكي أمها البطل المغوار؟ أتهاب الموت وتحشى الردى؟ وأنت الذى طالما فرس من لقائك الموت ، وأوردت الأبطال موارد الردى؟ لا ، وعبقريته خالد ما يبكي خالد خشية الموت أو خوف الردى ، ولكنه يبكي لأنه يموت بغير السيف في حومة الوغى .

يبكى خالد وهو يقول : « لقد حضرت كذا وكذا زحفاً ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم ، أو طعنه برمح ، وهأنذا أموت على فراشى . حثف أنفى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » ١١

« ولقد طلبت القتل في مظانه ، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى » .
« وما من عمل أرجى عندى بعد لا إله إلا الله من ليلة شديدة الجليد في سرية من
المهاجرين بنها وأنا متترس والسما تنهل على وأنا أنتظر الصبح حق أغير على الكفار ،
فعليكم بالجهاد » .

حياة عريضة ملء سمع الدنيا وبصرها ، ونهاية هادئة هدوء الإيمان إذا استقر في
قلوب الصديقين .

رضوان الله وسلامه على خالد في العبريين .

تم والحمد لله .

« المؤلف »

صاحب إبراهيم عجمي

الفهرس

صفحة	
٣ — ٥	المقدمة
٧ — ١٢	تمهيد

الفصل الأول

خالد قبل إسلامه

من ص ١٥ إلى ص ٢٨

١٥	مطالع الحديث عن الشخصيات
١٥	البيئة العامة وأثرها في حياة الأفراد
١٦	موطن خالد
١٦	قبيلة خالد
١٨	بيت خالد وأسرته
١٩	مكانة أبيه في قريش وموقفه من دعوة الإسلام
٢١	إخوة خالد ومن أسلم منهم
٢١	مكانة خالد في الجاهلية وموقفه من الإسلام
٢٢	في غزوتي أحد والحنندق

الفصل الثاني

خالد في طريقه إلى الإسلام

من ص ٣١ إلى ص ٤٥

٣١	مق أسلم خالد ؟
٣٤	كتاب أخيه الوليد إليه وأثره في نفسه
٣٤	رؤيا صادقة

صفحة

٣٥

خروجه إلى رسول الله وإسلامه

٣٥

لقاؤه عثمان بن طلحة وعمرو بن العاص خارجين للإسلام

٣٦

احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم به وثناؤه عليه

٣٦

ألوان من العبر في قصة إسلامه

الفصل الثالث

خالد في الإسلام على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

من ص ٤٧ إلى ص ٦٣

٤٩

مجال العبقریات

٤٩

العرب والعبقرية

٤٩

مكانة خالد في الإسلام

٥٠

روح الإسلام وطبيعة خالد

٥٠

أول وقائع خالد في الإسلام

٥٥

إمارة خالد في غزوة مؤتة

٥٧

اختلاف الروايات في هذه الغزوة

٥٩

نقد وتحقيق

٦١

رأى في الموضوع

الفصل الرابع

فتح مكة

من ص ٦٧ إلى ص ٧٧

٦٧

أمل المسلمين في فتح مكة

٦٧

خروج النبي في أصحابه معتمراً

٦٧

المفاوضة مع قريش ورجوع النبي بأصحابه عن مكة

٦٨

وقفة عمر بن الخطاب في هذا الرجوع

٦٨

نقض قريش العهد

٦٩

ندم قريش وإرسال أبي سفيان ليؤكد العهد

صفحة	
٧١	خبية أبي سفيان في سفارته
٧١	تجهيز رسول الله للفتح
٧٢	تأثير خالد في فتح مكة
٧٣	إسلام أبي سفيان وهيبة المسلمين في قلبه
٧٤	خالد يدافع
٧٥	خالد يحطم العزى

الفصل الخامس

خالد في بني جذيمة

من ص ٨١ إلى ص ٩٦

٨١	خالد في قصة بني جذيمة
٨١	روايات القصة
٨١	الرواية الأولى
٨٢	مناقشة في هذه الرواية
٨٣	رواية أخرى
٨٤	أغرب روايات القصة
٨٥	نقد وتمحيص
٨٩	أمثلة الروايات
٨٩	مناقشة وترجيح
٩٤	رواية وتأويلها
٩٤	استثناس

الفصل السادس

خالد في بموت شتى

من ص ٩٩ إلى ص ١١٤

٩٩	خالد في غزوة حنين
١٠٠	انسحاب لا يحدث البطولة
١٠١	شجاعة النبي وأثرها

صفحة	
١٠٢	خالد في محاصرة ثقيف
١٠٢	بعث خالد للتثبت من بنى المصطلق
١٠٣	سرية خالد إلى أكيدر
١٠٦	بعث خالد لهدم اللات
١٠٨	بعث خالد إلى نجران هادياً ومعاداً
١٠٩	كتاب خالد إلى رسول الله مبشراً
١١٠	كتاب رسول الله بوفد بنى الحارث
١١٠	حنين خالد إلى الجهاد
١١١	رواية أخرى في سرية خالد إلى نجران
١١٢	التوفيق بين الروايتين

الفصل السابع

خالد في حروب الردة

من ص ١١٧ إلى ص ١٣٨

١١٧	حال الناس بعيد وفاة رسول الله
١١٧	شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه
١٢٣	أين رأى خالد ؟
١٢٥	توجيه خالد إلى طليحة الأسدي
١٢٦	وصية أبي بكر لخالد
١٢٦	تنبيهه وتذكيره
١٣٠	خالد وعدى بن حاتم
١٣١	خالد في وجه طليحة
١٣٣	هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام
١٣٤	حملة تأديبية
١٣٨	سياسة حكيمة

الفصل الثامن

أحدوثة مالك بن نويرة : عرض وتحليل

من ص ١٤١ إلى ص ١٥٨

١٤١	قصة غامضة
١٤١	مالك بن نويرة ومسير خالد إليه
١٤٢	حكمة حازمة
١٤٤	غرور وتيه جاهلي
١٤٥	اختلاف الروايات
١٤٥	رواية ملفقة
١٤٧	رواية زائفة
١٤٩	رواية مشهورة ولكنها مريبة
١٤٩	عوامل الريبة في هذه الرواية
١٥٢	رواية مقبولة
١٥٥	موقف أبي قتادة وابن عمر
١٥٦	لاعب الخيال في أقصوصة زواج خالد امرأة مالك
١٥٦	وجه الرأي في هذا الزواج
١٥٧	نتيجة

الفصل التاسع

واقعة اليمامة : بين خالد ومسيلمة

من ص ١٦١ إلى ص ١٨٧

١٦١	هول معركة اليمامة
١٦٦	عسكرية خالد في إدارة المعركة
١٦٦	نبوءة صادقة
١٦٧	ادعاء مسيلمة النبوة
١٦٨	شعوذة وخبث دهي
١٧٠	عصبية عبيد

صفحة	
١٧٠	أول لواء لحرب اليمامة
١٧٠	توجيه خالد إلى حرب مسيلة
١٧٣	مجماعة بن مرارة ومكاته في قومه
١٧٤	بدء المعركة
١٧٥	نجاحات البطولة الإسلامية
١٧٥	حملة صادقة
١٧٦	قتل مسيلة . من قتله ؟
١٧٦	بدء النهاية في المعركة
١٧٧	خدعة بمجماعة
١٧٨	الصلح بين التأيد والمعارضة
١٧٩	كتاب أبي بكر إلى خالد وإمضاء الصلح
١٨٠	غدره لم تتم
١٨٠	رسول خالد إلى أبي بكر
١٨١	هل وفد خالد على أبي بكر بعد اليمامة ؟
١٨٢	زواج خالد بـ بنت بمجماعة
١٨٣	رجولية بطل و بطولة رجل
١٨٤	عتب أبي بكر ودفاع خالد
١٨٥	تحليل وتوضيح

الفصل العاشر

دولة الفرس بعد العرب : فتح العراق

من ص ١٩١ إلى ص ٢٢٠

١٩١	أسس الفتح الإسلامي
١٩١	مقومات الدولة في الإسلام
١٩٢	العراق باب فارس
١٩٢	الإسلام يثير في العرب روح المغالبة
١٩٢	المثنى بن حارثة وفتح العراق

- ١٩٣ أمر أبي بكر خالداً بغزو فارس
- ١٩٣ سياسة خالد في حرب الفرس
- ١٩٤ من خالد بن الوليد إلى طارق بن زياد
- ١٩٥ تلاحق الهزائم بالفرس
- ١٩٥ واقعة « المذار »
- ١٩٦ واقعة « الولجة »
- ١٩٦ نهج خالد في إثارة الحماسة
- ١٩٧ واقعة « أليس »
- ١٩٧ غرور فارسي أجوف
- ١٩٩ واقعة « أمغيشيا »
- ١٩٩ عبقرية خالد في رأى الصديق
- ١٩٩ فتح الحيرة
- ٢٠٠ حيلة ومكيده
- ٢٠٠ عزمة خالدية
- ٢٠٠ محاصرة قصور الحيرة
- ٢٠١ براعة في المفاوضة
- ٢٠٢ تحليل براعة خالدية
- ٢٠٤ عدل فوق الرحمة
- ٢٠٥ عهد خالد لأهل الحيرة
- ٢٠٥ الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية
- ٢٠٧ أقصوصة طريفة
- ٢٠٧ أقصوصة أخرى
- ٢٠٨ غزو فارس في عقر دارهم
- ٢٠٨ تيمن خالد بالمال
- ٢٠٩ واقعة الأنبار

٢٠٩	سياسة ماهرة
٢١٠	واقعة « عين التمر »
٢١٢	فتح دومة الجندل
٢١٣	شهادة خصم
٢١٤	وقائع « خنافس » و « الحصيد »
٢١٥	واقعة « المصيخ »
٢١٦	انتصار خالد بالعرب
٢١٧	مناوشات وتطهير
٢١٧	واقعة « الفراض »
٢٢٠	عزيمة خالدية

الفصل الحادى عشر

دولة الروم بعد الفرس والعرب

من ص ٢٢٣ إلى ص ٢٥٢

٢٢٣	مقدمات غزو الشام
٢٢٣	مشاورة أبى بكر لأهل الراى
٢٢٣	تأثير خالد بن سعيد ثم عزله
٢٢٤	عقد الألوية وطموح عمرو بن العاص
٢٢٥	موقف الصديق والفاروق من طموح عمرو
٢٢٦	لواء يزيد بن أبى سيمان ووصية أبى بكر له
٢٢٧	لواء شرحبيل بن حسنة
٢٢٧	لواء أبى عبيدة بن الجراح
٢٢٨	سرور أبى بكر بكتائب المجاهدين
٢٢٨	فزع الروم ورأى هرقل
٢٢٩	مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم
٢٢٩	بعث خالد بن الوليد أميراً على الأمراء
٢٣٠	كتاب أبى بكر بالإمارة إلى خالد

صفحة	
٢٣١	بين خالد والمثنى
٢٣٢	مغامرة جريئة
٢٣٣	نظرة وعبرة
٢٣٥	بين خالد وأبي عبدة
٢٣٦	أدب رفيع
٢٣٦	جولات في الطريق
٢٣٨	سياسة حكيمة
٢٣٩	زمام الإمارة في يد خالد
٢٤٠	إيمان
٢٤٠	قصة « جرجة »
٢٤٢	هزيمة الروم
٢٤٢	نبل عبقرى
٢٤٣	نظرة عابرة في قصة جرجة
٢٤٢	ترتيب الوقائع الشامية
٢٤٤	طريقة أخرى في ترتيب الوقائع
٢٥٠	نتيجة

الفصل الثانى عشر

عزل خالد : لماذا عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد

من ص ٢٥٥ إلى ص ٢٧٥

٢٥٥	سؤال
٢٥٥	خوالد خالد
٢٥٦	بين الباحث والمؤرخ
٢٥٧	مفاجأة
٢٥٨	إعظام التاريخ عزل خالد
٢٥٨	خالد عدل عمر
٢٥٩	اختلاف الروايات في أسباب العزل

٢٥٩	الرواية الأولى
٢٦٠	نقد وتحليل
٢٦٤	الرواية الثانية
٢٦٥	موازنة وتمحيص
٢٧٠	الرواية الثالثة وبهرجتها
٢٧٠	» الرابعة وتزييفها
٢٧١	» الخامسة وتقدها
٢٧٣	رواية راجحة

الفصل الثالث عشر

رأى الدكتور هيكل في عزل خالد وبواعثه : عرض وتحليل ونقد

من ص ٢٧٩ إلى ص ٢٩٧

٢٧٩	هيكل وأثر البحث الحديث في الناشئة
٢٧٩	أثر الأفكار الغريبة في فهم الإسلام وتاريخه
٢٨١	إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة
٢٨١	تزيد في التاريخ
٢٨١	نقد وتزييف
٢٨٢	غضب أبي بكر على خالد وسببها
٢٨٣	تعقيب غير موفق
٢٨٣	عجالة نواسية لا تحسب في تحقيق التاريخ
٢٨٤	أبو بكر وعمر بن الخطاب في تصوير الدكتور هيكل
٢٨٦	إلحاح في قصة مالك نويرة
٢٨٧	منطق مدخول
٢٨٨	» الغاية تبرر الوسيلة » سياسة عمرية في نظر هيكل
٢٨٩	أحقاد جاهلية هي التي حركت عمر نحو خالد في نظر الدكتور هيكل
٢٩٠	اضطراب في البحث

صفحة

٢٩٢

هيكلي يقرر أن عمر بن الخطاب تآثر بشعوره الخاص نحو خالد

٢٩٤

عود إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة »

الفصل الرابع عشر

تحرير قصة عزل خالد وتحقيق أسبابه

من ص ٣٠١ إلى ص ٣٢٨

٣٠١

العزل عن الإمارة العامة

٣٠١

بين عمر وأبي عبيدة

٣٠١

بين خالد وأبي عبيدة

٣٠٢

العزل عن الحندية إطلاقاً

٣٠٤

تحرير وضع القصة

٣٠٤

ليس لقصة ابن نورة مدخل في العزل

٣٠٦

تزييف أبطلولة الحقد الجاهلي

٣٠٦

رأى للأستاذ العقاد

٣٠٩

الأسباب الحندية للعزل

٣٠٩

حق الحاكم على ولاته

٣٠٩

سياسة عمر وأبي بكر

٣١٢

ليست الحوادث أكبر من عقولنا

٣١٣

صلاية الطبع عند عمر وخالد

٣١٥

افتراق في السلوك والأعمال

٣١٧

اصطدام بين طبيعتين

٣١٧

وقف الطبيعة الخالدية

٣١٨

حقيقة دوافع العزل

٣١٨

فتح الباب أمام الكفريات

٣١٩

بدء التصادم بين عمر وخالد

٣١٩

خالد يأبى أن تقيد حريته في دائرة عمله

٣٢٠

تقدير عمر لعبقريته خالد

— ٣٤٤ —

صفحة	
٣٢٢	طبيعة لاتغالاب
٣٢٢	العزل الثاني وأثره
٣٢٣	اعتذار عمر
٢٢٤	سياسة عمر عامة
٣٢٥	تسامي العبقریات عن الصغائر
٣٢٥	عظمة خالدية
٣٢٧	مظاهر الحب والتقدير
٣٢٩ - ٣٣٢	نهاية عبقرى

دار القومية العربية للطباعة والنشر
١٦ شارع النهضة (ميدان الجيش)

